AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00848 7146

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

ID:01-b5231

الكتاب الأول من نوعه فى الشرق

Infidelity

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

المشكلة الزوجية

أسبابها وعلاجها

HQ 503 K45x 1968

دراسة مستفيضة تدعم بناء الأسرة ،
وتعبد الطريق إلى السعادة الزوجية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الثمن { ٣٠ مليم باليد
٣٥ مليم بالبريد



القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٤٨

392.8
K536

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
CAIRO

٣٠١,٤٢
ج٣٠٢

31649

الإهداء

إلى شريكة حياتى

فى رحاب عطفك ومحراب حصانتك . وفى ظل حرصك وشديد أمانتك . وفى ميدان حدبك وحنانك ومعاونتك . وفى جنة حبك وغزير عطفك وسخى تضحيتك . وتحت ظلال الاتفاق وخميلة الرضى ، عِشنا وسنعيش إن شاء الله .

فإليك أهدى هذه الثمرة ، فهى منك نفحة ، ولك بعض الجزاء . ؟

شريك حياتك

عبد العزيز خليفه

مقدمة

بسم الله . والحمد لله . والصلاة والسلام على رسول الله . سيدنا محمد الذى جمله الله بالخلق الكريم ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، وبعد .

لم يستكمل الزمن دورته بعد على انقضاء عهد ، عاش فى نهايته شيوخ هذا الزمن . كان الناس فيه يقدرون أنفسهم ، ويحرصون على الفضيلة والدين ، ويتزمتون فى كل ما يتصل بالكرامة والشرف . فأحاطتهم هالة من المهابة ، واكتنفتهم المناعة من الانزلاق ، واحتوتهم الحصانة من اعتداء الغير . فعاشوا هانئين مطمئنين قانعين . متآلفين مرتبطين متحابين .

وتغير الزمن ؛ وجاء هذا العصر الذى تغلغلت فى جوانبه المدنية . وطغت على رؤوس فروع الحياة فيه كلمة (أنا) . فتطرق الفساد إلى رحاب الأخلاق ، واستبيحت حرماتها . وفسدت صروح الثقة بين الناس ، فانهارت عمدها ، ومادت قوائمها . وصار الناس بعضهم لبعض بين حاسد وحاقد ومتوجس ، وطامع وغادر ومتربص . لا فرق فى ذلك بين من ينضوون تحت ألوية الصداقة المدعاة ، أو بين من تجمعهم أواصر زمالة مزعومة ، أو بين من تربطهم وشيجة القربى . فتقطعت الوسائل بين الناس ، ونفر بعضهم من بعض . وأصبحت فضائل الرحمة ، والتعاون ، والصداقة ، والاحترام ، والرجولة ، والشهامة ، والغيرة ، والدين ، كلمات من غير صدى فى النفوس .

فى هذا العصر ، تسرب الهوان إلى الروابط الزوجية ، وامحت من النفوس هيبة الأسرة وتعرت من قدسيتها . مع أنها دعامة الوطن ، ووحدة من وحدات الأمة .

هذه الأسرة التى تبدأ أولا من لبنتين . كل منهما من عائلة . تجمعهما الرغبة المشتركة فى بناء المستقبل ، وتعقد بينهما الشريعة السمحاء ، وتربطهما برباطة الزوجية المقدس . ليعيشا متضامنين متساندين ، عيشة واحدة ، تحت سقف واحد . ويسيرا على نهج متفق إلى هدف واحد ، يحتملان حلو الحياة ومرها ، بل ومتسابقين فى احتمال النصيب المر .

هذه الأسرة التى تنمو وتزيد بالتناسل ، هى معمل العلماء والفنانين ، والموظفين ورجال القضاء والسياسة والشرطة ، وسواعد الوطن وحماته . ومنها ومن أفرادها تتكون الأمة ، ويكون الوطن .

هذه الأسرة قد استهين بها الآن وصارت إلى هوان .

لقد اطرحنا وراءنا أسمى ما يعتز به الشرق العربى المسلم . وتركنا العمل بتقاليدنا ، وتهاونا فى الأخذ بتعاليم الدين الإسلامى وآدابه . وتحولنا شيئا فشيئا نحو الزائف المصطنع من المدنية الغربية ، وانغمسنا فى التطبع بطباع غيرنا ، مع الاختلاف البين بيننا فى النشأة والقومية والاجتماع والدين . وكدنا ننسى أصل طبعنا . فبردت فينا حرارة الشرق وشهامة الرجولة ، ووهنت فينا قوى العنصرية وتخاذلنا فى التمسك بالقومية ، واندفع الفرد فى أنانيته ، وانحلت الأسرة التى افترض فيها التماسك واستمرار الارتباط . ثم تضخمت مشاكلها ، حتى صارت كداء تعز مداواته على الأطباء . وإليك إحصاء عاماً عن ست سنوات يبينُ لك منه ما يسترعى شديد الاهتمام .

كَشْفٌ رَقمىّ

بيان الروابط الزوجية التى عقدت فى مدة ست سنوات ومقدار ما آلت إليه من طلاق أو شقاق

السنة	عدد عقود الزواج	عدد عقود الطلاق	عدد القضايا الأولى بين الأزواج
١٩٣٧ — ١٩٣٨	١٩٨٩٢٤	٥٧٠٠٤	١٣٧٩٩٣
١٩٣٨ — ١٩٣٩	١٨١٩٥٥	٥٦٢٤٨	١٣٧١٤٠
١٩٣٩ — ١٩٤٠	١٦٨٤٧٩	٥٣٧٥٤	١٣٤٥٠٦
١٩٤٠ — ١٩٤١	١٧١٠٠٤	٥٣٨٨٤	١٣٠٦٥٢
١٩٤١ — ١٩٤٢	٢٠٣٠٢٢	٥٨٠٤٨	١٣٥٨٩٨
١٩٤٢ — ١٩٤٣	٢٤٩٧٧٣	٧٩١٤٢	١٦٢٦١٥
	١١٧٣١٥٧	٣٥٨٠٨٠	٨٣٨٨٠٤

النتيجـــــــــــــة

عـــدد

١١٧٣١٥٧ عدد ما جرى من بناء الارتباطات الزوجية .

تـــنزيـــل

عـــدد

٣٥٨٠٨٠ عدد الارتباطات التى انحلت بالطلاق فى هذه المدة

٨٣٨٨٠٤ عدد الخصومات الرسمية بين المرتبطين (المتخاصمين)

١١٩٦٨٨٤

٢٣٧٢٧ زيادة المتخاصمين على المرتبطين فى هذه المدة

ويستخلص من هذا الإحصاء النتائج الآتية : —

أولا : أن عدد الأسر التى انحلت بالطلاق تبلغ نسبتها لعدد عقود الزواج أكثر من ٣٠٪

ثانيا : باستنزال عدد عقود الطلاق من عدد عقود الزواج يكون الباقى ٨١٥٠٧٧ أسرة .

ثالثا : بمقارنة هذا العدد الباقى بعدد الخصومات التى قامت كل خصومة منها بين أسرة يتبين أنه يقل بمقدار ٢٣٧٢٧ أسرة .

رابعا : أن ما يقابل ٣٠٪ يفترقون بالطلاق وما يقابل ٧٠٪ يفترقون بالشقاق الرسمى أمام المحاكم ، وذلك عدا من لم يتقدموا إلى المحاكم وهم كثيرون .

خامسا : إن هذه الزيادة فى عدد الأسر المتخاصمة يؤخذ من المجاميع الأولى قبل هذه المدة ، ومعنى ذلك أن جميع الروابط التى تعقد يقابلها ٣٠٪ منها طلاق و ٧٠٪ منها شقاق زائدا ٠٢٪ من مثل هذا العدد من الأسر التى ارتبطت قبل ذلك رسميا . وإن هـذه النتيجة الخطيرة تشعر بما سيكون عليه مستقبل الأسرة من ظلام .

إن مشاكل الأسرة لها من الأهمية ما يفوق جميع المشكلات . وقد تهون كل آثار مشكلات المجتمع ، إلا مشاكل الأسرة . فإن التهاون فيها يهوى بمكانة الأمة ، ويُعرِّى الوطن من أردية الاحترام .

لقد أخرج المؤلفون والكتاب آلافا عديدة من الكتب . ومما يؤسف له أن أحدا من هؤلاء ، لم يجشم نفسه متاعب البحث والتقصى ، ويعنى بدراسة هذه المشكلة الخطيرة ، مع أنها تفوق فى أهميتها لبناء الفرد والأسرة والمجتمع جميع الدراسات ، التى تؤلف لها اللجان ويصرف عليها ما لا يحصى من الأموال . وإن نظرة عابرة إلى البيت المصرى ، وإلى المجتمع المصرى ، تعطى ألف دليل ودليل على مبلغ ما تردت فيه الأسرة من هوان .

ولقد سودت مقالات ، وحبرت صفحات من الجرائد والمجلات ، تناول فيها أصحابها من بعيد ، حالات فردية . فعرضوها عرضا قصصيا لا دراسيا ، وانحازوا بالرواية إلى الغرض ، وتنكبوا طريق العدالة . فهيأوا للبعض حكما خاطئا ، فزادوا الطين بلة ، والمشكلة تعقيدا ، وتهيب الناس الأسرة واسم الأسرة ، وتخوفوا من الزواج ، ونفروا منه نفور السليم من الأجرب الذى يعاف . وكان لذلك أثره الخطير على المجتمع . إذ كسدت سوق الارتباط الزوجى ، ولحق البوار بآلاف العذارى والسيدات ، وازدادت تبعا لذلك مسئولية الآباء والأولياء فى الحياة .

حالة خطيرة . تمس كيان الأمة ، ومكانة الوطن . وتستثير الغيرة على الدين . وواجب الجميع ، العمل على حماية الكرامة المهدرة والذود عن محراب الشرف العام .

وإنى وإن كنت من أولئك المغمورين الذين لا يزدهيهم بريق الشهرة ، أو يجذبهم بهرج الظهور ، — انزواء ونفورا ، لا عجزا وقصورا ، — إلا أننى كشرقى عربى ، ومسلم مصرى ، لا أقعد عن واجبى العام فى هذه الناحية . خصوصا وقد تجمعت بين يدى خيوط المشكلة ، وتعرفت أسبابها ، وعرفت بالتالى علاجها بعد أن قطعت فى دراستها وبحثها خمسا وعشرين سنة أو تزيد .

ولست مفاخرا إذا نوهت بما بذلت من المتاعب والجهود فى سبيل هذه الدراسة ، التى جعلتها رسالتى فى الحياة ، أو حينما أعدد المصادر التى أخذت عنها ما أريد .

فقد قضيت سنوات عديدة أتردد على جميع المحاكم الشرعية ، من جزئية واستئنافية . أحضر الجلسات ، لاستماع الادعاءات ، وأطلع على الملفات والسجلات .

ثم مكاتب حضرات المحامين الوكلاء ، زرتها مئات المرات ، واستمعت إلى دفاعها عن الموكلين من أزواج وزوجات .

ثم بيوت المتقاضين ، اضطررت فى سبيل استيفاء معلوماتى عن قضاياهم ، إلى زيارتها ، والتحدث إلى أصحابها والوقوف على ما اضطر كلا منهم إلى الدخول فى المخاصمات .

نعم . فعلت كل ذلك وما يقتضيه ذلك من جهود أدبية وجسمية ، فى سبيل تبيان المخفى ، وكشف المعمى ، ووضع يدى على نقط النزاع . حتى استكملت بحثى ، وتجمع لدى كل سبب جل أو هان ، من أسباب هذه المشكلة الضخمة الخطيرة .

وعندما أخذت فى ترتيبها وتبويبها ، تبين لى من هـذه الدراسة ، أن المشكلة تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول — تجتمع فيه أسباب المشاكل التى يقع فيها راغبو الزواج ، عندما يتجهون إلى إبرامه اتجاها خاطئا .

الثانى — تجتمع فيه أسباب المشاكل التى يقع فيهـا المتزوجون فعلا ، ابتداء من عقد الارتباط .

الثالث — تجتمع فيه الأسباب التى تذرع بها المدبرون للزواج ، وما يترتب على هذا الإعراض من أخطار على المجتمع

ومن الاطلاع على ما تضمنته الأقسام الثلاثة ، سيجد كل شاب وكل رجل ، وكل فتاة ، وكل سيدة ، ما يختص بموقفه أو بمشكلته : ويعرف السبب الذى بنيت عليه ، والدواء لمعالجتها .

ولا يفوتنى حينما أتقدم بهذه الدراسة للمشكلات الزوجية أن أعتذر مقدما لحضرات المطلعين عن :

١ — سردى للوقائع عارية من زخرف القول ، تخوفا من تخفيف مرارة الحقيقة ، أوإعطاء الوقائع شأنا حينما تكون على هوان .

٢ — إدراج بعض الأسباب النادرة . وقد ذكرتها بدافع أمانة البحث حتى لا يقال إن هذه الدراسة ينقصها بعض الأسباب .

٣ — قلة الأمثلة والاكتفاء ببعضها كى لا أطيل على القراء .

وبعد فإذا أفاد الناس بهذا البحث ، فطوبى لى بهذا جزاء . وإلا فقد أردت الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله . ؟

القسم الأول

الاتجاه الخاطئ إلى الزواج وأنواعه

كل أمل يحتاج إلى تفكير فى وسائل الحصول عليه . وكل هدف يتطلب طريقاً للوصول إليه . وليس بين الناس من لا يهدف فى حياته إلى أمنيات خاصة ، إلا إذا كان قد فقد أهليته ، وقضى عليه بأن يسلب حقوق الإنسان .

وكما أن الناس فى أمانيهم مختلفون ، لاختلاف منازعهم وبيئاتهم وتفاوت مداركهم ، فإنهم مختلفون كذلك فى اختيار الطرق التى يسلكونها إليها .

وإذا كانت الأمنيات على اختلاف أنواعها تلتقى فى دائرة معروفة ، وتتجمع فى نقطة واحدة ، هى طمأنينة النفس والتمتع بما تصبو إليه فى الحياة ، فإن على رأس هذه الأمنيات جميعاً ، سيدة الأمنيات ، وأم الهناءات ، وتاج الآمال ، هذه الأمنية الكبرى تستوجب من أصحابها أن يحسبوا لها ألف حساب ، ويتدبروا فى خير السبل للوصول إليها خير تدبير .

هذه الأمنية الكبرى ، هى السعادة الزوجية وما تحتويه من راحة وطمأنينة ، وهدوء وهناء ، وسلام ورخاء . وقد ثبت أن من تدبر وتفكر ، اتخذ إليها خير السبل ، ووصل منها إلى ما يبتغيه . ومن نأى بجانبه ، وتنكب الطريق ، حاد عن الهدف ، وباء بالمشاكل والخسران والفشل .

ولقد رأينا الكثيرين ممن يهدفون إلى هذه السعادة يخطئون طريقها . فيسلكون طرقاً ملتوية تتفق وأهواءهم الشخصية ، وعند ما ينقلب عليهم الأمل ، ويباعد بينهم وبين ما يشتهون ، لا يعرفون مصدر الحرمان ولا مكان التبعة . كما رأينا بعضاً من هؤلاء تنحرف بهم أهواؤهم ، حتى تدفعهم إلى تسخير الروابط الزوجية ، واتخاذها وسيلة ، وهؤلاء وأولئك ينحدرون إلى قاع واحد ، هو الشقاء والخسران .

فما هى هذه الطرق الملتوية ؟ وما هى الأسباب التى تحيد بأصحابها عن الوصول إلى ما يأملون ؟

إن الجواب على ذلك ، هو ما سنفصله لك فى هذا القسم ، مبتدئين من الألف ، حتى لا تكون ثغرة ينفذ منها ما يتطلب الاستدراك ، حينما يعز الاستدراك .

خيال أكثرية الشباب

عند ما تنضج عناصر الحيوية فى أكثرية الشباب ، وتكتمل ذاتيته ، تتحرك فيه رغبة السعى إلى استكمال ما أشعرته به الطبيعة من نقص . وينتهى الأمر به إلى التفكير فى إنشاء الرابطة الزوجية .

وللشاب فى هذه السن فورة جسمية ، وحمية قوية ، ودم حارّ فتىّ ، يدفع به إلى التحليق

فى جو فسيح من الخيال ، حسبما يهيؤه له اطلاعه على القصص ، وما يراه فى دور السينما من وقائع وروايات .

وإن الذى يستولى على الشباب فى هذه السن ويغمر تفكيره ، نوع من التهور ، يسميه هو طموحاً ، ويسميه العقل غروراً وجموحاً . هذا الغرور يكبر ويصغر عند صاحبه تبعاً لعناصر تغذيته والمحيط الذى يحيا فيه .

وإذا كان الغرور هو الزهو الجاهل ، أو الادعاء الكاذب . أو هو عدم معرفة الإنسان لحقيقة نفسه ، أو محاولته التستر على ما فيه من نقص ، فإن ذلك كله لا يعدو أن يكون نقيصة خلقية ، لها من النتائج الخطيرة ما يجر على صاحبها عدم الاعتبار ، ويغرقه فى بحر من التحقير والازدراء .

وليس الغرور بقاصر على الشباب . بل يعدوه إلى كثير من الشيوخ والكهول ، الذين لم ينصهروا فى بوتقة التجاريب الزمنية ، فخلو جعبات تفكيرهم من جوهر المعرفة ، أو عظات الحوادث ، يلجأون إليه بدافع الاضطرار إلى الاحتفاظ بما يضفيه عليهم مظهر السن . وهذا الصنف من الناس ليسوا بمعنيين بما نريده ، لأنهم جماعة فاتهم ركب الحياة ، وانحدروا إلى عتبة الآخرة ، وما عندهم من غرور لا يلحق ضرراً بالآخرين ، إذ هو لا يعدو الاختلاق على ما فات .

لكن غرور الشباب هو المعنى . لأنه أوسع أفقاً وأفسح مجالا ، وأبعد مدى ونطاقاً ، ولأن مكان الشباب عتبة الحياة . وهو غرور ينتج ضرر الغير ويلحق بصاحبه فى مستقبل الحياة أنواعاً مختلفة من المحن والشقاء .

ولئن جاز للمغرور المزهو أن يحشر أنفه فى كل ما يرى ، ويقحم نفسه فى كل مجلس ، ويدعى المعرفة فى كل فن وعلم ، فلا يجوز له أن يكابر فى قدرة نفسه على الارتباط بزوجة بناء على هذا الزهو .

لأن المغرور يدفعه غروره إلى الادعاء بالباطل فى مجلس سينفض اجتماعه ، ويذهب كل من المجتمعين إلى أهله . والناس درجوا على التغاضى عن كذب من يعرفون كذبه مجاملة . وهو فى مثل هذه المجالس ، قد أمن المجادلة والمجالدة .

لكنه حينما يرتبط بالزواج ، لا يقدر على الفرار من تبعات كشف نفسه ، والوقوف على قدره الحقيقى . فلم لا يرعى ذلك ويعرفه ؟ لا شىء ، إلا أنه الغباء الذى يبنى عليه الغرور .

وغرور الشبان الذى يملأهم حينما يقدمون على هذه الحالة ، يكاد يكون متناقضاً أو عجباً . لأنك إذا سألت واحداً من هؤلاء عن الفتاة التى يريدها زوجة ، وصف لك الشروط التى يجب توافرها بما يأتى :

يريد المغرور أن تكون زوجته مليحة القد ، نجلاء العينين ، موردة الوجنتين ،

مقوسة الحاجبين ، وردية الشفتين ، أسيلة الخدين ، ناعسة الطرفين ، لا هى بالطويلة ، ولا بالقصيرة . ولا هى بالمليئة ولا بالنحيفة . متعلمة مثقفة . تعزف بإحدى الآلات الموسيقية ، وترنم بصوت رخيم . ترود المجتمعات ، وتعرف المراقص ، وتجيد المحادثات .

أبوها يجب أن يكون صاحب عزة ، وحبذا لو كان صاحب سعادة . لها من المال ما يساعد على الاحتفاظ بالمظهر ، ومن الحسب ما يفتح أمامه سبل الحياة .

ثم يريدها مع ذلك زوجة تخضع لسلطانه ، وتخنع لأوامره . تقابله بالبشر إذا حضر ، وتسرّى بعذب حديثها ملاله ، إذا هلت عليها طلعته ، أو احتوتها جلسته .

ثم يريدها عفيفة شريفة ، دائبة على ترتيب البيت وتنظيمه . لا تسأله أين يمضى سهرته إذا تأخر ، ولا تجادله فى شىء قطع فيه أمره .. الخ

فإذا قلت له : من أنت ، وماذا تملك ؟ قال لك : يكفى أن أكون على هذه الفتوة والشباب ، وهى ثروة تجذب إلىّ عظيمات الفتيات والسيدات .

فهل تعتقد — إذا سمعت ذلك من مثل هذا الشاب المغرور — أن له من جوهر العقل أو التقدير لنفسه ولوذرات ، أنه سيصل إلى ما يريد ؟ طبعا لا . وإذن ، فيكون الغرور الذى يدفع الشاب إلى طلب مثل هذه المعجزات سبباً فى تأخره عن الارتباط الزوجى .

والفتاة يداخلها الغرور أيضاً كما يداخل الشاب . وعند ما يتجه تفكيرها إلى زوج المستقبل ، تتخيله كعود القنا طولا ، جميل الوجه ، مفتول العضل ، له فى الهيئة الاجتماعية مركز خطير ، وفى يده تتجمع ثروة مادية غير محدودة ، صاحب قصر منيف ، أو دار مستقلة ، أو مسكن فخم فى عمارة بالأحياء الراقية . ويجب أن تكون له سيارة ، وسيارة فخمة ، كما يكون له من الخدم والحشم ما يكفى لتلبية الاشارة ، لا يساكن والديه ، ولا يزار من عائلته . يملكها زمامه ، ويمكنها من التصرف المطلق فى شؤونه .. الخ

فإذا سألتها : ومن أنت ؟ وماذا فى يدك ، وما هى ثقافتك ؟ أجابت فى استهتار : أنا شابة فتية جميلة وقد خلقت مدخرة لمثل هذا النعيم ، ولا يوجد عند هؤلاء الكبار مثلى جمالا ! !

فهل هذه السذاجة أو هذا الغباء ، أو الخيال الكاذب ، يمكنها من أن تدخل مثل هذه الأوساط المذكورة ، وهى غير مسلحة بسلاح الحسب ، أو الجاه ، أو الثقافة ؟ . كلا .

وإذا كان الشاب الذى غرته الجنيهات الستة أو الثمانية ، يدفعه زهوه إلى أن يكون زوجا لفتاة أو سيدة تجتمع فيها الأوصاف السالفة ، فما الذى أبقاه لطمع رئيسه الذى يتقاضى الثلاثين ، ورئيس رئيسه الذى يتقاضى الثمانين والمائة ، أو صاحب العزة أو صاحب السعادة ، أو صاحب المعامل والمتاجر ، الذى يدر عليه عمله الشهرى مئات الجنيهات ؟

إن الوصف الذى أراده لا يمكن أن يكون فى سيدة واحدة ، أو فتاة واحدة ، وأنه إذا وجد لا يمكن لمثل الوسط المضاد لوسطها أن يحتويها . لأنها ستكون حورية سماوية قد هوت من الجنة لا على الأرض ، ولكن فيما تحت الأرض ، وهو ما لا يكون .

وإذا كانت الفتاة المزهوة بما منحتها به الطبيعة من بعض الوسامة ، وهى لم تكن غير ابنة عامل أوصانع أو بائع أوموظف صغير ، تطمع كذبا وتذهب وراء خيالها المتسع زهوا وخيلاء — فى أن تكون زوجا لمثل هذا الزوج الموصوف . فمن يكون يا ترى زوج ابنة رئيس أبيها ، أو رئيس رئيسه ، أو ابنة صاحب الضياع والمتاع ، ومن يكن مالكات ووارثات ، أو انحدرن من الأنساب العريقة وكبار العائلات ؟ الحق أن أمثال أولئك المغرورين قد امتلأت نفوسهم خيالا ، فعموا عن النظر إلى أقدارهم ، وما يحيط بهم من مكانة هينة فى الحياة .

ولقد انزلق كثير من الشبان والشابات فى طريق هذا الغرور . وتردى كثير منهم إلى مهاوى الردى طمعا فيما خيل له ، فخسر الجوهر فى الحياه ، ولم ينل أى نصيب مما كان يغريه ، أو يطمع فيه ، أو تسول له نفسه الحصول عليه .

ولئن كان بعض أولئك تصادفه الطفرة فى غفلة عين للحقيقة ، فإن ذلك فضلا عن عدم وجوده إلا نادرا ، فإنه لا يمكن أن يصاحبه التوفيق فى مستقبل الأيام .

(وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع . وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أُبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانو يكفرون) صدق الله العظيم .

إن الغرور الذى يغمر جعبة أمثال هؤلاء الخياليين ، لو أنه حدا بهم إلى تعرف مركب النقص فى أقدارهم الاجتماعية ، فدفعوا بأنفسهم إلى معمعان الحياة ، وخطوا بالاجتهاد خطوات نحو استكمال هذا النقص ، إذن لانقلب موقفهم من وضع الاتهام ، ولأمن الناس ضررهم ، ولحقّت لهم فى الحياة مكانة .

ولكن هؤلاء أبوا إلا أن يكونوا على أنفسهم وعلى غيرهم حربا . فهم المدعون باطلا ، المأخوذون بالبهرج ، الممتنعون فى جرأة عن تعرف الحقيقة .

هؤلاء ضررهم غير قاصر على ذواتهم . لأن اليأس الذى يستحوذ عليهم حينما يعجزون عن نوال المستحيل ، يجعلهم عزابا مدى الحياة . وكلنا يعرف ما يجترؤه الأعزب من أخطار أدبية أو مادية على نفسه ، وعلى غيره ، وعلى وطنه . وبالتالى يلد هذا اليأس بوارا فى سوق الارتباط الزوجى . وقد امتلأت فعلا آلاف البيوت فى الوطن العزيز بآلاف العذارى والسيدات الخاليات من الأزواج .

التغرير، والاغراء

التغرير هو حبك الحيل ونصب الفخاخ لغرض معين . والإغراء هو تحسين القبيح أو تزيين الذميم ، أو استدراج الآخر إلى ناحية معينة ، لغرض معين .

وليس التغرير والاغراء بمحدودى المادة والنوع ، ولكنهما يختلفان باختلاف أغراضهما ، ويتعددان بتعدد أهدافهما ، ويتنوعان بتنوع الأفكار التى تدبرهما .

فالبائع من أجل كسبه يغرر بالمشترى فى الثمن والنوع .

والمقاول يغرر بالمتعهد معه فى الخامات والمصاريف .

وناظر الوقف والوصى على القاصر ، والقيم على المحجور عليه ، والوكيل فى الزراعة وأمثالهم ، يغررون فيما يثبتون من مصاريف وإيراد .

والصانع يغرر فيما يقدمه من خامات . الخ

وليس يعنينا البحث فى أنواع التغرير ومايقوم به الناس الذين يستعملونه كوسيلة لأمانيهم .

إنما الذى يعنينا هو نوع واحد من التغرير ، يستعمله أولئك الذين يدخلونه فى الروابط الزوجية كوسيلة للوصول اليها . ومع ذلك فهو يتعدد أيضاً بتعدد الأفكار التى تنتجه . ولكنه على أعم حالاته ، يكون تغريراً فى نوع معين .

وللوقوف على تفصيله من ناحية الإحاطة به ، يتعين علينا معرفة مايأتى :

١ — هل التغرير صفة قديمة أو حديثة ؟

٢ — من أى صنف يكون المغرورون ؟

٣ — لم يلجأ إليه الناس فى روابطهم الزوجية ؟

٤ — الحيل الشهيرة فى هذا الباب .

عن الأول

ثبت قطعاً أن التغرير والإغراء صفة قديمة ترجع إلى ما قبل التاريخ المتداول . وهى تبتدئ من عهد وجود أبينا آدم وأمنا حواء . فقد نهاهما ربهما عن الأكل من شجرة ، قال العلماء إن القول الراجح فيها إنها شجرة القمح ، فغرر بهما إبليس فأكلا منها فعوقبا على الوقوع فى شراك إبليس وحيلته ، بالخروج من الجنة . وقد ورد فى القرآن الكريم تفصيل ذلك غير مرة ، ومنه قوله جل شأنه : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث

شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه . وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو . ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » .

ويظهر أن هذا التغرير الذى وقع على والدَىِ العالم مضافاً إليه ما قاله إبليس لرب العالمين « رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين » قد تسلسل فى النسل ، وانتقل إلى الذرية . فأصبح فيها خلقاً شائعاً فى الذين تمكن أو يتمكن منهم إبليس فى مستقبل الزمن ، حتى قيام الساعة .

فالتغرير والأغواء صفة عامة فى النفوس بناء على ذلك ، وهو قديم يرجع إلى أول عهد الدنيا بالسكنى .

عن الثانى :

أما عن بيان صنف الناس الذين يغررون بالغير ، فيمكننا على ضوء ما ورد فى القرآن وما ثبت من وقائعه أن نقول : إن الناس ينقسمون من حيث الأخلاق إلى قسمين ، أحدهما صالح ، والآخر طالح . أو طيب وفاسد . فالأولون أناس لصلاحهم وطيبتهم واستقامتهم ، يقنعون بما أعطوا . ويرتضون بما كان لهم فى الحياة من نصيب . لا يطمعون فيما فى أيدى غيرهم ، ولا يكذبون على أنفسهم ولا على غيرهم .

هؤلاء ليس للنفس الأمارة بالسوء ، ولا لزينة الشيطان التى يعرضها ، سلطان عليهم ، مهما حسن لهم . وهم أيضا ليسوا بداخلين فى دائرة الإغواء ولا التغرير .

أما الآخرون الذين اعوجت أخلاقهم ، وفسدت طباعهم ، وانحازوا إلى ناحية الطمع والجشع ، فهؤلاء هم الذين جعلوا تحت سيطرة أنفسهم . والشيطان يزين لهم فيقبلون ، ويوسوس لهم فيعملون . وليست الغواية أو الوسوسة إلا الفكرة التى تقوم لدى أحدهم ، فيحبكها ويلمها وينصبها شباكا ليوقع فيها فريسته المعينة ، ويصل بها إلى غرضه المعين ، وهذا هو عين الإغراء والتغرير .

وباب التغرير يلجأ إليه صاحبه للإفادة من شىء يكون لدى الغير ، ولا يتمكن من الوصول إليه بطريق طبيعى . لأنه يشعر فى نفسه بالنقص المادى ، أو الاجتماعى أو الأدبى ، عن تملك هذا الشىء . فيستعمل الحيل والخداع . وهذا الإنسان لا بد أن يكون من النوع الشاذ فى ذكائه وتفكيره . لأن ما ينتجه فكره من حيلة . يقع فيها قطعا الأعلون عليه مكانة ، وعلما ، وثراء . لأنهم هم الذين يمتلكون ما حيكت من أجله الحيل ، ونصبت فى سبيل الوصول إليه الشباك ، ثم وقعوا فى الشراك .

عن الثالث :

وإذا كان التغرير والإغواء سبيلهم إلى الوصول إلى أغراض مختلفة ، فلم يكون من بينها الارتباط الزوجى ، وهو المفروض فيه أن يستمر ويطول ، وأن الاستمرار من موجبات كشف الحيل والوقوف على الحقائق ؟

ذلك ما نعيبه على أصحابه ونحاربهم فيه ، وذلك هو ما نعنيه من هذا البحث الشاق الطويل .

إن بعض الناس يحلو لهم النظر فيما هو فوقهم . تبهرهم أنواره ، وتزدهيهم مظاهره . فيرون فى أنفسهم دوافع داخلية إلى الوصول إلى محط النظر ، بغير ارتقاء أو وسيلة مشروعة ، فيفكرون ويفكرون . ويعمدون فى هذا التفكير إلى الوصول من أقرب طريق شبه مشروع ، وهو طريق الارتباط الزوجى . فيلبسون أجسامهم ثيابا فضفاضة ، ويغدقون على أنفسهم ألقابا مختلسة ، ويستعملون الرشوة لشراء النفوس الصغيرة التى تساعدهم على إتمام حيلتهم ، ويصطنعون لذواتهم هالة . ربما عز على ذوى الفكر العادى تحقق ما تحتويه من ضوء يبهر الأنظار ، أو منظر خلاب يجذب الأبصار .

هؤلاء الناس . لهم مآس ولهم حيل ، ولهم طرائق تقصر عنها الإحاطة ويعجز عن حصرها أكبر المجلدات . لأن لكل راغب فكره ، ولكل فكر مادة يعمل بها ، وقد تنوعت الأفكار وتعددت الأدمغة ، ولكنها تلتقى كلها عند هدف واحد . هو تملك ما ليس لهم فيه حق .

عن الرابع :

وليس التغرير بمقصور على الرجل فى هذا الموضوع ، بل تلجأ إليه المرأة أيضا ، ويلجأ إليه والد المرأة ووالدتها أو القائمون بأمرها .

فكثيرا ما سمعنا بأن فلانا قد خطب آنسة وعقد عليها ، فوجدها حين الدخول واحدة أخرى . ولكن الأشهر والأبين والأظهر ، هو تغرير الرجل . وهو ما نأتى بحادثة للتدليل عليه .

كان أحد الشبان يعمل فى أحد محلات الحلاقة ، لا يزيد أجره وكسبه اليومى على بضعة قروش . وأتته فرصة فربح فى ورقة يانصيب مبلغ ثمانين جنيها مصريا . ولم يسبق للشاب عهد بملكية مثل هذا المبلغ ، ولكنه تعود الصرف ، وعرف من رواد المحال التى يعمل فيها كيف يكون الصرف ، ومن هم القادرون عليه .

لم يتجه نظر الشاب إلى عمل محل خاص به ، ليكوّن نفسه ويؤسس به مستقبله ، ولكنه

عمد إلى استغلاله فى زواج كبير ، يعوض عليه ما فقده من القلة المادية ، والقلة الاجتماعية . وترك العمل وأخذ يرتاد الملاهى والمحلات العامة .

وفى يوم زار زميلا له فى أحد أحياء القاهرة ، وفاتحه فى أمر الزواج ، وأخبره بأنه تملك إرثا كبيراً أغناه عن « الصنعة » . وأنه أصبح من ذوى الأملاك ، ورجاه البحث عن من تلائم غناه الواسع ، وتوازى عائلته الكبيرة .

ويظهر أن هذا الزميل كان لا يعرف عن أهل زميله قليلا ولا كثيرا ، بل رآه فجأة يرفل فى حلل بهيجة ، ويبذر على عمال الدكان هبات متوالية ، فصدق الخبر ، وآمن بالقول الذى سمع .

وبحسن نية أخبره أن بالمنزل المجاور لمحله ، وكان منزلا كبيراً — آنسة مات والدها وترك لها ما يملأ يديها من المال ، وما يوفر لها السعادة من العقار ، لها أم فقط ، هى أيضا من الأثرياء ، وهما من عائلة قديمة كبيرة ، وأنه يعرف إحدى الخاطبات ، ومستعد لاستحضارها إليه ليرسلها تستطلع الخبر .

عرف الشاب أنه وصل إلى بداية أمله . فأسرع بوضع ورقة مالية فى يد زميله ، ورجاء استحضار هذه الخاطبة من فوره . وبعد لحظات كان صاحبنا يجالس الخاطبة ، ويحدثها فى موضوعه .

ولقد جرت العادة عند هؤلاء الخاطبات أن يقمن بمواصلة السعى حتى يتم الاتفاق ، ثم يأخذن أجرهن ، ولكن الشاب لم يطلب منها أكثر من التحدث عنه ، وأخذ ميعاد له فقط ، ووهبها مبدئيا أجراً مغريا .

ذهلت الخاطبة لهذه الهبة العاجلة ، واعتقدت أنها وقعت على صيد كبير . وأنها إذا تحدثت فسوف لا تعدو الحقيقة الدالة على الثراء ، والغنى والكرم والقوام وو ... الخ .

قامت الخاطبة بالمهمة ، وقبلت سيدة الدار استقبال الخاطب العتيد ، فى يوم معين وساعة معينة ، وأخبر الشاب بما كان .

وفى اليوم الموعود والساعة المحدودة ، سمع الذين كانوا بالمنزل عجيج سيارة خصوصية فخمة ، وصوت صفيرها يدوى ، وهى مقبلة الهوينا ، ثم رأوها تقف على باب المنزل ، ثم رأوا سائق العربة ينزل ويفتح بابها ويحنى قامته احتراما ، ثم ينزل منها شاب عرف كيف يصلح هندامه ، ويعمل لنفسه « تواليت » كأحسن ما يكون رونقا ، ثم رأوه يهمس فى إذن السائق فيحيي السائق ويذهب ، ثم رأوه يدخل باب المنزل الكبير .

رآه الخدم فانحنوا ، ورأته سيدة البيت فاحترمت استقباله ، ورأته الآنسة حين دخوله فداخلها سرور الأمل فى المستقبل .

حيّا الشاب وجلس ، وتحدث ، وكان قد تعود الحديث ، فملأ بحديثه أذن السيدة ، ثم جالس الآنسة ورآها وتمكن من اجتذاب بسماتها وإقبالها . ثم وصف نفسه بما وصف ، وأفاض على أصله ، وثرائه ، ما أفاض ! ولم تنته الجلسة حتى كان قد اتفق مع السيدة على يوم العقد ، وعلى قيمة المهر .

دخل الشاب وخرج ، وأكل وشرب ، وجالس الآنسة وصاحبها إلى الملاهى والحدائق ، حتى مُكِّن له فى قلبها .

وفى يوم حضر إلى البيت ، وكان فى كل مرة يحضر بالسيارة الخاصة . وطلب مرافقة حماته وخطيبته إلى نزهة خلوية ، اتفق عليها قبل ذلك . فركب الجميع السيارة ، وسارت بهم تنهب الأرض فى طريقها إلى المعادى .

وفى مكان ما أشار إلى السائق فوقف ، ونزل هو ومشى فى طريق زراعى بين المزروعات ، ثم وقف مع بعض فلاحين كانوا يعملون فى الأرض ، ورؤى يتحدث إليهم ويشير بعصاه إلى نواح أمامه ، وعن يمينه وعن شماله ، ثم رجع وركب . ثم أخبر الفتاة وأمها بأن هذه الأرض وما فيها من بيوت بعيدة أشار إليها ، ملكه الموروث له عن أبيه ، وأن هذا بعض ما يملكه فى جهات أخرى سيعرفونها فى المستقبل .

كبر الشاب فى عين خطيبته ، وعين حماته المستقبلة ، واعتقدتا بل لم يساورهما أدنى شك فى علو مكانة الخاطب المتيد .

انقضت المدة المحددة للعقد وحل اليوم المتفق عليه . وكانت السيدة وابنتها قد أعلنتا ذلك طبعا بين الأهل والأقارب ، والجيرة والأصدقاء . واستعدتا بسرور ، لإقامة الولائم والأفراح . وناهيك بحرارة السرور الذى يلهب قلب سيدة غنية لها وحيدة ، جل أملها أن تراها زوجة وسيدة بيت وأم أولاد . وقد رأت من تباشير المستقبل ما يطمئن النفس والقلب . فبذلت ما بذلت وعملت كل ما يخطر على فكر ، لإدخال السرور إلى جميع النفوس .

فى صبيحة ذلك اليوم ، والكل مشغول بتدبير ما وكل إليه . حضر الشاب وطلب إلى حماته أن تخلو به بعض الوقت . وهناك بين الأسف والتذلل المرير ، أخبرها بأن مركزه فى غاية الحروجة ، لأن وكيله كلمه اليوم تليفونيا بعدم تمكنه من جمع المبالغ المطلوبة له ، وأنه سيتأخر أسبوعا يحضر بعده بما طلب . وقد غمز الشاب أثناء تأففه من حرج مركزه ، إلى حل للخروج من هذا المأزق ، بإنهاء الموضوع والإقرار باستلام المهر ، وأنه يكتب على نفسه إقرارا خاصا ثم يسدد بعد الأسبوع جميع المطلوب ،

رأت السيدة أن المركز صعب الاحتمال على المسكين ! فتقدمت بموافقته . ثم رأت دفعا للهم عن نفس الشاب تقديم مبلغ معين له ، ليستعين به على طلبات مثل هذا اليوم ، وهى مطمئنة إلى النتائج .

وفى المساء أقيمت المآدب ، وجلس عليها جمع كبير ، فيه صاحب السعادة ، وصاحب العزة ، وكثير من الوجهاء وعقائلهم ، وأرباب العروس . والشاب لم يحضر من أهله أحد .

وبعد أن انفض الجمع ، انفرد العروسان فى مخدعهما ، تحفهما الأمانى الواسعة ، ويضفى عليهما المقام سرور الغبطة والابتهاج .

لكن الشاعر الذى قال :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

قد ادخرها لمثل هذه المواقف . لأنها شعرت بأن الغطاء قد تأزم عليها ، فتقلصت أعضاؤها وانفجرت تنذر بوجودها وتنادى بنفسها .

ذلك أنه كان للآنسة بعض الأقرباء من الشبان ، الذين اتخذوا ثراءهم سبباً لعدم العمل ، أو العناية بالتعليم . وكان قد تقدم للآنسة رغبة فى الارتباط بها ، ولم تتحقق لظروف خاصة ، عوامل الرغبة فيه فاعتذر له . وكان هذا الشاب لعذر شخصى لم يحضر يوم الزفاف . فحضر فى اليوم التالى ليبارك زواج قريبته ، ويرفع إليها تهانيه .

فلما جمعه المجلس بالعروسين ، ونظر إلى العريس نظرة أولى ، تحركت عجلة ذاكرته ، ونبهته إلى أن هذا الإنسان غير غريب على مرآة عقله . بل إنه رآه كثيراً فى أمكنة لا يذكرها الآن .

ويظهر أن هذه الحيرة قد نبهت الزوج أيضا ، إلى أن هذا القريب سبقت له به رؤية ، بل معاملة . وسرعان ما استولى على المجلس نوع من الفتور أو الحيرة . هذا يكبت شعوره خوف انكشافه ، خصوصاً بعد أن صرح القريب للزوج بأنه سبق له أن رآه ، وهذا تضطرم بين جوانحه عوامل حب الاستطلاع السريع .

ذهب القريب وفى نفسه همة مزدوجة للبحث والتقصى ، خصوصاً وأنه يريد الوقوف على مركز هذا الذى أخذ مركزه ، وجلس مجلسه ، ثم اعتزم التحرى عن مركز العائلة التى ذكر الزوج أنه منها .

ولم يطل بالقريب الوقت ، فقد ذكر هواجسه لأصدقائه وكانوا كثرة ، وسرعان ما عرف أن عميد تلك العائلة المدعاة ، ليس له غير ابن واحد ، لا يزال يطلب العلم خارج البلاد ، وأنه لم يحضر من وقت سفره للآن .

وهنا لعبت الصدفة دورها فقد تنبهت ذاكرة القريب ، وساعفته بالدليل . فأكدت له

أنه كان عاملا فى محل الحلاقة ، الذى تردد عليه فى شارع معين . فذهب مسرعاً ولم يعجز عن الوقوف على السر الهائل . فقد عرف ما خفى مما تفدر به صاحب المحل وعماله ! ! !

وما أن امتلأت جعبة ذلك القريب بهذه المعلومات . وتحققت لديه المخفيات ، حتى سارع من فوره إلى كبير من الأقارب ، وأطلعه على السر الخطير . ثم ذهبا إلى قريب آخر ، وعقدوا مجلساً للمشاورة فى الطريقة التى يغسلون بها هذا العار .

تحدثوا مع الحماة العتيدة تليفونيا ، واستحضروها لأمرهام . وفى الموعد المعين كشفوا لها الغطاء عما فى الصندوق ، وأيدوا الوقائع بشهادة صاحب المحل (الأوسطى ..) وبعض عماله .

وهنا لا تسل عما لحق السيدة من غيظ وقهر وحنق ، خصوصاً بعد أن سمعت أن السيارة التى ركبوها كانت لأحد الناس ، وأن صديق العريس هو سائقها الذى مهد له الاستمتاع بها فى غيبة صاحبها .

ثم أحضر الشاب المغرر وكوشف باتهامه . وكانت جلسة جعل الحديث فيها للرجال ، ! وكانت نهايتها خزياً وعاراً وبغضاً واحتقاراً . وخرج الشاب من هذا المكان بعد قوله الكلمة المطلوبة ، مشيعاً بكثير من اللكمات والبصقات ، إلى حيث لا يعلم إلا الله .

هذه واقعة واحدة من وقائع كثيرة . لجأ إليها بعض المغررين الطامعين المحتالين . وهذه رابطة عقدت بوسائل التغرير .

فهل تم فيها ما يراد منها ؟ وهل يمكن لمثل هذه الروابط إلا أن تنتهى سريعاً ، بعد أن تخلف ما يضيق عنه التعبير من حزن وحسرة وآلام ؟

إن التغرير بهذه الأدلة — أصبح سبباً من أسباب الشقاء الزوجى ، له خطورة نتيجته كما تبين . فما هو الدواء ؟

الدواء الناجع لمن أراد الدخول فى رابطة : هو التسلح بسلاح الصدق والصراحة ، فلا كذب ولا تعمية ، ولا ادعاء من جانب المتقدم (طالب الزواج) ثم بحث واستقصاء واستعلام من جانب المخطوبة . حتى يوقف على الحقيقة ، ويوجد الاطمئنان . وبهذا وحده تبنى الارتباطات على أسس سليمة مأمونة العاقبة .

الزواج العرفى

إذا تقدم إليك صاحب بيت أردت شراءه بورقة ، لم يكن عليها ختم محكمة أو مصلحة مختصة ، ولم تعط لهذه الورقة صفة المرور على أيدى الموظفين الرسميين ، فلا تشتر منه . لأن الورقة التى قدمها إليك ورقة عرفية ، لا تعترف بها جهة رسمية ، ولا تؤيد حقوق الملكية .

إذ الورقة الرسمية التى تكون دليلا على ما دون فيها ، هى تلك التى حررت أمام الجهة الرسمية المختصة ، وتولاها موظف مختص ، وسجل موضوعها فى دفاتر خاصة ، للرجوع إليها عند الحاجة.

والزواج العرفى طبقاً لذلك ، هو ما يجرى بين رجل وامرأة ، ولا يعقده مأذون شرعى ، أو كاتب مأذون من قاضى المحكمة الشرعية ، ولا يحضره مجلس شرعى .

هذا النوع من التعاقد ، لا يسمى ارتباطاً شرعياً ، ولا زواجاً رسمياً ولكنه يكون نوعاً من التحايل ، على معاشرة غير مشروعة ، تحت ستار خاطئ لأغراض متعددة ، وهو ما أنادى بالحذر منه ، كى لا يكون سبباً فى إقامة روابط مدعاة بين من يريدون من الناس .

وللوقوف على معرفة نتائجه الخطيرة ، ودوافعه الشخصية المتعددة ، يتعين علينا أن نجوس خلال مراتع النفوس المتباينة اجتماعياً ، وتعدد دوافعها فى هذا الموضوع .

وقد أثبتت التجاريب أن هذه الدوافع ، تنحصر فى رؤوس أبواب يدخلها الرجال كما يدخلها النساء .

وقبل الدخول فى سرد هذه الأبواب ، لا يفوتنا أن نذكر أن الزواج يتم شرعاً بإيجاب وقبول فى مجلس شرعى ، ومهر مسمى بين الزوجين ، ولا يحد من قوته هذه تلك الورقة الرسمية أو المأذون الشرعى . وهذا ما كان سارياً فى عهد ما قبل إنشاء المحاكم وتنظيم أعمالها ، ثم ما كان سارياً قبل أن يداخل الناس خلق الإنكار والرغبة فى تضييع الحقوق ، وحب الانتقام لهوى فى النفوس .

فالناس قديماً ، كانوا يتزوجون من غير ورقة . ولما ذاعت الكتابة ، حررت الأوراق عرفية ، وكانت تأخذ بها المحاكم عند التقاضى . ثم لما كثرت الخصومات واشتد نكران الحقوق ، سنت القوانين التى لا تجيز عقداً شرعياً إلا بواسطة الموظف المختص ، ليصبح ملزماً لطرفيه بما فيه . وكل ورقة غير ذلك لا تعد مؤيداً لزوجية تدعى أمام المحكمة طبقاً للقانون .

وعلى الرغم من معرفة الناس لقيم هذه الأوراق غير الرسمية عندما يجد الجد . إلا أن البواعث الشاذة التى تكون عند بعض الناس ، تجعلهم ينصبون الحيل لقبولها فيما بينهم كعقد محترم .

هذه البواعث الشاذة ، هى تلك الدوافع التى أشرنا اليها آنفاً ، وهى كما قلنا توجد عند الرجال وتوجد من صنف آخر عند النساء .

ودوافع الرجال هى ما يأتى :

١ — الرغبة فى ستر موقف له آثار غير حسنة .

٢ — الرغبة فى كتمان هذه العلاقة عن زوجة يخشاها .

٣ — الرغبة فى التهرب من عبء الرجولة .

٤ — الرغبة فى كسر شوكة الطرف الآخر فى سبيل متعة عارة .

عن الأول :

إن الرجل الذى تدفعه الرغبة فى ستر موقف له آثار غير حسنة ، إلى العقد العرفى ، هو واحد من أولئك الذين نعموا بوسائل الحياة ثم رغبوا عن الارتباط الشرعى . يأتون بالخدم ليقوموا بأعمالهم ، ولا يقدرون البيت وجلاله ، وإيناسه بسيدته وربته .

هذا الصنف من الناس له سقطات تؤدى فى أحيان كثيرة إلى جر المصائب والإحن على غيرهم . وربما وقعوا فيها وقعات مزرية وهو الغالب .

يستمد من مركزه وسلطانه ومعسول كلمه ، قوة يسلطها على ضحيته فتاة كانت أو سيدة . فاذا وصل الاعتداء الهدف وأصبح له حقيقة ملموسة ، تتشبث الفتاة أو السيدة بحقها الشرعى ، وتطالبه بعقد رابطة رسمية بعد أن تكون قد همت باتخاذ طريقها إلى إعلام جهات الحكم بذلك ، رغبة فى رفع هذا الاعتداء عنها ، والاقتصاص لها . فلا يجد هذا الرجل محيصا على العمل على إطباق هذا الفم ، حتى لايتسامع القانون بخروجه عليه ، ويلجأ إلى تحويل نظر ضحيته إلى شىء آخر ، هو ذلك النوع من الغش والخديعة ، فيحرر لها ورقة عرفية ، موهما إياها بأنها صارت زوجة وصار هو زوجاً . ستراً له من الفضيحة وحماية لنفسه من يد القانون .

أما العلاقة الشخصيه ، وأما الأمل فى ثبات هذه الرابطه ، وأما الزواج الشرعى ، فذلك غير معنى به فى نفسه ، بل هو يترقب الفرصه الملائمه لزوال جسم الجريمة ، حتى إذا مضى على سقوط الفتاة زمن يلبس الفعل الرضى . وعلى السيدة زمن تلقى فيه حملها ، أعرض وتناسى بل أنكر وتجبر . فقد أمن الخطر ، وضرب على نفسه سياج الحماية . فلتعان الفتاة ما تعانى ، ولتتعذب السيدة ما شاء لها التعذيب ، فإن ذلك الرجل قد أصبح فى مناعة ، بل هو قد اتجه إلى طريق ضحية أخرى ليكرر فعلته ، ويضاعف جرمه . فلا قيمة للورقة شرعا ، ولا نتيجة تأتى من الشكوى .

أما إذا أفادت الشكوى وهو ما ندر ، فإن هـذا الرجل المتكبر المعتدى يرضى بالهزيمة مؤقتا ، ولـكن إلى أن يخلص من تحت يد القانون فقط ، ثم يفر هاربا ولا فائدة فيه . لأنه يرى فى الظهور أمام الناس مع تلك التى يترفع عنها زراية بنفسه ، وجرحا لـكبريائه . فيسارع إلى فصم عراها وترحيلها ، والبعد عن وجهها . لا يخاف إلا الحسرة ، ولا يترك غير الأنين .

وكم قرأنا فى الصحف حوادث وفواجع ومآسى ذهبت فيها أرواح بريئة ، تخلصا من عار لحق بها إما بيدها ، أو بيد من يريد الثأر لشرفه من ذويها . كل هذا وأمثاله يكون أكثره من نتائج تلك الألاعيب والحيل .

عن الثانى :

أما الثانى وهو الذى يلجأ إلى الورقة العرفية لـكتمان علاقته عن زوجة يخشاها ، فهو رجل متزوج بزوجة لها عليه سلطان ، أو فى يدها السوط الذى يهابه ويرهبه . وليس السلطان مستمداً من الثروة ولا من الجمال . فهذان سببان متصلان بعاطفة شخصية تمنعه من الالتجاء إلى أخرى ، ولـكنه سلطان المادة أو الجاه .

يخشى منع المال ، فيحرم من الصرف والبذخ ممن تملـكه . ويخشى حرمانه من شرف الارتباط بها لأنها كريمة كبير ، أو رئيس يقدر على إيذائه . وهى فى نفس الوقت تكون فى نقص نسوى من النوع الذى لا يشبع نهم الرجال . كما يكون هو فى نقص مادى أو اجتماعى . فيضطر إلى المحافظة عليها ، لأنها تكمل نقصه ، وتتمم احتياجه وليس له مفر من الوجود معها

هذا الرجل يعمل سراً على متعة نفسه . فإذا وجد أمنيته الشخصية احتال على إحلال الورقة العرفية محل الرسمية ، ليكون له باب للتخلص عندما تقع الواقعة أو تتأزم الحال .

لـكن تلك السيدة بعد أن تدخل فيما تزعم أنه ارتباط ، ويزعم هو أنه إقناع لها . تتفتح عيناها على حقها فتطالب بالمشاركة فيه ، مما يعرفه الناس أنه حق الزوجة ، وهنا تنشأ حالتان : إما الرضا ، وهو ما يكشف لزوجته الأولى حالته التى لا ترضاها : وإما عدم الرضا وهو ما يجعل الثانية فى قلق ، ثم فى هم ، ثم فى نزاع ، تكون نتيجته الحتمية قطع المعاشرة فى شقاق . وهنا يعز على هـذه أن تكتفى من الغنيمة بالإياب . فتتفتح باب الخصومة الرسمية أو المعاداة الشخصية ، وكلاهما سيسرى نبأه إلى جو الزوجة الأولى ، ولا بد من أن تقع الواقعة على كل حال . فلا سلامة ولا أمان . ولا هناءة ولا اطمئنان .

عن الثالث :

وهناك نوع ثالث . وهو ذلك الذى يضعف أمام مسئولية الرجولة ويخشى القيام بالحقوق . وهذا الرجل يستخف بالحقوق التى يجب أن تكون للطرف الثانى . بل يعمل على هضمها ، فيلجأ إلى المعاشرة بالورقة العرفية ، مبديا أن ظروفا شاذة أو وقتية ستزول فيما بعد ، وهو فى حاجة إلى الارتباط المعجل ، ويقنع فريسته بحجته ، ويعمل على إلباس قولته لباس الصدق بالمغريات ، حتى يصل ، فإذا تبين له ولا بد أن يتبين له فى العاجل بعد المعاشرة ، ورفع الكلفة ما يجب على الرجل للمرأة تهرب ، ثم تغابى ، ولا محيص عن الاختلاف ثم الافتراق .

عن الرابع :

كذلك الرجل الذى يريد المتعة بمن تدله فى جمالها ، ولا يرى سبيلا إلى الوصول إليها ، إما لمناعتها أو لظروف دقيقة تكتنفه ، فهذا الرجل يحتال ، ويتظرف ، ويتحبب ، ويغرى ، ويمثل من أدوار الهيام ما يمكنه من إيقاع ذلك الصرح وهدمه ، أو زوال تلك العقبات من طريقه .

وعندما يصل إلى ما يريد ، ويرشف عذب الماء حتى يرتوى ، تراه يرفع يده ، ويعرض عمن ظنت خطأ أنها أصبحت فى كنف رجل ، وحمايه مزعومة بزوج .

ومثل هذه السيدة لا تقبل مثل هذه الإهانة ، وهى لا بد مستعملة سيف القانون . ولا بد من حديث ، ولا بد من حوادث تعقبهما أشكالات ما كان أغناها عن إقحام نفسيهما فيها .

هذه باختصار أشهر الدوافع التى تلجئ بعض الرجال إلى التحايل على المعاشرة بواسطة الورقة العرفية .

ولقد كانت النتائج واحدة فيها جميعا . فلا حياة زوجية بالمعنى المقصود ، ولا رابطة شرعية تحتوى أركانها المقررة . ولكنها معاشرة خاطئة ، لأغراض شخصية خاطئة . يجب على الفتيات والسيدات أن يحذرنها حتى لا يقعن فيها .

ويجب على الرجال أن لا يتخذوا من سلطانهم المادى أو المدنى أو الاجتماعى ، سبيلا إلى الدخول فى اعتداءات على من يقعن تحت سيطرتهم بأى سبب كان . فللضعيفات رب يحميهن وللحقوق مؤاخذات ، إذا لم تكن فى دنيانا ، فستكون فى يوم لا ينفع فيه مال ولا كلام .

أما الدوافع التى تدفع ببعض النساء إلى السعى وراء هذه الروابط ، فهى بدورها من نوع آخر .

فقد جرت العادة أن الرجل هو الذى يسعى وراء المرأة . ولكنها فى هذه الحالة تكون

هى الطالبة ، وتكون هى الساعية وراء من تريده ، لظروف شخصية خاصة .

فما هى هذه الدوافع ؟ وما هى تلك الظروف ؟ . إنها لكثيرة ولكن أهمها ما يأتى : —

١ — أن تكون السيدة ناظرة لوقف أو مستحقة فيه ، ومشروط فى حجة الوقف عدم زواجها .

٢ — أن تكون من أرباب المعاشات عن طريق زوجها المتوفى أو والدها .

٣ — أن تكون أم ولد له نفقة أو حضانة ومحكوم لها بضمه .

٤ — أن تكون وصية على قاصر له عصبة .

هذه هى الأصناف الأربعة من المواقف ، التى تدفع بأصحابها من السيدات ، إلى البحث عن من يرتبط بهن ارتباطا عرفيا . وهى حالة شاذة محفوفة بالملق ، ومقرونة نهايتها بالخسارة وإليك البيان :

الحالة الأولى :

تبين من كثير من الخصومات التى عرضت على القضاء الشرعى فى باب الوقف ، أن كثيراً من الواقفين ، قد وضعوا شروطا للتنظر أو الاستحقاق على غاية من الشذوذ . وعلى قدر خطير من الخروج على الحدود المألوفة .

فعمد بعض هؤلاء إلى وضع شرط يتضمن تعليق الاستحقاق فى الريع ، أو التنظر على الوقف للزوجة ، ما دامت لم تتزوج بعد الواقف . كما يقضى هذا الشرط بحرمانها من هذا الريع أو ذلك التنظر ، إذا تزوجت . وإن من يطلع على هذا الشرط يفهم لأول نظرة فيه ، أنه بنى على أسباب ثلاثة :

١ — أن هذا الواقف كان محبا وكان أنانيا ، وأن حبه وأنانيته أوجدتا فيه غيرة حادة ، دفعته إلى التألم النفسى عندما تصور موته ، واستمتاع غيره بزوجته . فعمد إلى تقييدها من بعده . وأرادها لنفسه حيا وميتا . فإن أطاعت ، وهو ما يريده ويعمل عليه ، تمتعت بماله ، وإلا ، فلتحرم منه ، مهما يكن لها فيه من حق شرعى ، يقضى لها به الشرع بعد وفاته .

٢ — أن هذه السيدة الأرملة ، لا بد وأن تكون شابة نضرة الشباب . ولا بد أن تكون على جانب من الأنوثة يطمع فيه الرجال . وأن تكون فى سن يهيىء لها تغيير هذا الفراش فى سبيل الاستمتاع بالحياة .

٣ — أن هذا الواقف لم يعقب ذرية من هذه السيدة ، وأن هذه السيدة لم ترزق من

الواقف بمن يحق له ريع الوقف ، حتى يكون لها فى أولادها والحدب عليهم شاغل لها عن مطالبها الشخصية ، وحتى يكون وجودهم مبعداً لمظنة الواقف الراحل عن تفكير زوجه فى الزواج بغيره من بعده .

تلك هى الأمور الثلاثة التى تستخرج من مثل هذا الشرط ، وربما كان الأخير منها على سبيل الحيطة فى الاستنتاج .

فإذا صح هذا التخريج وهو ما أيدته الوقائع ، وظهر جليا فى كل خصومة أساسها هذا الشرط المجحف ، فإن هذا الواقف يكون أولا قد تعدى حق الشرع فى التوريث ، كما تحدى الطبيعة فى عملها ، وحاول إيقاف سير عجلتها .

ومع ذلك فإن هـذا الشرط وجد ووجدت عليه خصومات ، ولذلك أتينا به ضمن المناقشات والبحث عن الأسباب .

ومثل هذا الشرط يضع السيدة على جملة شعب حادة .

فمال الوقف له مستحقون ، وقد درج أمثال هؤلاء على الطمع فى مال الواقف ، والعمل على حرمان الأجانب منه ، وهم يعتبرون السيدة دخيلة عليهم ، فيقيمون من أنفسهم عليها رقباء ، وباحثين منقبين ، عليهم يعثرون على سند يهيئ لهم اخراجها منـه ، مستحقة كانت أو ناظرة ، بل ربما يعمد بعضهم إلى نصب حيلة ليغريها بالخروج منه .

كما أن هذا المال الذى وضع من أجله الشرط مرغوب فيـه . وهو سلاح لـكل سيدة بعد رجلها لتجعله وسيلة للحياة وسببا للهناء .

وهناك الطبيعة القوية التى لها نظام مخصص ، واداة مخصوصة لا يدانيها المال ولا يغنى عنها ، إلى غير ذلك من الشعب الحادة التى تقاق راحة السيدة ، ولا تقدر على تخطى احداها لتفوز بالثانية . لـكن السيدة الشابة الجميلة التى يكون متوفرا لديها المال ومحاطة بوسائل النعمة ، ثم تقاوم الطبيعة ، لم تخلق بعد .

فماذا تصنع هـذه السيدة فى موقفها ؟ وما هو هذا الحجر الذى تضرب به عصفورين ؟ ليس إلا الورقة العرفية : إن مثل هـذه السيدة يطمع فى ذاتها الـكثيرون ، ويطرق بابها الوسطاء ، وقريبات الراغبين فى الزواج بها . ولـكنها مضطرة إلى الجواب الواحد بصوت قوى وحزم تام ، وهذا الجواب ، هو الرفض النهائى . بل وهى مضطرة أيضا إلى أن تحكى عنه للذين لم يعرفوه ، لتشهر عن نفسها قيامها بشرط الواقف ، وتحمى نفسها من مؤامرة ، ربما دبرت لها من المستحقين ، محافظة على ما فى يدها .

فى هذا الوقت نفسه تنعكس الآية . فبدلا من أن يسعى الرجال وقد سعوا فعلا — تسعى هى إلى رجل ربما لا يعرف الجو المحيط بها . فتوجد الصلة وتتوصل إلى الارتباط به بالورقة العرفية ، وتتمكن من الاقناع لأنها قوية فى هـذا الباب . وعندما يوجد الارتباط ، وتبرد الفورة التى دفعت السيدة إلى هذا المأزق ، تنفتح عين السيدة على مآزق جديدة .

فعيشتها مهددة ، ونفسها قلقة . لأن الرجل الجديد ، يدخل عليها ويخرج ، ويأكل ويشرب ، وينام ويجلس ، ويعمل ما يعمله الرجل فى بيته . وهـذا كله يحمل عوامل القلق والجزع . كما أن هذا الرجل يعرف مبكرا موقف هذه السيدة ، فيتناسى واجبه كزوج ، فلا يقوم بانفاق ولا واجبات ، وهو فى الأصل يحتوى على هذا النقص ، وإلا لماذا ارتضى لنفسه زوجية غير مستكملة شروطها .

وستضطر السيدة إلى استخدام المال الذى تتحمل فى سبيله هذا الانزعاج ، فى ستر نفسها ثم فى تسديد نقص حاجاتها . وستنشأ عند السيدة فى زمن قريب حالة نفسية ، لا هى بالاستقرار ، ولا هى بالفرار ، فتتأرجح أولا بين البقاء والتخلص ، ثم تطغى عليها هذه الحالة حتى تميت فى نفسها إحدى الحالتين ، وستكون تلك الحالة هى التخلص من هذه الرابطة التى لم تسعد فيها ، والتى جرّت عليها الهواجس ، وأوجدت فى نفسها القلق .

وحينئذ ترى أن مثل هذه الرابطة قد خلفت من الأثر أسوأه ، ولم تنتج الغرض المنشود .

الحالة الثانية :

ولم تكن بأسعد من هذه السيدة حالا ، تلك التى تكون من أرباب المعاشات ، سواء أكانت مستحقة عن زوجها ، وتكون فى هذه الحالة سيدة ، أم عن والدها فتكون آنسة . لأن هذا الاستحقاق فى المعاش وقف عليها ما دامت غير متزوجة وباقية على حالها .

ومثل هذه السيدة أو الآنسة تخشى إذا هى عقدت رسميا ، بطريق رسمى ، على زوج فى زواج طبيعى ، تتخذ الاجراءات ضد نفسها ، لقطع هـذا المعاش . وهى فى ذات الوقت متخوفة من المستقبل . إذ كثيرا ما سمعت السيدة أو الآنسة أن فلانة التى كانت حالتها مشابهة لحالتها رغبت فى الزواج ، فقطع معاشها ، ولم تنصف فى زواجها ، وخسرت الاثنين ، والنساء يعرفن من نكبات بعضهن أكثر مما يعرفه عنهن الرجال .

غير أنه فى هذه الحاله تكون السيدة أكثر اتجاها إلى البحث عن ذلك الذى يكون معها فى عقد عرفى ، وهو وسيلتها الوحيدة إلى توحيد رغباتها .

أما الآنسة « العذراء » التى لم يسبق لها زواج ، فهى لا تلجأ إلى هذه الحالة ، إلا اذا لم

يكن لها معين آخر ، وظروف حياتها شاذة فى الاحتياج ، ثم تكون ممن يقدرن لأنفسهن حالات المستقبل ، وتغالى فى المحافظة عليه .

ومع كل ذلك ، بل وعلى الرغم من هذه الحيطة التى تلجأ إليها السيدة أو الفتاة ، فإن الزوج فى كلتا الحالتين سيقف على موطن الضعف ، وقل من يكون كريما ، فيغضى وقت الشدة عن الانتقام . ولأقيم لك الدليل أذكر ، حادثين : أحدهما لسيدة والآخر لآنسة ؛ من المستحقات لمعاش ، لتعرف إلى أى حد تكون النفسية بين أمثال هؤلاء .

توفى رجل عن سيدة وترك لها معاشا رسميا كانت تكتفى به فى حاجاتها ، وقد اتجه نظرها إلى التزوج ، فارتبطت برجل عرف بعد زمن قصير ، أن لها معاشا ، فتهاون فى واجبه الشرعى . وكانت هى تؤدى ذلك الواجب عنه أولا ، ثم تنبهت إلى أنها لم تستفد من هذا الزواج غير القلق على نفسها . وقد أرادت السيدة أن تنبه هذا الرجل فى رفق ، فكان خلاف تسامع به الجيران ، وعرف أهل المتوفى أن أرملته يعتدى عليها رجل ! ! فحضروا ولم يكونوا على معرفة به ، ولا برابطته . فأرادوا حمايتها والقصاص منه ، ولكنهم عرفوا أنه زوجها ، ومعه ورقة . ولا تسل عن موقف الغيظ فى أنفسهم ، ولا عن موقف الجزع فى نفسها ، ولا عن موقف الشماتة والانتصار فى نفس الزوج المزعوم .

ولقد اضطرت المسكينة إلى المبادرة بإخطار المصلحة بأنها تزوجت ، وقطع المعاش . ثم رجعت إلى الزوج العتيد لتعوض به ماضاع . ولكنه كان قد اعتاد الاهمال . فلما شددت كان نصيبها الترك . ولما أرادت مقاضاته لم يعترف بزوجيتها وقضى برفض طلبها وباءت بالهزيمة فى هذا الجهاد .

أما الآنسة فكان لها اخوان تزوج كل منهما بزوجة ، وعاش بها بعيداً ، وبقيت هى وحدها طويلا . ويظهر أنها كانت تعرف عن مثيلاتها فى موقفها كثيراً ، فرفضت عدة مرات من يأتون إليها ، رغبة فى الزواج بها . إلى أن اهتدت أخيرا ، إلى من رضى بالعيش معها بهذه الورقة العرفية . لكن هذه المسكينة أيضاً ، وقعت فيما تخشاه ، لأن الحب والتدله والتمثيل ، الذى كان يمثله هذا الحبيب المزعوم برد ، حتى أصبح فتورا ، ولما ينقض على الارتباط بضعة شهور .

لقد احتملت غضبات شخصية من صويحباتها اللواتى يعرفن موقفها ، واحتملت إهانات من بعضهن ، خوفا من إذاعة شىء عنها ، يوقعها تحت طائلة القانون .

واحتملت فتور الرجل الذى أغراها بتمثيل الحب ، كما احتملت إعراضه وتقصيره

وإهماله . ومع ذلك فإنها عند ما أرادت أن تخرج من هـذه الورطة ، وتستكمل اعتبارها ، وتطلب إليه ابدال هذه الرابطة العرفية بغيرها رسمية ، انتهزها فرصة وخرج ولم يرجع . ولم تنفع لديه شفاعات ولا وساطات ، واضطرت المسكينة إلى مداراته مع ذلك ، خوفا من أن يؤذيها بالورقة العرفية ، أمام الجهات المختصة .

ولقد شقت حالها على رجل كريم ، وعز عليه هـذا الهوان ، وموقفها الدقيق . فتقدم إليها ليرتبط بها ارتباطاً شرعياً ، ولـكنهما عجزا عن تنفيذ هـذا الخير الذى اعتزماه ، خوفا من هذا الذى تنمر ، وانتهزها فرصة لتهديدها بجريمة أخرى . ولـكن هـذا الرجل ، عرف كيف يأخذ هذه الورقة ، بل يفل هذا السلاح وكان لها بعد الشقوة الطويلة خير عزاء .

عن الحالة الثالثة

وهنـاك سيدة ثالثة لم تستمر سعادتها ، أو لم تجد سعادتها فى البقاء مع زوج ، لها منه ولد صغير فى سن الحضانة ، فافترقت عنه ، وتنازعا الولد وقضت المحـكمة بضمه إليها ، لأنها أثبتت خلوها من الزواج بأجنبى عن الصغير .

مثل هذه السيدة موقفهـا صعب أيضاً ، لأن الصغير إذا كان رضيعاً فى سنته الأولى أو الثانية ، فحتم عليها أن لا تتزوج حتى يكون عمره فى حـدود التاسعة على أكثر تقدير ، إذا كان ولداً . وفى حدود الحادية عشرة إذا كان بنتاً . وهذا الزمن كبير على سيدة شابة تعيش فيه خالية الأزواج . وربما كانت فى حاجة إلى من ينفق عليها ، فضلا عن أنها مطلقة بعد شقاق ، أذهب ما فى قلبها من ود إلى ذلك المطلق .

لـكنها أيضاً تخشى حرمانهـا من ولدها وفقدانها له ، وعاطفة الأمومة غريزة حتى فى الحيوانات وهى لا ترضى بترك ولدها بعد أن كافحت فى ضمه إليها ، ولا يمكنها العيش من غير كنف ولا صدر رجل . هذه السيدة عندما تلجأ إلى التحايل على الارتباط بهذه الطريقة ، سرعان ما ينـكشف أمرها لمطلقها ، وعندها تقوى عاطفة الأمومة مضافا إليهـا عوامل الغيظ والحقد لتخلص من هذه الرابطة فوراً ، ولا تبقى عليها ويتهدم العش الذى لم يكن قد تكوّن بعد .

الحالة الرابعة

أما تلك التى مات زوجها ، وترك لها صغيراً قُررت لها الوصايه عليه . فإن هذه السيدة تخشى الزواج بأجنبى عن القاصر ، خوفاً من ضياع وصايتهـا على ولدها ، عند ما يكون له أهل ، يودون وضع يدهم على مال الموروث وإبعاد هذه الأجنبية عنهم . ويختلف مركز هـذه

السيدة عن سابقتها بما يجتمع فيه من المشاق النفسية التى تعانيها السيدة الأولى والسيدة الثالثة وما ينتظرها فى النهاية من نتائج مزدوجة فى الخطورة .

تلك حالات أربع ، لأصناف أربعة من الدوافع ، التى تضطر السيدة إلى التحايل على الارتباط العرفى . وقد تبين لك أنهن فشلن فى إقامة رابطة زوجية بمعناها المنشود .

ورب قائل يقول : وهل يتحتم أن كل رجل تسعى إليه امرأة لترتبط به عرفياً ينقلب عليها فلا تتحقق السعادة الزوجية ؟

وردى على ذلك هو أن الرجل يكون فيها غالباً من أولئك الذين نقصت فيهم مقادير الرجولة الحقة ، حتى ارتضوا لأنفسهم هذا الوضع من أمثال هؤلاء السيدات . وفضلا عن أن شروط هذا الزواج لم تتحقق شرعا ولا قانوناً فأن لكل معاشرة أثراً ، وهذا الأثر الذى يتعدد فى الاختلاط ، وفى رؤية الناس ، وفى الحمل ، وفى مساكنة الرجل للمرأة ، إلى غير ذلك من البداءة ، لا بد من ذيوعه حتى يصل إلى علم المختصين ، الذين يهمهم معرفة ذلك . وهذا من مزعجات السيدة التى لا يهدأ لها معه بال ولا يثبت لها معه قلب . وعيشة أو رابطة يكون فيها هذا الانزعاج مقضى عليها بالفشل الذريع .

ومما تقدم يتبين أن دوافع الرجال ، ثم دوافع النساء إلى الارتباط بأوراق عرفية ، لم يكن القصد منه زواجا شرعياً افترض فيه البقاء والاستمرار ، ولكنه اختلاط سرى أولا ، وغير معترف بما يترتب عليه شرعا ولا قانوناً ، وأن عمره مهدد بأنواع مختلفة من المآسى ونهايته الحتمية الافتراق على شقاق .

وللتخلص من الوقوع فى مثل هذه المآسى ، يجب على الرجل أن يسلك طريق الشرف فى معاملاته ، وأن تسلك المرأة طريقاً سليما إلى ما تهدف إليه . وأن لا يلجأ كلاهما إلى اتخاذ الورقة العرفية دليلا على ارتباط هذه نهايته القاسية .

التجربة على الطريقة الغربية

ليس فى الدين الإسلامى شىء اسمه التجربة ، للذين يريدون الارتباط الزوجى . وكل ما أبيح فى الخطبة هو الرؤيه فقط ، مع المصافحة باليد . وكل ما عدا ذلك فهو اختلاط فى نظر الشرع غير شريف . ولأجل أن نهيئ الآذان لاستماع الحكم على فساد طريقة التجربه ، أو صلاحيتها ، يحسن بنا أن نقدم ملخصا لحالات الارتباط التى درج عليها آباؤنا ، ونتائجها بالمقارنة مع حالات الارتباط الحديثة ، ونتائجها ، ليتبين وجه الحق ، ويتضح بالدليل خطر مزج المدنية فيما لا يصح أن توجد فيه .

لقد كان الناس إلى عهد — حضر آخره شيوخ هذا الزمن — عندما يريد الرجل منهم الزواج ، أن يتجه ذووه إلى البيت الذى يقع عليه اختياره من ناحية العصبة ، والكفاءة ، وتجرى التمهيدات الأولى من كلام ودفع مهر ، ثم يعقد العقد فى زمن قل أو كثر ، دون أن يكون للرجل عمل غير استماع ما يلقى إليه من وصف ، وما تم من نتائج المهمة . وبعد اجراء العقد فقط ، يمكن الزوج من رؤية شريكة حياته المستقبلة وإذا حصل الدخول فى ليلة العقد وهو الغالب ، فان رؤيته لها تكون ابتداء من ذلك الوقت .

وهذه الطريقة لا يزال معمولا بها فى بيوت وبلاد الصعيد، وبعض نواحى مصر الوسطى. وكان المتزوجون على هذه الطريقة ، وهم آباؤنا وأخوالنا الكبار ، والسابقون منهم ، يشعرون فى قرارة نفوسهم بمجد الزواج ، وقوة الارتباط ، وقدسية الحياة الزوجية . وكانت صفات فاضلة تلازمهم حينما كانوا يقدمون على هذه المهمة .

فالقناعة ، والثقة ، وعدم النظر إلى حرمة الجار ، أو التطلع إلى ما فى يد الغير ، والرغبة فى الزواج من أجل أقامة صرح الزوجية ، كل أولئك كان يتمثل فى نفوسهم ، عن يقين واعتقاد . يتزوج الرجل بمن يعرف انها فلانة بنت فلان ، من عائلة فلان . ويسمع من أمه الصادقة أو أخته التى تقرر الواقع ، أن من وقع عليها الاختيار صفتها كذا وكذا ، وهم لا يجعلون ما لا ثبات له كالثراء ، أو فرط الجمال ، أساسا للرضى .

وإنما الأساس المبرز وجواز القبول الوحيد ، هو العائلة ومكانتها وسمعتها أولا ، ومعرفة أجادة الأعمال المنزلية ثانيا . فمتى توافرت فى العروس هذه الشروط رضى الرجل ، ورغب فى الارتباط وأتمه . يبدأ الزوجان بعد ذلك عهد المعاشرة الفعلية ، وترفع الحجب التى كانت قائمة بينهما ، وتحتويهما الخلوة الحلال ، تحت ظلال الاعتقاد بالمشاركة الدائمة . فماذا يكون ؟

إن العين عند ما تتفتح على ما أمامها ، توصل إلى صفحات القلب البيضاء ، التى لم يرتسم عليها شيء قبل الآن .

وأن مادة هذا القلب مستعدة أو هى على استعداد لاستقبال ما يرسل إليها عن هذا الطريق الحلال . وإذا أضفنا إلى ذلك الاعتقاد النفسى عند كل منهما بأنه شريك للآخر ولا شريك له فيه ، كان ذلك ابتداء نواة الحب الأكيد الطاهر الشريف ، الذى يستأهل التضحية ويورث الوداد والتعلق ، إذ لا يوجد بعد الاختلاط الزوجى شيء يستثير الشعور ويحرك أوتار الانفعالات الأخرى فيوجه الفكر إليها .

فالزوج مالك الزوجة . والزوجة مع زوجها وقد اتصلا ، إنما هناك نوع نفسى عندهما ، هو الذى يؤسس ذلك الحب الكريم ، ذلك أن الزوجة تضع نفسها من الرجل موضع الطاعة ، فلا تخالف له أمراً ، ولا ترد له رغبة ، تعاشره راضية مطمئنة ، وتعيش فى كنفه آمنة لحمايته وغيرته ورجولته . والزوج يعرف تبعاته ، ويقدر ما لشريكته من حقوق ، ويعمل على ما تتطلبه حياتها من واجبات .

ومن هذا التضامن ، ينشأ التعلق وينمو الحب القلبى ، الذى يسند الرابطة فى المستقبل من الزمن ، ما دامت لهما الحياة .

ولقد بلغت قوة الحب بين هؤلاء الأزواج فى كثير من الحالات مرتبة رفيعة جداً ، ربما كانت غريبة على الأسماع فى هذا الزمن .

ذلك أن المنية إذا عاجلت الزوج وترك زوجة فى فتوتها ، وريعان شبابها ، فأنها تقضى الباقى من عمرها طال أو قصر ، من غير أن تغير فراشها أو تتخذ لنفسها عن الفقيد بديلا . بل قد بلغ الحب ببعض هؤلاء الزوجات المترملات ، أنهن يحرمن أنفسهن مما كان يلذ لهن مع أزواجهن فعله ، سواء أكان ذلك خاصاً بأنواع من المأكل ، أو أنواع أخرى من اللباس والزينة . وكان الرجال عند ما يفجعون فى زوجاتهم ، يغلقون قلوبهم ، ويغمضون عيونهم سنين طويلة ، كان بعضها يكون كافياً عند أهل الفقيدة فى تخفيف حدة الأسى عليها .

ذلك كان شأن السابقين فى روابطهم إجمالا ، عليهم رحمة الله .

أما الآن وقد تغير الزمن ، أستغفر الله ، بل تغيرت أخلاق الناس ، وتبدلت صفاتهم القومية ، لأن الزمن هو الشمس التى لا تزال تشرق علينا من المشرق وتغرب عنا فى المغرب ، والشتاء هو الشتاء ، والصيف هو الصيف (كل يجرى لمستقر له ذلك تقدير العزيز الحكيم) الآن وقد تغيرت طباعنا وأخلاقنا وتغلغلت المدنية فى كل فروع الحياة ، لم تسلم قدسية

الارتباط الزوجى من أن تتدخل فيها تلك المدنية ، فأفرغت عليها من أساليبها المهلهلة ، وأفاضت عليها من بهرجها المزيف المسموم ، ما قلب شأنها ظهراً على عقب ، بعد أن مهدت لهذا الانقلاب بالتغيير الممقوت فى جوهر الأخلاق . فقد حل الشك محل الثقة ، والطمع بدل القناعة ، والرغبة الشريفة فى التزوج ، إلى الإغراق الدنىء فى الاحساس بالغريزة ، وأغمضت العيون عن الجوهر ، وتفتحت على المظهر ، فنشأت للزواج طرق أخرى ، وابتدعت فيه أساليب غريبة كان ضمنها مودة التجربة قبل البت فى موضوع الزواج .

ومودة التجربة حادث غريب على قوميتنا ، مخالف لديننا ، وهو عمل افرنجى نبت بين الغربيين ، ثم أخذه عنهم المتفرنجون ، لأنه صادف هوى فى نفوس الشباب الجديد ، وطابق الأخلاق الحديثة ، وتطبع به بعض أهل هذا الجيل وربما بلغ فى القريب والقريب العاجل شأوا بعيداً فى الانتشار .

هذه المودة أو هذا الحدث المستحدث فى اخلاقنا ، أن التجربة كاختبار ، وامتحان واطلاع ، ومعرفة لأخلاق الفتاة التى يراد التزوج بها ، والوقوف على ما هى عليه من عقل ، وتدبير ، وتقدير للحياة ، حالا ومستقبلا .

وإذا كانت التجربة من مقتضيات الارتباط بين الافرنج ، فلأنهم نشأوا على الاختلاط ، ولا يعرفون غير الاختلاط ، وهم يتخذون مودة التجربة لاستحداث تآلف نفسانى أو استثارة للشعور الذى يمهد للارتباط بين من يريدون الارتباط .

. ومع أن هؤلاء الفرنجة الذين طبعوا على هذه العادة ، مفروض عندهم فى كل من جرب أولا ثم ارتبط ثانيا ، أنه ما أقدم على الارتباط إلا بعد أن بلغ النهاية من الرضى ، بحالة من جربه ، مع كل ذلك ، نجد كثيرين من هؤلاء الغربيين لا تطول حياتهم الزوجية وتنقلب صارخة إلى نكد وشقاء . بل كثيرا ما يعمد بعضهم إلى التخلص من روابطهم بأسباب مخدشة للشرف جارحة للكرامة ، توصلا إلى إجازة الطلاق وفصم عرى الارتباط .

فإذا كانت التجربة ، وهى من طبع الغربيين لا تكون فى كل الارتباطات عاملا قويا ، لاستمرار الحياة الزوجية عندهم ، وهم أصحابها ، فهل تكون عندنا ونحن نتطبع بها ، أحسن أثراً وأفضل نتيجة فى استمرار الحياة الزوجية ؟ كلا . بل إنها تنقلب عندنا خطرا ماحقا على الأخلاق ، وعلى العادات ، وعلى الدين .

لأنها تنشىء ودا غير مرغوب فيه .

ولأنها تكون سببا فى ارتباط لا أجل له .

ولأنها تنشئ غواية نهايتها السقوط .

ولأنها تحول المجربين عن الغرض المقصود .

لأن الشرقيين المسلمين لهم عادات ، ولهم قومية ، ولهم قواعد دينية ، ولهم دم وإحساس يغاير فى نوعه وقوته دم الغربيين وإحساسهم .

والشرقى الذى يقلد ، عند مايريد استعمال هذه العادة مع فتاة أوسيدة ، يكون معنى ذلك انه أبيح له ما كان محرما عليه ، لو لم يتقدم بوسيلة الزواج فيدخل البيت المقصود ويختلى بالفتاة كما شاء ، ويضرب معها المواعيد أمام والديها أو إخوتها للقاء خارج الدار ، عندما يريد ، وفى أى مكان شاء ، لاحرج عليه ولا انتقاد ، إذا رئيا فى سينما أو حديقة ، أوأحد الملاهى أو المجتمعات . يريان معا مختلف العواطف التمثيلية ويذهبان إلى البعيد من الأمكنة . ويجلسان تحت ظلال الخمائل . وبين هذا وذاك يتحدثان فى كل شىء ، ولا يخشيان من نظر رقيب .

وإن هذين الفتيين المملوءين صحة وقوة ، إذا اجتمعا على انفراد ، وأمنا النقد والاعتراض ، من الذى يعرف ما يدور بينهما من أحاديث ؟ ومن هو الجرىء الذى يمكنه أن يضع أنمله على أوتار قلبيهما ثم يخبرنا بما يدور فيهما من احاسيس ؟

إننا تبعا لما جرت به العادة ، وتطبيقا لنتائج الحوادث المماثلة ، لا نجرد أنفسنا من معرفة هذا الذى يدور ، ولو اجماليا . لأننا نعرف ما تنبض به تلك القلوب فى هذا الخلوات .

إنهما يتناجيان ودا ، ويتبادلان محبة ، ويتشاكيان وجدا . لأنه لا بد أن ينشأ بينهما ود ، ولا بد أن تنشأ بينهما محبة ، ولا بد أن يستعر بينهما الوجد . والشىء الذى نقطع به ويصعب علينا تصديقه ، بل والذى لا يمكن أن تحدثنا أنفسنا بتصديقه ، هو أن هذا الود وتلك المحبة وذاك الوجد ، من صنف ومادة ونوع غير مرغوب فيه .

وهنا قد تشده لقولى ، وقد يدهشك أن هذا الوداد من مادة غير مرغوب فيها فتقول لماذا ؟ فأجيبك : —

إن من المسلم به أن الانفراد وما فيه من خلوات ، يثير فى نفس الشاب كوامن الشباب ويحفز الطبيعة للتحرك ، ويغرق الشعور بعوامل الاستثارة الحسية ، ويطغى ذلك على الغرض الأصلى ، ويوجه النفس الشابة الفتية القوية الوثابة إلى ناحية أخرى ، هى البحث عن ما يروى تعطش تلك النفس ، ويهدىء المشاعر المتأججة .

وإذن فسيكون ذلك الوداد ومترادفاته قد بنى على أساس آخر ، هو من الصنف غير المرغوب فيه . ولما كان مثل هذا الوجد له ثورة حادة ، وله فورة جامحة ، وله حرارة قوية ، فان

الاثنين حينما يصلان إلى مثل هذه النهاية ، ينهيان هذه التجربة ، ويدخلان في باب الارتباط ، فيتزوجان ويصلان بهذا الزواج إلى الاستمتاع بما لم يبح لهما الاستمتاع به . وهذا ، إذا سارا فى طريق غير ملتوية ، واستقوت الشابة باستنادها إلى صرح الفضيلة ، ولم تستسلم للهزات الأحساسية العنيفة ، التى تضمنتها تلك الخلوات مع الانفراد .

ومع ذلك فان مثل ذلك الشاب عندما يقتحم الأبواب التى كانت موصدة ، ويتخطى الحواجز التى كانت مقامة ، لا يكون له هم حين وصوله إلا رى عطشة ، أو ارواء ظمأه ، فيقبل اقبالا من ذلك النوع الذى يعقبه الفتور ، ويقدم اقداما من الصنف الذى يستحب معه التراجع . أنه ليس شىء ، بعد ما وصلا إليه ، يستحق الاهتمام . فالشعلة ستنطفئ وهى وحدها التى كانت تسوقهما إلى اللقاء ، وهى التى كانت تباعد بين جلساتهما والأمكنة العامرة ، وهى التى كانت ترفعهما إلى التحليق فى سماء الخيال .

هذه الشعلة ، هى هى بعينها التى غيرت القصد وأزاحتها عن الجوهر ، وانحرفت بهما إلى الناحية الصغيرة من مناحى الرابطة الكبرى ، فحادت بهما او حادث بالشاب على الوجه الصحيح عن قدسية الزواج ، وأغراضه الكبرى ، وصيرته ينشد غرضا واحدا ، يخالف فى جوهره وأساسه كل الأغراض المقصودة من الارتباط .

وإن هذه الشعلة التى كانت تضىء ذلك الطريق ، وتوصل بها الشاب إلى نهايته ، عندما تنطفىء ، تنار شعلة أخرى هى شعلة الحقيقة . وتتفتح العين على شىء آخر ، هو نشدان الكمال فى هذا الارتباط ، وهو مالم تتنبه إليه مشاعر الشاب حين البدء فى التجربة ، فيبتدئ الشاب أخيرا فى تعرفه ، ويبحث الشاب فى هذا الموقف الفاتر عنه ، فيجد نفسه انه قد أصبح فى واد آخر وعالم آخر . أنه لم يتحر ، ولم يبحث ، ولم ينظر فى شىء جوهرى وقت التجربة ، واتجهت به طبيعته الجامحة وحساسيته الفوارة ، إلى نوع مقضى عليه بالزوال . إذا أكثر منه صاحبه تخم ومرض وزهد فيه .

وإذن فالذى سيكون من غير شك ، هو أن الشاب متى وجد نفسه فى هذا الموقف ، أو أنه متى عرف ذلك ، فأن حياته تنقلب فجأة إلى الضد ، ولا يكون للافتراق دواء ، ولا لرجوع تلك اللهفة أى سبيل . ولنترك الآن هذه الروابط المغشوشة ، لأنها كالفقاقيع تعلو وتنفجر على سطح المياه الكدرة من غير حساب . ولنرجع إلى الحقيقة الناصعة وهى بيت القصيد .

نعم لنترك ذلك النوع من الروابط ونتمشى الهوينا فى طريق التجربة ونفترض وجودنا مع الشاب والفتاة .

نحن نعرف ، ويعرف الشاب كما تعرف الفتاة ، أن التجربة هى امتحان دقيق واختبار واسع . يوضع فيه الشاب وتوضع فيه الفتاة موضع التلميذ الذى يجتهد فى آخر السنة الدراسية فى جواز الامتحان . والفرق بين الحالين، أن التلميذ ينال شهادة من شهادات دراسية ، ليدخل معترك الحياة . أما شهادة هذه التجربة وذاك الامتحان . فهى شهادة (الرضى والقبول) . فما هو التحضير الذى يقوم به الشاب ، وتقوم به الفتاة ؟

أنه لأجل أن يجتاز الشاب الامتحان ، يتصنع الدبلوماتية فى معاملته ، فيحسن اختيار الألفاظ ، ويحسن ارتداء ملابسه ، ويروض نفسه على الحلم والدعة ، ويتصيد الفكاهات والنكات المفرحة ، ليضفى على مجلسه المرح ، ويتظاهر بالمودة والحب لحماته ، وأخوة فتاته ، إلى غير ذلك من المعاملات . ويكون معها فى جلساته متحدثا عن نفسه كثيراً ، فهو الكريم الجواد لإخوانه وجيرانه وخدمه .

وهو الشجاع الشهم فى الحوادث ، التى ربما قد يكون قد قرأها فى المجلات أو الروايات ، ويتخذها لنفسه وقائع هو بطلها .

وهو العالم الكبير فى كل فن ، وفى كل علم .

وهو الأصيل العريق فى أهله وأرومته . ثم يحيط نفسه بهالات منوعة من المجد والتقدير ، حتى يصل بذلك إلى تقليد نفسه ذلك الوسام المعروف ، أو البراءة المنشودة (شهادة الرضى والقبول)

والفتاة تتخذ الأهبة لهذا الامتحان ، بترتيب حجرة الجلوس ، وتنظيف كوبة الماء ، ووضعها فى طبق نظيف ، وتقدمها حين الطلب بنفسها بطريقة مرضية .

وهى المجتهدة فى ذلك اليوم الذى يشاركهم فيه الجلوس على المائدة . فترتب وتنمق . وهى التى تصرف مصروفاتها كلها فى هندامها وكيه وغسله ، وأدوات زينتها ، لتظهر مثالا للنظافة ولتكون فى منظرها أشبه بالباقة .

وحينما تكون معه فهى الحياء والخفر . لا يرتفع لها صوت عاليه ، ولا تهتم لشىء خارج عن نطاق الجلسة . تراها مبتسمة مستبشرة . فرحة مرحة ، يتهلل وجهها إذا تحدثت أو تقابلت . تعمل على مايرضيه ، وتتحاشى كل مايغضبه . إذا وصف البيت ، كانت هى سيدته . وإذا وصف الصرف ، كانت هى أستاذة الاقتصاد ، التى لا تكاف رجلها إلا القليل ، والمافه من المصاريف .

وبين هذا وذاك يحذر الواحد منهما صاحبه ، ويحرص على كتمان ما قد يكون فيه من صفات النقص . وغير المعقول أن يتحقق الواحد ما فى الآخر مما يناقض هذه الأقوال .

ستنتهى التجربة ، ويأتى بعدها الدور الآخر وتتم فيه عقدة الارتباط ، وقد نجح الطالبان

فى الامتحان . هنا فقط ، يشعر كل منهما بأن حملا ثقيلا قد ألقى عن كاهله . وصماما متيناً قد رفع عن نفسه . ويرى كل منهما أنه قد أصبح بعد ذلك فى حاجة إلى الاسترخاء بعد الجهد ، أو الاستجمام بعد التعب . أو الحرية بعد تلك القيود . لأن الوصول إلى النتيجة المطلوبة أوجد الاطمئنان فى النفس ، وأزاح الانفعالات المختلفة التى كانت موجودة عند كل منهما .

سنرى الفتى الذى كان يتعمل حسن الملاقاة فاتراً واجماً . وستنقلب الوداعة والظرف والأناقة إلى الضد . وستبرد الحمية والتكالب ، وسيقع الكلام الذى يصدر من القلب « حراً » موقعاً غير منتظر . وستتغير المعاملات . وسنرى الفتاة التى كان الخفر والحياء ملازماً لها ، تضيق ذرعا بالجلوس فى البيت . وأن الاقتصاد المنزلى كان كلاماً ، وترتيب البيت كان ادعاء . فهى لا تعرف طبخاً ولا غرفاً ، لأنه لم يرها تطبخ أو تغرف . ولا تعرف حتى رتق جوربها ، أو صنع فنجان من الشاى ، أو غلى رطل من اللبن . وهى تلك الفتاة التى لم تعرف ترتيب البيت فتترك حجرة نومها مبعثرة ، حتى يجدها زوجها كما تركها عند ما يعود إليها فى المساء . وقد ذهب البشر والمرح إلى غير رجعة ، وحل محلهما الارتباك والضعف ، وأسفرت الحقيقة بعد انكشاف الغطاء .

تلك حالة أولى ، وقد تبين منها الغش والخديعة والتغرير والادعاء ، وستكون نتيجتها رد فعل فى النفسين ، وسيكون بعد رد الفعل هوان الرابطة وتضعضع الصرح . ومتى لحق بالرابطة هذا ، عرفت أنت كما أعرف ، تلك النتيجة لهذا الزواج .

وهناك حالة ثانية بل مأساة أخرى تظهر من استعمال مودة التجربة فى بعض الحالات .

ذلك أن الشاب عند ما تتملكه تلك الإحساسات النفسية المثيرة ، لا يقوى على كبحها فينتهز ضعف الفتاة فرصة ، فيؤكد لها المواثيق على أنه صار لها وصارت له . وأنه لا توجد قوة تحول دون ارتباطهما . فيغرر بها تحت ظل العبارات المغرية ، والألفاظ الخلابة ، والوعود الجذابة وبالعكس .

والفتاة مهما بلغ بها الحرص ، ومهما استعملت التحرز ، ومهما حاولت التمنع ، فإنها لا تقوى على مقاومة الحيل والمغريات ، التى يبتدعها فكر شاب تقوده فورته الحسية ، وتملك زمامه قوة الغريزة ، فيدخل فى روعها تصديق ذلك الشاب وتطمئن إليه ، وتلين قناة المقاومة فيها ، فتضعف وتسترخى . فإذا وقعت الواقعة وتم الأمر ، تقهقر الشاب بعد تقدم ، وجبن بعد جرأة ، وكذب بعد ادعاء الصدق . وأخلف بعد توكيد الوفاء .

فإذا ما طولب باتمام الرابطة رأيته يقول عجباً : هل يصح أن أرتبط بهذه الفتاة ؟ وإذا

قيل له ، إنك أيها الشاب قد جعلت طريقها زلقاً فوقعت ؟ فيقول : ما دامت بهذه السهولة فلا أمان لها ! ثم يترك فريسته تتخبط فى خيبة الأمل بغير رحمة ، ويفر إلى حيث لا يقع نظره عليها بعد ذلك وهنا قد تجدُّ حالة يخشاها الشاب ، فإذا أجبر على التزوج بهذه الفتاة فلن تكون الرابطة أكيدة ولا سعيدة ، لأنها حدثت لتفادى ضرر ، وسيكون الخروج منها مبكراً متى فاتت أوقات الجريمة .

والفتاة ماذا سيكون مصيرها إذا لم تجد هذه الحالة ؟ هل تجد من يأكل بقية فريسة الذئب ، أو يلعق مكان الكلب ؟ وهل إذا وجدت يكون من نوع كانت ترضاه الفتاة لو أنها لم تقع فيما وقعت فيه ؟ طبعاً لا . وهناك غير ذلك من هذه المآسى نوع آخر يبتدئ غرسه فى بدء فجر التجربة . ذلك أن كثيراً من الفتيات عند ما يدخلن فى دور التجربة تضطر الواحدة منهن لداعى اتقاء سوء السمعة أو لداعى المفاخرة ، بأنها وصلت إلى أمنية التزوج ، أن تعلن بين صديقاتها وأترابها ، نبأ خطوبتها . وتنتهز كل فرصة تجمعهما بإحدى معارفها ، أو صويحباتها ، فى الطريق أو البيت ، أو مكان عام ، إلى تعريفهن عليه ، والتحدث إليه .

ولما كان أمر كل فتاة لا يخلو من استخلاص واحدة أو اثنتين من الصويحبات ، تتوافر فيها أو فيهما علائم المودة مع الفتاة ، فان الظروف سوف لا تباعد بينهما وبين مرافقة صديقة فى سهرة أو رياضة ، وسيظهر الشاب فى هذه الحالة بالمظهر المحبوب ، إذا كانت تلك الصديقة تختلف عن فتاته فى مرتبة الحسن ، أو المكانة الأدبية ، أو كانت تزيد عليها فى مزية العلم ، أو غير ذلك ، لأن وجودها فى هذا الوقت بجوار الفتاة يكون أشبه بمصباح قوى النور بجواره شمعة ، وهذا من شأنه أن يلفت النظر ، بل يجعل النظرة إلى فتاته تقل ، كلما أمعن فى صديقتها ، فإذا وصلت هذه النظرة إلى النفس ، وتحرك بها الشعور ، فأنها تتحول عن هذه إلى تلك ، ولا يبعد أن يتحول الشاب بعد قليل ، ويترك فتاته تعانى خسارة الخطيب والصديقة ، كما تعانى آثار تسامع الناس لهذا الخبر ، وما يترتب عليه من استنتاج ، سوف يحز فى نفس الفتاة ، وسوف يكون من العوائق فى طريق مستقبلها ما شاءت له الحياة .

وأخيراً : لقد بينت لك الحالات التى يتعثر فيها هذا النوع الجديد من أخلاق الغربيين ، والذى استعمله أو كاد يستعمله كل الناس فى المدن ، تمشياً مع المدنية الرخيصة ، من غير مراعاة لقواعد الدين ، ومن غير نظر للقومية الشرقية ، ومن غير تقدير لقواعدنا الاجتماعية . وقد رأيت فى كل منها أن الخطر يكتنفها ، وأن الهدم يلازم بناءها ، وأن نهايتها كلها إلى الافتراق أو إلى المآسى المخزيات .

مثل من أمثال :

رأى أحد الشبان فتاة مستكملة الأنوثة فبهره منظرها ، وجذبه مظهرها . وآلى على نفسه لتكونن له ولو كانت فى عليين . ولم يستعص على الشاب طريق الدخول إلى منزلها عند ماتذرع بغرض الارتباط . ولم يقف دون الجلوس إليها مانع بعد أن قدم (الدبلتين) اللتين تعارف الناس فيما بينهم الآن على أنهما أداة الاتصال وجواز الوجود فى المنازل تحت ستار الخطبة واعتزام الزواج . وكثر دخول الشاب وخروجه ، وكثرارتيادهما معا ماشاءا من الملاهى والمتنزهات ، وطال الزمن . وكان لهذه الفتاة عم من سكان القرى دفعته أعماله إلى زيارة أخيه فى مصر . فرأى غريباً يدخل العرين بغير إذن ، ويقتحم الحمى وهو موجود . فتساءل فى تذمر . من هذا ؟ وما سبب وجوده ؟ . فقيل له إنه خاطب فلانه . . . فقال عجباً . وهل معنى الخطبة أنه يدخل على محرم بغير إذن وينفرد بمحرم دون غيرة ؟ ولم لم يعقد حتى يباح له ما يريد ؟ فقيل له هكذا العادة . وهذا ما يسير عليه الناس . فقال وكم لهذه الخطبة من أجل . فقيل له لقد مضى عليها سنة الآن ! ! ! فقال الرجل وهل لم يستوفيا تجربة بعد ! فلم يحر أحد جواباً .

عند ذلك لم يحتمل الرجل فنادى الشاب ، وبعد حديث سأله . ومتى يكون العقد ؟ فبهت الشاب وأحس بفجاءة التساؤل وظهر عليه التهرب من تحديد الزمن . لكن القروى ضيق عليه الخناق وحصر نقطة التساؤل . ولم يطل الحديث لأن الشاب بعد أن راوغ بعض الزمن انسحب من المجلس متظاهراً بالغضب وخرج ولم يعد .

سقط فى يد الفتاة وأحزنها ما وقعت فيه ، واستولت عليها حيرة حادة ، أزعجت والدتها وأقضت مضجعها . وعندما حاولت تعرف السبب هالها ما عرفت ، وأذهلها ما وقفت عليه . لقد خسرت بنتها أثمن ما تعتز به ، وهرب السارق تحت ظل الغضب المتصنع . ولما راجعته والدة الفتاة وأرادت مداواة هذا الجرح ، لم تجد لديه النخوة والشهامة الكافيتين لستر الموقف ، وبعد محاولات ، ومداورات ، ومساومات ، أمكن للوالدة أخيراً الوصول إلى ترضية الشاب بما لديها ولدى ابنتها من حلى ونقد ، مقابل عمل عقد وإقرار بالدخول عمره سبعة أيام فقط ، أعقبه عقد آخر بالطلاق . وكانت خسارتان أدبية ، ومادية . وقع الغرم فيها على الفتاة . . .

إذن فلا شىء أصون للنفوس وأسلم للأعراض وأبقى على مستقبل الرابطة ، من أن نعود إلى ما أمر به الدين القويم ، وهو خير ما يرجى فى هذا السبيل — من النظر إلى المخطوبة مرة ومرتين ، ولا بأس من مجالستها مع ذويها فقط ، وعدم السماح للخطيبين بالانفراد أو التريض فى الفلوات ، أو ارتياد الملاهى . وقد ثبت أن كل خطيب مجد فى خطبته ، يبتغى زواجا لقدسية الزواج ، يغمره السرور لهذا الحرص ، ويتشبث بتمكين هذه العلاقة ويعمل على احترامها فى مستقبل الأيام

الوساطة الى الزواج

فى المعاملات التجارية ، توجد وظيفة لطرف ثالث هو السمسار أو الوسيط ، الذى يقوم بعرض البضاعة للبائع على المشترى حين يجده بعد البحث ، ويتولى الدعاية وقطع الثمن ، لقاء أجر معين يأخذه من البائع والمشترى بعد عقد الصفقة .

وليس للوسيط التجارى مال ولا سلعة ، بل عدته كلها ، الكلام ؛ وبقدر ما يكون له منه ، تكون قدرته على التحصيل المادى .

ومثل هذا الوسيط تماماً وسيط الزواج ، الذى يسمى فى العرف «الخاطبة» أو « الخاطب» لأن كثيراً من الرجال قد امتهنوا هذه الحرفة الآن ، وأولهم أولئك الوسطاء التجاريون .

ووسيط الزواج ينقسم فى نوعه إلى ثلاثة :

١ — الوسيط المأجور (المحترف) .

٢ — الوسيط بالصدفة .

٣ — الوسيط الصديق .

وسنتكلم عن نتائج الارتباطات التى تتم بوساطة هؤلاء واحدة فواحدة :

الوسيط المأجور

فالوسيط المأجور ، أو الخاطبة أو الخاطب ، هو من يحترف هذه الوساطة ، ويجعلها لنفسه حرفة ارتزاق ، تتوفر له منها مطالبه كلما نجح ، ويحرم من متعاته كلما أخفق . ولذلك فإن الوسيط يجهد نفسه فى تزويق الكلام ، واختيار حيل الاقناع ، واقتناص الأوصاف المغرية ، ليستعملها حين اللزوم . وهو يعلن عن نفسه فى كل مناسبة وفى كل مجلس ، لينبه المحتاجين إليه . وهو يدخل البيوت من غير استئذان ولا معرفة ، ما دام يعرف أن فيها فتاة أو سيدة ، مؤهلة أو مرشحة للزواج .

وهو تجارى محض ، يجعل همه الأول عقد الصفقة ، حتى يصل إلى الأجر المطلوب ، والجزاء المرغوب . وهو أنانى ، يسعى وراء ما يعود على نفسه بالفائدة ، دون مراعاة لما قد يترتب على أنانيته من ضرر للغير .

وهذا الوسيط أو الخاطبة بالمعنى الأعم ، يقتصر عمله على المدن لأنها مسكونة بأصناف شتى من طبقات الناس ، الذين لا يعرف بعضهم بعضاً ، لاتساع المدن وكثرة ساكنيها .

أما فى القرى فليس للخاطبة فيها وجود ولا عيش، لأنها مكونة من عائلات معروفة القدر والعدد، والأشخاص والأمكنة.

وراغبو الزواج سواء أكانوا من الرجال أم النساء، هم الذين يطرقون باب الخاطبة، رجاء تمكينهم من الوصول إلى ما يريدون، وبيتها كمكتب الأعمال. يدخله المحامى، ويدخله الطبيب، ويدخله الموظف، ويدخله العامل الصغير. كما تدخله السيدات اللواتى يردن الأزواج، أو اللواتى يكن أمهات لفتيات استكملن أنوثتهن وصرن أهلا للزواج.

ولقد كان خيراً، ما تفعل الخاطبة من تمكين للمعرفة، وتوصيل للناس إلى الروابط، لو أنها أخلت عملها من الشوائب الضارة، ورفعت منه الأنانية الشخصية، ومنعت نفسها من أن تكون مخلب القط. ولكنها وهى الجاهدة فى ذلك، لن تكون سبباً فى سعادة مطلوبة، ولا رابطة مستديمة، ما دامت تميل إلى الناحية التى تلقى عندها ما تريد من مال، وعلى المستقبل فى نظرها كل عفاء.

يذهب إليها الرجل فيعرض عليها رغباته، ويصف لها ما يريد أن تكون عليه الزوجة المرغوبة، وينفحها ما ينفح من مال حسب ما يتمنى أو يأمل. ولكن هذه الخاطبة لا تسأل عنه هو، ولا تعرف عن أمره شيئاً، بل تتحدث بمقدار ما توصل إليها منه أو بما مناها به من مكافأة. وتدخل البيت الذى تعرف أن فيه فتاة تستحق الزواج. فتزف إليها أو إلى والدتها بشرى عثورها على الرجل المطلوب، وتأخذ فى تعداد أوصافه من طول وعرض، وقسامة، وهيئة ونظافة، ومظاهر، وربما لم تكن رأته لأن بعض الناس يكلفون الخاطبة بواسطة آخرين، كما تصف غناه وثراءه، ومركزه وعائلته، ولم تكن تعرف من أمره شيئاً.

والفتاة وأمها وهما من ألحا عليها ووجها إليها الرجاء تلو الرجاء. تكونان فى هذه الحالة كمن نجح فى قضية عسيرة، فيغدقان عليها مما يقدران عليه، وكلما أعطيت زادت فى ملحقات الوصف زيادة ترضى العطاء. ولما كانت الخاطبة هى الوحيدة وصلة الاتصال بين رجل غريب وفتاة وأم فى بيت آخر، فانها تتخذ ذلك وسيلة للتغرير بالطرفين، وتكران الصفات التى لا يريدها أحدهما فى الآخر، والتستر على ما يكون من مانع لدى أحدهما.

وهى تواصل اعطاء أخبار لكل منهما عن الآخر، وتجيب عن الأسئلة التى توجه إليها كأنها خبيرة بكل شىء، أو كأنها استفسرت وأتت بالردود من الجهة المختصة.

ولا يقتصر عمل الخاطبة على توصيل الرجل بالبيت الذى يحوى الفتاة. بل تقحم نفسها فى مؤامرات تكون نتائجها الإضرار بالطرف الثانى.

وعند ما يدخل الرجل بيتا تكون الخاطبة قائده ، فتلبسه من المظاهر ما تعرف أنه السبيل للقبول . وتلبس الفتاة من السمعة والوصف ،ما يحقق للرجل ما أراد . وهناك تكون فى أول جلسة مفتحة العينين ، خشية نظر شىء غير مرغوب فيه ، أوقول كلمة تكون خطرا على النتائج .

وعندما يجنح أحد الطرفين إلى الاستفسار والتحرى ، تنشط من وراء ستار ، حتى تصل إلى إعطاء أجوبة فى صالح الصفقة ، وتظفر فى النهاية بوضع ستار على ماقد يكون من عيوب ، حتى يصل الطرفان إلى عقدالارتباط ، وتصل هى إلى ما منّيت به من أجر ومكافأة من الطرفين .

ولقد حدثت مآس كثيرة من أمثال هؤلاء الخاطبات ، وصل كثير منها إلى ساحات القضاء الجنائى ، وأذكر منها على سبيل المثال ذلك الحكم الذى صدر بالأشغال الشاقة لمدة عدة سنوات ، على رجل تآمر مع خاطبة على الإرتباط بفتاة من إحدى العائلات ، تبين بعد العقد والدخول ، أنه عامل ميكانيكى بأجر يومى ، فى حين أنه قدّم تحت عنوان مهندس من عائلة موسرة معروفة ! وقد تبين بعد ذلك أنه عاطل اتخذ هذه الوسيلة للوصول إلى ماتحت يد الفتاة من مال بطريقة الاحتيال الخ ..

أما مارفع بشأنه الخصام أمام المحاكم الشرعية فهذا لايحد ولا يعد ولا يحصره كتاب .

ومثل هذه الروابط التى تعقد بوساطة الخاطبة ، بعضها ينكشف أمر ما خفى منه قبل الدخول ، فيفصم ما عقد من رابطة ، وبعضها يوجد الخصومات إذا تم الدخول .

وفى كلتا الحالتين تكون نتيجة واحدة ، هى عدم الوصول إلى الرابطة الشرعية المطلوبة ، والحياة الزوجية السعيدة ، وهى القصد الوحيد من الزواج . ذلك كله نهاية الارتباطات التى تتم على أيدى الخاطبات .

لكن هناك ماهو أدعى إلى الحزن والسخرية معا . فقد جنح هؤلاء الناس أخيراً إلى استعمال أحابيل غاية فى القحة ، وفى منتهى مايمكن من الخطورة ، وغاية من النذالة لا يمكن أن تكون إلا فى أمثالهم .

من ذلك أنهم يتفقون مع بعض من لا خلاق لهم من أنذال الرجال ، على استعمالهم أداة للغش والخديعة للعائلات ، مقابل أجور معينة . فتذهب الخاطبة إلى البيت الذى يحتوى فتاة نضجت أنوثتها ، أوسيدة فى مقتبل العمر فى حاجة إلى حماية رجل ، وتبدى من الأوصاف للنذل المأجور مايغرى أهل الفتاة أوالسيدة بقبول زيارته . فتأتى به على أنه رجل المستقبل المزعوم . وتقوم العائلة بواجب الضيافة والتكريم . ويرى النذل حرمات الغير ، ويستمتع بمجالسة المخدرات ، ومايتبع ذلك من حرمان ذويهما من الرجال من أعمالهم ، ثم تهيؤهم لمقابلته والاحتفاء به ، إلى

آخر ما يعرفه الناس من تكاليف وواجبات مادية وأدبية فى هذا المقام .

وبعد جلسة طويلة عريضة ، يخرج النذل مشيعا بكل أدب ، على أنه رجل المستقبل العتيد ، بعد أن تنفح الخاطبة بالهدايا المختلفة رجاء استمرار جهودها وانتظارا لحسن النتيجة .

فإذا كانت العائلة قد أبدت سخاء ، فإن ذلك يطمع الخاطبة فى تزويد هذه العائلة كل يوم أو يومين بكلمات مطمئنة ، ومفاوضات مزعومة لا أصل لها ، لتعطيل الأخذ والرد .

وإلا فأنها ستحضر نذلا غيره فى مرة أخرى .

هذه العملية تتخذها الخاطبة من النساء ، أو الخاطب من الرجال ، وسيلة لدخول البيوت والتغرير بذويها . وكما عملت فى هذا البيت تعمل فى البيت الآخر . وهكذا دواليك .

وإذا كانت واسطة السوء هذه ، تعرف عشرين بيتا أو ثلاثين ، وهو أقل عدد ممكن لمحترفة مثلها ، وتسخر تحت يدها نذلين أو ثلاثة ، فإن مايدره عليها هذا العمل يغريها بالاستمرار فيه ، وحبك الحيل والألفاظ التى يسهل إدخالها على العائلات .

ومن المؤلم أن ذلك قد أنتج سمعة سيئة لكثير من العائلات ، وأوجد مجالا للاستنتاج ، كان من نتائجه البوار والكساد للفتيات والسيدات ، وأوقع على ذويهن خسارات مادية لاقبل لهم بها ، وحرك فى نفوس الفتيات والسيدات شعور اليأس ، وعدم الرضى عن حالتهن إلى غير ذلك من المآسى الاجتماعية . من ذلك كله نرى أن وساطة الخاطبات أو السماح لهن بدخول البيوت غير مجدية ، فضلا عن أنها من أخطر ما يكون فى هذا المقام ؟

الوسيط بالمصادفة :

أما الوسيط بالمصادفة ، فهو ذلك الرجل الطيب القلب ، الذى لا يحب الخوض فى حقائق مرة ، أو المرأة الطيبة التى يكون لها فتاة أو فتيات وتحب أن تزرع خيرا لتحصد خيراً .

هؤلاء تتاح الفرصة ، لوجودهم فى مجلس للتحرى والاستفسار ، يكون قائما به أحد طرفى اتفاق جديد . فعند ما يُسأل الرجل ، أو عند ما تُسأل السيدة يُقرر الحسن ، ولا يقرر الواقع ، خشية أغضاب ضميره الطيب ، ولكنه لا يقدر ما قد يكون من نتائج خطيرة تقع على هذا السائل فى النهاية ، أملا منه فى أن الكتمان لما يعرفه يكون أدعى لخير الناس .

ولأن السائل سواء أكان الرجل الخاطب ، أم أحدا من قبل المخطوبة ، يعرف فى هذا المجيب (الرجل أو المرأة) طيبة القلب ، يقع فى نفسه مايسمع من خير ، موقع الحكم الفاصل . فينهى أمره مكتفيا بما وصل إليه . ويدخل فى الموضوع بجد حتى ينهيه .

ولكنه بعد أن ينتهى كل شىء ويصبح أمام الأمر الواقع ، سيقف على حقائق لم يكن قدحسب حسابها ، أوانتظر وقوعها . فتحدث الصدمة التى يخر أمامها صرح الرابطة منهاراً من الأساس . وقد أثبتت الحوادث التى بنيت على هـذه الأسباب أن أوقاتها تحدث دائما فى مستهل الروابط أو العشرة ، وقبل أن يخلق فى القلوب وداد . ولذلك يكون رد الفعل شديداً فى إنشاء الخصومات .

الوسيط الصديق

وهناك نوع ثالث هو الوسيط الصديق . وصداقته إما أن تكون لطرف واحد ، وإما أن تكون للطرفين . فإذا كان الأول فإن هذا الوسيط حينما تطلب معلوماته عن إنسان ، ويكون هذا الإنسان صديقا له ، تدفعه روابط صداقته إلى الانحياز إليه . فيذكر عنه الخير كله ، وينكر ما يعرفه عنه مما ينفر منه . وتكون معلوماته التى يعطيها فى صالحه ومرغبة فيه . وفى النهاية يكون الموقف كسابقه ، لا فائدة فيه للصديق ولا للسائل . لأن الرابطة التى ستعقد لم تستكمل عناصر الحقيقة التى تسند حياتها فى مستقبل الأيام .

أما إذا كان الوسيط صديقاً للطرفين ، فهذا منتهى ما يمكن أن يصل إليه مستفهم أو متحر أو راغب فى الوقوف على حقائق الأحوال .

هذا الصديق الوسيط سيقرر الحقيقة وسيقول الواقع ، ولا يعمى على أحد صديقيه ، لأنهما يهمانه ، ولأنه لا يرضى من قلبه أن يضرهما .

فإذا ارتضى كل منهما بالآخر على ضوء ما سمعه وعرفه ، ووقف عليه من هذا الصديق الوسيط ، كانت الرابطة التى تبنى على هذا الأساس من المعرفة الحقة ، والصراحة السافرة ، خير الروابط وأمتن العقد ، التى كتب لها الاستمرار وقرنت بالسعادة الدائمة . لأنها وجدت بأحسن الوسائل وهى وساطة الأصدقاء .

وأخيرا

فقد تبين لك ما تجره وساطة الخاطبات المأجورات ، اللواتى لا هم لهن إلا الوصول إلى الأجور والمغانم ، ولا تهمهن النتائج ، وتبين لك قيمة الوساطة العابرة أو وساطة الصدفة ، ثم رأيت ما يدخر من أمل مستقبلى ، على وساطة الصديق الذى يهمه الطرفان .

التزوج بالأجنبيات

كل سيدة وآنسة نشأت فى مملكة غريبة ، فهى أجنبية ولو حضرت للإقامة فى مصر .

وكل آنسة أو سيدة كتابية لم تولد وتشب فى مصرنا ، ولم تكن من أبوين مصريين فهى أجنبية . وإن الذين يجنحون إلى الارتباط بالأجنبية من رجالنا هم :—

١ — الشاب المصرى الذى رحل فى طلب العلم إلى المعاهد الغربية ، سواء كان على نفقته الخاصة ، أو على نفقة الحكومة كمبعوث .

٢ — الرجال الأثرياء الذين أعتادوا قضاء معظم العام فى الخارج .

٣ — كبار الموظفين الذين مكنتهم مراكزهم المالية والعملية من التصييف فى الخارج .

٤ — بعض الذين يجذبهم بهرج المناظر التى تكون عليها أجنبية حلت هنا بيننا . تحت ستار الفن أو السياحة .

وقبل أن أدخل فى جوهر الموضوع ، يحسن بى أن أصفى هذه الأصناف فأخرج منها أولئك الكبار من الأثرياء والموظفين الذين غمرتهم النعمة ، وتربوا فى أحضان المدنية ، وخلعوا عنهم من أزمنة قديمة ، رداء الشرقية ، ومالها من قومية ، وعادات الدين وقواعده وما فيها من التزامات . فهؤلاء قد اعتادوا كل عادة غريبة ، وليس لنا عليهم من سبيل .

لكن الذين نعنيهم فى نصحنا ونود الخير لهم مستقبلا ، ونبنى عليهم الأمل ، ونرجو لهم حياة زوجية سعيدة ، هم أولئك الشبان الذين أوجدتهم ظروفهم فى هذه المعامع ويخشى عليهم . فإليهم نتحدث ، وعن أخوانهم الذين قاسوا مرارة السقوط نروى .

* * *

ليس من شك فى أن من يلقى نظرة عابرة على لونين أحدهما أبيض والآخر أسود ، يسارع من غير إمعان ولا روية إلى تقرير نوع كل منهما .

ومن البداهة أيضاً ألا يغرب عن الناظر أن هذين اللونين قد تكوّن كل منهما من عناصر مختلفة . ولكن من العبث أن يفكر الإنسان حين يقع نظره على لون أسود ، فى أنه لم يكن أسود ، وكم تكون نسبة سواده ، وهل هو قاتم أو فاحم ؛ أو غير ذلك مما يختص بأصل عنصره ، ولا يختص بتعريفه وميزته بين الألوان ، لأن ذلك سيضيع وقته ، ويضعف جهده ، ويضطره إلى الدخول فى تفصيلات غير مقصودة من تعرف نوع لون بين الألوان .

وهذا التشبيه نفسه ، وما يماثله من معرفة الحلال والحرام وغير ذلك ، هو بعينه الذى يماثل الموضوع الذى نطرقه الآن . لأنه يجمع بين صنفين مختلفين من الناس ، أحدهما شرقى والآخر غربى . ونقول مختلفين ، بل ومتباينين ، لأن الرجل الشرقى نشأ فى جو ، وتربة ، وعادة ، واجتماع ، ودين ، وقومية وقانون يخالف مانشأت فيه وعليه الأجنبية .

إن الدول الغربية التى يوجد بها عادة أبناؤنا وكبراؤنا ، تخالف فى وضعها الطبيعى على سطح الكرة موضع بلادنا من حيث المناخ والتربة .

فالجو مخالف ، والماء مخالف ، والأرض مخالفة . وما تنبته أرض البلاد الشرقية المعتدلة الهواء أو الحارة ، لا يمكن أن ينبت فى تلك الباردة الرطبة ذات الغيوم والثلوج والظلام الطبيعى . حتى الحيوان ، فإنه عندنا يخالف فى شكله ، ونوعه ، حيوان تلك البلاد . ووحش بلادنا يخالف فى نوعه وحوش تلك البلاد .

وبالتبعية يختلف الآدميون الشرقيون ، عن الآدميين الغربيين ويمتد هذا الاختلاف إلى الدم والتغذية والأخلاق واللون ، كما يختلف فى الاجتماع ، والدين ، والقومية والعادة . ومهما قلد الشرقيون الغربيين ، فإنه لا يمكن أن تهدم الحواجز التى أقامتها الطبيعة فى التكوين ، وسيبقى الاختلاف بينا إلى يوم الدين . (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولكن لا يزالون مختلفين) .

ولقد وضعت القوانين للأمم مسايرة لطبائعها وعاداتها ، ونحن على الرغم مما استقيناه من القوانين الغربية قد احتفظنا — ولو فى نفوسنا — بجوهر الدين ووضعنا من القوانين ما يتمشى معه بالقدر الممكن ، ويتفق مع طباعنا وقوميتنا ، وفى هذه القوانين ما يختلف كل الاختلاف ، ويناقض كل المناقضة ماعند الغربيين .

فهناك مثلا ليس فى القانون مايؤاخذ الرجل إذا وضع قبلة حية على فم آنسة أو سيدة ، فى أى مكان أو أى زمان .

وهناك فى الاجتماع ، لا يجد الرجل له من الحقوق مايطلع به على خطابات زوجته ، ولا علاقاتها ، كما أنه لا يحق له أن يغار على زوجته ، والويل له إذا أقدم أو حدثته نفسه بشىء اسمه الغيرة ، لأنها ستكون سبباً من أسباب الطلاق .

وهناك تقتل المرأة الرجل ، وتدعى أمام المحلفين ادعاءات عاطفية تستثير شعورهم ، فتبرأ ساحتها ويحميها القضاء .

وهناك يهجم الرجل على زوجة الآخر ، ويراقصها ، ويحاصرها تحت نظر زوجها ، فلا

نجد فى ذلك غضاضة ولا استثارة ، بل إنه ليسر إذا كان الراغبون فى مراقصة زوجته يكثرون .

وهناك تدعو الزوجة أصدقاءها ، وربما لا يعلم الرجل إلا حينما يدخل بيته ، فيجده حافلا ، أو يجد امرأته تجالس صديقها فى جلسة خاصة ، وربما كان مشغولا فيسلم ويخرج ولا شىء هناك

لكننا هنا وفى بلادنا ، لنا دم حار ، وفينا الغيرة على العرض ، وفينا شهامة الرجولة ، وقد صادقنا عليها ديننا وحماها القانون وفينا الحياء وفينا الخجل ، ولنا طباع وعادات تغاير كل هذه العادات . فالرجل منا لا يسمح لرجولته بأن تؤخذ منه امرأته ، ثم يراها فى حضن رجل آخر يخاصرها ويراقصها ، كما لا يسمح لنفسه أن يقتطف قبلة من فم آنسة أو سيدة ، مهما كانت علائقه بها ، على مرأى من الناس ، حتى ابنه الصغير أو ابنته الصغيرة .

ودينا يحثنا على هذه الغيرة ويطالبنا بالحياء . فأين نحن من هؤلاء فى هذا المضمار ؟

وهناك المرأة تعمل وتشتغل لتجمع مهرها الذى يأتى لها بالرجل ، ولكن قوميتنا تمنعنا من أن نأخذ من مال المرأة شيئاً ، ودينا يحتم علينا دفع المهور .

وعندنا يجب أن تتوافر فى الزواج عقيدة الدين ؛ فالمسلمة للمسلم ، ولكن هناك نجد الناس غير مسلمين . والدين يحثنا على إيجاد الأمانة والأمان بين الزوجين ؛ فأى أمان وأمانة بين مسلم وذمية والقرآن يقول : (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) وقال (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض) . وهكذا يكون الاختلاف متجسما بيننا وبين الغربيين من الأساس .

لكن بعض شبابنا يغرهم البهرج ، ويجذبهم المنظر الوضاء ؛ فيبهر بصرهم ويحيد بهم عن الحقائق ، ويقعون فى مخالفات للطبيعة ، فتقوى عليهم الطبيعة ويرجعون بالخسران .

يذهب الطالب أو الرجل الغنى إلى البلد الأجنبى وهو من تعرف نشأة وتكويناً ؛ فما أن يحط الرحال فى بلد أجنبى ، حتى يرى ما لم يكن رآه ؛ تثور فى نفسه طبيعته الشرقية أولا نتيجة الانتقال من طبقة محافظة إلى طبقة ليس فيها أى رادع ، فينكمش بادئ ذى بدء ، ثم يدفع بعوامل الإغراء ، وحب الاستطلاع ، فيتقدم إلى الدخول فى هذا المعترك ، وكل خطوة يتقدمها ، توازى تنازلا فى طبعه وقوميته ، حتى إذا وصل ، يكون قد خلع عن نفسه رداء القومية ، والطبع ، والعادة ، والدين ، وتعرى من كل ما هو شرقى محتشم ، وتقمص لباساً آخر ، سداه ولحمته من طباع وقومية أخرى ، وهو فى هذا مقلد متطبع ، وغير أصيل ولا مطبوع .

يكتنفه جو كله زهو ، ويحيط به مدنية لا عهد له بها ، ويمشى وراء تلك الفقاقيع الآدمية

التى تطفو دائما على الوجه المألوف ، وأنه ليتعرف على كل آنسة أو امرأة من طبقة واطئة لا عصبة لها ولا نفع ، ولا خير فيها لوطنها ولا لعائلتها ، ولا للشبان الذين يعرفونها ، لأنه لو كان فيها أى خير ما وقعت صريعة أمام شرقى ، ولا رضيت بأن تكون مطية له ، لأنها تعرف فى قرارة نفسها ، أنها لو كانت غير ذلك ، لترفعت عن هذا السقوط ، وهذا الصنف من النساء موجود فى جميع الممالك ، وموجود هنا فى بلادنا ، وهو نفسه الذى يحوم حول الأجانب من الرجال ، وهو ما اصطلحنا على تسميته (بأرتيست الحرب) وهو الصنف الذى يعانى منه الشرقيون آلام السمعة السيئة بين الجنود ورجال القوات الأجانب ، لزعمهم أن هذا الصنف إنما هو صنف سيداتنا الشرقيات .

وكما أن المال هو سبب سقوط تلك الطبقة عندنا ، فهو كذلك سبب الاتصال بالأجنبيات . فالشاب المصرى يصرف عن سخاء ، ويستعمل الكرم الذى لا عهد للأجنبيات به ، فتحوم حوله الأجنبية كما تحوم النحل على خميلة من الزهور . وهى فى عقلها وفى تفكيرها وفى طريقتها وفى تكوينها مغرية . فما إن تضع شباكها حتى توقعه . ومع أنها هى الطالبة ، فإن المسكين يعتقد أنه البطل المغوار ، الذى فتح الميدان واحتل الحصون وملك القلاع !

يعتقد المسكين أنه اصطاد العصفور الزاهى ، المخلوق من حيوية رقيقة ومزاج دقيق ، ومهمته وعزيمته هى المحافظة عليه ورعايته .

هى تعرف أنها ملكت . وتعرف أن شخصيتها سيطرت ، وتعرف أن صاحبها وقع فى حبائلها حتى سلم . وهنا فقط تبتدئ الطباع الأصيلة فى الظهور .

إنها على الرغم من حقارتها فى بيئتها ، فإنها تتمسك بقوميتها ، وتحافظ على عوائدها وطباعها ، وما داما هناك فهو رجل كرجال هناك ، وهى امرأة من نساء هناك . لأنه لم يتغير لديها شىء ، بل ضمنت رجلا وضمنت مالاً يصرف عليها .

ولكن الطامة الكبرى عندما يعودان إلى مصر . فالطالب سيوظف ، وسيرفع عن نفسه ذلك اللباس الغريب شيئا فشيئا . وسيرى أن زوجته قد باعدت بينه وبين أهله ، وأوجدت علاقات مع من ترى من أبناء جنسها ، والجنس للجنس أميل .

وسيرى أن ماله وإيراده قد استولت عليه ، ولا يتمكن من التصرف فيه إلا بالقدر الذى يسمح له به ، لا اقتصادا فى الصرف ، وإنما توفيراً لنفسها .

وسيرى أنه قد انفرد بين إخوانه بسمعة وعادات وطباع ، سرعان ما يهم الطبع إلى الخروج عليها . وسيرى أن زوجته العنيدة لا تأكل أكل بلاده ، ولا تستسيغ طباع أهلها .

وسيرى فى المعاشرة الزوجية نوعا شاذا داخليا ، تتفتح عينه عليه بعد حضوره إلى مصر . ولم يكن له به عهد قبل ذلك .

وسيرى كثيرا ويعرف أنه أخطأ القصد وتنكب الطريق .

فأبوه الذى أغرقه بعطفه وماله ، وأمه التى كانت تتطلع إلى رؤيته بحنين غريزى وشوق متين ، وأخته تلك الصبية الوادعة التى ترجو زيارته ولا تقدر ، وأخوه الصغير الذى يحتاج إلى عطفه وأفراد عائلته مبعدون عنه .

وهل يمكن لشاب مصرى أن ينسى ذلك كله ، ثم يغرق فى المتناقضات على طول الخط ؟

أنه سوف يفيق ويعرف الفروق ، وسيندم على موقفه ، كلما رأى شابة مصرية تتأبط زوجها المصرى فى هدوء ودعة .

وسوف يندم ، لأنه يرى أن زوجته التى سلبته سلطان الرجولة تمثل أمامه قوة السلطان ، وتتخذ كل الوسيلة التى تجدها أمامها ، لنفسها فقط دونه . وليس له حق الاعتراض .

لكنه عند ما يندم ستكون نهايته واحدة من اثنتين . إما موته على يدها ، وإما فقره وخسارته للمال . والأمثلة على ذلك كثيرة و كم نشرت منها الصحف واتخذتها لها مادة معظم المجلات . لكنى استخلص من كل ماسمعته وقرأته أو عرفته عن قرب ، أن كل ارتباط بأجنبية كانت نهايته الأنواع المختلفة من المآسى والخصومات .

وليس زواج المصرى بالأجنبية مقتصراً ضرره على الزوج المصرى فقط ، بل يتعداه إلى أهله . لما تبين أنه يقطع الصلة ويوجد النفور ، ويتعداه إلى نوع وطنى آخر ، هو بوار بناتنا المصريات ، وهو عمل أقل ما يوصف به أنه خيانة ارتكبت ضد الوطن ، من تكسيد سوق بناته ، وتقليل أبنائه ، إذ قلما نعرف أن أجنبية رغبت فى الذرية أو أنجاب أولاد .

أما ما يوجد بين الرجل الشرقى وزوجته الأجنبية من انفعالات ومشادات قد تبنى على اختلاف وجهات النظر ، فذلك نكل أمره لكل قارئ يقف هنيهة أمام كل تلك المتناقضات التى تجمعت فى بيت واحد .

مثل واحد

بُعث أحد الشبان إلى بلد أوربى لدراسة نوع من الدراسات . وقررت له شهريا مبالغ يعيش بها . وكان له فى مصر والدة أرمل وأخوات يتيمات . فتعهدهن فى مستهل دراسته وداوم على إرسال ما يمنعهن من الحاجة . وكان له قبل أن يُبعث اتصال وثيق بفتاة لعائلة قريبة وعد بالارتباط بها بعد إتمام دراسته . فلما مضت السنة ، عرف أن ما كان يرسل منه لعائلته قد

ضمر وضغط ، كما عرف أن ما كان يحافظ عليه من اتصال بتلك العائلة ، قد قل بل ندر ثم انقطع .

وبعد مضى سنة أخرى حضر الشاب ترافقه فتاة قال عنها إنه تزوجها . فسكن بها فى فندق أولا ، ثم فى مكان فخم بعد ذلك . ولم يحدث نفسه بأن يدخلها منزل العائلة ، أو يريها لأهله ، تخوفا مما يترتب على ذلك من نفور ، أو يبنى عليه من تحقير له فى نظر فتاته العتيدة .

ولقد عرف أنه انقطع عن أهله ، كما انقطعت قبل ذلك صلته بالعائلة القريبة ، وعاش فى عزلة مع فتاته ، لايدخل بيتهما إلا معارفها ، ولا يزورهما إلا بنو جنسها . ولا يحتفلان بعيد اسلامى ، ولا يحييان ذكرى قوميه . ومضت سنة أخرى ، عرف عنه أنه استدان كثيراً حتى رزح تحت ثقل الدين ، وقد تخفف مما يملكه تسديدا لنفقاته ولم ينجح ، وأنه قد حصلت بينه وبينها خصومات لا يعرف أحد طبعا ماهيتها ، كانت نتيجتها لجوء الشاب إلى والدته والإقامة عندها فى منزلها المتواضع ، وترك البيت الفخم بما فيه لفتاته ومن تريد . . .

حاولت الأم وحاول الأخوات ، الوقوف على شىء . ولكنه صدهن فى عنف ، ومنعهن فى حزم ، وثار على من أراد فتح هذا الباب .

ولما يئس من إرضاء فتاته عليه ، وقبولها رجوعه إليها ، اتفقا بواسطة أجانب يعرفونها على الانفصال فكان .

وهنا فقط عرف منه أن هذه الفتاة كانت من المهملات اللواتى يستثرن عطف الشرقى لفقرهن وعوزهن ، وأنه ما شاها سنة قبل حضورهما وارتبطا بعقد مدنى . وعند ما حضرا إلى مصر منعته من الاتصال بذويه ، وشغلت أوقاته بتعريفها هذا البلد . وأنها سرعان ما عرفت كثيرا من أبناء جنسها وتزاورت معهم ، وأنها وقعت أخيرا فى علاقة واحد منهم ، ألهاها عن ارتباطها ، وشغلها عن فتاها الأول . وانتهى الأمر بينهما بمصارحتها له بالاحتقار ، والرغبة فى الابتعاد عنه . ولم يجد الشاب بدا من النزول على إرادتها فكان لها ما أرادت ، واستولت على البيت بما فيه . أما هو فقد رجع إلى المنزل الأول على مضض ، وأخذ يسترد قوميته شيئا فشيئا ولكن بعد احتمال آلام وآلام .

* * *

من ذلك يتبين أن الزواج بالأجنبيات لايستقيم له عود ، ولا يطول له أجل . ولا يعود منه خير على المصرى المسلم ، ولا يطيقه من استرد قوميته وغار على حماه . وأنه سبب من أسباب الشقاء الزوجى .

وإذا لوحظ أن كل زواج بأجنبية يكون بواراً لفتاة مصرية ، وتفويتا لما قد يكون لها من ذرية ، فإن ذلك يحتمل فى فعله جناية على الوطن ، نربأ بالمصرى عن الوقوع فيها أو الدنو منها . ؟

عدم التجانس بين الأزواج

بدهى أنك إذا لم تجد انسجاماً بينك وبين أحد التجار ، فإنك تقاطعه ولا تعامله ، حتى ولو كان يتجر وحده فيما تطلبه أو تحتاج إليه .

وبدهى أيضاً أن التلميذ إذا لم يجد توافقاً بينه وبين معلم ، فإن كل المواد التى يقوم بتدريسها ذلك المعلم ، تكون ثقيلة الفهم ، أو سبباً فى رسوب التلميذ آخر السنة فى الامتحان .

وبدهى أيضاً أن صاحب العمل إذا لم يجد توافقاً بينه وبين أحد ممن يعمل تحت إمرته ، فإن هذا الواحد مهما أجاد أو ابتدع ، فلا يقع عليه إلا أثر عدم التوافق .

وكما أن عدم الانسجام أو عدم التوافق ، تكون هذه آثاره فى المعاملات العامة ؛ كذلك يكون عدم التوافق أو عدم التجانس بين من يريدون الارتباط الزوجى .

وقد أجمعت الاختبارات والتجارب على أن عدم التجانس بين الأزواج يكون فى الحالات الآتية : —

١ — عدم المساواة فى المادة

٢ — عدم المساواة فى المعايير الاجتماعية كالعصبة والجاه والثقافة والمركز الأدبى .

٣ — المساواة فى المادة مع الاختلاف فى معايير المكانة الاجتماعية .

٤ — المساواة فى المكانة الاجتماعية مع اختلاف معايير المادة .

٥ — الاختلاف الكلى فى المادة والمعايير الاجتماعية .

٦ — الاختلاف فى الأمزجة .

وهذه الحالات الست لكل منها شأن خاص وأثر حاسم فى الارتباطات .

ولأجل أن نعرف خطر كل منها نذكرها مفندين فيما يأتى :

عن الأول :

فعن الأول وهو عدم المساواة فى المادة ، فمعناه أن يكون الرجل غنيا ، وتكون المرأة أو الفتاة فقيرة ، أو أن يكون العكس ، ولكل من هاتين الحالتين أثر خاص .

فإذا كانت الحالة الأولى فإن الرجل الغنى إذا تزوج بفقيرة ورأى فى أخلاقها وحسبها وأنوثتها ما يطمع فيه ويحبه ، أبقى عليها واستمر فى مشاركتها ؛ وتكون هذه السيدة طيعة محافظة على إرضاء زوجها ، عاملة على ما يجر عطفه عليها ، إلى أن يدفعها ذلك إلى حبه ،

والغيرة الشديدة عليه . فإذا دفعتها الغيرة إلى محاسبته على شيء أو نقده ، فإن مركزها سيضعف فى نظره ، وسيجد من المال مايقوى فيه روح الاستعاضة عنها بأخرى . وفى هذه الحالة سيكون فى المشاركة كثير من الخصومات .

و إذا كانت هذه الفقيرة غير مسلحة إلا بجمالها ، فإن الرجل الغنى إذا كان من عصبة ، وله جاه . فإنه سيغدق عليها ماله فى سبيل الاستمتاع بها . حتى إذا حل اليوم الذى يعرف فيه قدره ، ويتحدث فيه أهله عن وقعته معها ، وهو قريب جداً ، فإنه سيفيق من سكرته ، ويشترى بعده عنها بالثمن الذى ترتضيه .

أما إذا كان غناه من غير تسلح بجاه موروث ، فإن طغيان المال سيفيده ، وستكون المعاشرة مؤقتة ، لأنه يعرف أنه قد أراد الاستمتاع عن هذا الطريق المشروع فقط ، وأنه لاسبيل إلى استدامة الحال بين الإثنين .

وهنا يتبين أن هذه الحالة بجميع وجوهها لاتقترن بالاستمرار ، فيما عدا الشعبة الأولى : فإن الحياة تستديم . وقد ترافقها السعادة ، إذا لم تجد الغيرة الجامحة أوتلحق الرعونة بمعاملات الزوجة لزوجها . أما إذا كانت المرأة غنية والرجل فقير فإن الحالة ستكون بينهما غير متكافئة ، لأنها ستصرف فى ضرورات حياتها وكمالياتها ، ما لايقدر عليه ، ولا يتوافر له . ويترتب على ذلك فقدانه سلطان الرجولة ، وسلبه حقوق الزوجية الكاملة . ثم تنقلب الأوضاع الطبيعية والشرعية بينهما ، فتكون هى القوامة عليه .

والرجل الذى يرضى لنفسه بهذا النصيب ، غير مستكمل للرجولة ، ولا شرف الزوجية . وسيدة هذه مكانتها ستعزف نفسها عن المعاشرة بعد زمن طال أو قصر ، وسترنو عينها إلى من يتكافأ معها فى قدرتها المالية ، حتى ولو كانت من السيدات الحقيقات بصفات والقاب السيدات[1] .

أما إذا كانت من ذلك الصنف حادث النعمة ، فإنها ستسرع إلى قبض يدها عن الصرف وستجابه الزوج بتقصيره ، وستكون ملحمات وخصومات ، تطيح بالرابطة ، حتى ولو كانت قد بنيت بيدها أولا ، وكانت هى الراغبة فيها .

عن الحالة الثانية .

أما الحالة الثانية وهى عدم المساواة فى المعايير الاجتماعية ، كالعصبة والثقافة ، والمدنية والمراكز الأدبية ، فهى أما إن تكون هذه حالة الرجل ، وأما إن تكون هى حالة المرأة .

---

(١) هذا الموضوع مفصل فى باب زواج الغرض « المال »

فإذا كان الأول فإن بعض الرجال الذين زادتهم التجارب خبرة بالحياة ، وعرفوا آثار الحوادث ونتائجها ، يجنحون إلى قاعدة الإنشاء ويعمدون إلى الإقامة من جديد .

يرى الرجل زوجته قليلة العصبة فلا يهمه ، لأنه يعتمد على جاهه هو . ولايستمد مكانته إلا من مركزه الشخصى .

ويرى الرجل منهم أن زوجته غير مثقفة ، فيعمد إلى بذر المعلومات التى تهمه فى نفسها ويرعاها ، حتى يهنأ بثمرها .

ويرى الرجل منهم أن زوجته غير متمدينة لافى لباسها أو طعامها أو معاملاتها ، لأنها نشأت فى طبقة تقل عن المستوى الذى نشأ فيه ، أو يتطلبه مركزه ، فى حين يرى فيها أنها متمتعة بالحصانة والعفاف ومتانة المنبت ، فلا يهمه هذا النقص . ويجعل من نفسه مربيا ، وهاديا ، وناصحا وموجها . ثم يراقب بنفسه هذا التوجيه ، ويوالى هذا الإرشاد ، حتى يطبع فى نفس زوجته مايريد من الطباع التى لم تتعودها ، وتظهر بالمظهر الذى يريدها عليه .

ومثل هذه السيدة ستكون سلسة القياد ، سريعة الأخذ بالأساليب التى توضع لقيادها .

وأمثال هؤلاء الرجال ، يفتحون بأنفسهم طريق الحياة الطويلة السعيدة ، وينشئون بأنفسهم صروح روابط زوجية متينة ، تحفل بالهناء والراحة ، والوداد المتبادل ما شاءت الحياة .

لكن بعض الرجال عندما يرتبطون بزوجات ، ثم يجدون هذا التفاوت كله أو بعضه ، لايجشمون أنفسهم متاعب مداواته ، أو تكملته . ويعتبرون التفاوت شقاء حل بهم ، وتعاسة لم تكن لهم فى الحسبان . فيدبرون للرابطة ، ويعملون على فصمها قبل أن تكتمل الأسابيع أوالشهور . ولكن ذلك لايمنعنا من أن نذكر أن بعض هؤلاء يكون لهم العذر ، حينما يدخل عليهم ذلك بطريق الغش ، وتعطى لهم معلومات خاطئة ، لأن رد الفعل شديد على أنفسهم ، عندما يجدون ما لم يكن فى حسبانهم ، أو يقفون على مخادعة سيدات يدعين العلم فى جهل ، والأصل فى وضاعة ، والعلو ، وهن لايرتفعن عن مستوى التراب .

ومع ذلك يكابرن ويعاندن ، ويمتنعن عن قبول النصح والإرشاد ، ويتشبثن بما هن فيه . فهن غير قابلات للاصلاح بمكابرتهن ، ومزهوات بجهلهن وغرورهن ، ولذلك يكون لهؤلاء الرجال العذر فيما يقدمون عليه من فصم للروابط ، ولا ذنب لهم فيما يقعون فيه من خصومات قد تنشأ بناء على ذلك .

هذا فيما يختص بموقف الرجل المتعدد الأنواع والنواحى ، والذى يكون هو كل شىء وزوجته لاشىء . أما إذا كان الجاه والمدنية والمركز الاجتماعى والأدبى ، قد توافر كل ذلك عند

المرأة ، ولم يوجد عند الرجل ، فهذا له موقف شاذ ، وحالة تستعصى على الحل ، وعبء يثقل فى الاحتمال . لأن المرأة التى ترى أن زوجها دونها أصلا ، لاتنزل إليه ولاتجعل نفسها مطية له .

والمرأة التى تجد أن زوجها قد لفه الجهل بأغلفته القاتمة ، تضيق ذرعا بمحادثته ، أومعاملته وتثور نفسها عليه . ويكثر بينهما المد والجزر ، وترميه علنا بالغباء والجهل ، دون مراعاة ولا مبالاة بما قد يجرحه فى نظر الغير ، أو يحط من قيمته كزوج .

والمرأة التى ترى فى زوجها أنه لايحذق فن الأكل أو فن النظام البيتى ، أو فن الاجتماع مع الزائرين ، أو فن المحادثات الاجتماعية فى المجالس التى تضمها ، لاتقوى على بلع هذا التقصير وتعد نفسها منكوبة برابطته ، وتعمل على التخلص منه .

والمرأة التى تعرف أن والدها صاحب سعادة أو عزة ، وأن زوجها لم يكن حتى ولامن (الأفندية) المتمدينين وأن والده العامل فلان ، أو المعلم فلان ، فإنها ستعايره فى أية مناسبة بنزوله عن مستواها الاجتماعى ، وستفاخر بنفسها ولو لم تكن مناسبة ، لتشعره بقيمتها وتحد من سلطانه . كل ذلك تتجه إليه السيدة التى يكون هذا نوعها . لأن العادة جرت ، بل الطبيعة قضت ، بأن تستمد السيدة دائما مركزها وكرامتها من الرجل . وأن تكون فى احتياج دائما لحكم الرجل القوى الذى هو على علم ورجاحة عقل . وأنها تلح ولا تتخم ، من كثرة مفاخر زوجها ، مهما كثرت . لأن ذلك يوجد فيها نشوة تتطلبها حاجتها إلى الزهو .

فهى معذورة فى موقفها ، وغير ملامة إذا فقدت التوازن مع مثل هذا الزوج ، ثم دفعتها طبيعتها إلى الهروب من رابطتها ، والعمل على فصمها .

ولقد يوجد فى صنف الرجل الأول ، من صهرته الحياة فاستعذب النصح والإرشاد والتوجيه لزوجته . ولكن السيدة ، لاتكون على استعداد أبداً ، حينما تجد نفسها على حالة يناقضها فيها مركز رجلها ، إلى إرشاده أو تعليمه للسبب المتقدم .

ولأن السيدة المتعلمة ، تريد زوجا يبزها فى مقدرتها العلمية ، ويتقصر عليها كلما حدثتها نفسها بنقاش مشترك . وهى حينما تدخل فى جدل علمى من أى نوع يلذ لها أن تتجمع فى يد زوجها مقاليد الحجج الدامغة ، وأزمة الأسانيد القوية ، ويفرحها انتصاره لمقدرته ، وترقص طرباً لرجاحة عقله ؛ ويكون ذلك سبباً لاعترافها بسلطانه .

ولأن السيدة التى تعرف أباها وجيهاً أو صاحب عزة ، تتمنى أن يكون زوجها لا كأبيها فقط ، بل يفوقه درجة ، فيكون صاحب سعادة أو معالى ، لتستزيد مكانة ، ولتعلو قدراً ، ولتكبر زهواً وفخراً ، لأنها فى طبيعتها محتاجة إلى من يعلو عليها مكانة ، لتقوى حماية وسنداً

وكفاية . ولأن السيدة التى رضعت لبان المدنية ونشأت فى أحضان النعيم ، تتوق نفسها إلى مايرتفع بها عما رأته فى بيت أبيها ، لتفاخر به لداتها ، ويشبع من نهمها مايتفق وما ترجوه لنعيم حياتها المستقبلة ... ذلك وغيره هو ماتريده كل زوجة يكون هذا شأنها .

فإذا لم يتحقق لها ما ترجوه ، انكمش قلبها ، ونفرت نفسها ، واعتبرت بيت الزوجية عنوان شقائها ، وهذا الزواج نكبة لاتعادلها نكبة فى الحياة .

عن الثالث

غير خاف على من وقفوا ولو عابرين على جسر الهيئة الاجتماعية ، معرفة كثير من الفرص التى تواتى البعض . فينقلون بسببها من تحت الأرض ، إلى مافوقها ، أو من سكنى الأكواخ إلى سكنى القصور ، أو من العدم إلى الظهور والبروز ، أو من خبر كان ، إلى الأمر الواقع .

يكون أحدهم لا شىء فى الحياة ، سواء أكان ذلك بين أهل قريته فى الريف ، أو بين سكان حارته فى المدينة ، فيعمل فى شىء مما يتفق والمصادفات ، فيصبح فجأة من الأغنياء المالكين لكميات المال الوفيرة ، له اسم فى البنوك ، وله ملكية فى العقارات الباذخة ، وينتقل طبعا من ذلك الوسط الذى نشأ فيه ، إلى وسط لم يعرف عنه إلا المظاهر البراقة ، والبزات التى تكسب الاحترام . والأعمال التى يرتبط بها مختلف من الأجناس ، يوجدون حين تصريفها مع هذا الإنسان ، هالة حوله تشير إلى قدرته ، ومركزه ومكانته المادية ، التى تشغل جمعا من الناس . وكثيرا ما يكون مثل هذا الغنى الحديث ، الذى تملك فجأة زمام المال ، غير متعلم ولا مثقف ، ولا معرفة له البتة حتى بتبعية بعض المصالح لأى الوزارات .

وكثيرا ما يكون غارقا فى طباعه القديمة ، من حيث أنواع الألفاظ والمعاملات ، والأخذ والعطاء ، وقواعد الاجتماع .

وقد رأينا كثيرا من هؤلاء ، وعرفنا كثيرا منهم . ولم نستسغ جبروت غناهم المفاجئ ، ولا ألفاظهم التى يعبرون بها حينما يوجدون فى مجتمع ، أو يضطرون إلى الحديث .

ولسنا نعنى بالطبع بعضهم الذى لم يدفعه الغنى إلى التمرد .. فحنا على أهله ولم ينس مآسى فقره وحاجته . فساعد الفقير ، ورق قلبه على كل مصاب ، وارتضى العيش الوادع دون ادعاء ولا تظاهر ، ولا كبرياء .

ولكننا نعنى أولئك الذين تنكروا لأصولهم . وتهربوا من أوساطهم ، وأنكروا الفقراء من أهلهم ، بل اشمأزوا من ذكرى والديهم أو من رؤيتهم . فادعوا كاذبين أنهم نشأوا فى

الغنى من آباء معروفين ، وعائلات مشهورة ، وساعدهم على ذلك ما تملكوه من مال يبذل ، لإسدال الستار على العيون ، وايجاد هالات تحتويهم وتبهر نظر من يوجدون حولهم .

هؤلاء الناس ، لهم طباع لا ترتفع إلى مصاف المدنية ، ولا تتصل إلى قواعد الاجتماع الراقية بأية صلة . ولكنهم يتطبعون مضطرين ، ليوجد شبه توازن بين الغنى والمظهر .

وحينما تتملكهم تلك المطامع ، يعمدون الى الاتصال بالبيوت التى بنيت على أسس قوية ، من دعائم المادة والاجتماع ، ثراء موروث ، وجاه متوارث ، ومراكز معروفة مشهورة ، نشأت البنت فيها على قواعد الثقافة والمعرفة . تجيد الحديث والمجاملة ، وتعرف الآداب الاجتماعية ، وتتقن التحدث باللغات الأجنبية ، ولها هوايات رياضية وهوايات شخصية للتسرية وقطع الوقت ، إلى غير ذلك من التعاليم التى ينشأ عليها أبناء البيوتات .

وصاحبنا الذى خلا ذهنه من ذلك ومن غيره ، وجهل ما يدور فى غير طبقته التى نشأ فيها . لا يعرف إلا الحديث عن الجنيه وكمية المال العارض الذى وقع عليه .

يسكن فى العمارات الفخمة ، أو المساكن الخلوية الخاصة ، ويركب السيارة الخصوصية ويلبس الذهب فى أصابعه وعلى صدره ، وفى مقبض عصاته ، ويخرج حافظة نقوده ، فتراها متخومة بالمئات والألوف .

إذا تقدم هذا الإنسان بهذا المظهر ، لأى بيت أفراده أصحاب عزة أو سعادة أو معالى ، لا يجد مايقف حائلا دون إجابته ، ولا ممانعاً من قبوله زوجاً عتيداً لأخته أو ابنته .

لكنه ما يكاد يوجد ، وما يكاد يرتبط ، حتى تشعر الفتاة أو السيدة بأنها قد تزوجت مظهراً من غير مخبر ، وبهرجاً من غير جوهر . فالمال فى يدها والجاه على رأسها . وليست فى حاجة إلا إلى رجل يتكافأ معها فهماً واجتماعا ، ويتعرف الأفانين التى تحط عليها روحها ، وألوان الحياة التى ترنو اليها فى دخيلة نفسها . وهى لا تجد فى صاحبها شيئاً مما أرادت وأملت . ولا تلقى منه إلا مايدفعها إلى الاشمئزاز والنفور ، والازدراء والتحقير ، ولقوتها فى مركزها ، ومناعتها فى تربيتها ، ستضرب وجهه بقنازها ، وستخرج من قصره الزائف ، غير آسفة على شىء . وستنهار الرابطة المزيفة قبل أن تكتمل أيامها العشرات .

هذا ما سيكون ، إذا كان الرجل قد أثرى بالفرص ونقصت معاييره الاجتماعية وطمع فى ارتباط يكون ثراء أصحابه قديماً ويفوقونه فى الاجتماع . أما إذا كان الرجل على العكس من ذلك ، أى صاحب ثراء قديم ، وجاه موروث ، وزوجته ذات ثراء مستحدث ، وانخفضت أصلا فى قواعد الاجتماع من جميع أنواعها ، فإن حالة الارتباط ستنقسم من حيث النتيجة إلى قسمين :

أولها : أن الرجل العريق فى الهيئة الاجتماعيـة إذا حافظ على أسلوبه فى الحياة ، لا يجد مبرراً لوجوده مع شريكة لا تعرف كيف تحـادثه ، ولا تؤاكله ، ولا تجتمع بذويه وأهله ؛ فيقضى على الرابطة ويختار الانفصام .

وثانيهما : أن هذا الرجـل إذا ارتضى الاستمرار ، فإنه يكون قد روض نفسه على عدم النقد وتضخيم السقطات ، وأصم أذنه عن سمـاع المؤاخذات والانتقادات ، وهان على نفسه ماقد يعرفه مستقبلا ، من أن خال ابنته أو خالتها ، أو قريبا من أقرباء والدتها عامل بسيط ، أو صانع صغير ، أو بائع متجول ، أو ساع فى إحدى الوزارات أو الشركات . وربما استمرت الرابطة فى هذا الوضع ، خصـوصاً إذا كانت الزوجة على جانب من الوسامة ، أو استعداد للمعرفة إلى مدى الحياة .

عن الرابع :

وهناك كثير من الناس نشأوا فى بيوت عريقة ، وأصول معروفة ؛ ولـكن الزمن قاسى على بعضهم فأذهب ما فى أيديهم من متاع الدنيا ، وصيرهم فقراء أو أشباه فقراء .

فإذا كان الرجل هو الفقير والسيدة هى الغنية ، فإن الرجل الأصيل عنـدما يتبين عجزه عن توفير حاجات زوجته الغنية ، يداخله شعور مرير ، أساسه الرغبة فى المحـافظة على ذاتيته وكرامته ، ويأبى أن يستلب سلطانه بواسطة عجزه عن المال ، ويخشى أن يوضع فى يوم موضع المتمنى عليه أو المعنى من الواجبات ، وربما لايقوم ذلك فى نفس زوجته لأنها أصيلة ومن بيت عريق لا يعرف ذلك ، ولـكن هـذه الحالة تعاشر الرجل ، فتنغص عليه الاستمتاع بالحياة ، وتقض مضجعه ، ولا تزال تتجسم فى نفسه حتى تقضى على الرابطة ، ويخف عن قلبه ما أثقله من غيرة وحرص على كرامته .

وإذا كان الرجل هو الغنى فإن الرابطـة ستكون موفقة ، وتستكمل عناصر السعادة ، خصـوصاً إذا اتفق المزاجان . لأن الزوجية الحقة ، هى التى تكون فيها الزوجة موازية للرجل فى مرتبة أصله وإن قلت عنه فى الثراء .

والمفروض دائما أن الرجل هو صاحب الإنفاق ، والموجد والمهيىء لـكل مطلوبات الزوجة . وليس على الزوجة من الواجبات إلا إدارة المنزل ، والحرص على حقـوق الزوج ، والمحـافظة على شرفه وماله ، والقيام بما يوكل اليها من معاملات . وهنا يتوافر ذلك كله فى الزوجة المذكورة لأنها من بيت يعرف الحقوق والواجبات .

عن الخامس :

أما ذلك النوع الخامس وهو الذى يوجد الاختلاف الكلى فيه بين الزوج والزوجة ، فى المادة والاجتماع ، فهو شر الأنواع ، وأخطر الارتباطات . وهو الذى تقوم فيه أشد الخصومات وتبنى عليه الأنواع المختلفة من المشادات والالتحامات ، بل والاتهامات :

بل هو النوع الذى توجد بين روابطه أسباب الانحلال الخلقى ، لا فرق بين الأزواج فيه أو الزوجات . إذ الرجل الذى يكون على قدر من المال ، وقدر من الجاه ، وعراقة فى الأصل ، لا يوازيه فى مرتبته إلا زوجة يكون لها من النصيب فى ذلك ماله . أو ما يقرب منه ، حتى يحدث التجانس وتقترب العقول ويحدث التفاهم .

لكنه إذا تزوج بزوجة فرآها فقيرة ، ثم رآها من طبقة دنية ، ثم رآها من والدين مغمورين فى الحياة ، ثم رآها لا متعلمة ولا ذات عقل ، ثم رآها تجهل ما نشأ فيه من أسلوب فى الحياة . إذا رأى الرجل ذلك فإنه لا يجد من نفسه دافعاً ، ولا من قلبه وازعاً ، ولا من واجبه رادعا ، للحرص على البقاء فى عشرة امرأة ليس فى أصلها ولا فى أخلاقها ولا فى عقلها ولا فى طباعها ، ما يتفق وما يرضاه لنفسه فى الحياة

وسينفق هذا الرجل ، وسيملأ الفم الذى يخشى خروج الألفاظ الخارجة منه ، بما يكون فى يده من مال . ولكنه مع ذلك لا يسلم من التجريح والأدعاء الكاذب وفتح باب الخصومات .

وهذا الرجل يكون فى الغالب سبب وقوعه فى هذا الشقاء ، فخ نصب له ، إما من معارف يتضاون به ، وإما من خاطبات مأجورات . ثم قويت عليه حبائل اصطياده فلم يجد منفذا للخروج مما وضع فيه ، إلا الارتباط . زعما منه بأن تلك الحيل حقائق ، وتلك الشباك صدفة لخيره وهنائه . وإنه ليتبين ذلك الغرض ، بعد أن يكون قد وجد أمام الأمر الواقع ، وبعد فوات الأوان .

هذه حالة الرجل الذى يكون قد استكمل واجبه مع شريكة لم تستكمل نوعا مما هو فيه .

أما ذلك الرجل الذى يكون على العكس ، وتكون الزوجة هى التى تستمتع بالجاه والأهل والمال ، فانه يكون قد نصب الفخاخ ، وحاك الشباك وعمل على إيقاع تلك الكريمة ، واقتناص تلك الزوجة فى حبائله . سلاحه فى ذلك التغرير ، وأسانيده فى ذلك الغرور .

وتصور زوجة غنية ، تجد مالها نهبا لزوج طامع فيه . أو زوجة أصيلة ، من بيت معروف تجد نفسها طية لإنسان مغمور . أو روجه مثقفة متعلمة ، تجد نفسها بحكم وضعها تحت إمرة

جاهل مغرور ، ماذا يكون فى نفسها ، وماذا يكتنف شعورها ، وما هو الهواء الذى يكتم طباق رئتيها عند ما تهم باستنشاق الهواء فى مثل هـذا البيت الضيق الجنبات ؟ إن أية سيدة أو فتاة لن ترضى عن وضعها هذا ، وستدبر لهذه الرابطة مهما كان لإدبارها من آثار .

عن السادس :

أما النوع السادس من عدم التجانس ، فهو أمر مرجعه إلى التكوين الطبيعى فى الزوجين ولا دخل له فى الماذة أو المعايير الاجتماعية ، وأعنى به اختلاف الأمزجة عند كل من الزوجين .

هـذا النوع من عدم التجانس ، ينطوى على خطر محقق فى أغلب جوانبه ، قد يجر إلى القضاء الجنائى ، وقد يذهب ضحيته أحد الزوجين أو كلاهما . والمحقق المقطوع به ، هو أن يكون الشقاء والعذاب النفسى ، كأثر لأغلب هـذه الجوانب . فقد يكون أحد الزوجين حاد المزاج ، أو تكون هذه الحدة فيهما معا . ولـكل من هذه الجوانب عاقبة تتبين لنا فيما يلى .

عند ما يكون الزوج حاد المزاج ، والزوجة هادئة ، تمر الحدة بسلام لأنها تتكسر على صخرة الهدوء والصبر والجلد والمران ، ولين المعاملة التى تقابله بها الزوجة .

وآثار الحدة تكون وقتية ، لاتخلف عندها آلاما نفسية ، ما دام فى عشرتها ، وما دام قائما بواجباته ، ولا يخلط الأمور ببعضها .

أما إذا غالى فى احتداده ، وذهب بعيدا عن الحدود الواجبة ، فقطع الصلة فى فورة من فوراته ، فإن عذابه لا بد واقع . إذ سرعان ما يرجع إلى نفسه ، فيطالب بالعودة . فى حين أن زوجته ترى أنها مجنى عليهـا فى صحبته ، وقد يكون التصميم على عدم الرجوع فى بعض الحالات أمراً حتميا .

وهذه الحالة التى ينفرد الزوج فيهـا بالحدة ، أخف حالات عدم الانسجام والتجانس ، لأن الغالب فيها هو الاستمرار على المعاشرة .

لـكنه إذ انقلب الوضع ، وكانت الزوجة هى صاحبة المزاج الحاد . فإن البيت يكون دائما فى صخب والاختلاف بينا فى كل شىء . وقد يهدأ الرجل ويحلم ، ويتجاوز عن مؤاخذتها فى بعض الأوقات . ولـكن ذلك يدفع مثلها إلى التمادى والاستمرار ، وهو ما لا يطيقه رجل يعرف قدر نفسه ، ويقوم على واجباته .

وهنا يجب أن تتقى غضبة الحليم . لأنها ستقع . وستكون كقنبلة مدوية وسلاحا قاطعا للصلة بين الزوجين لا رجعة لها بعد ذلك أبدا .

AUC - LIBRARY

ولا تحسبن ذلك مريحا لمثل هذه السيدة التى تثور وتفور للتافه والصغير . فستعيش معذبة قلقة وستدخل فى كل باب يوصلها إلى طريق ما تعده انتقاما ، أو تشفيا لنفسها الغاضبة ، وهو ما يحدث الشقاء حتى بعد قطع الصلة .

وهناك ما هو أدهى وأمر من هاتين الحالتين ، وذلك عندما يكون مزاج الزوجين حادا . فقد لا يقتصر أثره السيء على الزوجين ، بل يتعداهما إلى الجيران ، وإلى الأصدقاء ، وإلى الأهل ، وقد يودى بأحدهما أو كليهما . لأن كل شيء مهما صغرت قيمته — وسهل عند الآخرين التجاوز عنه — لا يمردون أخذ ورد ، وجذب ومد ، بين هذين المتنافرين . فكلٌ يريد الحق فى جانبه ، ويصمم عليه . وكلٌ تدفعه ثورته إلى معارضة الآخر . وحتى لا يرضى كلاهما بما يقضى به الغير بينهما ، مهما كانت منزلته ومكانته . وبيت يضم متنافرين مشاكسين ، مقضى عليه بالهدم ، وعلى أصحابه بالعذاب مهما طال الزمن .

* * *

بقيت حالة أخيرة فى عدم التجانس يعرفها كثير من الذين تفتحت عيونهم ورزقوا دقة الملاحظة وتمتعوا بسرعة الخاطر .. تلك الحالة هى عدم التجانس فى الأجسام !!!

ولأجل أن تعرف ما هى هذه الحالة أقول لك : إن بعض الأزواج يوجد بينهم اختلاف بيّن فى أجسامهم ، فترى الزوج مثلا من النوع الضخم الجثة ، الفارع الطول ، العريض المنكبين ، الغليظ الأطراف . له رأس ككوخ على رابية عالية ، ركب على رقبة تنافس رقبة الثور فى ضخامتها ، ويدان كمطارق الحديد أو أشد ثقلا الخ ...

وترى زوجة مثل هذا الشيء المخيف ؛ سيدة مسكينة فى نصيبها الطبيعى . قوام دون المتوسط ، فى نحول وشحوب ، أو فى ضمور وهزال ، بحيث لو طويت لكانت قطعة لا تملأ يد مثل هذا الرجل ... وقد ترى العكس فى زوجين آخرين ، حينما ترى زوجة لها طول وعرض ، نما فرعها حتى طغى على أمثالها من بنات حواء ؛ واحتوى من اللحم والشحم ، ما جعلها كحجرة متنقلة فيها روح وفيها حياة . ومع ذلك يكون زوج هذه الضخمة الغليظة رجلاً يقاس بالسنتمترات لا بالأشبار ؛ إذا رؤى بجانبها فى طريق اضطر الناظر إلى الابتسام والإغراق فى الاستغراب .

أمثال هذه الاختلافات البينة فى الأجسام ، لها آثار فى المعاملات ولها أخطار فى المعاشرة الزوجية ... ولئن كانت المسكينة التى توجد بحكم ظروفها كزوجة ، لذلك الجبل الراسى —

معجبة فى وقت ما — بما عليه زوجها من ضخامة بين الرجال ، إلا أنها فى معاشرتها ستكون محوطة بعذاب شخص فى بعض النواحى ... ؟ كما سيكون لها آلام تحول دون الاستقرار وعدم الاطمئنان ...

كذلك تلك الزوجة الضخمة ، التى لايحركها إلا محرك كهربائى ! ! ستنظر إلى هذا الشىء الصغير (المسمى زوجها) الذى لايملأ عينها ولا يدها ، نظرة توازن جسمه وتوافق حجمه ؛ وترى أنها قد منيت بمن لايقدر على حمايتها ، ولا يتكافأ معها . ومثل هذه النظرات من جانب الزوجة على حالتيها المذكورتين ، يكفى جداً للسير فى طريق غير طريق الوداد النفسى ، والتآلف الروحى . وهما العاملان الوحيدان لاستقرار الحياة الزوجية .

* * *

مما تقدم يتبين أن عدم التجانس فى جميع درجاته ووجود الفروق المادية والأدبية والاجتماعية والثقافية والجسمية بين الأزواج ، من الأسباب التى تخلق فى النفوس آثاراً خطيرة على الروابط ، وتودى بها ... قصر الزمن أو طال .

زواج المبادلة

الآن أشرح لك سببا جديداً من أسباب الشقاء الزوجى ، وهو ذلك النوع الذى يتم «بطريق المبادلة» . وقد يكون غريبا على سماعك هذا التعريف لنوع من أنواع الروابط . ولكنه مع البحث والتقصى ، عرف أنه نوع من أنواعها ، وعمل شائع بين كثير من العائلات الريفية وإن كانت المدن لاتخلو منه على أى حال . وقد أخذت به الآن .

والمبادلة فى الأصل هى أخذ شىء ، مقابل شىء يوازيه قيمة ومقدارا . وزواج المبادلة الذى نريد التحدث فيه يطابق هذه القاعدة ، ويسير على مقتضاها فسمى باسمها .

وعملية المبادلة فى الزواج تقوم بين بيتين ، فى كل منهما فتاة وفتى ، فيتزوج أخو هذه ، أخت ذلك ، وبالعكس . على مقدار متحد من المهر ، يتفق عليه فى الوثيقتين . ثم يقوم كل بيت بتجهيز الفتاة التى فيه . وفى حفلة واحدة ، وليلة واحدة ، يتم الدخول ، فتخرج فتاة وتدخل بدلا منها أخرى ... وهذه العملية إما أن تنشأ فى عائلة واحدة ، وإما أن تنشأ بين عائلتين ؛ فإذا كان الأول فنالباً ما تسير القافلة فى طريقها قدماً إلى الغرض المنشود .

وأما إذا كانت بين عائلتين فهذا هو بيت القصيد ، ومكان عدم التوفيق . ومن المؤسف حقا أن تتحول الرغبات إلى الضد ، وأن يتولد الخصام فى مثل هذه الروابط ، التى ما أقيمت إلا ورائد أصحابها مضاعفة التماسك ، وازدياد الاتحاد بين العائلات .

ويرجع منشأ هذا الخصام إلى حالات يمكن حصرها فيما يأتى :

١ — طباع الوالدين وقدرتهما المادية .

٢ — طباع الزوجين والفتاتين ، وما عليه كل من الفتاتين من قسامة ، وقدرة على القيام بالواجب .

٣ — التأثرات النفسية ودرجتها فى الجميع .

عن الأول :

ليس من شك فى أن الناس يختلفون عن بعضهم فى أسس الأخلاق ، وفى القدرة المادية . فترى البعض كريماً متسامحاً ، والبعض بخيلا متشدداً ؛ وترى البعض الآخر حيا خجولا ، والبعض الآخر قد نضب من وجهه ماء الحياة وقسا قلبه ، وخلا من فضيلة الرفق والرأفة

والرحمة ؛ وترى البعض نابهاً ذكيا ، يعرف واجب نفسه وواجب غيره ، فى حين أن البعض الآخر قد جمدت عواطفه وتفكيره ، فلا يهتم بما يجب عليه للناس .

كل هذا وأمثاله شائع بين الناس ، ومنهم طبعاً رؤساء هاتين العائلتين . ونعرف أيضاً أن ابن الكريم يكون كريماً ، وابن المتسامح يكون لين المعاشرة رقيق الشعور . وأن من نشأ على البذل والسخاء يسوءه أن يوجد فى تقتير وفى شح . وهذا هو أساس قوى لمنشأ الخلاف ... فإذا كان الأبوان من نوع واحد ، كان أبناؤهما متقاربين فى الطباع ، وبقدر ما يوجد الاختلاف فى ذلك عند الأبوين ، يتعدد نوع الخصام .

وليس نوع الاختلاف بقاصر على الأبوين ، فهناك أيضاً مايجب اعتباره وأخذ الأهبة له ، وهو ما عليه كل من الوالدتين . فقد تكون إحداهما قوية فى تربية ابنتها ، محافظة على تكوينها فى الطباع ، وفى المقدرة على عمل مايلزم السيدة من أعمال منزلية ، فى حين أن بعض الأمهات يتراخين مع بناتهن ، مدللات لهن ، ومستغنيات بنشاطهن أو قدرة الخدم ، عن تعب بناتهن وتوجيههن التوجيه الصحيح .

وهذا النوع يجب أن يدخل أيضاً فى الحساب ، عندما نعدد أنواع الاختلاف ، وبقدر ما تكون عليه الأم من معرفة لواجب الأمومة ، تكون ابنتها . ويكون مقدارها فى المستقبل .

عهد التالى :

وهذا الاختلاف الذى يكون عند الوالدين يتسلل إلى الأولاد قطعاً ؛ فالشاب يختلف عن الشاب فى خلقه وخلقه ، وفى طموحه ومعاملته ، وفى جهوده واستعداده ، وفى قدرته الفكرية وحسن أساليبه فى الحياة .

وكذلك الفتاة تختلف عن مثيلتها فى القسامة ، والصوت ، والجمال ، ومعرفة أمور المنزل وقدرتها على جذب زوجها إليها ، وكيفية معاملتها لغيرها ولكل من الفتيات أسلوبها فى الحياة

ونحن نرى كثيرا من الشبان يجنحون إلى أهدافهم العملية فى الحياة ، بأساليب مرتبة بعضها فوق بعض ، فى حين أن بعضا آخر نجده يركن إلى الحظوظ ، فلا جهد له ولا فكرا خاصا يوجهه ، ولا إقداما شخصيا يدفعه إلى الوصول إلى ما يريده خياله من مكانة .

وليس كل الشبان بواصلين طبعا إلى ما يؤملونه لأنفسهم ، إلا بما يبذلونه فى سبيل ذلك من جهود . ولكل مجتهد نصيب .

ونحن نعرف أن الشاب الذى يعمل ، يكثر إنتاجه ، ويتعدد مورده ، ويكون قادرا على

تأدية ما عليه من واجبات لنفسه ولغيره .

وأن الشاب الذى يعرف واجب نفسه لا ينسب إليه تقصير ، ولا يدعى عليه عجز ولا نقص فى لوازم حياته .

كما أن الشاب الذى يكثر لهوه ، وينحو نحو الخمول والقعود عن الاجتهاد ، تقل موارده ، ويكثر عليه الطلب ، وتعدد منه الشكوى .

كما أن مقدار الفتاة يوضع دائما فى كفة مقابلة لما تكون عليه من أخلاق أولا ، ومن هيئة ثانياً ومن قدرة على إجادة أعمالها المنزلية ثالثا . وبقدر ما تكون عليه ، تكون المحافظة عليها ، واحترام مكانتها ، بل ونفاذ كلمتها .

عن الثالث :

وكما يكون هناك اختلاف بين الآباء فى كل ما ذكرنا ، وبين الأبناء فيما بينا ، يكون هناك نوع آخر خاص بالشعور الشخصى ، وقيمة الاحتمال والصبر فى نفوس هؤلاء جميعا .

فقد ترى أن والدا عاقلا لا يرضى لنفسه الدخول فيما بين ابنه وزوجه ، ولا يتأثر دمه لما يجد بينهما من نقاش ، ولا يجشم نفسه مؤونة التحزب لابنه إذا رأى من الزوجة أى خروج عما يريد . رغبة فى تضييق أنواع الخصومات الصغيرة ، وعدم اتساعها . فى حين أننا نرى كثيرا من الآباء يثورون ويرعدون ويتوعدون ، إذا هم عرفوا ولوهنات صغيرة من زوجات أبنائهم ، زعما منهم أن ذلك مضيع للحقوق ، أو مهدر للكرامات . والأولون مصيبون ، لأنهم يريدون الهدوء ، والآخرون غيورون غيرة غير محمودة النتائج ، فى كثير من الأحيان .

ومثل الأب وما يصدر عنه من خطأ أو صواب ، تكون كذلك الأمهات ، وهن ألصق بالمعاشرة . لأنهن مطلعات على مجريات المعاشرة . أكثر من الرجال ، وهؤلاء يجب أن يحسب لهن ألف حساب .

* * *

ذلك بالاختصار منشأ الأسباب التى تعتبر هادمة للروابط التى تتم عن طريق المبادلة فى الزواج ، أما كيف تكون و كيف تقع ، فما يأتى تتكون .

عرفنا أن الولدين تبادلا الأختين ، وأن المهر الذى قدر لكل منهما مماثل ومواز لقيمة مهر مثيلتها . وبالرجوع إلى التفصيلات التى ذكرناها عن الاختلافات ، نجد أن الرجل الكريم

السخى المتسامح ، قد جهز ابنته بما دفعه إليه كرمه النفسى ، فأحضر لها من الأثاث ، ومن اللباس ، ومن الأدوات ، ما يعتبره ملائما لكرمه وسخائه .

فإذا كان الطرف الثانى قد قام بمثل ذلك ، فقد وجد التكافؤ فلا شىء فى هذا ولا عليه ، ولكنه إذا كان غير كريم ، وبخل فى تجهيز ابنته ، فإن ابن الكريم ، وأمه ، ووالده ، يرون أنهم لم يقدّروا فى نظر ذلك الطرف . لأن الزوجة التى حلّت عليهم لا يوازى جهازها ماقدموه لأخيها مع ابنتهم ، ويعد هذا سببا أوليا لا ينسى ، بل حجراً أساسيا فى الخصام .

وإذا كانت إحدى الزوجتين نابهة وجميلة ، وتعرف أمور البيت بدرجة تفوق مثيلتها ، التى حلّت مكانها ، فإن أهل تلك يعتبرون ذلك كأنها قسمة ضيزى .

وإذا كان أحد الزوجين كثير الانتاج ، له أخلاق سمحة ، فان أخته تندب نصيبها فى زوج لا يوازى هذا الأخ ، الذى أخذته أخت زوجها . ويكون ذلك سببا من أسباب التذمر والشكوى . وإذا كان أحد الأبوين يكثر من العطف على ابنته ، فيواليها بالزيارة والهدايا ، فإن عكس ذلك يكون له تأثير شديد على من له فى منزله . لأنهم لا يقابلون بمثله . فيعيرون بعد أن يلوحوا بعبارات غامضة — ذلك الطرف البخيل . وهذا ينشأ عنه أيضا كثير من المشاكل . وإذا كانت البنت التى تركت منزل أبيها إلى منزل زوجها ، تفوق فى ترتيب المنزل وحسن المعاملة ، هذه التى حلت محلها . فإن الفروق تبين بسرعة لهذا المنزل الذى يشعر بالنقص فى لوازمه .

وأخيرا : إذا كانت البنت قد تربت فى منزل قد احتوى حاجاته ، واستمتعت فيه برغد العيش ، ثم دخلت منزلا قُتر عليها فيه ، وضُيق على رغباتها من أصحابه ، ثم تجد أن التى حلت محلها قد استمتعت بتلك النعمة ، فإنها لا بد شاكية لأمها ما تلقى ، ولوالدها ما تجد ، ولأخيها ما يضيق به صدرها .

فهل يمكن مع هذا الاختلاف أن تطوى النفوس على الألم . ؟ . . أو أنه يوجد نوع من الانتباه على النقص ، ونوع من الغيرة على الحق ، ونوع آخر وهو الحرب العائلى :

لقد ثبت أن الأخ ينتظر لأخته مثل ما يقدمه لامرأته . وثبت أن الأم تنتظر لا بنتها مثل ما تقدمه لزوجة ابنها أو أكثر منه ، وثبت أن الوالد ينتظر لا بنته مثل ما يقدمه هو لزوجة ابنه ، أو أكثر منه . وأن واحداً من هؤلاء لا يرضى إلا المقابلة بالمثل .

كما ثبت أن أى اختلاف فى المعاملة ، يحدث النفرة ، ويوجد كثيرا من القهر النفسى ، الذى لا يستقيم معه وداد ، ولا يتفق معه معاشرة . ولذلك وجد الخصام فى مثل هذه الروابط قطعا . وكانت نتائجه اتساع الهوة بين كثير من العائلات .

مثل من الأمثال

وجدت بين شابين وسائل الاتصال . وكان لكل منهما أخت . فاتفقا على أن يزوج كل منهما اخته للآخر . وبعد ابرام العقد أخذ كل منهما فى تجهيز بيته لاستقبال زوجه حسب الاتفاق . وكان لأحدهما بعض ارث من والديه تصرف فيه ووسع فى تهيئة منزله علاوة على ما كان يدره عليه عمله الحر وكان فى شبه رخاء . فلما استقبل كل منهما زوجه وابتدأت الحياة تسير . لاحظت أخت الأول أنها تسكن فى بيت يقل بهجة واستعدادا ومكانة عن البيت الذى تركته . كما لاحظت أن زوجها يقتر عليها فى الحياة ، ويضيق عليها فى المعاملة ، ويعتمد كثيرا على ما فضل فى يدها من القليل الذى تملكته . ولم يكتف بذلك بل رأت أن زوجها قد منعها من زيارة أخيها ، فى حين أن أخت زوجها تستمتع بحريتها فى المعاملة والزيارة . ولقد أثر ذلك فى نفسها حتى كادت تذوى نضارتها وتخور قوتها ، ضعفا من حزنها على نفسها .

وفى يوم زارها أخوها ومعه زوجه التى غرقت فى نعيم أخيها . فوجدها كئيبة مبتئسة ووجدها فى حالة من العوز لدرجة ظاهرة . إذ لم يجد لديهم ما يُحيَّا به الضيوف عادة من هين الخامات كالسكر أو الشاى . فاستغرب الشاب أمر اخته واندفع يسائلها . وقد هاله أن يجدها فى حالة لا تتفق وما عاشت فيه ، ولا تتوازى مع ما يغدقه على اخت زوجها . فحز فى نفسه ذلك وقدم إليها مساعدته ليقوى فيها روحها المعنوية .

وفى ليلة ممطرة باردة كان الناس فيها يختبئون من التأثيرات الجوية ، إذا به يستمع طرقا عنيفا على الباب . وما كاد يفتحه ليرى من الطارق ، حتى فوجئ بوجود اخته متدثرة فى ملاءة مهلهلة بللها الماء ، وهى ترتعد فرقا من البرد وجزعا مما بها .

وقد عرف الشاب من اخته بعد أن أزال ما عليها ودثرها بملابس جافة ، أن جسمها ينزف دماء من ضرب زوجها ، لأنها تجرأت وأكلت فضلة طعام حينما جاعت وتأخر هو عن الحضور .

لم يطق الشاب احتمال هذا الأذى على أخته ، وفارت دماء غيرته فجرفت من قلبه ما فيه من ود لزوجه ، فأمرها فى حزم بأن تقوم من فورها إلى بيت أخيها وقد كان . . .

اختصم الشابان ورفعت بينهم القضايا . وكان مؤلما حقا أن إحدى المرأتين تسعى من وراء أخيها لصلح زوجها ، فى حين أن الأخرى تقرر بالتنازل عن جميع حقوقها لقاء خلاصها من معاشرة زوجها . ولكن الأمر قد انتهى بالطلاق بين الزوجتين ، وبالافتراق بين الصديقين .

يتبين من ذلك أن الروابط التى تقوم على هذه الأسس مقضى عليها بالانفصام ، ولذلك يجب أن لا يدخل فيها من يريد الارتباط . ؟

الزواج الجبرى

ربما كان لفظ (الزواج الجبرى) من التعاريف الغريبة على السمع ، ولكنه بعد الشرح يعرف عن نفسه ، ويدل على انتشاره ، ووجوده بكثرة خصوصا فى المدن الكبرى ، التى تكثر فيها المعاملات . وهو أحد الأنواع التى يترتب عليها كثير من الخصومات ، ويخلف من مرارة النفوس ألوانا ، ترافق من وقع فيه ولا تفارقه .

والزواج الجبرى أى الإكراهى ، أو القسرى ، هو الذى يتم كمفهوم اسمه ، على غير الطريق الطبيعى ، ولا يتوافر فيه ما يوجد عادة من الارتباطات الشرعية . وهو يقوم فى ظروف شاذة ، بعضها خاص بالرجال ، وبعضها الآخر منشؤه السيدات . ولأجل أن نعرف مناحيه نفصل أنواعه عند كل من النوعين .

فالرجال يلجأون إلى هذا النوع لظروف شاذة فى الأحوال الآتية : —

١ — عند ستر جريمه .

٢ — لحسم نزاع خاص .

٣ — إرضاء لرئيس يخشى .

٤ — ملافاة لمشاكل قضائية لها نتائج غير محمودة .

ولبيان ذلك نقول : ان الرجل الذى تضطره بعض مواقفه إلى أجراء هـذا النوع لستر جريمه ، هو ذلك الذى يكون سيدا لخادم ، أو رئيسا لموظفة ، أو وصيا على قاصر ، أو ما يشبه ذلك من الرياسات .

لأن الفتيات أو السيدات ، اللواتى يقعن تحت سلطان رجل ، تنزلت نفسه إلى حضيض المعاملة ، فاتخذ من سلطانه قوة الأمر والنهى ، والوعيد والإغراء ، يضعفن أمامه بقدر حاجتهن وأن مثل هذا الرجل يتخذ من مركزه سلاحا للتغرير بمن يريدها هدفا لغرضه ، تحت ستار الأمل المزيف برابطة شرعية مستقبلة . والفتاة أو السيدة التى تكون من هؤلاء يتسلط عليها نوع من الضعف ، يوقعها فى الأحبولة ويوجدها أمام الأمر الواقع .

لكنها بعد أن تقع ، تفيق على صوت الشرف ، ونداء الضمير . فتطالب بحقها ، وتتشدد فيه ، وتهدد بإذاعته ، واتخاذ الوسائل الممكنة فى سبيل حقوقها المغتصبة ، وشرفها المسلوب .

فإذا تحقق مثل هذا الرجل ، أن هذا التهديد سيكون فعلا ، وأن ذلك غير سليم العاقبة

أسرع إلى حماية نفسه من القانون ، وأوجد رابطة سريعة ، ليفوت على الضحية اداة الجريمة ، ويفلت من نتائج الاغتصاب .

ومثل هذه الرابطة التى تأتى عقب الارغام ، وإشهار سلاح الانتقام ، والخوف من الوضع تحت طائلة العقاب ، تكون رابطة غير مرضى عنها من نفسه ؛ لأنه يشعر بارغامه على قبولها . كما أن الآنسة أو السيدة التى تكون قد اضطرت إلى اقتناص كرامتها اقتناصا ، لا يمكنها أن تضع مثل هذا المغتصب موضع الاحترام الكلى ، بعد أن اضطرت قبل الآن إلى مجابهته بالتهديد ؛ وما فيه من ألفاظ قوية ، دفعها إليها شرفها ، وقويت على توجيهها نفسها .

وإن هذه الرابطة التى تتم بين اثنين ، يكون تقدير كل منهما للآخر مثل هذا التقدير ، مقضى عليها بالفناء من الطرفين .

أما ذلك الذى يريد حسم نزاع خاص ، فهو رجل اقترف ما يغاير الرجولة ، ويجرح الكرامة . ولكنه كتب على نفسه ورقة ليتخلص بما تحتويه من شرط جزائى — من نتائج عمله . ولما خرج إلى حريته ، استعاد قوته فتنكر . هذا الرجل إذا تبين من الطرف الثانى استمراره فى القوة الدفاعية عن نفسه ، يجبر نفسه على ستر موقفه ، ويحسم النزاع أيضاً ، بعمل تلك الرابطة لينهى مشكلا غير محمود النتيجة . وسيكون فى موقفه مشابهاً تماماً لموقف سابقه . وهما متفقان إلى حد بعيد فيما يقدمون عليه .

وإذا كان حال الأول والثانى وموقفهما موقف الذى ينظر من عل ، فإن حال الرجل الثالث يغاير هذين ، لأنه مرءوس ومأمور ويقع تحت سلطة رئيس .

ذلك أن بعض رؤساء الأعمال ، سواء أكانوا فى المصالح الرسمية أو الأهلية ، يتخذون من سلطة وظائفهم وسيلة لربط بناتهم بمرءوسين عَلاَ حسبهم ، وسطع نجمهم ، وعرف جاههم .

هؤلاء الرؤساء يكونون بطبيعة مراكزهم غالبا محل احترام مغتصب ، ومطموع فى القربى منهم ، إذاهم وقفوا فقط عند حد تمثيل مراكزهم ، والقيام بأعمالهم . بل أن بعض المرءوسين يعمل من نفسه على القربى ، ويتخذ الوسائل للوصول .

فإذا وقف الرئيس عند حده ، فإن المرءوس سيعمل كل مايمكن عمله ، بل ومالا يمكن إلا بالحيلة ، توصلا إلى الهدف ، وتصل ابنة الرئيس إلى شبكة عالية ، ومهر غال ، وعيشة مدللة تحوطها هالة من الاحترام ، وهذا النوع يحدث فى بعض الأحيان وليس على الرئيس غبار . وإن كان هذا الغبار سيقع فى مستقبل الأيام على الزوجين (أنظر زواج الغرض) .

لكن بعض الرؤساء من الآباء ، يتخذون من أنفسهم عمل الخاطبة لبناتهم ، عندما تقع

عين الواحد منهم على مرءوس له ، تَبِينُ عليه مخائل النجابة ، ويُتوقع له مستقبل زاهر. فيتخذ الرئيس من مركزه سلطة الأمر والنهى ، والقدرة على الأخذ والرد ، والتهديد والوعيد ؛ ويسلط أشعته القوية على الضحية المقصودة .

والمرءوس يعرف أن رئيسه يملك عمل التقارير السرية ؛ التى تضخم الملفات ، وتوجد العقبات ، فى طريق الأمانى والأمنيات . ويعرف أن الرئيس يملك التخفيف عن المرءوس ، ورفع كثير من تبعات العمل . كما يملك التضييق عليه ، ومحاسبته على كل صغيرة ، ووضعه على المكتب كالآلة الميكانيكية ، التى تعمل ولا تنتقل . كل ذلك وغيره يعرفه المرءوس فى رئيسه ، ويعرفه الرئيس أنه من سلطته . وفى موضوعنا هذا ، عند ما يريد أحد الرؤساء اعتزام تأهيل ابنته إلى أحد مرءوسيه . يتخذ أولا طريقة ارهابه ، ثم بعد ذلك طريقة توجيهه . والموظف فى كل ذلك لا يعرف نية الرئيس ، ولا أسباب تنقلات المعاملة ، ألا أنها الشىء الطبيعى . وفى يوم وليلة ، يوجد الرئيس الفرصة ، ويدخل على الشاب مقتحما انتباهه ، عارضاً عليه اختياره ، بل قراره .

وقد تكون ابنة الرئيس من ذوات العيوب الجسمانية ، أو من بيئة يعلوها ذلك الموظف المبتدئ . ولكن الشاب يوازن بين موقفه من الوظيفة والمستقبل ، وبين مشاركته لها .

مثل هذه الرابطة ، التى تأتى عن هذا الطريق ، يغلب فيها ، بل يحتوى أكثرها على ما يمض نفس المرءوس ، ويجعله مقبلا مكرها ، وراضياً مرغماً ، مثله فى ذلك كمن وقع بين ضررين ، فاستخف أحدهما .

والمعروف طبعا ، أن للقلوب مفاتيح ، وللشعور منافذ ، وللوداد طرقا ، تتوافر كلها فى الارتباط الطبيعى . أما فى مثل هذه الرابطة ، فقل ما يوجد منها ما يفتح القلب ، أو ينفذ إلى الشعور ، أو تجرى فيه مياه الوداد مجراها الطبيعى .

وإذا ضربنا صفحا عما قد تكون عليه تلك الابنة ، من عيوب يراها الشاب غير ملائمة له ، فلا ننسى أن مثل هذا الشاب لا يتمثل فيها إلى غرما ، وألا ثقلا ، وألا تحميلا . وهذا كله من مقوضات صروح المودة إذا وجدت . فكيف بها ولم توجد قبل ذلك ؟

أن للمفاجأة عناصر دقيقة خاصة بالشعور . وأن وضع إنسان أمام أمر واقع فيه يأس . وكل ذلك يتوافر فى عرض الرئيس على مرءوسه ، إذا لم يكن هناك تكافؤ ، أو أن يكون المرءوس هو الطالب وعدة قبوله نباهته وما يتوقع له من مستقبل .

لذلك كانت مثل هذه الروابط غير محمودة النتيجة ، ولذلك كانت سبباً من أسباب الشقاء .

بقيت حالة رابعة وهى وإن كانت تنشأ من معاملات مادية ، إلا أنها أصبحت من هـذه الأسباب . ذلك أنه بحكم ظروف الحياة ، يوجد لـكل طبقة من الناس معارف بين الطبقات الأخرى صعوداً وهبوطاً . وهذه المعرفة أو تلك الصلة ، أما أن تكون صلة الجيرة أو التعامل . وقد يترتب على هـذه الصلة ، وقوف رجل أو امرأة على ظروف مادية شاذة ، لرجل أو شاب يكون من طبقة تعلوهما . فيتقدم أحدهما للمساعدة ، رغبة فى الانتفاع المادى أولا ، وفى التقرب العملى من ذلك الوجيه ثانياً . وكثيراً ما يكون أمثال هـذا الوجيه فى مشاكل وارتباكات مادية لا حصر لها .

فاذا قام هذا الوجيه بالشروط المفروضة عليه نجا ، وكانت الصفقة سائرة بين دائن ومدين عادية . لـكن بعض الشبان ما يكادون يقفون حتى يقعوا . فتتراكم عليهم الديون ، وتذهب بما فى أيديهم من عقارات وأملاك ، ويصبحون ولا حول لهم ولا قوة :

ومن هؤلاء من يريدون الاحتفاظ بما يملـكون ، ويعملون على تخليص أنفسهم من الارتباكات ، ولـكن ظروفا شاذة تعقدهم عن الاستمرار فى السداد . وحينما توافى الدائن فرصة التملك من هذا العجز ، يرى الشاب أو الرجل نفسه فى مأزق حرج ، وفى ضيق لا منفذ له منه . فينتهز الدائن إذا كان رجلا له ابنة ، أو تنتهز الدائنة إذا كانت امرأة ، تلك الفرصة وتلوح له بالخلاص ، إذا ما ارتبط بابنة الدائن أو الدائنة ، ارتباطاً شرعياً :

والمدين الذى يحرص على ماله من الضياع ، إذا اضطر فى سبيل هذه المحافظة إلى أمر غير ذلك يفعله ، مهما كان هذا الأمر . وتزوجه بابنة الدائن أو الدائنة أهونها ، وأن كان لا يتفق غالباً مع درجته الاجتماعية أو الثقافية . ولـكنه يجده منفذا من ضيق لا منفذ له منه . وخروجا من تحت ثقل ما كان له منه مخرج ، وتخلصاً من قضايا نتائجها معروفة له ، غير أنه وقد أقدم تخلصاً من حالة شاذة ، يعتبر نفسه مرغماً أيضاً ، وهذا الارغام ، هو نفسه الذى لا يوجد فى القلوب روابط ، ولا فى المعاشرة وداداً :

وقد تكون المدينة سيدة من عائلة ، ودائنها رجل لا يوازيها شرفا ، ولا يتكافأ مع مكانتها اجتماعياً ، ويوجد بينهما هذا النوع من الارتباط أيضاً : وهذه وذلك موقفهما سواء . لأنه يرجع إلى نوع عدم التجانس فضلا عما فيه من شعور الارغام .

يتبين من ذلك كله أن هـذه الحالات الأربع ، التى وجدت فيها حالات الارغام للرجل على الارتباط ، لم تؤد إلى الأغراض المنشودة منها ، لأنها اغتصاب . والاغتصاب يخلف المرارة . أما الارتباط الطبيعى فيخلف الوداد والحب والتضحية المتبادلة ، وهو ما لا يكون

فى تلك الحالات . وسنأتى لك بمثلين أخذنا عنهما هذا السبب ، قد وقعا فى حى واحد ووقت واحد .

فأما الحادث الأول فيتلخص فى أن أحد الشبان الذين نشأوا فى بيت كريم ، كان يمتلك أطيانا ، وعدة أنصبة فى بيوت آلت إليه بطريق الميراث عن أحد والديه . وقد سار هذا الشاب سيرة الشبان غير المسئولين ، حتى أغضب أهله وعاش منفردا عنهم ، فلما أراد العمل للحياة ، لم تواته فرصة وجود مال ، إلا عن طريق امرأة ، اشتهرت فى الحى الذى يقيم فيه بالأخذ والعطاء ، والرهن ، بفائدة وإلى أجل !

ولما اتخذ الشاب طريقه إلى العمل ، سار ببطء وعجز عن القيام بالسداد فى المواعيد المتفق عليها . فتنبهت المرأة إلى هذا العجز ، وأخذت ترخى الحبل ، حتى تضاعف الدين ، وحل موعد تمكينها من وضع يدها ، على أكثر ما يملك من أطيان وعقار .

ولقد كانت هذه المرأة فضلا عن خمول ذكرها عائليا ، فإن بعض ريح لاتستسيغها الأنوف كانت تهب على سمعتها بين الحين والحين . هذه المرأة ، كانت تعرف عائلة الشاب وقيمة مايملك ، كما كانت تعرف ضعفه أمامها عندما تتقدم بالطلب ، وسيطرتها التى استمدتها من الدين عليه . فانتهزت هذه المرأة موقف الضعف الذى وجد فيه الشاب ، ولوحت له بقصدها ، وسرعان ما وقع الشاب فى هذه الواقعة ، وأصبح ذلك الذى لم يتجاوز مفتتح الحلقة الثالثة من عمره ، زوجا لامرأة تجاوزت الحلقة الخامسة ، على ما هى عليه من وضاعة أصل ، ونتانة ريح ، مقابل خروجه من مأزقه الذى تأكد فيه ضياع أمواله .

وأما الحادث الثانى فقد كان مماثلا لهذا ، إلا أن الدائنة فيه كان لها ابنة والدها عربجى « كارو » وأخوها صبى فى معمل « طورشى » وأمها الدائنة ، من أولئك اللواتى يأكلن وينمن ، ويجلسن ويسهرن ، أمام بيوتهن فى بعض الأحياء الوطنية . أما الشاب فوالده من أصحاب العزة القدماء ، وجده لأمه من أصحاب السعادة ، وعائلته معروفة بالقدم فى ذلك الحى .

هذه الدائنة لجأت فعلا إلى استعداء القضاء ، ووصلت إلى حكم ينزع جميع ملكية الشاب . وفى هذه الأثناء ، التى يتوقع فيها التنفيذ بين آونة وأخرى ، حصلت تلك المعجزة ، وارتبط الشاب بابنة الدائنة ، وأعطى فوق مستند الحكم مبلغا ، لإصلاح حاله قبل الدخول .

ومع كل ذلك فإن هذين الحادثين لم تعمر الروابط التى أقيمت فيهما إلا كما تعمر الزهور تقريبا . فالأولى كان عمرها شهرا وبعض شهر ، والثانية طلقت ولم تذهب من يدها بعد حمرة الخضاب .

تلك هى نتائج الحالات الإرغامية للرجال للاقدام على زواج جبرى . أما عند النساء فحالاتهن تتغير بتغير مواقفهن ، ويمكن حصرها فى الوقائع الآتية : —

١ — عندما تكون عالقة الفؤاد بغيره .

٢ — عندما تريد استثارة الغيرة فى زوج طلقت منه عفوا .

٣ — عند ما تريد قتل سمعة أثيرت حولها .

عن الأول :

كثيرا ما يحدث للفتيات اللواتى تضعف قواهن أمام الألفاظ المعسولة ، التى يوجهها إليهن الأجانب عنهن ، أن يقعن فى حبائل ما يزعمونه الحب . وهؤلاء الفتيات يعملن فى سبيل ميلهن أعمالا تكون وقائعها كالقصص والروايات ، لغرابة ما فيها من وقائع وأحابيل ، وتستمر علاقة الفتاة وفتاها مددا طويلة ، تمكن العلاقة من قلبها ، وتمزجها بشعورها ، حتى ترى أن لا سعادة إلا فى وجودها فى عشرة بطلها ، وأنها لن تكون فى جنة الحياة ألا وهى بالقرب منه .

فتفكرها وقف عليه ، ومستقبلها مرهون به ، وأملها منعقد على ارتباط وجدت فى يدها كل مقدماته وأسبابه ، ولكنه عزيز المنال ! ! ! هذه الفتاة فى نفس الوقت غير معروفة الصلة ؛ لأن ذويها والقائمين عليها ، لم يعرفوا عنها شيئا ، ولم يسمعوا شيئا لأنهم لم يجشموا أنفسهم متاعب البحث والحرص ، وتركوا الحبل على غاربه .

وقد جرت عادة الوالد والأم والأخ ، إذا وجد أحدهم فى مكان المتصرف على مثل تلك أن يجرى الحديث مع الراغبين فى زواجها ، والسير معهم فى الطريق ، ما دام قد اقتنع بحسن المستقبل ، وتمام الملاءمة .

فإذا كانت مثل هذه الفتاة تفاجأ برغبة المتصرفين فى أمرها لتزويجها بآخر يعرفونه هم ، ولا تعرفه هى ، فى الوقت الذى تكون فيه قد وضعت آمالها فى ارتباط آخر ، فإن ذلك يعتبر فى نظرها وضعا غير طبيعى ، وأمرا وقع فى غير رضى منها .

وقد يكون الزوج الجديد من طبقة تعلو من أحبته ، وله من الميزات ما يفوق فى جوهرها ما يوجد فى بطلها . ولكنها على الرغم من كل ذلك ، لا يمكنها أن تسترد قلبها ، لأنها وهبته عن طيبة خاطر لذاك الطرف ! !

فى هذه الحالة وأمثالها ، يكون الزواج قد تم بطريق الرغم الخفى فى نفسها ، والضغط القوى على شعورها ، والإلزام التام لها فى قبول حالة لا تريدها .

ولا يخفى على أحد كيف تكون زوجة بلا قلب ، وشريكة قلقة الروح . أنها لا تحب هذا الجديد ، ولا تريد الاستمرار للرابطة . وما دام لا يوجد فى الزواج هذا الأساس ، فقد

حق عليها السقوط ولو من عل ، والزوال ولو أسندت بقوائم من حديد .

وهذا أخف ما يوجد فى مثل هـذه المواقف . لأن عوامل الخصومات قد قويت عليها الزوجة ، فكتمت سرّ حبها ، كما تحرز حبيبها فى عدم إتيان ما يشتم منه روائح العلاقة بينه وبين زوجة فى عصمة آخر .

لكن كثيرا من هؤلاء الفتيات ورفقائهن من الفتيان ، تحتويهم الرعونه ، وتعميهم ثوارت الشباب . فترى البنت تشيد بخصال حبيبها عنوا فى مجلس زوجها ، أو تقدم على استقباله فى بيته ، أو تجرؤ على التريض معه ، أو الذهاب بصحبته فى دور السينما أو المسرح أو الاجتماعات العامة ، أو تكتب له خطابات وتستقبل منه خطابات ، إلى غير ذلك من الاتصالات التى لا يرضاها زوج على كرامته .

أمثال هؤلاء ينشئون برعونتهم حوادث خطيرة ، تثلم شرف العائلات ، وتجر الأذى على الأبرياء . والنتيجة فى هذا كله واحدة ، وهى عدم الابقاء على الحياة الزوجية ، أو المحافظة عليها .

عن الثانى :

أما الحالة الثانية ، فهى حالة يلجأ إليها بعض السيدات بفعلهن ، ولكن رغما عن إرادتهن الشخصية ، ورغبتهن النفسية . ذلك أن بعض الروابط التى تقوم بين الأزواج ، تجد أثناء قيامها حوادث شاذة ، ووقائع غريبة ، تحتم الانفصال وتفصم العرى ، فى الوقت الذى تكون فيه الزوجة راغبة فى استمرار علاقتها الزوجية ، وفى نفسها رغبة عدم قطعها أو التخلص منها . وهذه الوقائع التى تكون خارجة عن إرادتها ويمكن حصرها فى الحالات الآتية : —

١ — أن تكون زوجة لزوج وقع تحت تأثير غيره

٢ — « « « « يأخذ باللغو دون الجوهر .

٣ — « « « « تأثر جموح النفس .

ولبيان ذلك نذكر أن الزوج الأول يسير فى معاملة زوجته مسيراً لا مخيراً . فيطيع حينما يؤمر ، ويلبى حينما يطلب . ويحدث أن يحصل نزاع فى عمل أو معاملة بين المسيطر على هـذا الزوج كأحد والديه أو أكبر اخوته ، وبين أخ أو قريب لزوجته . وقد يجد ذلك المسيطر تشفياً لنفسه وانتقاماً من خصمه ، الإيعاز لهذا الزوج بقطع رابطته فينفذ ، أو هو ينفذ ذلك من نفسه مجاملة وقطعاً لألم قريبه .

كما أن الزوج الثانى الذى تطغى على عقليته الظواهر فيأخذ بها دون تروٍ ولا استقصاء ،

قد يندفع إلى بتر رابطته بزوجته وتكون فى الحقيقة كبش فداء .

وثالث هؤلاء هو الذى يثور ويفور وتعتريه لوثة المغالاة للتافه الصغير ، فيقدم على كلمة الفصل يلفظها سهلة ... ولكنها هادمة ...

فى كل من هذه الحالات تكون الزوجة مجنياً عليها ، ولا ذنب لها تستحق عليه هدم عشها ، ولا بتر صلتها ، ولا أخذها بهذه الشدة . ويغلب ألا تمر هذه الحوادث عليها ، دون أن تقوم بعمل مّا تسترد به اعتبارها ، أو يردها إلى مكانتها .

فيلجأ بعضهن إلى التقرب من شخص لتثير بوجوده الغيرة ، وتعمل متحايلة على الارتباط به ، لتسترجع إليها ذلك الهارب المحبوب إليها . وهذا الشخص الجديد يكون فى الحقيقة كمخلب القط لا ذنب له إلا أنه صدق فكذب عليه ، وآمن فوقعت عليه الخيانة .

وأمثال هذه الزيجات تثير من غير شك كثيراً من الحفيظة ، وتوقع فى ورطات تكون دائماً غير محمودة .

عن الثالث :

أما حالة السيدة الثالثة وهى التى تريد قتل سمعة أثيرت حولها . فهى عادة من طبقة تعلو من تُجبر على الارتباط به . ولها مكانة وسمعة ، لا تريد أن يتطرق إليها ما يثلمها أو يجرحها .

هذه السيدة من اللواتى تكون لهن مصالح مالية أو قضائية ، وتستعمل فى إنجازها بعضاً من الذين يسهل استخدامهم .

وكثيراً ما يتردد المستخدم فى هذا العمل على منزل السيدة حسب الأعمال . وكثيراً ما يصطحبها لأدائها فى الخارج . وقد يتحدث بعض من لاخلاق لهم ، وتثار حول هذه السيدة الظنون . ثم تهب موجة من الكلام المؤلم يتصل غبارها إلى السيدة ، وترى هذه بين عشية وضحاها أنها أصبحت نهباً للعيون ، وهدفا للأقاويل .

فتعمد فى سبيل حاجتها ، ثم فى سبيل المحافظة على سمعتها ، إلى بتر هذه الألسن ، لا بإبعاد هذا المستخدم ، ولكن بالارتباط به .

لكن هذه السيدة تعلم بعد قليل أنها أقدمت من غير تروّ ، وأن هذه الخطوة قد جبرت عليها ، ولا إرادة لها فيها . فتعمد إلى التخلص منها ، بعد أن تستيقن سكون الريح .

هذه هى كل الحالات أو جلها التى يلجأ الناس من أجلها إلى عمل الروابط الجبرية ، وهذه نتائجها . وقد تبين أنها غير طبيعية ، وكثيراً ما تجر وراءها المآسى ، بل المخزيات .

الزواج المؤقت

هذا النوع من الزواج كان يسمى بزواج المتعة . وقد أبيح فى صدر الإسلام . ثم نهى عنه النبى صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة . إذ التوقيت يخالف دوام الزوجية المطلوب .

والزواج المؤقت ، هو الذى تبيَّت له النية ، ويوضع أساسه ، وتجرى عمليته على نية زمن محدد ، لغرض معين ، يقدره القادم عليه رجلا كان أو امرأة . بناء على دوافع مخصوصة . لها عند الرجال حالتان .

الأولى — أن يقسم الرجل يميناً بأن يتزوج ويضطر للتنفيذ .

الثانية — أن تشترط الزواج وصية أو وقف ، أو ولى أمر .

عن الحالة الأولى :

لما كانت النفس لا تمتلك فى كل وقت . وكظم الغيظ باستمرار متعب للشعور ، خصوصاً فى زمن كثرت فيه المتعبات ، وازدادت المنغصات وتشعبت مصادرها ، عند الرجال المتزوجين ، الذين يقدرون مسئولية حياتهم . لأن الرجل أصبح يلاقى الآلام فى العمل ، وفى القرابة ، وفى الأصدقاء ، وفى الطريق ، وفى الأولاد ، وفى سبيل مطلوبات الحياة . وهى صنوف من العذاب قد يلاقيها كلها أوجلها فى يوم واحد ، — كل ذلك لقاء الوصول إلى ما يريده من توفير أسباب الحياة لزوجته وأولاده ، بخلاف الرجل الخالى ، الذى لا يحرص كثيراً على الرضوخ لمقتضيات الحياة .

هذا الرجل المتزوج ، يرى فى زوجه مكان راحته النفسية ، ومحل تهدئة شعوره ، وزوال آلام نفسه الخارجية . ويحدث أن يكون متوتر الأعصاب لسبب مّا من الأسباب المتقدمة . ويصادف مالا يستحسنه فى المنزل ، ويكون ذلك بالنسبة له كنقطة يفيض بها كأسه . فيضطر إلى التنفيس عن نفسه ، وإزاحة الصمام الجبرى الضاغط على شعوره . فيصيح صيحة ، أو يلقى بتأنيب . والزوجة ، وهى فى غفلة عما يكون أصلا فى نفس زوجها ، ترى أن ما كان سبباً لهذه المناقشة أو الصخب ، لا يستحق البناء عليه ، أو التشدد فيه . خصوصاً إذا تذكرت ما تلاقيه هى أيضاً من متاعب البيت والأولاد . فيدفعها ذلك إلى رد تأنيبه ، أو عدم قبول مناقشته . وقد يحدث أن يزداد ما فى نفس الرجل ويتطور ، حتى يدفعه ما فيه من اندفاع إلى تهور . فيسقط منه لفظ هدام ، فيقسم . إما يبتر الزوجية تخلصاً من حملها الذى ثقل عليه ،

وإما بحصوله على زواج بأخرى تريحه وتوفر له ما هو فى حاجة نفسية إليه . والشق الثانى هو المعنى فى هذا الموضوع .

مثل هذا الرجل بعد أن يلقى بقسمه ، ويمر اليوم الذى صدر فيه ، وتخف حدة الحادث . يرى أنه قد ذهب فى ثورته إلى حد بعيد ، وحمل نفسه مسئولية عظيمة ازاء زوجه وأم أولاده ، التى عاشت معه طيلة هذه المدة ، وتوافرت فيها أسباب التمسك بها . ولكنه عند ما يريد البحث عن مخرج ، يجد نفسه فى مأزق ضيق . فإذا هو بر بيمينه ، ولا بد من البر بها ليعيد المياه إلى مجاريها مع زوجه ، يكون كمن استغاث من الرمضاء بالنار عند ما يتزوج بزوجة تتكافأ ومكانته . لأن لها حقوقاً ولها قدرة على الوصول إلى الحقوق التى تتمع بها زوجة توفرت فيها الكفاءة . ومن أجل ذلك يلجأ إلى التحلل من يمينه مع من تصغره مكانه . وتبعد عن مقامه مكاناً .

يتقدم مثل هذا الرجل إلى الفتاة أو السيدة ، وهو يلبس كل مظاهر الراغبين فى الارتباط . ومثله سيلاقى الترحيب وتزول من طريقه كل العقبات ... ثم تتم عقدة النكاح .

إلا أن الزوجة الجديدة ، بينما تكون سابحة فى خيال السعادة المستقبلة ، إذا بالسكين المرهفة ، تسقط على حبل صلتها بالزوج العتيد فتقطعه ، وعلى شبح خيال سعادتها فتقتله ، وعلى صرح أملها الحلو فتهدمه . وهى لا تعرف لذلك سبباً ، وقد خلا ذهنها من أى مبرر لمثل هذه الفجيعة . ولكن الزوج يعرف . لأنه تحلل من قسمه ، واستعاد حرية العيش مع من أحبها ، وسعى فى الحرص على الحياة معها .

هنا تعرف المخنى عليها أنها ما اختيرت زوجة لزواج ، وإنما اتخذت اداة للتحلل من يمين ، ودرعا لحماية زوجة أخرى . وكانت فى رابطتها المؤقتة كبش الفداء .

ولقد يعظم ذلك على بعض النفوس ، فتضطر إلى الانتقام لهذا الشعور المجروح . فتقع الخصومات القضائية ، وما يستتبع ذلك من مشكلات شتى ، تتشعب بتشعب القدرة على الدخول فيها .

وقد يحدث أيضاً أن تنطوى الفتاة أو السيدة على نفسها حزناً ، ستراً لموقفها المحزن ، ولمسّا لسمعتها من التعليق والاستنتاج . والحوادث على ذلك كثيرة ولكنى اكتفى منها بالمثل الآتى : —

قال لى صديق ! انه اضطرته ظروف قلة المساكن ، إلى البحث فى حى ما كان يمكنه الإقامة فيه ، لو أن الحالة كانت عادية . وقد عثر على طابق فى بيت صغير ، كانت تطل منافذه على مسكن

واحد من صغار الموظفين ، تقدم به العمر ولا يزال فى درجة صغيرة ، مع ما يثقله من زوجة وحفنة من الأولاد . وكان من بين هؤلاء فتاة ، رآها ذلك الصديق ، فرأى فيها الخفر ، ورأى فيها الحياة ، مع ما جملتها به الطبيعة من ملاحة ووسامة . كما عرف من زوجه أن هذه الفتاة سيدة بيت بكل معنى الكلمة . ولاحظ هذا الصديق أن بنات الحى يخرجن متزوجات ، الواحدة تلو الأخرى حتى تزوجن جميعاً ، مع أنه ما كان يوجد بينهن من يدانى هذه الفتاة فيما هى عليه من مرغبات فى الزواج . ولما طال الزمن ولم ير لهذه الفتاة عرساً ، ولم يسمع عن الارتباط بها خبراً ، دفعه ذلك إلى الاستفسار عما يكون سبباً لذلك . وقد عرف أن هذه الفتاة سبق لها أن كانت محط الأنظار ، وموضعاً لتهافت كثير من مختلف الشبان والرجال . وقد تزوجت فعلا برجل كبير ، ولكن لم يمض على زواجها غير ليلة واحدة ، حتى خرج الرجل ولم يعد ، وبعث لها بورقة الطلاق . ويقول الناس عنها البذىء من القول . ويتقولون عليها بما ينفر من الأقوال .

ولكن الصديق وكان له غرام بحب الاستطلاع ، وازن بين ما يرى وبين ما سمع . فرجحت لديه كفة الطيبة الخلقية عند الفتاة ، ولذلك عمد إلى تحرى واقعتها ، لأنه كان يريد هذه الفتاة لأخيه ، وقلبه ينبض برغبة ازاحة الستار عن الخفى من أمرها .

عرف الصديق اسم هذا الزوج العابر ومقامه بعد متاعب التحرى والبحث . وأوجد معه علاقة شخصية ، وتوصل بهذه العلاقة إلى دخول منزله ، والوقوف على ما فيه من زوجة وأولاد . ثم عرف أخيراً ما آلَمَ نفسه وأهاج فيه شعور الامتعاض .

لقد عرف من الرجل أنه يحب زوجه وأولاده ، وأنه تجمعت فى أفق يوم مرهق سحابة سوء التصرف . فأقسم يميناً بالطلاق ليتزوجن فى شهره اغاظة لزوجته وانتقاماً منها لمعاندته . وقد اضطر بعد أن هدأت نفسه — إلى تنفيذ اليمين ابقاء على بيته . وأنه فى سبيل ذلك تزوج بالفتاة من غير أن تعرف ، أو يعرف ذووها عنه شيئاً من حالته . وأنه بعد أن أتم الزواج وتحلل من يمينه ، رجع كالملهوف إلى شريكة حياته وإلى أولاده .

ويقول صديقى ، إن من المحزن أن الرجل كان يسرد روايته على سبيل التفكهة والتندر ، من غير أن تبين عليه دلائل وخز الضمير ، ولا الندم على آثار جرأته . ولكن الصدق عندما تثبت من صحة ما نبض به قلبه ، أدبر للرجل ، وأقبل على والد الفتاة . فناتحه فى رغبته ، وتم ما أراده لأخيه ، من ارتباط بهذه الفتاة التى احتملت آلامها الدفينة بصبر ، وجروحها النفسية بجلد ، وصوت تمزيق سمعتها بدموعها إلى الله رجاء الإنقاذ ، وكان لها فى الرابطة الثانية العزاء ، ونعم العزاء والجزاء .

عن الحالة الثانية :

يجنح كثير من المالكين فى سبيل الاحتفاظ بما تملكوه والبقاء عليه ، إلى جعله وقفا على من يريدون ، أو يوصون بتوزيعه على من يبغون ، بمقادير يقدرونها فى وصاياهم الرسمية . ويضعون لتنفيذ إرادتهم شروطا ، كثيرا ما يكون لها من آثار مؤلمة للغير . ومن هذه الشروط ما يتضمن عدم الاستحقاق لشخص إلا إذا تزوج ، بل يذهب البعض من هذه الشروط إلى تعيين الزوجة بالذات .

ويرى كثير من الآباء أن حقوق أبوتهم ، تتضمن فرض زوجة معينة على الولد . وأن عليه أن ينفذ إذا أراد البقاء داخل حلقة الرضى عنه .

والموصى إليهم ، والموقوف عليهم وأبناء هؤلاء الآباء شباب ورجال ، لكل منهم فكره ، ولكل منهم قلبه ، ولكل منهم آماله الشخصية . وقد يكون للبعض رغبة معينة فى زوجة معينة . وقد لا يكون للبعض منهم عزم على التعجيل بالدخول فى روابط زوجية ، لاعتبارات خاصة . ولكن مناجأتهم بهذه الشروط من مورثيهم ، أو من آبائهم الذين يملكون حرمانهم ، تجعلهم فى وضع شاذ . فيضطرون فى سبيل وضع اليد على الموصى به أو الموقوف ، أو عدم الحرمان من الأرث ، إلى الأذعان مع ما فى أنفسهم من مضض ، ومع ما فى شعورهم من كراهية . ومتى تم للشاب وضع اليد ، وزال المانع من طريقه ، يكون أول عمل له التخلص مما وضع فيه ، أو فرض عليه . لأنه كان فى أثنائه مرغما ، وهو زوج من غير زواج .

مثل هذه الروابط لا يمكن لها البقاء ، ولا يتوافر فى حياتها ركن الطمأنينة . وإن الانهيار العاجل نهايتها الحتمية .

مثل من الأمثال :

عمد أحد المالكين لكثير من العقارات ، بعد موت ولده وابنته ، وكانا قد تزوجا فى حياتهما وأنجب الولد ولدا ، والبنت فتاتين . رباهم الجد فى حجره . وكان الجد قبل أن يموت ولداه ، قد وقف ماله ، وجعل من شروطه حق الريع لذريته ، ومن بعدها يحرم أبناء البطون وتضم أنصبتهم لأبناء الظهور ، وقبل أن يموت الجد ، أدخل فى الشروط شرطا ، ألزم به ولد ولده من التزوج بواحدة من بنات عمته عينها بالاسم ، وكان الحفيد لا يعرف من أمر هذا الشرط شيئا .

فلما مات جده ، وكان الشاب قد استكمل نموه ، وعرف ما حواليه من أمور الدنيا ، فوجئ بوجود هذا الشرط فى حجة الوقف ، لأن الناظر عليه كان أجنبيا عنه .

وكان الشاب فى طفولته يعرف كثيرا عن الطفلة المذكورة . حتى كان يقسو عليها ويكثر من ضربها ، كلما همت بمشاركته اللعب ، وقد نما فى نفسه عدم استساغتها حتى شب ، وتكاد الوشجية بينهما تكون مقطوعة .

لكن المال والحاجة إليه فى مثل هذا الشباب والسن ، دافع قوى للنفس ، على احتمال ما تمنى به ولو كان مرا ، لذلك أقدم الشاب على مضض ، وعقد رابطته بابنة عمته ، واستولى على نصيبه من الريع ، ، وأخذ فى إدارة ما اشترط له .

وما كاد يتم له ما يهدف إليه ، حتى أسرع فقطع الرابطة ، حيث أنشأها مع أخرى كان لها فى نفسه مكان ، وفى قلبه متسع .

هذا مثل واحد من أمثال لا يحدها حصر ، ولا يحصيها عدد . لو أن المالكين والواقفين كانوا يقدرون نتائجها ، ويقفون على آثارها ، ما حدثتهم نفوسهم بضربها على من يكونون لهم من أقارب أو أبناء .

***

أما دوافع هذه الحالة عند النساء فكثيرة نجتزئ منها بالمشهور المعروف ، وهو تحليل الرجوع إلى زوج سابق .

وتتلخص أسباب هذا الدافع ، فى أن كثيرا من الأزواج تقوم بينهم حالات سوء التفاهم . ويشتد بينهم الجذب والمد ، وتحمى بينهم المعارك والمشاحنات ، للخطير والتافه . فيندفعان وهما فى ثورة الالتحامات الشخصية ، إلى التخلص من الرابطة ، والافتراق من هذه الجامعة .

لكنهما بعد أن يفيقا من غمرة الغضب ، وتبرد فى نفوسهما فورة الشقاق . يشعران بالندم ، ويذرفان الدمع على الوقوع فى هذه القطيعة . فيعملان على الرجوع ، بعد أن يكون كل منهما قد محا ما فى نفسه مما علق بها .

وفى طريق اللقاء مرة ثانية يوجد الحرج الدينى ، وتقوم عقبة لا يمكن إزاحتها أو تذليلها إلا بشرط ، هو حصول زواج بأجنبى ، وحصول طلاق منه بعد الدخول طبعا ، حتى يحل للاثنين الرجوع إلى ارتباط جديد .

فى مثل هذه الحالة يكون العبء على المرأة ، فهى التى تعمل ، وهى التى تسعى فى سبيل تجديد ارتباطها بمن تحب . فتبدأ العمل . ولقد يكون طريقها محوطاً بالأشواك ، إذا هى وقعت فى صلة رجل يلاحظ موقفه ، ويتنبه لما يحيط به . وتضطر للدخول فى مخاصمات قضائية ،

ومشاكل لا قبل بها أو غرما ماديا يعجزها احتماله ، ويذهب بما بين يديها منه . لأن الرجل الذى يقدر كرامة نفسه ، لا يريد أن يكون مخلب القط أو كبش الفداء ، أو قنطرة يعبرها اثنان للقاء ، فسيمتنع عن الطلاق ، ويحتمل الشقاء ، فتشقى هى ويشقى مطلقها أيضا وهو الذى لا بد أن يكون .

أما إذا كان من أولئك الذين يعمرون بالحياء ، أو يقلون عن منزلة السيدة . فسيكون موقفهم عند ما يفاجأون برغبة الانفصال مجنيا عليهم ، مثل تلك السيدة التى اتخذت برا بيمين ، ويتوحد ما فى نفوسهم من حزن وأسى .

هذا النوع من الارتباط يقال له المحل والمحلل له ، وهو نوع فضلا عن آثاره الدامية فى النفوس ، فإن أصحابه ملعونون شرعاً .

﴿ عن عبد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحل والمحلل له ﴾ .

رواه الترمذى وصاحباه .

* * *

هذه هى جل الدوافع والأسباب ، التى يبنى عليها الزواج المؤقت . وقد تبين منها فساد إقامتها دينيا واجتماعيا ، وثبت سوء نهايتها وما تجره من بلاء على الآخرين الآمنين .

زواج الغرض أو الزواج التجارى

الغرض هدف معين فى خاطر صاحبه، تهفو إليه نفسه، ويصوب إليه أمله. ويتخير للحصول عليه الوقت، وما يستطيعه من سبل. وتختلف الأغراض فى الحياة باختلاف مدارك أصحابها وقيمهم ونشأتهم وطموحهم. وما كان من هذه الأغراض موجها للمراكز فالسبيل إليها محصور فى السعى بالطرق المشروعة، وبذل الجهود التى تستتبع المسعى.

من هذه الأغراض نوع نعنيه. اتخذت الروابط الزوجية وسيلته، واستعملت طرق الحيلة سبيله. لأنه نوع من الأنانية الشخصية والجشع النفسى الذى يستولى على بعض النفوس.

هذا النوع من الغرض تشعب بتشعب المدنية، وشمل أخلاق الشبان والرجال، ولم يسلم من استهدافه كثير من النساء.

ولخطورة آثاره، واتساع مدى آلامه، أصبح من الينابيع الفياضة للقصص المثيرة والحوادث الخطيرة.

ولأجل أن نعرف أصحابه ونقف معا على ما يجترئون به على الغير، نذكر ما يكون منه عند الرجال ثم ما عند النساء.

أغراض الرجال:

فللشباب والرجال أغراض معينة كشفت عنها الحوادث وملفات القضايا والخصومات تنحصر فيما يأتى:—

١ — غرض الوصول إلى مركز أعلى.

٢ — » » » الجمال.

٣ — » » » المال.

٤ — » » » الأولاد وهو أخفها.

وقد يوجد من بين الناس من يهدف إلى هذه الأغراض جميعاً، ويرى أنها متممة لبعضها من أجل نعيمه. ولكن أمثال هؤلاء من الغرور بحيث يكون من السهل لنا الحكم عليهم بأنهم سيبقون محرومين من الوصول إلى ما يريدون.

أما أولئك الذين سعى كل منهم إلى غرض معين فهم الذين سنبين وسائلهم ونكشف عن أعمالهم ، ولا علينا إذا كنا من المؤلمين لهم القاسين فى إبرازهم .

عن الأول :

فذلك الذى يهدف إلى المركز الأعلى ويتخذ الرابطة الزوجية وسيلة ، أحد ثلاثة . طالب وظيفة ، أو موظف صغير يريد العلو ، أو غنى خامل الذكر .

وأول هؤلاء يتخذ أقرب الطرق للوصول . حينما يعرف أن الذى بيده أمر الوظيفة أو القادر على توصيله إليها ، له فتاة أو تقرب له فتاة . فيعمل على مصاهرته ، وقلما يخبئ قصده أو يخجل عن الإفصاح عما فى نفسه . بل قد ذهب بعضهم إلى اتخاذ الوصول إلى ما يريده شرطاً معجل النفاذ . وهذا البعض من المفروض أنه يتوفر لديهم ما يمكنهم من هذه المصاهرة ، سواء أكان خاصاً بالمادة أو المكانة أو . . . الشباب .

ومثل طالب الوظيفة ذلك الموظف الصغير الذى يريد العلو والارتقاء . وهذان الصنفان من الناس حينما يقدمون على هذه الروابط ، لا ينظرون إلى ما تكون عليه زوجة المستقبل ولا شريكة الحياة ، من رسم يعصم ، أو خلق يحترم . ولا يفتحون آذانهم لما يترامى إليها من سمعات أو وقائع . ولكن ما يهدفون إليه هو فقط ما يدفعهم . ولا عبرة بما تكون عليه الوسيلة .

وكثيراً ما يتم لأمثال هؤلاء ما يأملون ، ويصلون إلى ما يريدون . ولكنهم سرعان ما يهربون ويدبرون ، ولا يراعون ولا يخشون .

إن طالب الوظيفة أو طالب الدرجة لا يكتفى أحدهما بالوصول إليها . وسيدفعه ما تجيش به نفسه من حب الطفرة إلى البحث عما يعلوها من وظيفة ، وسيكون من يسيطر عليها غير ذلك الذى استعمل فى الأولى . وهو إنسان آخر يستأهل الوصول إليه التقرب منه بنفس الوسيلة . فيضطر إلى التكرار والتعدد ، ويعيش قلقاً بتحريض دوافعه . ولأدلل على فساد هذه النفوس وما تتجه إليه أذكر المثلين الآتيين .

حصل أحد الشبان على أجازة الحقوق (ليسانس) وامتلأت نفسه بالرغبة فى وظيفة معينة ، كان يملك التصرف فيها كبير من أصحاب الألقاب الضخمة والمراكز المعروفة . ولم يحاول الشاب ترشيح نفسه بالطريق العادى . بل اختصر الطريق واتجه بحثه عن ما فى بيت هذا الكبير من فتيات آنسات أو سيدات ، ليتخذ إحداهن كقنطرة للوصول إلى ما يريد .

لكنه بعد تحريه ، عرف أن منزل الكبير قد خلا منهن . فاتجه إلى الأقربين منه ليصل بهم . وكان لهذا الكبير أخت لها زوج فقير ، قد رزقت منه ببنات وبنين ، يعيشون عيشة أقل من المتوسط ، فى حى من الأحياء المتوسطة . ومع أن الشاب قد نبت فى بيت علت عمده ، واتسعت جنباته ، واحتوى من زخرف المجد أدواته ، إلا أن الشاب لم ينظر إلى ذلك الفرق ولو بجانب من عينه . فعمد إلى الاتصال بصهر ذلك الكبير ومهد للارتباط بابنته ، واستعمل وسائل الاغراء المادى ، حتى صار الرجل وابنته وزوجه أشبه بالمسحورين المأخوذين .

وفى غمرة هذا الذهول ، وجه الشاب نظر حماته المستقبلة وصهره العتيد إلى ما يريده من الوظيفة المذكورة . ولم ينس أن يدفع من ورائهما فتاته أيضاً ، لما كان لها من دالة على خالها . فتناوبه الجميع ، وكان سهلا ميسوراً انتخاب الشاب للوظيفة المعينة ، فتربع على كرسيها قبل أن يتربع على كرسى الرابطة التى كانت وسيلة الوصول .

لم يمض على الشاب فى هذه الوظيفة غير سنة وبعض سنة ، كان ذلك الكبير فى نهايتها قد استوفى مدة خدمته وأحيل على المعاش . فذهب سلطانه وتقلص ظله . فما كان من الشاب إلا إذ اصطنع زوبعة بينه وبين زوجه ، اتخذها أحبولة للخلاص من هذه الرابطة . وخلف وراءه تعريفاً لفعله يحمر له وجه الكرامة لمن يحس فى نفسه الكرامة .

أما الحادث الثانى فكان لشاب يشغل وظيفة صغيرة فى إحدى دور الحكومة . وقد استثارته درجات الرقى التى يصل إليها غيره من أولئك الذين رشفوا كؤوس العلم ، أو استندوا على ظهور قوية . ولم يكن لهذا الشاب ما يسنده من جاه أو مال ليتمكن بواسطتهما من الاتصال بمن يريد . لكن ذلك لم يقعده أو يدخل اليأس فى نفسه . فنظر حواليه فوجد أن عمه الذى يتردد على دار حزب من الأحزاب اللامعة ، قد نال حظوة العطف من أحد الزعماء . فحبك الشاب شبكة الاتصال بعمه واستهدف صلته . وكان لهذا العم ابنة تكبر الشاب ببضع سنوات ، زهد فيها شبان الحى لتقدم سنها ، ومجافاة الطبيعة لها وتقتيرها عليها فى المحاسن التى وجد الكثير منها فى جميع عباد الله .

ولم يضيع الشاب الفرصة . فناتح عمه واتفق معه على مصاهرته ، متظاهراً بأنه أحق بها من غيره (والبايره لبيت أبوها) ثم قدم الشبكة وقرأ الفاتحة واتفقا على زمن محدد للعقد والدخول .

وكان الشاب أثناء ذلك يذكر لعمه أنه مهضوم الحق ، ويثير فى نفسه الغيرة على نصفته . فاندفع العم بعامل القربى وعامل المصاهرة ، والتمس مساعدة زعيمه المعروف ووصل الشاب إلى ما يريده وارتقى إلى الدرجة التى يبغيها .

ولما كانت الدنيا لا تسير على وتيرة واحدة ، يوم لك ويوم عليك . فإن ما لم يكن فى الحسبان قد وقع . وأفل نجم الحزب وخرج السلطان من يده ، وتعطلت بالتالى قوة العم . فما كان من الشاب إلا أنه استعمل التسويف أولا ، ثم جرؤ بمصارحة العائلة بزهده فى ابنة عمه . ولم يخجله الإقرار فى وقت ما بأن تلك المصاهرة قد اتخذت سبيلا فقط لغرض معين . وما دام قد وصل فهو فى غير حاجة الآن ... ولا تسل عما قام فى العائلة الصغيرة من قطيعة وتفريق ، وما لحق بابنة العم من استنتاج وتعليق على تركها . وما اضطر إليه العم من انتقام . وكانت خصومات شرعية نشرفيها غسيل العائلة أمام النظارة ، وكانت الوقائع سمراً للجيران .

فإذا كان هذا مبلغ ما يأتيه الذين تثقفوا ورضعوا لبانة العلم والمعرفة ، فليس بكثير على ذلك الذى خمل ذكره ونشأ فى عدم ، أن يتلمس الظهور حينما يكسى بعد عرى ، ويسكن بعد تشريد ، ويركب بعد المسير . ليس بكثير عليه وقد امتلأت جيوبه بلفائف المال ، أن يتلمس الطريق إلى إيجاد مكان له فى الصفوف الأولى من المجتمع . وأمثال هؤلاء كثيرون الآن . فقد خلقتهم الحرب على انقاض الذين ماتوا فيها ، وخلقتهم أناسى آخرين مغايرين لحالتهم التى عاشوا فيها . وقد ساعدهم على ذلك أن الناس يحترمون المال ومكانه .رغبوا فى العرض ورغبوا عن الجوهر . ففتحوا مصاريع أبوابهم لمن ملأ جيبه وحسنت بزته ، ولو كان قبل ذلك من المجرمين ، أو الأدنياء والسوقة .

إن هذا الغنى الحديث ، يصبح بين عشية وضحاها صهراً لصاحب العزة أو صاحب السعادة ، لغرض الظهور بجانب صهره وقضاء مصالحه باسمه . لكن حياته الداخلية . والرضى عنه كزوج ، فهذا شىء آخر أحيل القارىء فيه على باب (عدم التجانس) ونتيجته .

هن الثانى :

الجمال منحة الله يهبها من يشاء من عباده . وللجمال قوة أثيرية تبهر النظر وتغتصب الانتباه . بل كثيرا ما يكون الجمال سببا للاحترام والتهيب . وكثيرا ما كان الجمال سببا لشحذ الأفكار وتنبه الأحاسيس وقرض الشعر ، والنبوغ ، بل وإحداث وقائع دامية ومآس خطيرة .

ومن الناس من يستولى على مشاعره الغرام بالجمال فى النساء ، ويلهب حسه منظر الجميلة ، ويصبح شاعرى المزاج أو خيالى التصوير . فيندفع وراء خياله ويتناسى الروحية . وتغرقه المادية بطوفان من التلهف ، ويصير كالطير الذى ينتقل من فنن إلى فنن ومن زهرة إلى زهرة ، وما أكثر الألوان .

هذا الصنف من الناس لا ينفذ نظرهم إلى ما وراء السافر من الجمال ، وفى ذات الوقت لا يقنع بما يصل إليه منه . لأن الجمال قد وزع على المخلوقات كل بقدر . وكما وهبه الله للمترفين من أصحاب الدور والقصور ، وهبه أيضا لسكان الأكواخ أو الخيش فى البيداء ، أذليس له منبت معين ، ولا جو خاص يحيا فيه .

والرجل المغرم بحب الجمال ، إذا رأى ضالته فى عل صعد إليها ، وإذا رآها فى أسفل نزل إليها ، وإذا رآها فى طريق سار وراءها ، أو فى مجلس اقترب منها .

لكن مثل هذا الرجل بعد أن يصل إلى ضالته ، ويبذل ما يبذل فى سبيل امتلاكها ، لا يكيفيه ما تكون عليه ، عند ما يرى من تفوقها أو تزيد عليها . فيقضى حياته بين صاعد وهابط ، ومترصد ورابط . لا يقر له قرار ، ولا يسكن له أوار .

ولو وجدت فى نفسه راحة وقناعة لاكتفى . ولكنه وهو يستعر لظى ، ويتقد رغبة ، يروغ بصره ، ويندفع إلى البحث على الدوام .

إن مثل هذا الرجل ، يرتبط بالجميلة لارغبة فى قدسية الارتباط ، ولكن حبا بالاستمتاع وإرضاء للغريزة . وقد يحدث أن يقترن الجمال الظاهرى ، بجمال الخلق ، ولكن صاحبه قد أعمته غوايته ، واحتاطته هوايته . فأصبح تابعا لها . كما يحدث أن يكون هذا الجمال سطحيا على جسم يحتوى قالبا صلدا ، وخلقا دنيئا . فلا يهتم صاحبه بما فيه ، ولا بما يحتويه .

وقد يطيح بالجمال داء ، فيذهب بذهابه ما بنى عليه . وتتعرى صاحبته من وسيلة الإبقاء عليها . ولا يمكن لمن رغب فيها لجمالها أن يعيش معها من غير هذا الجمال .

إن الرجل الذى يسعى إلى الاستمتاع بمنحة الجمال ، ويتخذ الرابطة الزوجية وسيلة لغرضه ، رجل غير مأمون العاقبة ولا يطمأن على استمراره . ففى الوقت الذى يصيغ فيه قلائد الوصف والغزل ، لا يبعد أن يفر من غير رجعة ويخلف وراءه المتاعب والشقاء ، إذا لاح له زهر آخر أنضر فى حديقة أخرى .

مثل من الأمثال :

رضيت الطبيعة على إحدى الفتيات فألبستها تاجا لامعا من البهاء وحسن القسامة . ولما شبت واكتملت أنوثتها ، كانت هدفا لتسابق شبان الحى ورجاله . وقد سعد بها أخيرا عامل كان زميلا لأبيها وجارا له فى سكناه ، لكن واحدا من الشبان الأبعدين كان قد أغرم بجمال الفتاة ، وملك عليه حبه كل مشاعره . ومع أنه من طبقة أخرى وعمل أرفع ، لم يجد ذلك سببا يحول دون

استمتاعه . فاستغل قدرته ومركزه ومظهره فى إغراء الفتاة ، حتى جعلها حربا على زوجها ، ولما تكتمل بعد شهرا فى معاشرته . وانتهى الأمر بينهما إلى افتراق ، ثم إلى اتفاق ، ثم إلى ارتباط .

قضى الشاب مع ضالته أشهرا لا تزيد على عدد أصابع اليد ، وفى يوم بينما كانت الفتاة تطهى الطعام ، إذا بقطرات من السمن الساخن تتطاير إلى وجهها فتؤثر فى الأمكنة التى وقعت عليها وتخلف بقعا داكنة . فما أن رأى الشاب هذا الأثر ، حتى رفع يده عنها وردها إلى أهلها ، ولم تكن قد برئت بعد مما أصابها فى سبيل واجبها المنزلى .

* * *

وقبل أن أترك الحديث فى هذا النوع من الأغراض ، يجب أن أثبت ما يتصل به عند كثير من السيدات . فقد دلت الوقائع على أن كثيراً من السيدات والفتيات يجذبهن جمال فتى أو رجل ، ويسحرهن ما يكون عليه من شكل . فيتناسين ما هن عليه من قدر ، أو ما يوجدن فيه من مكانة . ويهدمن العوائق فى سبيل الارتباط به . ومتى تم ذلك فسيكون مآل الرابطة هو نفس مآل رابطة الجميلة مع الراغب فيها . زوجية غير روحية ، وعمى عن قديسة الارتباط ، وانهيار كبير لما أقيم من أمل .

عن الثالث :

وهاك صنف آخر من أصحاب الأغراض ، الذين يسخرون الروابط الزوجية فى الحصول عليها . فبعض الناس قد جذبهم بهرج الدنيا وطمعوا فى أن يكون لهم منه نصيب الأسد ولو لم يكن لهم فيه حق ، تغذية لجشع نفوسهم ، وأرواء لعطش لا يمكن إرواؤه ، خصوصا إذا كان هذا العطش لا يروى إلا بالمال .

والمغرم بحب المال ، لو اتخذ إليه سبيل التجارة أو الصناعة أو العمل ، لا يكون محل مأخذ ، ولا مكان لوم . لأن السعى وراء ما فى الدنيا من خير فرض على الرجال ، ولكن بعض هؤلاء الذين يرغبون فيه ، لا يتخذون إليه وسيلة العمل الشريف ، التى تتطلب جهد العامل وعرق المفكر ، ويحبون أن يأخذوه ممن جمعه ، ويستحوذون عليه ممن شقى فى تحصيله .

هؤلاء الناس هم الذين يجعلون شرط وجوده سببا فى إنشاء الروابط الزوجية ، وهم من نعنيهم فى هذا الكلام .

ولئن قلنا إن هؤلاء من المتواكلين ، أو إنهم من الطامعين الجشعين ، لكان ذلك تعريفا متواضعا لهم ، ولكنهم فى الحقيقة لصوص مختلسون ، وأدنياء مجترئون ، وأذلاء معتدون

لأن من يريد الاستيلاء على ما فى يد آخر من غير حق فيه ، رجل جان ، أو لص معتد ، له مكان المذنب فى القانون ، خصوصا ، إذا وقفنا على ما تنطوى عليه نفوسهم من حيل خسيسة ، وشباك دنيئة ، ينصبونها لإيقاع الفرائس فيها ، والوصول على انقاضها إلى ما يبتغون .

والمغرم بحب المال أو الذى يجعله غرضه عن طريق الزواج ، لا يعرف إلا بريقه ، ولا يهمه إلا كمه . ولا تتفتح خياشيمه إلا على رائحته . فبصره أعمى إلا عليه . وشعوره غير متجه إلا إليه . لا فرق فى نظره بين اليد التى تقبض عليه إذا كانت يد بائعة بصل ، أو يَدُ بغيٍ أو راقصة ، أو يد سيدة فيها من العيوب الجسمية ما يجعل النظر عنها عيوفا ، والرجال عنها مدبرين .

وعند ما يتاح لمثل هذا الطامع الوقوف على بغيته ، لا ينظر إلى كفاءة ولا وسط ولا تجانس ، ولا يستمع إلى نداء الكرامة ، ولا السمعة ولا الدين . بل يقبل فاتحا ذراعيه ، راضيا بالحالة التى تكون عليها ، مهما تكن ، لأنه فيها من الراغبين .

يقبل محب المال مسلحاً بالحيل ، مذللا كل صعب . متجاوزاً عن كل ماعدا غرضه . والزوجة فى مستهل الرابطة ، لاتعرف مدى تفكير زوجها وهى تسير وراء مايجرها إليه ، ولا تستريب فيه ، فتطيعه وتجيبه ، وتبذل وتبذل وتعلل نفسها بالوصول إلى الهدف الذى أحسن التصويب إليه بحيله ، حينما يزعم بعضهم إجراء الصفقات التجارية لتنمية المال ، أو ترضى ضميرها الطيب حينما يدعى وجوده فى مآزق مالية ، ويستعين بمالها على الخروج منها . وهى فى الحالتين راضية النفس ، ما دام هذا يرضى الزوج العتيد .

وليت هذا الزوج صدق فيما يقول ، ويستعين بمال الزوجة على تنمية موارده ، ليتوفر لهما رغد العيش ، وأسباب الهناء . ولكنه لا يصدق ، ولا يمكن أن يصدق . إذ همه الاستيلاء على ما فى يد زوجته لنفسه طمعا فيه . وليته يحرص عليه ولكنه يبدده هباء .

وليته حينما يستترف هذا المال يقوم بواجب منزله ، وواجب هذه الزوجة ، بل يبلغ بالبعض من هؤلاء أنه يضيف عليها مسئولية المنزل ومطالبه .

وتمضى الأيام الأولى التى أغرقت بمفاجآتها تفكير الزوجة ، وأسدلت على عينها ستارا من عدم المعرفة ، وتحل بعدها الأيام التى توقظها من هذا السبات ، فما أن تتفتح عينها على الحقيقة حتى ترى أنها كانت كبش الفداء . وأنها قد أشرفت على الإفلاس ، أو أن يدها قد فرغت فعلا ، وأصبحت فى إفلاس .

فإذا شعر الزوج بفراغها ، فتر فى معاملتها ، وتجهم وجهه حين مقابلتها ، ثم لا يكون طويلا

حتى يدبر لها ، ويترك الدار بما فيها سعيا وراء غيرها .

وإذا أرادت هى أن تكون البادئة بطلب وفاء عهوده ، وتحقيق وعوده ، كانت الضربة عاجلة ، والافتراق سريعا . لأنها رابطة لا روح لها ، وزوجية لا رغبة فيها .

لقد كانت الزوجة تعتقد فى فجر الرابطة أنها هى الزوجة . ولكنها الآن غيرت هذا الاعتقاد ، وعرفت أن ما كان فى يدها هو وحده الذى أوجدها . وما دام قد ذهب ، فليس لها من غيره مقام .

فأى سيدة ترضى لنفسها أن ترتبط مؤقتا بطريق الرشوة ، وأن تصرف ما اكتسبته من عملها أيا كان أو ورثته عن طريق زوج أو والد متوفى ، ثمنا لمدة مؤقتة مع إنسان هذا فعله ! لقد يوجد من النساء نوع يستبيح الكسب من طرق غير مشروعة ويرضى بمثل هذا الزوج اسميا لستر الموقف ، ويعتبر ما يعطيه لمثله أجر تستره ووجوده ، ولكن هذا النوع من النساء يخرج كلية عن موضع الروابط الشريفة ، التى نبحث فيما يشوبها ونتقصى أسباب الدخل فيها لتنقيتها ، والعمل على إبقائها ، نقية حلوة سعيدة بين كل زوجين .

ولا يفوتنا أن نذكر ما اتخذه أكثر الشبان الآن شرطا أساسيا للدخول فى معترك الأزواج . فحيثما سرت ومع أى إنسان جلست ، تجد وتسمع طالب الزواج يتساءل :

ما ذا تمتلك فلانة ، وما مقداره ، حتى يمكننى التحدث فى زواجها ؛ وإذا سألته ولم لم تسأل عن ذاتها ، أو أخلاقها ، أو حسبها ، أو بيئتها ؟ أجابك : هذا هو المهم أولا ، فإذا وجد فكل ما عداه يهون . أما هو فعدته مورد وظيفته الصغيرة ، وقد لا يعدو عدد أصابع اليدين من الجنيهات .

هذه حالة شاعت بين الشبان والراغبين فى الزواج . وأن من يمعن التفكير فى أخطارها يعرف بالنظرة العابرة مقدار ما وصلت إليه الأخلاق من الانحلال ، فوق ما يتبع ذلك من تنازل عن كرامة الرجولة وواجبات الأزواج .

فهل يستقيم عيش بين زوجين يكون الغرم فيه على الزوجة التى قرر الشرع مطالبها ومطالب بيتها على الزوج ؟ وهل فى شرعة الإنصاف أن يكون الشاب معدما لا يقدر على إعالة نفسه ويفرض نفسه وطلباته على الزوجة كأنها هى التى جعلها الله القوامة على مثله ؟ وهل يمكن أن يوجد مال فى يد فتاة أوسيدة مكانها الخدر ، إلا إذا كانت ذات إيراد ، وذلك يوجدها فى طبقة تعلو طبقة هذا المعدم ولا تحقق التجانس ؟ وما هو مصير كل الفتيات والسيدات اللواتى لم يكن لهن مال ولا يمكن أن يعملن ليكسبن المال ؟ ثم ما هو مصير

قريبات مثل هذا الإنسان المعدم وهن طبعا فقيرات ؟ وما هو مبلغ كرامة مثل هذا الإنسان الذى يعتمد فى حياته على مال زوجته .

الحق أن ذلك قاب للأوضاع ، وتهرب من النوع ، وهو بعينه السبب فى كساد سوق الارتباط الزوجى . وامتلأت البيوت بالعذارى والسيدات الفقيرات . مع أن أكثرهن مؤمنات قانتات قانعات .

إن هذا الاتجاه الذى سار فى طريقه وإليه ، أغلب الشباب والرجال ، فتح مغاليق الرذيلة وأبواب السقوط الأخلاقى على مصاريعها . وهدم حياتنا الاجتماعية وأتى على الكثير مما كنا نعتز به من رجولة وقومية وكرامة ودين .

قال صلى الله عليه وسلم (تنكح المرأة لأربع . لمالها . ولحسبها . ولجمالها . ولدينها . فأظفر بذات الدين تربت يداك) أى لصقت يداك بالتراب إن لم تطلب ذات الدين لتتوفر لك معها السعادة .

* * *

وليست الرغبة فى المال بقاصرة على استخدام الرابطة الزوجية وسيلة إلى الوصول إليها على الرجال . بل أن بعض النساء يتخذنه هدفاً ويسعين إليه . ولكن هذا الصنف منهن ، لا يحتوى غير اللواتى لاحجاب لهن ولا خدر . ولا شرف عندهن ولا دين . لأنهن من أولئك السافرات الضاحكات ، ذوات الرواء ومعسول اللفظ . يحتلن على مالك المال حتى يقع . ومتى وصلن فررن بالغنيمة وتركن الضحية مخضبة بدماء الإفلاس . وهذا الصنف من النساء لا نعنيه فى الروابط الشريفة ، ولكننا نذكره لأنه قد استعمل للوصول إلى هدفه تلك الروابط وسيلة ، واشترك فى الغرض مع أولئك الرجال المحبين للمال .

ومما تقدم يتبين أن كل رابطة أقيم صرحها على أساس هذا الغرض فضلا عن أنها لن تعمر ، فإنها ستودى إلى الخراب والدمار ، وتفتح أمام الناس أبواب الخصومات . وليس أحر فى النفس من ألم فقدان المال إذا تحقق اختلاسه بيد من يظن فيه الأمان .

عن الرابع :

أما هذا الغرض ، وأعنى به الرغبة فى الأولاد فهو غرض شريف حقاً . بل هو أصل أساسى من أصول الارتباط الزوجى . لقول النبى صلى الله عليه وسلم (تناكحوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة) .

والأولاد هم الشق الثانى من زينة الحياة لقول الله سبحانه وتعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) .

وقد استن الله فى شرعة الطبيعة الزواج لتعمير الكون بالتناسل ، كما حث فى صدر الإسلام على تزوج الولود لاستكثار المسلمين .

عن معقل بن يسار قال : (جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، أصبت امرأة ذات جمال وحسب وأنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال : لا . ثم أتاه الثانية فنهاه ، ثم أتاه الثالثة فقال : تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم) .

ومن أجل ذلك نسلم بشرف هذا الغرض ، ولا نريد خلق أسباب الاعتراض عليه ، لأنه يعد بمثابة خروج منا على الثابت من أمور الدين والعياذ بالله ، — ما دام صاحب الغرض قد جمع الأسباب التى تهيئه للأبوة الحقة ، ثم تحقق أنه فى سبيل هذا الغرض قد برأ نفسه مما يضر بالغير ، أو يوقعه بالتالى تحت طائلة مخالفة للدين .

لكنه إذا لم توجد هذه الأسباب ، ووجد على التحقيق ضرر لما شاب هذا الغرض من دخل ، فهنا قد يحق لنا أن نتحدث ، بل يجب أن نحول دون وقوع أضرار ، حماية للمجنى عليهن من الزوجات ، وتنقية لنفوس أولئك الأزواج من شوائب الخصومات ، وابقاء على الروابط من الانحلال ، بل ورجوعا إلى قواعد الدين . فمتى وأين يحين لنا هذا التدخل ؟ . وفى أى صنف من الناس يكون هذا الحديث ؟ .

إننا قبل أن نأخذ بسبيل ذلك نقول : إن الأغراض الثلاثة الأولى تشيع فيمن يقيمون فى المدن وحواضر البلاد . وهى أغراض يسهل الوصول إليها لأنها نتيجة الحياة والسعى ونصب الشباك ، ولأنها بهرج المدنية الذى ملك على المتمدينين كل سبيل .

أما هذا الغرض فاصحابه هم الكثرة من سكان الريف . لأن الناس هناك يتباهون بالنسل وكثرته ، تأييداً للعصبية وتقوية للمناعة وتمشياً مع أمور الدين .

وإذا وجد فى المدن — وهو يوجد بقلة — فإن من يسعى إلى هذا الغرض أحد اثنين . مالك مال يخشى ضياعه ، أو مستحق لريع يخاف أن يرجع بعد موته إلى غيره من المستحقين .

ولقد يدفع هذا الغرض بعض هؤلاء إلى الارتباط ، فإذا رأى أنه قد أمضى زمناً مناسباً فى المعاشرة ولم يرزق بأولاد ، ولم توجد الدلائل على الوصول إليهم ، وكانت حالته المادية تساعده ، فانه يكرر رابطته بأخرى . دون أن يقطع صلته بالأولى ، وهذا الشطر من الناس أدى واجبه كرجل وكزوج وكمسلم . فليس لنا عليه من سبيل .

لكن الكثرة الغالبة من هؤلاء ، بعد أن يرتبط أحدهم بزوجة يأخذ فى التربص وعد الأيام . فإذا تأخرت الدلائل التى تبشره بأمينته بعد شهور من بدء المعاشرة ، فإنه لا يتورع عن ايلام الزوجة وازدرائها ورميها بالتقصير ، وتعييرها بالنقص ، ثم يتطور ذلك إلى حرمانها من واجباتها كزوجة ، ثم إلى قطع الصلة بها وطردها ، وربما لم تكتمل فى معاشرته عاماً أو بعض عام .

هذا الصنف من الناس هم الذين أقصد الحديث فيهم ، ويحق لى مؤاخذتهم ، والتدخل لابراز الآثار التى تخلفها اعتداءاتهم ، وما أكثرها من فواجع مؤلمة ، ما كان أغناهم عن إيقاع الغير فيها لو كانوا مؤمنين . هذا الصنف من الناس نسى أن الخلق وإنشاء الأنفس ، عمل فوق قدرة الإنسان . اختص الله به نفسه كما اختص بمعرفته ، ومعرفة وقته ، ومكان حدوثه .

وهو سر لا يعلمه زوج ولا زوجة ، ولا عالم ولا طبيب ، ولا عتول فلاسفة الدنيا أجمعين . قال الله تعالى (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) . وقال (لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء أناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير) .

هذه إرادة الخالق جل وعلا . وهى قرار بوجوب عجز البشر عن التوصل إلى أحداث تناسل فى أى وقت أو متى وأين يكون ، أو الحيلولة دون حدوثه أو تحويله عن نوعه .

وحكم هذا القرار كحكم قرار الموت ، لا يمكن معرفة وقته ، ولا الحيلولة دون وقوعه ، مهما تجمعت الحيل أو قُوَى الجن مع البشر مجتمعين . سر القدرة الإلهية ودليل عظمة الواحد القهار سبحانه وتعالى .

وإذا كان من قواعد الدين ، الإيمان والتسليم بما جاء فى كتاب الله الكريم ، فواجب الرجل المؤمن فى هذا المقام أن لا يتعجل حدوث ما لم يوح به الله إليه ، أو يأخذ به عهداً عليه ، وأن يتذرع بالصبر ، ويسلم لله فيما هو فى يد الله . فربما كان الخير فى الحرمان ، أسوة بالوالدين الصالحين اللذين قتل ولدهما سيدنا الخضر عليه السلام وورد ذلك فى القرآن (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما) .

ويقول الله سبحانه وتعالى (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) . ويقول النبى صلى الله عليه وسلم (لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع) .

هذا هو قول الله ، وهذا هو قول النبي ، وتلك قصة القرآن . فلا اعتراض ولا تخريج ولا حيلة . وإنما التسليم القاطع والرضى عن يقين .

ولو درى هذا البعض من الناس الذين تستولى عليهم مشاعرهم الخاطئة ، فتحيد بهم عن سوىٍّ الطريق — أن كل زوجة تود من عميق نفسها وصميم فؤادها أن تكون أما ، وأنها مدفوعة بغريزتها إلى حب الأمومة .

ولو درى هذا البعض أن المسكينة لا تدخر وسعاً فى بذل كل غال وثمين ، وأنها تحتمل فى صبر آثار كل وصمة موجعة وما أكثر هذه الوصمات . وأنها لم تسكت ولم تضيع يوما من وقت أن دخلت فى معاشرته دون التجاء إلى حيلة ، وأنها إذا خيرت بين رزقها بالذرية وحرمانها منها ، لاختارتها ولو بتر أى عضو من أعضائها ، أو التجاوز عن أثمن ما تمتلكه فى الحياة . حباً منها فى الأمومة ، واستجابة لنداء ضميرها الزوجى .

لو عرف هذا البعض من الأزواج أن ذلك شأن المرأة ، تحمله فى نفسها كهم ثقيل يلازمها طيلة يومها نائمة أو مستيقظة ، وهى فى ذات الوقت تقوم بواجباتها المنزلية كزوجة ، بل وتغالى فى الاجادة ودقة المعاملة والتهاون فى حقوقها ، لتغطى ما يقوم فى داخلية نفسها من شعور بالنقص ، وما هو فى الحقيقة بنقص

لو عرف هذا البعض من الأزواج ذلك عن زوجاتهم ، لكان الأجدر بهم الرضى بالواقع ، ولوجب عليهم أن يكونوا لهؤلاء الزوجات مؤاسين ومواسين ، ولنفوسهن المعذبة راحمين ومقدرين .

لكن هذا الصنف من الأزواج يحلولهم الاندفاع وراء غير المحدود ، ويهملون ما قرره الله ورسوله ، ثم لا يرحمون هذا الإنسان الضعيف فى عذابه الشخصى . فيبدأون بالايلام والتمريع ثم يتلون ذلك بالحرمان من الحقوق ، ثم يتطور ذلك إلى قطع الصلة بالزوجة ، واخراجها بل طردها من بيتها .

عقاب قاس على غير ذنب ، وانتقام صارخ على غير عداء ، واعتداء خطير على آمن ، ومطالبة بعمل يعجز عنه أنواع البشر مجتمعين .

فهل ذلك يرضى الله ؟ وهل هذا ما يأمر به دين ؟ . كلا !

على أننا إذا نظرنا فى حالة الأكثرين من هؤلاء الناس الذين يتجهون هذا الاتجاه . رأيناهم مع الأسف لا يمتلكون فى دنياهم ما يخشى على ضياعه إذا ماتوا من غير عقب . وهم فى الدنيا لا يهم وجودهم ، ولا يحزن ذهابهم . ولكنها نعرة تسلطت عليهم ، وغيرة تأصلت

فيهم . وليس للدين ولا لتكثير الأمة الإسلامية ، ولا حتى الرغبة فى تقوية الوطن سبب مباشر يدفعهم إلى فعل ما يفعلون .

أما الأقلية من هؤلاء ، فهم أناس ملكت عليهم الأنانية والغيرة والحقد كل مشاعرهم . تملكوا بعض عرض الدنيا فخشوا عليه من أيلولته إلى أخ أو قريب ، أو استحقوا ريعاً فى وقف فخافوا أن يزيد إذا رجع بعدهم فى حقوق المستحقين .

هذه هى فى الحقيقة دوافع أولئك وهؤلاء ، ممن يعتزمون إيجاد الروابط ، ثم يجترئون على قدسيتها ، ويعتدون على حرماتها ، فيهدمونها فى سبيل أغراض لا تتم بالاجتهاد ، ويخلفون وراءهم المآسى والفواجع والخصومات .

وبعد . فقد تبين أن الأغراض الأربعة وفروعها ، التى اتخذها كثير من الناس غاية ، وجعلوا الوسيلة إليها الروابط الشرعية ، قد احتوت على ما يحيد بأصحابها عن الطريق الشرعى ، وجعلت العلاقات بين الزوجين محل تخاصم وتشاحن وحقد وانتقام ، بدلا من أن تكون محل تواد وتعاطف ومحبة ووئام . « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ترك العصمة فى يد الزوجة

ترك العصمة فى يد الزوجة موضوع خطير دلت البحوث والخصومات التى نشأت عنه على أنه قام بين أنواع كثيرة من الناس .

وقبل أن نتحدث فى الظروف التى تدفع الراغبين فيه إلى فعله ، ونبين أنواع الناس الذين يلجأون إليه ، نرانا فى حاجة إلى بيان مركز الرجل من المرأة فى الحياة والدين .

ليس من شك فى أن ما يتبادر إلى ذهن السامع عند سماعه كلمة (رجل) بخلاف ما يتبادر إلى ذهنه عند سماعه كلمة (امرأة) لمغايرة التكوين الجسمانى بين الإثنين ، والوظائف التى نيطت بكل منهما . فقد ثبت علميا أن الرجل أقوى من المرأة ، لأنه أطول قامة منها عادة ، وأثقل فى هيكله العظمى وزنا منها ، وقلبه أكبر من قلبها حجما ، ورئتاه أقدر عملا من رئتيها ، ودماغه أغنى بالتلافيف من دماغها ، ودمه يختلف فى مقداره وتركيبه عن دمها . وتبعا لهذا التغيير الطبيعى جعلت للرجل وظائف ، وللمرأة أخرى .

فمن وظائف الرجل الكد والكدح ، والسعى فى مناكب الأرض وراء الرزق أنى كان وفى أى وقت يكون ، لتوفير مستلزمات البيت . أما المرأة فوظيفتها قاصرة على البيت فتديره وتدبر شئونه ، وتهيىء وسائل الراحة لمن فيه .

هذا اختلاف ظاهر بين تكوين الجسمين ، وبين عمل كل منهما . وهناك اختلاف آخر يوجد مرادفا لذلك أو هو مرتب عليه ، وهو التفكير والتقدير . إذ الرجل وهو متصل بالحياة الخارجية اتصالا وثيقا ، ومحتك بصنوف الناس ومختلف المعاملات ، وعارف بمجريات الأحوال الدنيوية الخاص منها والعام ، الداخلى منها والخارجى ، لتعليمه وتجاربه واختلاطه — كل ذلك يجعل الرجل فى تفكيره أوسع أفقا ، وفى تقديره مصيبا أو أقرب إلى الصواب . بخلاف المرأة ، فإنها لا تعرف غير ما يحيط بالمأكل والملبس ، والزينة والتزاور بين الصديقات والأتراب ، والحديث فى أن فلانة غضبى من زوجها ، أو معذبة مع حماتها ، أو مقترا عليها فى العيش ، أو غير ذلك مما يمت بالصلة إلى المنزل لا إلى خارجه . كما أن تقديرها يكون مبينا فى الغالب على العاطفة .

وإذن فقد فضل الله الرجل على المرأة ، بالعقل ، والعزم والحزم والرأى ، والقوة ، والغزو وكمال الصوم ، والصلاة ، واختص الرجل دون المرأة بالنبوة ، والخلافة ، والإمامة والشهادة

فى الحدود ، وتضعيف الميراث ، والتعصيب فيه . وفضل الله الرجل على المرأة بما أنفق من ماله عليها ، حيث قال تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم) .

ومن أجل هذا كله جعل للرجل ملكية النكاح والطلاق ، أى ملك الرجل زمام المرأة إن شاء أبقاها ، وإن شاء سرحها ، وجعل له حق الأمر والنهى عليها ، كما فرضت عليها الطاعة .

هذه هى حقوق الرجل التى وهبها له الله ، وتلك هى الفوارق بينه وبين المرأة .

وإذن فالرجل صاحب سلطان وصاحب كلمة عليا ، وله كرامة ذلك منشؤها ، وله عزة هذا أساسها .

وإذا كانت هذه مكانة الرجل الطبيعية ، فما الذى يحيط به من ظروف ، ويكتنفه من أسباب ، ويغمره من ملابسات ، حتى يجعله ينزل مختارا عن هذه المكانة ، فيترك القياد الذى وهبه له الله ، ويسلمه ليد لم تخلق للقبض عليه ، أو الاحتفاظ به ؟ وما هى هذه الدوافع التى تدفع بالرجل إلى تجريد نفسه من مركزه الطبيعى والشرعى ، وتجعله يضع حقوق النكاح والتصرف فيه فى يد المرأة ؟

إن الجواب على ذلك ، هو ما أردت التمهيد له بهذه الأسانيد ، وهو على حسب ما دلت عليه التجاريب والبحوث ينحصر فيما يأتى : —

١ — عندما يكون الرجل مدلها فى حب امرأة .

٢ — عند ما يريد جميلة أو غنية من طبقة أعلى من طبقته .

٣ — عندما تكتنف الرجل ظروف شاذة .

٤ — عند ما يكون مطعونا فى تصرفاته بصفة غير رسمية .

الرجل الأول

أما الرجل الأول الذى يكون مدلها فى حب امرأة ، فظروف تنازله عن مركزه وتجريده من حقوقه منشؤها الغرام الحاد . ولبيان هذه الظروف نذكر على سبيل الجزم بأن الرجل عندما يستشعر الميل إلى أخرى ، تتملكه حماسة داخلية غريبة تقوده إلى الزهادة فى كل ماعدا الشىء المرغوب فيه ، وتهون عليه أمر كل ما يختص به شخصيا ، ما دام ذلك يكون وسيلة للقربى ، وواسطة فى قبوله . وليس من لا يعرف أن للحب سلطانا قويا على قلب المحب ، وهو لا يجد غضاضة فى الخضوع والخنوع ، ولا يحس بأن له من القوة مايحتمل به عنفوان

المحبوب ، فهو ضعيف . لا يقوى على أن يكون فى المستوى الذى يكون فيه محبوبه . ولأنه يجد فى نفسه نقصا تكملته عند ذاك الطرف . فخضوعه وخنوعه وضعفه مسبب عن جاذبية الجزء إلى كله ، والفرع إلى أصله .

ورجل موضوعنا هذا الذى نحن بصدده عندما يتع فى فخ الحب ، لايريد لنفسه الفكاك ، ولا يرغب فى الهروب من إساره ، ولكنه يستعذب الحد من حريته ويستزيد تبعات أسره . وأن هيامه الحاد ، وولعه الحار ، وولهه الظاهر ، لا يخفى أمره على من تكون غايته وبيت القصيد ، فتحس فى نفسها القوة ، كما تعرف فيه الضعف . وتشعر فى ذاتها بالسلطان ، كما تتأكد فيه الذلة والهوان . ولذلك فإنه عندما يلتمس منها يدها لتكون زوجة له ، لاتتنزل إليه إلا بتحفظ ، ولا تقدم على الارتباط به إلا إذا كانت قابضة على زمامها بيدها . أى أن تكون متصرفة فى حقوق النكاح ، بحيث تبقى معه إذا أرادت ، كما تتركه عندما تريد . ولأن هذا الرجل محب وضعيف ، يرضى عن طيب خاطر بتجريد نفسه من حقوق الرجال . ومتى دخلا فى عهد الزوجية ، تكون بالطبع كلمتها هى العليا ، وكلمته هى السفلى . فالأمر والنهى لها ، والطاعة عليه . والتصرف المطلق لإرادتها ، أما هو فعليه الخضوع .

لكن هناك أمرا من الخطورة بحيث لاننساه . ذلك أن المرأة على الرغم من أنها ترغب فى الصميم من شعورها أن يحبها الرجل ، وأن يذله فى حبها ، إلا أنها فى ذات الوقت ترغب رغبة أكيدة فى أن تكون لرجل له عزة ، وله كرامة ، وله غيرة على حقوقه ، وله سلطان على جميع من فى البيت بما فيه هى . لأنها جبلت على طلب الحماية ، وطبعت على أن تكون مقادة . ووجودها فى معاشرة رجل طرى مائع ، تنازل عن حقوقه الطبيعية . ينبه فيها هذه الغريزة دون اعتبار إلى ما يبديه ، وما يبذله هذا الرجل من التذلل والذلة .

وإذا عرفنا أن غريزة كل زوجة تتجه فى فجر زوجيتها إلى تملك زمام زوجها ، وتعمل جاهدة للوصول إلى ما تريد ، وهى لا يحزنها إخفاقها بل يسرها ، لأنها تمجد قوة الرجل ، فإن هذه الزوجة قد تملكت المصير مبكرة قبل المعاشرة ، فحرمت من الجهاد المستعذب لغريزتها .

مثل هذه السيدة لن تنزله المكانة التى يستحقها زوج حافظ على حقوقه ، ولن تجشم نفسها مؤونة القيام بما يجب على الزوجة عادة . لأنها ابتدأت بالإهمال وعدم العناية . ومن شأن هذا الموقف أن يخلق الزهادة . ولا يختلف اثنان فى أن الزهادة تلد بعد قليل زمن ، قطيعة لا رجعة فيها .

أما ادعاء مثل هذا الزوج بأنه كان مجنيا عليه ، وأنه أحب وسلم كل شىء لزوجته ثم

غدر به ، فذلك أمر لا يهم المرأة حين تفاضل بين مملوك زهدت فيه ، ومطلوب تسعى بغريزتها إليه .

إن مبادأة الرجل بالتنازل عن أسمى حق فى الرابطة الشرعية فعل خطير ، يجب على الرجل ألا يقدم عليه ، وإلا فلن يُعطى الحق فى خصومته ، ولو كان الحكم فيها ذوى قرابته

الرجل الثانى .

وهذا آخر تنازل عن هذا الحق ، وتجرد من سلاح منحه له الله ، مقابل رغبته فى الحصول على زوجة غنية أو جميلة ، أو من طبقة أعلى من طبقته . وظروف هذا الرجل تدلنا على أنه مقفر ، وناقص عن من يرغب فى أن تكون زوجة له فى هذه الفروع الثلاثة . كما تدلنا على أنه مادى يسعى وراء المادة ، دون اهتمامه بالشىء الروحى . لأن من يسعى وراء الغنى تكون نفسه فقيرة . ومن يسعى وراء الجمال لذات الجمال تكون رغبته الاستمتاع فقط ، ومن يحتال على الارتباط بواحدة تسمو درجتها عليه ، وترتفع طبقتها على طبقته يكون محباً للظهور ، من غير أن يتخذ الصعود الطبيعى على درجات الحياة . وليس فى كل من أصناف هؤلاء الرجال الثلاثة رجل وجهته محصورة فى الارتباط لذاته ، أو فى الزواج لحرمته ، وقدسيته ، أو فى الاتصال الروحى ، الذى ينتج مشاركة حقيقية فى سراء الحياة وضرائها[1] .

فالرجل الذى يريد غنى عن طريق زوجته ، إنما يجذبه إليها ما فى يدها من عرض الدنيا الزائل . وحينما أراد الارتباط أراد أن يكون بينه وبين ما تملكه فقط من المادة ، لا بينه وبين المالكة .

هذا الرجل المدنف فى حب المال لا يفتح عينه ليرى اليد القابضة على أمنيته ، وأنما قد توجه بنظره كله إلى ما فى اليد . ومن أجل ذلك فقط لبس الرداء الملائم للطلب .

والمرأة التى يكون فى يدها المال ، حينما ترى لعاب إنسان قد سال من أجله . تستشعر فى نفسها القوة والسلطان . فتتخذ من موقفها مناعة ضد التلاعب بها ، أو الاستبداد بمكانتها .

فهى عارفة تماماً بأن هذا الذى يترامى على أقدامها ، ويتذلل لاجتذابها ، ويتفنن فى التأثير عليها لتكون له زوجة ، ولحياته شريكة ، إنما لا يبغيها هى فى الحقيقة ، وإنما يبغى ما تملكته يدها من حطام الدنيا .

وعلى الرغم من معرفتها لذلك ، تسرى على تفكيرها غمامة رقيقة من الأمل ، فى أن

---

(١) أنظر زواج الغرض .

يكون هذا الرجل راغباً فيها من أجل الزواج . فتترك الاعتقاد الراسى جانباً ، وتنمى فى نفسها ذلك الأمل القليل ، وتغذيه من عندها بما ترى من حركات هذا المحتال ، وما تسمعه من منمق ألفاظه . وسرعان ما يصير هذا الصغير القليل كبيراً وكثيراً ، إلى درجة تمكنها من اتمام الرضى بهذا الرجل وموافقته على الزواج .

غير أنها مع ذلك تتأرجح حين اتمام عملية الارتباط بين الشك واليقين . فيثور فى نفسها من جديد شكوك منشؤها الحرص على مالها ، والحرص على كرامتها ، تضطرها إلى أن تحتاط للمستقبل . وهذا الاحتياط هو أن تشترط لأتمام هذه الرابطة أن تكون العصمة فى يدها ، وأن تكون قابضة على حقوق النكاح . فما أن يسمع هذا الإنسان ذلك الطلب ، حتى يسارع إلى موافقتها عليه ، بل وإلى ما قد يكون لها من شروط تزيد عليه ، ثم يعقد العقد على هذا الأساس ، ويدخلان فى عهدهما الجديد .

فما هى إلا عشية وضحاها ، حتى تتبين هذه المرأة الحقيقة التى لا تقبل التأويل ، ولا يتسامى إليها الشك ، فتعرف أنها تزوجت رجلا من غير قلب ، وأنها ذاتياً لم تحرك لعابه ، ولم تصل إلى نفسه من الباب الطبيعى . وما أن تقف على ذلك وتعرفه حتى تسارع بازدرائه ، وترميه بكلمة الفصل الذى لا رجعة بعده ، ولا أمل فيه ، جزاء له على طمعه الذى جعله غير رجل .

***

كذلك الذى يجذبه الجمال ويضعه أمامه . فان السيدة التى ترى على نفسها هذا التهافت لا تبيع نفسها له رخيصة ، ولا ترضى بأجابته إلى رغبته بمجرد الطلب . فتضع شروطها وهى معتقدة بأنها مجابة إليها مهما غالت فيها ، بل ومطاعة ولو تجبرت . وهذا عام فى السيدات ذوات الجمال ، الذى يكون سبباً فى وله البعض من الناس . والسيدة المقصودة بالذات فى موضوعنا تفوق على اترابها ومثيلاتها فى شروطها . لأنها أذكى منهن ، وأبعد نظراً فى مستقبل حياتها . فهى تعرف أن جمالها لم يكن آخر الجمال أو نهايته . وأن ذلك الذى يترامى عليها من أجل ما هى عليه ليس بعيداً عليه أن يجد ما هو أكثر من جمالها فيرفع يده عنها حيث يضعها على تلك . فتعمل على عدم تمكينه من التصرف فيها . وتنتهز فرصة اقباله الشديد وتضرب عليه شرط وجود العصمة فى يدها . وصاحبنا الذى سال لعابه واهتز شعوره بتلك الهزة العنيفة ، لا يجد أية غضاضة فى اجابتها إلى ما طلبت ، ما دام ذلك يوصله إلى أمنيته ، ويقربه من هذا الأمل المحبوب .

وهنا أشعر بأن تساؤلا يتهيأ فى نفس القارئ عما هو الضرر الذى ينتظر أن يحدث

فى حالة ارتباط ارتضى كل من طرفيه الآخر ، ودفعت بأحدهما الى أن يمسك بيده عقدة النكاح خوفا عليها من الانفصام والرجل محب كما ذكرنا . وانى أجيب على ذلك بأن الرجل الذى لفت نظره فى سيدة نوع خاص من الجمال يتجه إليه بكليته ، ويعرض عما سواه . وقد يكون هذا الذى يعرض عنه مما تعتز به المرأة أو يكون لازمة ضرورية للحياة الزوجية . ومن شأن ذلك أن يضطر السيدة فى فجر الارتباط إلى إبراز هذه الناحية وتنميتها . لكنها عندما تجد الانصراف الكلى عما تعتز به هى . يداخل نفسها نوع من الضجر ، يتطور مع الزمن إلى معاندة واهمال .

وفى هذه الحالة تنبت فى نفس كل من الزوجين غرسة سامة . فأما هو فقد تفتر همته ، وتبرد حرارته ، وينقطع إقباله . وأما هى فإنها تشعر بالزهادة فيه ويدفعها ذلك إلى عدم التمسك به وحل الرابطة التى وجدت بينهما .

فإذا تلاقيا فى هذا الميدان ، وأبرز كل منهما للآخر سلاحه ، فإن الافتراق المؤكد يكون متفقاً عليه . لكن الويل للرجل ، إذا كانت السيدة هى التى تسبقه إلى التصرف . فإنه فى هذه الحالة من الأشقياء وتكون كل التبعة عليه .

وإذا لوحظ أن السيدة لها غريزة طبعت عليها وتسعى وراءها ، وهى تمجيد الرجل الذى لا يتهاون فى مكانته ولا يفرط فى سلطانه . كان ذلك مضافاً إلى ما سبق من دواعى عدم الاستمرار فى مثل هذه الرابطة . وأن الافتراق نهاية حتمية على كل حال .

بقى الشطر الأخير من هذه الفقرة ، وهو الخاص بذلك الذى يترك حقه لقاء التزوج بمن تعلوه . فهو إنسان تحدوه مشاعر خاصة نسيجها ولحمتها الطمع والجشع والغرور . ومثل هذا الرجل لا يتمسك فى سبيل الوصول إلى أمنيته بكرامة ولا شرف ولا حقوق ولا سلطان .

فإذا تم له الوصول إلى من يبتغيها ، وضع نفسه وكرامته تحت قدميها . وهى وإن ارتضت الاستمتاع بالسلطان فى فجر الزوجية التى لم تقم بينهما إلا على شرط قبوله التنازل عن حقوق الرجل ، إلا أنها ستجد نفسها بعد قليل فى موقف شاذ لا تحسد عليه ولا ترتضى به . لأن زوجها من طبقة تدنوها . ولأنه قد خلا من الرجولة التى تسعى وراءها السيدة . ولأنها أوجدت نفسها فى المكان الذى لا يليق بها (يراجع عدم التجانس) . ولذلك تدفعها عزتها إلى الابتعاد عن هذا الرجل وتنصم رابطتها به غير آسفة عليه .

ونظرة عاجلة إلى موقف المرأة فى كل من هذه الحالات ، تبين بوضوح أنها ما أقدمت إلا بعامل الشنقة على المدله ، وبعامل الأمل المكذوب فى إصلاح المحب للمال ، وبعامل الخطأ

فى تقدير ذلك الخامل فى الحياة . وان احتناظها بزمام نفسها كان مساعدا لإنهاء ما لا تريد .

الرجل الثالث :

أما الرجل الثالث الذى تكتنفه ظروف شاذة ، فهو غير هؤلاء جميعا لأنه من طبقة موسرة ومن أصحاب الجاه . وإنه ليدخل فى عداد الضعفاء لسببين . أولهما إذا كان حدثا لم يعرف بعد ما هى مآسى الحياة . وثانيهما أن يكون فى مأزق مع معرفته بالحياة .

فالأول هو شاب تمرد على طاعة والديه وعاش فى عناد . ويحصل كثيرا أن يختار مثل هذا الشاب الابتعاد عن والديه والعيش فى منزل آخر . ومثله حينما يبدأ فى الحياة لا يقوى على الوحدة ، ولا يطمئن إلى الانفراد ، ويحس بالحاجة الملحة إلى المؤانسة والعطف . وقد يرهقه الاحتياج ويزيد فى حزنه .

وأمثال هؤلاء الشبان معروفون لكثير ممن يحيطون بالعائلة سواء من أفراد طبقة صغيرة أو خدم أو جيرة . ويوجد من الناس من ينتهز الفرصة ويعمل على عدم فواتها . فتبسط الأذرع وتقدم المساعدات ، ويحاط الشاب بما يهدئ روعه ، ويخفف من لوعته . وإنه ليقدر الصنيع ولا ينسى المعروف ولا يتقاعد عن رد الجميل .

وصاحب هذا الصنيع لم يتقدم به إلا ويكون قد بيت النية على وضع اليد وامتلاك زمام هذا الشاب . وفى غمرة من ذل الجميل يقع الشاب فى الأسر ، ويتنازل عن حقه فى العصمة خوفا من فراره ، وتصبح السيدة أو الفتاة ممتلكة لزمامه . قد عضت بالنواجز على هذه المكانة خوفا من تركه لها عندما يفيق .

لكن الخصام سيهدأ ، والمياه ستعود إلى مجاريها ، والعين ستتفتح على حقيقة الموقف . وسيشعر الشاب بضيق الحبل على رقبته ، فيشتى هو ويشتى أهله ، ويدفع الطمع إلى ما فى أيديهم وماهم عليه من جاه إلى كثير من الخصومات .

أما الرجل الثانى فهو رجل يملك ولكنه محروم مؤقتا لنزاع على هذا الملك . وكثيرا ما يضطر مثله إلى الاستدانة والعوز فى سبيل العيش أو المساعدة على السعى وراء أملاكه . وقد يضطره ذلك إلى إرضاء مساعدته والتنازل لها عن حقه فى رابطة تريدها ، وكانت سببا فى تقديم مساعدتها وكما كانت نهاية الشاب تكون نهاية هذا الرجل . غير أن الأول يتقدم للدفاع عنه ذووه ، والآخر هو الذى يتولى بنفسه العمل على إسدال الستار ، وشراء حريته مهما أبهظه الثمن .

مثل من الأمثال :

كنت يوما فى دار محكمة شرعية فى سبيل استيفاء معلومات عن خصومة كنت أتابع عرضها على المحكمة . وفيما أنا منهمك بها ، إذا بأحد حضرات المحامين يعرفنى بوجيه تدل مظاهره كلها على أنه من خيار الناس مظهرا ورزانة . كما عرفت بعد محادثته أنه من عائلة كبيرة وآل إليه ميراث كبير منذ زمن قريب .

حضر هذا الرجل إلى المحكمة ليطلب الحكم بفسخ عقد شرعى أجرى بينه وبين زوجة لا تتكافأ معه فى قيمه الدنيوية ثقافة وجاها ومادة ، ولا تتفق مكانتها ومكانته الاجتماعية . لأنها دلّالة ، ووالدها لا يزال صاحب دكان طرشجى ، ولها أخ عربجى . فى حين أنه ابن فلان باشا وجده لأبيه باشا . وأنه ملك حقه فى الوقف فأصبح صاحب ريع لا يقل عن ثلاثة آلاف من الجنيهات سنويا .

وقد حضرت الزوجة ووجدتها حقا من أولئك اللواتى يلبسن الملاءة وينتعلن الشباشب ، وقد لبست فى رجلها خلخالا من الفضة ، وفى معصميها عدد عديد من الأساور كشفت عنه بتقصير أكمامها زهوا وافتخارا . كما حسرت عن وجهها البرقع الشبكى الذى اعتادت وضعه عليه وأمسكته بيدها .

وما كادت تراه واقفا معنا يحدثنا ، حتى أقدمت إليه وفى عينيها بريق الغيظ ولسانها تتساقط منه ألفاظ التأنيب والمعايرة على ما سبق أن قدمته له من المساعدة حتى وصل إلى ماهو عليه .

ولقد أذهلنى موقف الشذوذ بين الاثنين فدعوتهما إلى الجلوس بعيدا عن زحمة الناس للوقوف على خصومتهما ، ووضع حد لها بينهما . فعرفت أن الرجل وقع فى خصومة مدنية متشعبة فى سبيل الوصول إلى حقه . وأنه لجأ إلى هذه السيدة فاستدان منها حتى أثقله الدين . وعندما حل الوقت للسداد عجز وذلت نفسه . فعرضت عليه السيدة الارتباط به ، وكان خاليا من الأزواج فأذعن تحت تأثير ضعفه لكل ما عرض عليه وكان ضمنه التنازل عن حقه فى العصمة . ولم تكذبه السيدة فى جوهر الوقائع ، ولكنها ادعت بوجود الرغبة عنده فى الارتباط .

ولقد أمكننا أن نصفى النزاع بأن يدفع الرجل الديون التى عليه مضافا إليها قيمة المهر المسمى فى العقد ، وقيمة نفقة سنة مع ما يتبعها ، وأن تطلقه المرأة نهائيا بما لها من حق العصمة وقد كان . فحررت الأوراق اللازمة وانتهت بذلك حقوق ما كان غير الله يعلم المناحى التى تتشعب إليها .

الرجل الرابع

وهناك حالة رابعة يكون البطل فيها رجلاً أو شاباً مستهتراً بالحياة . لا يبقى على ما فى يده . ولا يهمه ما يثقله من دين اعتمادا على مايرد إليه . ومثل هذا الإنسان لا تخفى تصرفاته على ذويه ولا من يحيطون به . وعندما يتقدم إلى الارتباط بفتاة أو سيدة تبدو الخشية من استهتاره بالرابطة كما هو مستهتر بالحياة . فيوضع له كابح ويشترط لقبوله وجود جامح لنفسه وهو ترك العصمة فى يد من يريدها . ولا يجد مثله مضضاً من النزول على هذه الشروط .

لكنه بعد حصول الرابطة تقوم الحوادث المثيرة . فهو مستمر فى استهتاره وتهاونه . وهذا من شأنه أن يقلق الزوجة على مستقبلها ، ويزهدها فى الاستمرار معه . ويجعلها تسارع لخلاص نفسها من شخص لا يمكن إصلاحه ولا الاعتماد عليه . ولم نسمع أن زوجة فاخرت بزواج مستهتر أو احتفظت برابطة تربطها به .

* * *

من كل ما سبق يرى أن الدوافع التى تبنى عليها مثل هذه الارتباطات لا تقوى على احتمال صرحها . وهى فى حقيقتها معاول هدامة يجب الحذر منها ، أو الأخذ بها ، حرصا على قدسية الرابطة ، واحتفاظاً بحقوق الرجولة التى تعتز بها المرأة وتسعى إليها .

الزواج بالمقاصة !!

تسمية لا أظنها إلا مسترعية للنظر ، ومستغربة السماع . لأنها لغة العمليات الحسابية بين كل دائن ومدين . ومع ذلك فهى التعريف الحقيقى لبعض الروابط ، التى تتم على هذه الطريقة بين والد مدين ، وآخر دائن . وتكون السلعة التى تجرى عليها الصفقة فى كل أطوارها فتاة ذنبها أنها هى ابنة المدين .

والزواج بالمقاصة نوع وقع كثيراً فى المدن والقرى معاً ، وسيقع ما دامت توجد ظروفه وتتوافر مسبباته فى أى مكان .

وقد ثبت مما اطلعت عليه من خصومات ، وما وقفت عليه من وقائع ، أن هذا الارتباط بنى على استخلاص حقوقٍ عجز المدين عن الوفاء بها ، أو جبر أدبياً تحت تأثيرات الإفلاس أو المشاكل القضائية على قبوله .

فالتاجر الذى يعتز بثقة إخوانه فيه ، والزارع الذى لا يمكنه الاستغناء عن التأجير . والمدين الذى يود ستر سمعته ولا يريد أن يشهر به ، هؤلاء ، عند ما يعجز الواحد منهم عن القيام بالتزاماته ، وتضيق أمامه سبل الانقاذ ، ويشعر بوقوعه تحت المطرقة ، يود لو سخره دائنه لقاء دينه فيما يريده . رجاء أمل واحد ، هو المحافظة على سمعته العملية بين الناس .

وفى كثير من الأوقات يرى الدائن استخلاص ما يمكن استخلاصه من هذا الذى عجز عن أداء دينه . فينتهز فرصة وجود فتاة لهذا المدين ، ويساومه على الارتباط بها نظير النزول عن الدين أو جزء منه يحدد بينهما ويجعل الدين أو بعضه مهراً للفتاة . ويرى المدين أن هذه طريقة للخلاص فيطيع ، وتتم المقاصة بهذه العملية . وبدلا من أن يقبض ولى الفتاة مهرها ، يستلم بدلا منه مخالصة بالتنازل عن الدين ، أو إيصالا بالمبلغ الذى يختصم منه ويقر بالعاجل من المهر . وقد يكون لبعض الدائنين ما يدفعهم شخصياً إلى الارتباط بابنة المدين رغبة فى العيش ، وحبا فى الزوجية . ولكن الكثيرين من هؤلاء ثبت أنهم مدفوعون بعامل استخلاص ما يمكن استخلاصه فقط ، دون رعاية لموقف الاعتبار الذى تتطلبه الزوجية .

والأولون قد يكون منهم من يملأ الفراغ ويؤدى الواجب . فترفع تكاليف الذلة بين الدائن والمدين ، ويحل محلها روابط عائلية وسلام مقيم . ولكن ذلك من الندورة بحيث لا يقطع بتعميمه مع ما يستتبعه من مؤلمات دفينة فى النفوس .

أما المقطوع به فهو أن معظم هؤلاء الدائنين ينظرون إلى الزوجة نظرة تعرف هى معناها فيتهاونون فى حقوقها ، ويقدرونها كبدل سلعة فى سوق التجارة . لأنهم حينما أقدموا على هذه الروابط ، كانت دوافعهم بعيدة عن الاستعداد لاستقبال شريكه فى الحياة ، لها واجب ولها حقوق ولها كرامة تستحق المحافظة عليها .

وأقل نظرة فى الجو الذى يحيط بمن اجتمعوا تحت هذه الرابطة تبين ما يأتى : —

١ — أن الوالد ينظر إلى نفسه نظرة العاجز عن حماية ابنته ، وينظر إلى الدائن نظرة جلاده ، وينظر إلى ابنته كأنها مجنى عليها .

٢ — أن الزوج ينظر من عل نظرة سلطان الدين ، فلا يبدى الاحترام الواجب لحماه (المدين) ، ولا يؤدى له الحقوق العائلية التى توجد عادة بين الصهرين . ثم ينظر إلى الزوجة تبعاً لذلك نظرة عدم تقدير .

٣ — إن الزوجة تجد نفسها أنها كانت مقابل حقوق مدنية ، وأنها أشبه بسلعة وأن الارتباط كان تتميما لصفقة تجارية . ثم هى تشقى بنظرات زوجها ومعاملته لوالدها أولا ، ونظراته وعدم تقديره لها ثانيا . فلا تغفر الموقف المذل ، ولا تجد مفتاحا لقلبها المغلق تحت تأثير هذه الهموم النفسية التى تزيل حتى المؤسس من الحب إذا كان بين المحبين .

وإن بيتاً أقيم على هذه العمد الهوائية ، ورابطة عقدت بين طرفين هذا موقفهما ، لهى إلى النهاية أقرب من حبل الوريد . أما الأدلة على ذلك فكثيرة لا تعد ، ويكفى أن أسوق منها ما يأتى : —

اتسعت أعمال أحد الباعة حتى أصبح ضمن التجار الذين يستوردون سلعهم بالجملة ويوزعونها على الصغار ، وكان له فرع فى محله يبيع هو فيه بانقطاعى . ولشدة حرصه كان يقوم شخصيا بالأخذ والعطاء وليس معه غير صبى لحمل الثقيل من البضاعة ونقله من مكان إلى مكان .

اتسعت أعمال هذا الرجل ، وامتلأت يده بالمال ، ودخل فى تعهدات كانت تدر عليه كثيراً من الإيراد . وكان يتردد على الاستجرار منه كثير من عاية السكان الذين يقيمون حوله ، ويقوم هو على طلباتهم طيعاً مختاراً ، بل ومستكثراً على نفسه شرف خدمة هؤلاء .

فكان بعضهم يرى من حسن معاملته وتقديره لكرامة المتعاملين معه ، قطع أوقات الفراغ أمام محله . أو يذهبون بأنفسهم لمكانه فى سبيل الشراء أو المحاسبة فى آخر الشهر .

وعرف التاجر هؤلاء ووقف على ما هم عليه ، بل وما يملكه بعضهم ، ومن يقيمون معه من أهله ، حتى كان حجة فى ذلك لمن يريدون الوقوف على شىء من أمرهم .

وكان من بين هؤلاء أحد أصحاب سعادة ، تعود أن يصرف كل معاشه ، وألا يدخر مالا يكون بيته أو أحد أفراده فى حاجة إليه . ومثل هذا الرجل قد تعود البذل والصرف وعدم التقتير ، ستراً لمظاهره التى درج عليها ، وحفظاً لمستوى المعيشة التى يحياها . وقد دفعه سخاؤه هذا إلى أن يكون فارغ اليدين . كما دفعه إلى مد يده إلى هذا التاجر كلما احتاج ، ثم يسدد له آخر الشهر . لكن بعض ظروف شاذة طرأت على الرجل ، اضطرته إلى صرف مبالغ كثيرة تراكمت مع الاستجرار العادى والطلبات المنزلية ، حتى صارت ثقلا ناءت به قيمة المعاش شهوراً ثم سنين . وقد أخجل الرجل عظم الدين ، وأنزل من عيائه ما يعرفه فى نفسه من تقصير وعجز عن أدائه . فبذل فى ارضاء هذا التاجر كل ما كانت تدفعه إليه نفسه تخفيفاً واسترضاء . وفتح باب بيته له وأكثر من استضافته لمناسبة وغير مناسبة ، ليجعل هذا التكريم حائلا دون الضغط عليه ، وليكون رفع التكليف سبباً لإنشاء صداقة من واجباتها الأولى مساعدته فى عذره وحاجته .

ورأى التاجر داخل البيت ، وعرف كيف يعيشون ، وجلس مع ضيوفه الكبار ، وتحدث إلى أولاده فتيانا وفتيات . وكان هؤلاء الآخرون يقابلونه بزائد الاحترام لما يرونه من معاملة أبيهم له . ويظهر أن التاجر سال لعابه على مثل هذه المظاهر التى لم يخلق فيها ، ولم يكن له عهد بها ، وساعده على ذلك أن زوجته التى اقترن بها فى فجر حياته وكانت لا تزيد عن طبقة البائع الصغير قد توفيت ، وأن مركزه الحالى بين المتعاملين معه يسهل له تحقيق أمنيته ، كما أن ما فى يده من مال ومأثرته على هذه العائلة بالذات ، تحلل له ما كان محرما عليه .

وكان للباشا فتاة نضجت أنوثتها ، وتفتحت زهرة حياتها أنعقدت بينها وبين والدها أواصر الارتباط الغريزى ، لدرجة يقل التعبير عنها ولا يوافيها حقها .

فلما اختمرت فى التاجر الفكرة ، ابتدأ فى تنفيذها . فخفف الزيارة وابتدأت يده تنقبض . ثم تطور ذلك إلى التلميح بضرورة التسديد ، ثم بالتصريح والامتناع البات عن تقديم أى شىء من المعونة . والرجل العظيم أثناء ذلك يبدى كل أعذاره المقبولة ، مصحوبة بذلة المدين وانكساره ثم استعطافه . وأخيراً وفى جلسة خاصة ، فتح باب مطلبه ودخل فى الموضوع . وكان ما كان من رضى وقبول ، يعلم الله مداه والدافع إليه .

وعلى الرغم من ارتفاع التاجر إلى الارتباط بهذه العائلة ، وإقحام نفسه فى جو لا يعرف التنفس فيه ، فإنه كان يجد فى نفسه زهواً وغروراً ، جعلاه يحس فى نفسه العظمة والارتفاع على من حوله . مع أنه إلى هذه اللحظة لا يعرف كيف يتحدث ، ولا كيف يأكل ، ولا كيف

ينام ، ولا كيف يلبس حتى رباط الرقبة . والباشا وكريمته وعائلته يحتملون ويحتملون ، ويتألمون ولا يبدون ، ويمتلئون ولا يفرغون . (يراجع عدم التجانس) .

إلى أن كان يوم أراد الله سبحانه وتعالى لهم فيه الفكاك من هذا الإسار . فقد نال الباشا نصيبا من ميراث معصب قريب . فجعل هذا الميراث كله ثمنا لحرية نفسه وفتاته ، وحفظا لكرامته التى جرحت بفعل دينه لهذا التاجر . وانتهت الرابطة ، كما انتهت العلائق المادية والشخصية ، كما انتقل الباشا بعائلته إلى مسكن فى ضاحية بعيدة عن هذا المقام .

من هذا يتبين أن الروابط التى تبنى على مثل هذا الأساس قد وجد فيها شعور بجرح الكرامة . وفيها غرور ، وفيها غبن وفيها عدم تجانس . وقد يظن الخير فى كل شىء إلا فى هذا التناقض العجيب . وإذن يجب أن لا يتخذ مثل هذا العمل أساساً لرابطة بين اثنين لأنه مقضى عليها بالانفصام .

تفاوت الأعمار

« عن بريدة رضى الله عنه قال : خطب أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فاطمة رضى الله عنها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها صغيرة . فخطبها علىّ رضى الله عنه . فزوجها منه » رواه النسائى .

وقال علماء الدين : إن الكفاءة فى السن لا تجب . ولكن ينبغى مراعاتها . لأنها تكون أدعى للألفة والوئام .

***

إن موضوع تفاوت الأعمار جزء كبير من عدم التجانس . وكان ينبغى إدماجه فيه حينما أتينا عليه ، لولا أن له من خطورة الأثر ما يضطرنا إلى إبرازه ، وجعله منفرداً فى باب خاص .

فقد ثبت أن كثيراً من المآسى والفواجع ، والمشاكل والخصومات القضائية الحادة ، التى فرقت بين العائلات ، وأتت على كثير من البيوت العالية العمد ، المتسعة الجوانب ، وحملت أفراد العائلة الواحدة الضغن والحقد على بعضهم البعض ، كل ذلك وغيره ، كان سببه المباشر ، إبرام رابطة كان فيها تفاوت الأعمار .

ولو درى أهل الصغير من الزوجين ما سيقع عليهم ، أو يقع بينهم وبين غيرهم من هذه الآثار ، لأغلقوا أبوابهم فى وجوه المتقدمين ، ولرفضوا بحزم قبول هؤلاء المعمرين الطالبين .

إن تفاوت الأعمار فى الزّوابط لا يزال منتشراً ، بل وازداد انتشاراً أكثر مما كان .

لكنه فى المدن يختلف عنه فى القرى . فكبير الزوجين فى القرى هو الرجل ، وكبيرهما فى المدن هو المرأة .

ولقد كان أهل المدن يحرصون قديماً على وجود التوافق بين الأعمار . فلا يقبلون زوجاً مسنّاً لفتاتهم اليافعة ، ولو كانت على كتفيه النجوم والأقمار . وقد استمروا على ذلك حتى هذه السنوات الأخيرة عند ما شاع الكساد والبوار فى سوق الارتباط . وتكدست العذارى والسيدات فى البيوت ، فقد تحلل بعضهم من هذه القيود ، اتقاء للعنس ، وتوزيعاً للبضاعة المكدسة . وبذلك جارى أهل المدن إخوانهم فى الريف ، وصار تفاوت الأعمار نهباً بين بلاد المملكة على السواء . ومن أجل ذلك ازدادت الآثار ، وضوعف الشقاء بين هؤلاء الأزواج .

ولأجل أن نبرز هذه الآثار الخطيرة ، نفصل ظروف كل من الحالتين ودوافعها أى :

١ — عند ما يكون الرجل مسناً وزوجته فتاة فى المدن والريف .

٢ — عند ما تكون المرأة مسنّة وزوجها فتى فى المدن فقط .

فأما مسن القرية ، فهو ذلك الذى توافرت لديه بسطة العيش ، وقوى المركز الاجتماعى ، وبانت عصبته . وأمثاله لا يرد لهم طلب عند ما يريدون ، ولا يخيب لهم رجاء عند ما يرجون . وعلى العكس ، تكون القربى منهم مناعة ، والاتصال العائلى بهم حصانة .

هذا الرجل يدفعه إلى الزواج بصغيرة يافعة واحد من دافعين : أولهما الرغبة فى ذرية ، عند ما يكون من غير ذرية . وهو المطلب الأول دائماً فى نظر الرجال القرويين ، حنظاً لعمار البيوت ، واحتفاظاً بالثروات من خروجها إلى يد الغير ، وتقوية للعائلات .

وثانيهما رغبة الاستمتاع بالشباب على حساب الزهرة الصغيرة ، وإرواء لعطش الكهولة القوية ، وعصمة للقوة الفتية ، التى لم تؤثر فيها السنون ، ولم تحدّ منها حوادث الزمن . وفى القرى يطلق على أمثال هؤلاء (أصحاب النفوس الخضراء) .

ومسن القرية فى الحالتين لم يكن عزبا ، وربما كانت له غير زوجة ، وربما كان له من الأولاد من يكبر الزوجة الجديدة بعدة سنوات . بل إن بعضهم كان عمر أصغر أولاده يزيد على عمر زوجته الجديدة ببضع سنين .

لكن مكانته العائلية ، وهى أسمى ما يعتز به أهل الريف ، هى جواز الرضى . ولم يحصل مطلقاً أن تقدم عين بلد إلى عائلة فى بلده ، أو بلد مجاور — وأهل البلاد يعرفون بعضهم — ورفض طلبه ، أو اعتذر عن تلبية رجائه .

ولم تكن الفتاة أبداً أقل منه منزلة عائلية ، أو أوطى حائطاً ، فهى تساويه ، وهو لا يطلب إلا مساوية . فتزويجها له لم يكن عن رغبة فى الارتفاع بها إليه ، ولكن ربطاً للعائلات ، وتقوية للأواصر .

ولقد تكون الآثار التى تترتب على ارتباط مسن القرية بالفتاة اليافعة خفيفة الاحتمال ، إذا طال بالرجل العمر وكان جيد الصحة ، فأنجب ذرية منها . فهى تعكف على تربية أبنائها وتحميها حضانتها لهم من الآلام إذا ترملت ، وهى بعد فى سن الشباب . وقلما تفكر سيدة مثل هذه فى تكرار الزوجية ، وأكثرهن يرى ذلك عاراً وأى عار .

ومع ذلك فان أقل الآثار التى تحتمل ، حرمانها مما كانت تستمتع به فى حياته من تكريم وتعزيز وتدليل ، وجعلها فى الصدارة والتسليم لها بكثير من التصرفات ، دون أن يكون

لزوجته أو زوجاته الأخريات التى أو اللواتى تقدمن فى السن ، مثل هـذا الإعزاز : وهناك شىء آخر هو وجود التنافس بعد موت ذلك الـكبير على تقسيم الميراث . فقـد يحصل أن يُدفع الأولاد الـكبار من أمهاتهم بفعـل الغيرة إلى ما لا تحمد عقباه . وشىء آخر وهو أن يقضى على هذه الشابة بالترمل والحرمان من زواج آخر ، إلى آخر ما يكون لها من حياة . وقد لا تكون قد جاوزت مدى الحلقة الثانيـة من عمرها . أما إذا لم يطل بالرجل عمره ، وكانت حياته الزوجية قصيرة ولم يعقب ، فان الفتاة تكون قد خسرت شبابها من مبدئه إلى نهايته أولا . وتعذبت بما لم يكن لها فيه ذنب ثانياً (لأنهم يقولون فى مثل هـذه الحالة إنها دخلت « بالحنجل والمنجل » وقصفت عمر الرجل « وكعبها ناشف » . . إلى غير هـذه الأقوال التى تدل على التشاؤم وتلازمها على الدوام .

وأكثر من ذلك فسوف لا يورثونها ما تستحق فى المـال والعقار . بل إنهم كثيراً ما يقدرون ذلك بمبلغ معين يعطى لها . وتمحى صلتها بالعائلة محواً تاما .

ذلك كله فيما إذا سارت الحياة الزوجيـة بين المسن وفتاته فى بيت واحـد ، بعيداً عما يكون له من زوجة وأولاد .

أما إذا كان المسن قد أدخل الفتاة على ضرتها العجوز ، وأولاد زوجها الـكبار . فهنا يكون وقود النار .

فالغيرة تقدرها تلك الزوجـة الأولى ، وتدفع بها إلى مناوأة الفتاة ونصب الشباك ، والحيل لإيقاعها فى المواقف الحرجـة الدقيقة . وإلصاق التهم بها لتحط من شأنها . وادعاء ما يمكن أن يغير قلب الرجل عليها . وإنها لتستند دائماً فى تأييد تقولها ، على أولادها وخدمها الذين يعضدونها فيما تشاء .

ولقد يكثر الـكلام ، ويزداد الألم ، ويتحرج الموقف ، ثم يفلت زمام الصبر من الفتاة ، فتشكو لوالدتها . وتغار الأم على فتاتها ، فتدفع الوالد إلى حماية ابنته . وقد تكون جلسات وجلسات . وقد تكون خصومات ودماء .

ومسن المدن الذى يتقدم للارتباط بفتاة ، يعضد موقفه دائماً بما يحيطه به من هالة القدرة والغنى . ويجب أن تكون يده مملوءة دائماً ، ليسدد رغبات فتاته المتمدينة ، ويجعـل نفسه مستعدة دائماً للتسامح ، لأن فتاته قد امتلأت بفتوة الشباب . لها صويحبات ولها صديقات ، ولها معارف ولها قريبات . وإنها لترى البيت مع ما فيه من نعيم مادى ، غير مستوف لمعدات بهجتها النفسية . واستمرار النظر لهذا الشيخ المتصابى ممل ، وإن صدرها ليضيق إذا ما مضى

الأسبوع دون أن تخرج ، لتنفس عن نفسها مع صديقاتها ، أو بين أقربائها .

والفتاة المتمدينة تعودت الخروج لقضاء حاجاتها ، واستعراض الأسواق وما فيها . وهى ترى من فى سنها مع أزواجهن المتناسبين معهن أعماراً ، مبتهجات ضاحكات . وترى نفسها وقد حكم عليها بمعاشرة هذا الشيخ قد خسرت بهجة الاستمتاع بالحياة . وهى تتمنى أخيراً لو كانت لزوج شاب فقير ، فانها تكون أسعد حالا مما هى عليه . ثم تتطور معها هذه الأفكار ، حتى تصير رغبة تستهدفها ، وتعمل على الوصول إليها .

أما إذا كانت لها حصانة أخلاقية ، وقل ذلك فى أمثال هؤلاء ، فإنها تستمر مع الألم ، وتعيش على مضض — وتتصبر أملاً بأن هذا الشيخ سيقضى عما قريب ؟! .

فما إن يفك هذا الإسار حتى تفتح رئتيها للهواء ، وتعمل على استعاضة ما فقدته فى السنين التى أمضتها مع هذا المسن — بزواجها بمن يتقارب معها فى الشباب .

ولقد يحصل كثيراً أن تكون الفتاة زوجة لمسن له أولاد كبار . ويحصل أن تقوم علاقات خاصة بين الابن وامرأة أبيه ، ويحصل أن تكون الفتاة أيضاً متصلة فى الخارج بمن يملأ قلبها الذى لم يفتح للمسن ، ويحصل ويحصل كثير مما لا يجهله الناس .

ولا أريد فى هذه الحالة أن أطعن على فتاة المدينة . ولكنى أعذرها ، لأنها ربيت على رؤية الناس ومعاملاتهم . فإذا لم يكن لها من نفسها دافع ، فان الدافع سيأتى لها من الآخرين . قصر الزمن أو طال ؛ والمثل (الودن على الودن أمر من السحر) .

وإذن فالفتاة التى تدخل فى الارتباط مع مسنّ ، لا تكون حياتها الزوجية طويلة . وستكون أرملة مبكرة فى الشباب . كما أن الفتاة المتمدينة لا يمكن أن يدخل قلبها زوج من هذا الطراز . فحياتهما خلو من العواطف الحارة أو الوداد العميق . ونهايتها إلى فراق عاجل .

أما إذا طالت فلا بد أن تحدث وقائع من النوع الذى يمد كتاب القصص بأروع الوقائع .

وإذا كان مسن القرية قد عاش ومات مع فتاته من غير أن يقع عليها ما يحزنها إلا فى بعض الحالات ، فإن مسن المدينة لا بد وأن يقف ولو مرة على مسرح الأحزان ، إذا لم نقل مرات ومرات ومرات .

وقبل أن أنهى الكلام فى المسنين الرجال أرانى مضطراً إلى ذكر حادثين كعبرة وعلى سبيل المثال .

وأول الحادثين أن رجلا تقدم به العمر وكان قد رأى نفسه فى حاجة إلى من تقاسمه عيشه بعد موت زوجته الأولى . وساعده على ذلك ما فى يده من مال . فتزوج بشابة كانت قد

طلقت من زوجها لعدم قدرته على الانفاق . وكان هناك تفاوت بين عمرى الزوجين ؛ فالرجل كاد يقفل الحقة السابعة من عمره . أما الشابة فلم تكن قد تخطت منتصف الحقة الثالثة بعد.

قام الرجل المسن بتهيئة بيت الزوجية ، وأغدق على زوجته كثيراً من المال . وظهر فى فجر الارتباط ما يدل الناظر على أن ببيت الزوجية ترفرف عليه السعادة بأجنحتها ، وتظلله الهناءة بخميلتها . ولكنها كانت فى الحقيقة فرحة الاستغناء بعد الحاجة ، والامتلاء بعد الفراغ . وسرعان ما انقلب الأمر . ورؤيت الشابة فى بيت ذويها باكية شبابها نادبة حظها ... وأخيراً عرف أن الرجل قد أرهقته الشيخوخة وضغطت عليه سنه ، فاعدمت حيويته ، وصيرتها فى خير كان . وانتهى الأمر بينهما بتركه والانفصال عنه ، ولم يجده غناه الذى قدمه ثمناً لاستعادة الحياة .

أما الحادث الثانى فقد كان للمسنّ ولد يافع يملأ العين منظره ، وتفيض القوة من شبابه . رأى الفتاة ورأته ، وأحبها وأحبته ، ثم طواهما الشيطان تحت جناحيه .

وفى ليلة ليلاء اضطرت الرجل حاجة فقام من نومه لقضائها ، ولم ير فتاته بجواره . فلم يداخله شك فى أنها سبقته أيضاً . لكنه سمع وهو فى طريقه إلى دورة المياه — وكانت فى نهاية طريق يمر على حجرة ابنه ، حركة غريبة بداخلها . فدفعه حب الاستطلاع إلى التسمع ثم إلى النظر من ثقب الباب ، فرأى زوجته الشابة مع ابنه الشاب . وكان هذا المنظر سبباً لاضطراب قلب الرجل وانحلال أعصابه ، فسقط سقطة لم تتح له منها نجاة .

قلنقفل بعد ذلك باب الرجل المسن على ما بداخله من مختلف الحالات ، اكتفاءً بما عرفنا ، ولنطرق باب المسنات من النساء . ولقد سبق أن ذكرنا فى صدر هذا الموضوع ، أن هذا الصنف من النساء غير موجود فى القرى ، وأن مكانه المدن فقط . لأن نساء الريف بعد أن يترملن ، قلما يتزوجن . وإذا حدث فسوف لا يكون ارتباط بين مسنة وشاب .

ونساء المدن المسنات ، تدفعهن إلى عمل الروابط بالشباب دوافع الأنانية والحنين إلى القديم ، والتمسك بالصبا وعدم الرضوخ لفعل الزمن . لا فرق بين الغنيات منهن والفقيرات . غير أن الغنيات يسهل عليهن الوصول إلى أهدافهن. أما الفقيرات فعلى رغمهن لسن مطلوبات، إلا إذا كن لا يزلن جميلات .

فعند ما ترى السيدة المسنة شاباً يملأ عينها ، وتتحرك له نفسها ، تعمل على إيقاعه فى شباكها بما تبذله له من مال ، وما تبسطه له من آمال . والشاب الحدث الذى تكون عليه العين غالباً ما يكون من أولئك الفقراء ، أو المبتدئين فى الحياة . فما إن يرى الطعم حتى يحوم

حوله ، وما أن يتذوق حلاوته حتى ينكب عليه . ولكنه بعد زمن قليل يحس بالامتلاء ، وتتطلع نفسه للتغيير . ويحس أنه قد اشترى بالمال : وبعض الشبان يستغل موقفه ، فيأخذ من هنا ليشترى ما يرغبه هناك ، ويحيا مع المسنة من غير قلب : وبعض الشبان بعد أن يصل إلى ما وصل ، يفضل النكوص على عقبيه ، والرجوع من حيث أتى :

لكن أمثال هؤلاء النسوة فيهن عناد . وبعضهن تتملكها غيرة جامحة ، تود معها لو سدت المنافذ على الشاب خوف فراره وحرمانها منه . وفى هذه الأحوال كلها لم يكن قلب الشاب مملوكا لمثل هذه المسنة ، بل كان دافع الحاجة أولاً ، ودافع الشباب ثانياً ، هما سبب الارتباط .

أما الزواج لأجل الزواج ، وأما الارتباط لقدسية الارتباط ، فلم يكن فى نفس السيدة حينما أقدمت ، ولا فى نفس الشاب حينما رضخ ، وإنما كانت أنانية حميت فى نفس كل منهما ، ورغبة شخصية دفع إليها وعاون على الوصول إليها الشيطان .

وبعد : فقد عرفنا مما تقدم أن تفاوت الأعمار بين الأزواج لا يوجد ألفة ، ولا يقوم سنداً للروابط ، ولا يساعد على الوئام . ومن أجل ذلك يجب مراعاة توافق الأعمار ، لأن ذلك يكون من دواعى الألفة والوداد ؟

زواج الشوارع ؟!!

إن من يريد الإصلاح مجبر على تقرير الواقع . وقد يكون هـذا الواقع مرا ، ولـكنه الحقيقة التى لا بد من إثباتها ، رضى المخطئ أم غضب . وما دمنا بصدد تقصى أسباب انحلال الأسرة ، والوصول بها إلى ما يليق بكرامتها من مكانة ، فنحن فى حل من ذكر كل شىء نعرفه حربا على هذه الأسرة ، ليتفادى الناس المزالق بما ننيره من طريق .

ربمـا رأى البعض فى تسميتنا لهذا النوع من الزواج نبوا عن الذوق ، أو قسوة فى التعبير . لـكنهـا الحقيقة المرة تنادى به ، وواقع الأمر يقره ويؤكده . وسيعرف الذين يطلعون على ما أجملته من تفصيل ، أننى ترفقت فى التعبير ، وتخففت فى التعريف . فزواج الشوارع المعنى ، هو تلك العملية التى تقوم على التعارف خارج البيوت ، وفى غفلة من الآباء والأمهات والأخوة ، فى سينما أو حديقة ، أو ملهى أو مسرح ، أو صالة ، أو غير ذلك من الأمكنة التى تضم أمثال هؤلاء من غير رقيب قريب ، فى جو حلق عليه الشيطان بجناحيه ، وتقلص عنه رضاء الله .

هذا النوع من الزواج أصل بلايا ومحن أخلاقية ، وتدهور اجتماعى فى المدن لا حصر له . وهو مادة غزيرة لـكثير من خيال مؤلفى القصص والروايات السينمائية ، التى لا ينضب لها معين ولا يغيض لها نبع .

هذا النوع من الزواج الذى بدئ باسم الشيطان وترعرع فى ظله ، وكان له كبستانى ، ينتهى باسم الشيطان إلى ما لا تحمد عقباه ، ولا يحتمل أثره . لأن طرفيه قد حرما من فضيلة الدين وحياء الاجتماع ، وشهامة الانسانية ! ! ! .

فكيف ينبت زرعه ، وفى أى أرض ، ومن هم الزارعون والحاصدون ؟

لأجل أن تعرف كل ذلك ، أرانى مضطراً إلى الرجوع بك إلى الوراء قليلاً ، لتعرف منشأ البذرة حتى لا يحابى أحد فيرفع عنه الملام الذى يستحقه ، ويبرأ من ذنب هو فاعله .

اهمال الآباء

الغالب الأعم فى الآباء هو الاهمال فى تربية أبنائهم . وانشغالهم عن مراقبتهم بما هم فيه من مشغوليات عملية أو شخصية . وقد نسى هؤلاء أن مسئولياتهم نحو أبنائهم وبناتهم لا تقف عند توفير أسباب المأكل والملبس والمسكن والتعليم ، بل إنها تعدو ذلك إلى معرفة

مسلكهم ، وتوجيههم إلى نواحى الفضيلة ، ومراقبة سيرهم مراقبة دقيقة ، حتى يقفوا على مقدار ما ينتظر منهم من تمسك أو إهمال .

فترى الآباء والأمهات لا يجشمون أنفسهم متاعب التحرى ، عن تأخر الولد أو البنت فى المدرسة ، أو خارج البيت . ولا يتساءلون عن الغريب من المتاع الذى يوجد فى الأيدى ، أو على الأجسام ، ومن أين لك هذا ؟ .

ولا يبحثون فى دولاب الفتاة ما ذا فيه من مخبوء الصور الفتوغرافية ، والهدايا الغريبة ، ولا فى دولاب الفتى من خطابات غرامية معطرة ، كانت سبباً فى رسوبه فى المدرسة عدة مرات أو سنوات متواليات .

لأن الرجل (الأب) له شواغل وشواغل ، وربما كانت شواغله من هذا النوع الشاذ .

ولأن السيدة (الأم) لها شواغل وشواغل ، ولا يسعدها إلا أن ترى فتاها أو فتاتها ضاحكة وفى أحسن حال . ولذلك نشأ كثير من الشباب شبانا وفتيات أحراراً فى تصرفاتهم الشخصية ، يفعلون ما توحيه إليهم المشاعر دون روية وعدم اختبار . ويقعون من غير شك فيما لا يعرفون من سوء النتائج وحالك الأيام .

انشاء العلائق السوداء

يرتاد شباب هذا الزمن كل أمكنة الملاهى ، لا فرق فى ذلك بين ما خصص للكبار ، أو للصغار . ويخرجون إلى الشوارع متسكعين على أبواب المحلات التجارية للاجتراء على مخلوقات الله . يبعثون الألفاظ المختلفة على سبيل النكتة أو الإغراء ، ويرمون ما حيك منها للاصطياد ، وجوه الفتيات . ولا يكتفون بذلك بل يجرؤون على تعقبهن ، وأخذ الطريق عليهن ، بل ومتابعتهن إلى بيوتهن ، والدخول وراءهن ؟ ! ! .

والفتيات أنواع ثلاثة . أولها صنف لا يقبل الاجتراء ، ولا يغره معسول اللفظ ، ولا يرديه إلى مهاوى السقوط إغراء . هذا الصنف كثيراً ما يلقى على ذلك الشباب المائع ، دروساً لا ينساها إلا أمثالهم العارون من الحياء .

أما الصنف الثانى من الفتيات وهو مما نعنيه ، فإنه مهمل التربية والرقابة ، مستهين بما وراء الجرأة والاستهتار . هذا الصنف من الفتيات يكون غالباً من آباء ، وأمهات فوق الدرجة المتوسطة الاجتماعية . يغرى فتاته مظهر الشباب . ويجذبها تحديق العيون ، ويغرها حلو اللفظ ، ومعسول الوعود . وهى ضعيفة الإرادة ، لا تقوى على التمسك بالفضيلة أمام الحيل والخيال .

مثل هـذه الفتاة تدخل فى الحديث ، وتأخذ المواعيد ، وتكون خطابات واجتماعات ، ورياضات فى الملاهى والحدائق ، والأمكنة العامة تحت ستار ما يسمى الحب !! ولـكنه الحب الرخيص والوداد المغشوش .

وكثيراً ما تحمى نار العلائق الوهمية وتتأثر النفوس بها ، لحد الانشغال والأرق والسهاد. ويكون مدار الحديث فيها الـكذب والافتراء والتمويه والادعاء ، والتغرير والإغراء . بسبب ما يوجد من اختلاف لا تعرفه هى ، لأنه محجوب بما يبدو من المظاهر الـكاذبة ، ومعمّى بما يسمع من الوعود المختلفة ، والوقائع المختلقة .

وفى غمرة الهوى ، وفورة النفس . يحدث أحد أمرين : إما الرابطة الزوجية وإما الإقلاع عنها .

فإذا كانت الرابطة الزوجية ، فقد تدوم إذا كان الشاب وكانت الفتاة من طبقة واحدة ، وارتضيا الارتباط ببعضهما على هذه الحال .

أما إذا كان الشابان مختلفين ، فستبرد الفورة ، وتتفتح العيون على النقص ، ويضرب بالرابطة عرض الحائط ، ولـكن بعد أن تكون مأساة ذات فصول متعددة ، تستغوى الأسماع ، وتستهوى عقد مجالس السمر بوقائعها الفريدة الغريبة .

أما إذا كانت الاتصالات قد تمت بلا رابطة ، وكثيراً ما يكون كذلك ، فان أمدها سينتهى عاجلا ، بعد أن تخلف فى النفوس حسرات وحسرات .

وقد ثبت أن هـذه الحالات فى مجموعها ، تكون فى مستقبل البنت حجراً ، لا يخطوه الزمن مهما دار . كما ثبت أن جميع الارتباطات الزوجية التى تمت عن طريق التعارف المباشر فى الطرق والمجتمعات ، قد ذهب بها الشيطان كما أتى بها .

أما الصنف الثالث وهو بيت القصيد ، وهـدف الموضوع . فهو قطيع الفتيات اللواتى نشأن مهملات ، ووسمهن الزمن فى حياتهن بعـلامات ولو دقيقـة تنبىء عن مصدرهن ، ومقدار اصطناعهن وتطبعهن ، بغير ما نشأن فيه .

أولئك الفتيات اللواتى يمتهن العمل فى المراقص والمسارح ، والخدمـة فى البارات والصالات ، ودور اللهو على اختلافها ، هؤلاء هن اللواتى يدعين الفن ويعملن كأرتستات .

هـذا الصنف من الفتيات يغرق فى غالى الملبس ، ويعيش أكثره فى البيوت العـالية الشامخة . يصرف عن سخاء وبذخ . ويظهر بمظاهر شتى تغرى العيون ، التى لم تتفتح بعـد على جوانب الحياة ، وتأسر قلوب الـكثير من الشبان أو الرجال الذين يضعفون أمام البريق ، ويخرون أمام البهرج ، ويقعون فرائس لأقل إغراء .

تسير الفتاة فى الطريق ، لابسة ما يلبسه عادة فتيات الطبقات العالية . تتحدث بلباقة لغات متعددة ، وتتعامل كأنها خريجة الكلياب وتربية القصور . والشاب أو الرجل لا يعرف إلا هذا الذى يراه ، ولا يسأل عما وراءه .

ترقص الفتاة فى الصالة ، وتثنى عضلاتها وأعضاؤها ، أو تقوم بدور من أدوار التهريج للترويح عن الناس . فيراها الرجل والشاب ، ومع ذلك يتمنى الواحد منهم لو كان هو جليسها ، ولو كان هو رجلها العتيد .

تجلس الفتاة معه على الطاولة ، وتشرب وتدخن ، وهى نصف عارية . وقد تتحدث إلى ثلاثة أو أربعة فى وقت واحد . وقد تشتغل على جملة موائد ، تعد هذا وتكلم ذاك وتعتذر لهذا ، وتبقيه وتشرب مع آخر . ومع ذلك فالكل يصدقون . والكل راضون ، والكل يأملون .

تخرج الفتاة من هذا العمل الوضيع ، وتسير مع الشاب إلى حيث يريد هو ، أو إلى حيث تريدهى . وبالأولى حيث يريد الشيطان . ومع ذلك نرى الشاب والرجل يسعده اللقاء ، ويسره الرضاء ويوقعه الإغراء ، ويأمل الهناء .

لا يكتفى الشاب والرجل بوجود العلاقة التجارية !! ولكنه يفتح قلبه ، ليسكن فيه هذه الفتاة ، ويعمل على أن تكون له شريكة ، وأن تكون له زوجة ، وأن تكون له سبباً فى (سعادة الحياة) ؟!!

لقد عاشرها ، وقضى كل أوقات الفراغ معها ، بل وسرق من أوقات العمل فى مقابلتها . ومع ذلك لم يعرفها ، أو عمى قلبه عن معرفتها . إنها قابلت غيره قبل أن تقابله . وقابلت غيره حين معاشرتها له . بل وتركته فى جلساته إلى جلسات غيره . ومع ذلك يلتمس العذر ، ويؤكد الود ، ويثق بالوعد ، ويركن إلى المدّعى من الشرف !!! .

لقد استحضرت له فى بيتها ما يأكله ، من الخارج ، واشترت فستانها جاهزاً . وصنعت لها الخادم القهوة . ومع ذلك لم يتنبه الشاب أو الرجل ، إلى أن صاحبته هذه ، لا تعرف شيئاً فى خدمة البيوت .

لقد رآها تسلم على هذا ، وتضاحك ذاك ، وتنادم كل من أراد . ومع ذلك فهو يؤكد طهارتها ، واحتفاظها بكرامتها .

وأخيراً . . . . يدخل هذا الشاب أو الرجل ، مع مثل هذه الفتاة فى رابطة زوجية ، ويرجو من صميم نفسه ألا تبخل عليه بالرضاء .

الحق أنه شاب أو رجل أهملت تربية نفسه ، فلم يتعرف معنى الكرامة . وعميت عينه وقلبه ، فلم ير الأوحال التى غمر نفسه فيها ، فأحاطت به وبسمعته . وحركته الغريزة الجنسية فقط . فأصبح عبداً لها ، ولا معيار عنده لشرف الروح وسمو الشرف . وهو ضعيف الإرادة يقاد بدنىء الوسائل إلى مهاوى الرذيلة ومواطن الفجور ، قد أوقع نفسه فى أحضان فتاة لم تتفهم الكرامة فى بيت ، ولا عائلة ، ولا مجتمع ، ولا تسمح لآذانها باستيعاب كلمة الحياء .

ومع ذلك كله ، يرجو مثل هذا الشاب أن يكون زوجاً ، وأن تكون مثل هذه الفتاة زوجة . ويخيل إليه عبثاً أنه سيكون سعيداً لهذا الارتباط ، الذى أقيم على مائدة الشيطان وفى ظله . وإنه لينتظر أمانة وينتظر وفاء ، ويأمل مشاركة فعلية فى الحياة . ! !

حلم جميل ! ! ! ولكن المعجزة لن تتحقق . لأن ذلك تكليف للفتاة بما لم تعرفه ، ولن تعرفه . إنها أجادت حفظ الألفاظ المعسولة ، للاستمالة والحيلة على الموائد العامة ، وقتل الوقت والمجالسة . ثم أجادت المنادمة وعرفت أنواعها . وأجادت استعمال التواليت ومختلف الأصباغ لتظهر كبضاعة مرغوب فيها . وأجادت اللعب بالقلوب والضحك على الذقون ! وأجادت التخلص من صدر إلى صدر ، ومضاربة صديق بصديق .

ولكنها لا تجيد فن الزواج ، ولا ما يتبعه من مسئوليات ، حتى ما يؤكل ، لا تعرف أن تطهى منه شيئاً .

ستدخل البيت وهذه حالتها . وستقضى الأيام الأولى وهى بعض من شهر العسل ! ! ! وسرعان ما تتفتح العيون ويعرف المخفى والمعمى . وسترفع الستار عن مأساة الواقع ، وسيكون مع الأسف مريراً مؤلماً .

سيشكو الزوج عدم الأمانة ! ولا حق له ، وسيشكو عدم وجودها فى البيت ، لا حق له . وسيشكو وجودها بين رجال وشبان لا يعرفهم هو ، ولا حق له . وسيشكو عدم معرفتها لأى شىء من لوازم الحياة الزوجية والمنزلية ، ولا حق له ، وسيغمره فيض من الطلبات المتوالية المرهقة ، وسيعجزه إرضاؤها . وسيشكو كثرة البذل ، ولا حق له .

ومن المؤسف كثيراً ، أن مثل هذا الشاب أو الرجل الذى ارتبط بمثل هذه الفتاة ، إذا سألته قبل الارتباط أو حينما كان مدفوعاً إليه : لم تقرن سعادتك بارتباطك بمثل هذه ؟ أجابك على الفور : لقد امتلأ بها شعورى . وانطوى عليها قلبى . إن الحب يدفعنى ! ! ! لكنه فى الحقيقة شعور الضعف ، وقلب الأعمى ، والحب الدامى أو الدنىء ! ! .

وإذا سألته بعد الارتباط ، وفتور الفورة الجسمية ، وبرودة الثورة النفسية : كيف رأيت

الزواج ؟ أجابك على الفور ، بالطعن على الزواج والمتزوجين عموماً ، ثم أثارها حربا شعواء على المرأة وتنزلها ، وعدم الاطمئنان على الرابطة بها ! ! ! مع أنه لم يتزوج ، ولم يعرف من النساء إلا من تعرَّت من كرامة الأنوثة واستهانت بالشرف .

لقد حق على أمثال هؤلاء الناس ألا تسمع لهم شكوى ، ولا يقبل لهم عذر ، وحق لهذه الروابط أن تلقى مصيرها المحتوم ونهايتها اللازمة .

مثل من أمثلة

استكملت لأحد الشبان وسائل النعمة والجاه . فأحيط بهالة من إخوان الصفا ، الذين يعرفون كيف يقضون أوقات الفراغ ، ويهنأون بالمستظرف من الجلسات . وقد اعتادت هذه الجماعة ارتياد الملاهى والمسارح كجزء من برنامج الترفيه . يذهبون جملة إلى المكان فيضفون عليه حركة ، ويلفتون إلى جمعهم وتندرهم أنظار الموجودين . وكانوا يصرفون عن سخاء ، ويهبون عن رضى . فأوجد ذلك تسابقا بين الخدم والعمال على القيام بما يطلبون .

وفى إحدى الصالات بينما كان الشاب وسط دائرة من أصدقائه ، إذا به وهو يسرح الطرف فى جوانبها . إذا بنظره يلتقى بنظرة ناعمة تصدر عن عينين نجلاوين تطلان من وجه مستدير كأنه فلقة من القمر ركب على جسم احتوى من القسامة ما تعتز به صاحبته وتفاخر به بين الغانيات . وكان الجو صيفاً فتحللت الفتاة من رداء السير وا كتفت برداء الجلوس . فبرز منها معصمان لينان . واقتعدت مقعداً استرخت فيه إلى الوراء . وركبت ساقا على ساق . فاكتملت فى هيئتها أسباب الاستثاره النفسية ، واستوفت وسائل الإغراء .

لقد سمر نظر الشاب فى هذه الهيئة . وأحس فى نفسه شعوراً قويا للوقوف على أمرها والاتصال بها . ولم يقم حائل دون ذلك . فقد ذهب الخادم وعاد بقبول دعوته . وجلس الشاب والفتاة معا على مائدة كل ما فيها حرام فى حرام .

استمر الاتصال بين الاثنين وغمر الشاب بفيض غزير من الحنان الرقيق والاستمتاع بهذا الشكل الأنيق . وتحلل رويداً رويداً من جماعته حتى ندر أن يوجد بينهم . لأنه صار مدنفا وصار محباً . ولا يقوى المدنف المحب على الابتعاد عن صبه المحبوب .

لُفَّ الشاب فى غلاف سميك حال دون سمعه وبصره وعقله . فلا يسمع إلا حديثها ، ولا يبصر إلا دلها وجسمها ، ولا يعقل إلا ما ترويه فقط من وقائع وأفعال . وندر أن تتحدث فتاة صالة فى غير ما يتصل بالأحابيل التى تحيكها أو نصب الشباك ! ! ! .

لقد قدم غالى الهدايا ودفع الثقيل من المطلوبات . وسدد ديونا مدعاة واستحضر الغالى من الملابس والأثاث . واستأجر شقة أفخم من تلك التى كانت تقيم فيها فتاته وأحاطها بما تتطلبه من مستلزمات . ودفعه حبه إلى أن يوالى السهر فى الصالة التى تعمل فيها حتى ينتهى وقت عملها فيصحبها إلى مسكنها ليتمم معها المساء بعيداً عن عيون الطامعين والرقباء .

وعلى حين غرة ولما تنقض على علاقتهما عدة أشهر ، علم أنهما قد ارتبطا معا برباط زوجية . وأن الفتاة قد امتنعت عن العمل إلى المعيشة الجديدة مع بطلها العتيد . وقد عرف ذلك بين الأصدقاء ، وتسرب الهوينا حتى بلغ مسامع الأقرباء .

ولقد عاب عليه هؤلاء ما وقع فيه. ورموه بالضعف وعدم حسن الاختيار . ولكنه أصم أذنيه وجادلهم بالتى هى « أوحش » واستمر يجرع الكأس حتى الثملة .

وفى يوم بينما كان الشاب خارج البيت ، وكانت الفتاة تعلم أنه سيقضى زمناً طويلا خارجه ، إذا به يلمح زوجته العتيدة تستقل مركبة مع إنسان لا يعرفه فى طريقها إلى مكان يجهله . فسقط فى يده وكادت تصعقه الفجاءة . ولكنه أسرع إلى سيارة أجرة فاتبع طريقها حتى رآها على بعد تقف أمام بيت متواضع . وقد نزلت زوجه متأبطة ذراع رفيقها إلى داخله .

وبعد بحث بسيط تبين له أن هذا الغريب كان زوجا سابقاً للفتاة. وأنه لا يزال على صلة بها لم تنقطع ، وأنه كان ولا يزال يعمل كبائع فى محل خردوات ؟!! .

جرح الشاب فى عزته واستثقل حمل جهله بها . فعمد إلى معرفة حقيقة كوكبه المتلألئ . فعرف أنها ابنة رجل كان سروجيا قبل أن يموت. وأن أخويها يحترفان حرفا جسمية صغيرة ، ولها أم لا تزال إلى الآن تابعة « لكودية » زار . وأن فتاته بعد أن طلقت من زوجها هذا وكانت لم تقض فى رابطته غير أيام معدودات. اشتغلت راقصة فى الصالات. وعاشت بعيداً عن أهلها عيشة الغانيات .

هنا تفتحت عين الشاب على عمق الهوة التى تردى فيها . وهنا حز فى نفسه الألم على خيانة هذه الإنسانة مع ما أغدقه عليها من مكرمات . وهنا عرف أنه لم يكن لها زوجا ، وإنما كان خزانة تأخذ منها حاجتها لتسد بها ما يعوزها من طلبات وحاجيات .

لذلك لم يحتمل موقفه ، وسارع إلى قطع ما بينه وبينها من ارتباط . ومع أنها استغنت كثيراً بما أخذته بالطلب ، أو عن طريق الإهداء . إلا أنها لم ترو ظمأها من المال . فاتخذت المقاضاة سبيلا إلى ما تريد . والرجوع إلى ما كانت عليه رغبة فى المزيد .

ومن المؤسف أن الشاب لم ينسب الخطأ إلى نفسه ، بل عزاه إلى (المرأة) فنسب إليها

كل ما يقذع من صفات ، وعمم وصفه على كل النساء . نخلط بين امرأة وامرأة ، وبين ارتباط وارتباط . مما يكون له أثر سيء فى نفوس المقادمين على الارتباط .

من أجل ذلك يتبين أن مثل هـذه الروابط قد أقيمت على أساس من البارود المتفجر . سرعان ما تخر بها بين أشلاء القلوب ، وجروح المشاعر والنفوس . فاحذروا أيها الشبان !!

***

إلى هنا ينتهى القسم الأول من البحث . وقد استكمل كل عناصر الاتجاه الخاطىء ، عند من يريدون الإقدام على عمل الروابط الشرعية . وقد ثبت من الاطلاع عليها ، أنها أسباب لمآس دامية منوعة ، ووسيلة إلى إيجاد الشقاق والمنازعات والآلام .

ونبدأ الآن فى سرد أسباب الشقاء بين المتزوجين فعلا ، ابتداء من عهد الارتباط .

القسم الثانى

منشأ الخصومات بين المتزوجين

ندخل الآن فى المرحلة الثانية من البحث ، وهى التى تبدأ من نهاية الاتفاق على الارتباط ، إلى المخالطة والمعاشرة الزوجية ، مبينين أسباب المنازعات التى تقوم بين الطرفين ، ويشقى بها البعض فى حياته ، فيقل إنتاجه العملى أو يزهد فى الحياة . وتخرب بسببها أعشاش كان يظن لها الدوام ، وتشرد فيها أطفال ، كان يرجى فيهم الخير لأنفسهم وللبلاد .

هذه المرحلة من أدق المراحل فى حياة اثنين ، جمعهما منزل واحد باسم الزوجية ، وأتى بكل منهما من بيئة ، ومن بيت ، ومن أبوين ، كثيراً ما يكونان متغايرين . فهى كالبوتقة التى تنصهر فيها الأخلاق ، حيث ستتكشف عن النفوس الستر التى أقامها التكليف ، وترفع الحوائل التى تكون عادة بين الجدد من الناس . وهى تعد امتحاناً دقيقاً للرجل ، وغربلة لأخلاقه ، والوقوف على منازع نفسه وتعرف جوهرها .

وهى معيار لرجولة الرجل ، وميزان يظهر تقديره للمسئولية الشخصية . وميدان لرويته وتفكيره ، وفيها تبين رجاحة عقله أو رعونته . وفيها تتجلى مشاعر شهامته ، ومقدار حمايته لعرينه ، والذود عن ذماره ، والغضب لكرامته . ومن أجل ذلك وغيره ، يكون على الرجل فيها جل التبعات إن لم يكن كلها .

فهو الذى أراد بيتاً ، وأراد زوجة ، فسعى من أجل ذلك ، وبذل ، ووصل .

وهو الذى تقدم طائعاً مختاراً لتحمل المسئولية ، ولا يحق له النكوص . كما أنه هو الذى سيتحمل مسئولية جناية هدم البيت إذا تخلى عن حراسته . ومن أجل ذلك أيضاً ، تعد هذه المرحلة فى حياة كل زوج من أهم ما يتطلب منه الحرص والعناية ، والحزم والرعاية والاهتمام .

أما الزوجة ، وهى تابعة لزوجها ، سائرة على سننه بالطبيعة ، فان عليها مسئوليات ، ولكن دون ما على الرجل بكثير . ومع ذلك إذا حللت دون تحيز ، وبحثت على بساط العدالة الحقة ، تبين فى الأغلب أن الرجل هو المسئول .

وعلى رغم ذلك كله . فان أسباب الشقاء الزوجى ، التى تنبت فى عهد المعاشرة الزوجية ، ليست كلها من صنع أحدهما فقط أو كليهما . إذ يوجد كثير من أسبابه خارجة عن نطاقهما ، كما سنفصله فى حينه . وعلى رغم ذلك الطهى الخارجى ، فإننا لا نرفع التبعة فيه عن الزوجين .

إذن : ليس لشقاء الأزواج باب واحد بمصراعين ، حتى نفرد له قوة دافعة فنسده ونستريح . ولكنه بأبواب عديدة ومصاريع متعددة ، ونوافذ لا يحصيها من يقف فى مكان واحد . ولأجل أن تقف عليها كلها ، وأحيطك علماً بها وبمادتها وبعددها ، سأقدمها إليك من ألفها إلى يائها . وسيجد كل الذين أشقتهم روابطهم ، مكانهم فى الوقت المناسب ، ويقفون على ما لم يعرفوه ، من أسباب وأدواء . ورجائى المحبب إلى نفسى ، أن يكون اطلاعهم منقذا لما يمكن إنقاذه ، من راحة وطمأنينة ، وداعياً إلى إحلال الألفة والوئام ، محل المشاحنات والبغضاء والخصام . والله المستعان .

بين العقد والدخول

لسلم الوصول إلى المعاشرة الزوجية درجات ، لا بد من الصعود عليها ، واحدة فوق واحدة . وعلى كل منها يتوقف الكثير من الأمل ، أو الكثير من الخيبة . وهى تنحصر فى المآدب والحفاوات ، والهدايا ، والأثاث ، وليلة الفرح بالدخول . وهى من الدقة بحيث يجب ألا نترك الحديث فيها ، والتنبيه إليها . إذ كثيراً ما ينبت فى جوها طفيليات ، تعلق دواماً بشاطئ الحياة الزوجية فتمرضها ، إن لم تقض عليها ، كما يتبين من الشرح الآتى :

درج الناس بعد إجراء تمهيدات الارتباط الأولى ، التى تنحصر فى الرضى والقبول الشفوى ، على تقديم الشبكة وقبض المهر أولا ، ثم العقد ، ثم الدخول ، أو إرجاء العقد إلى ليلة الدخول . وتكثر الحالة الأولى بين الناس . وفى كلتا الحالتين ، يوجد الزمن الكافى لأهل الزوجة لتأثيث منزل الزوجية ، وتجهيز العروس بالجديد من الثياب .

هذه الفترة ، يزرع فيها الاتصال بين البيتين وعائلتيهما . وتتفتح أثناءها العيون والآذان من الأفراد . وتقاس الوعود على مدى التنفيذ ، وتوزن الأفعال والوقائع بموازين دقيقة من التمحيص ، للوقوف على مدى ما يكون لها من الحق أو الباطل ، أو الطيب والقبيح . وقد يتطور هذا فى بعض النفوس إلى شبه تحفز وترصد ، للوقوف على المخفى ، والاطلاع على جوانب كل شىء ، إشباعاً لحب الاستطلاع .

فى هذه الآونة يكون مجال الأخذ والرد ، والاستنتاج والتخريج ، وتزييف الوقائع ، فسيحاً . ويعتبر ما يبنى على هذه العمليات من سوء التفاهم هشيما صالحاً للاحتراق ، إذا مسته أية شرارة .

وأول هذه الاتصالات يكون على الحفلات ، التى اعتاد أهل الزوجة أن يقيموها ، حفاوة بالعريس وأهله ، وتمهيداً لربط النفوس برباط الوداد . وأن العريس وذويه يجعلون لذلك أهمية تضارع رضاءهم . وقد غالى بعضهم فى ذلك ، حتى أنهم أصبحوا يتطلعون إلى أيامها متى تكون ، وعددها وكم يبلغ . وبودهم لو استمرت نار مطبخ العروس متقدة . وسماطها ممدود لمناسبة وغير مناسبة .

وقد يكون والد الزوجة أو القائم بأمرها مثقلا بالمطالب . وقد يكون هذا القائم بأمرها ، سيدة أرملة لا دخل لها ولا مورداً . ومع ذلك يعمل كلٌّ ما بستطاع ، وما لا يستطاع ، تشريفاً

لابنتهم ، واسترضاء لشعور العريس وأهله عليها . وإن نظرة واحدة فى بيت عروس أخذ فى إعداد مأدبة مثل هذه ، تعطيك فكرة عن قيمة الارهاق الذى يحتمله من فى المنزل . لأن الرجل يستدين إذا لم يوجد فى يده . والأم تبيع الغالى بالرخيص لستر الموقف . والبنت تبذل المدخر لديها ، وتضنى نفسها فى الطهى والترتيب ، والاشراف على كل شىء . وقد يستعين بعضهن بزميلات للمساعدة ، خشية الوقوع فى نقص تنقد عليه .

ومع ذلك كله ، يأتى العريس وذووه عيونهم مفتحة ، وآذانهم مرهفة ، ناقدين ومتربصين . وعين الناقد المتحفز لا تغمض على نقص ، ولا تنطوى نفسه على تقصير يبدو . وويل لأهل العروس إذا كان بين المدعوين من زهد فيها العريس ، أو قريبة لها . فهناك يكون التهامس ، وتكون الإشارات المملوءة بالمعانى ، بل وتكون معايرات وانتقادات فى وجه العريس . مما لا تحمد مغبته ولا تؤمن عاقبته . واليك مثلا من أمثال :

« تمت عقدة النكاح بين شاب وابنة موظف كان يزامله فى عمله . وفى أثناء المدة التى حددت للتأثيث والجهاز ، قام والد الفتاة بعمل عدة حفلات للعريس وذويه . وبذل فيها الكثير مما كان يملكه أو يستدينه ، احتفاء بزوج ابنته المستقبل ، وتكريماً لعائلته ، حتى كان لا يمضى أسبوع واحد من غير حفلة لهذا التكريم .

وفى يوم ، ألم بالرجل ما أقعده عن العمل فجأة من شدة الحمى . ولزم فراشه ، وخاف عليه أهله من وطأتها الثقيلة ، وكان لم يتعود ملازمة الفراش . ومن الطبيعى أن يعرف صهره غيابه ، وأن يعوده ويواسيه . فأخذ والديه وأخوته وذهبوا بجملتهم إلى منزل الرجل . وهناك وجدوه محتقن الوجه من شدة الحرارة . مرتعش الأطراف يهذى بما لا يفهم . ودموع الخوف على حياته ، والجزع مما وقع عليه ، تنهمر من عيون زوجه وابنته ، فقضى العريس وأهله فترة ثم خرجوا .

وفى اليوم التالى حضر العريس عابس الوجه ، مقطب الجبين . لا حزنا على الواقع ، ولكن لشىء آخر ، نحا بالفتاة ناحية منفردة ليقوله لها . أتعرف ما هو ؟ لقد وجه للفتاة تأنيباً مريراً ، وعيَّرها تعييراً مؤلماً وقاسياً ، على اهمالها ووالدتها ، فى عدم تقديم العشاء له ولأهله ؟ ! ! ! وقد ذهلت الفتاة وجحظت عيناها ، وعقدت الدهشة لسانها ، عندما عجزت عن اقناعه بأن حياة ربهم أشغلتهم عن الطعام والنوم والراحة . وأن عذرهم ظاهر ! ! ولم تمتلك الفتاة نفسها ، فاجهشت فى بكاء مسموع ، وشعرت أمها بعذاب نفسى وقعت فيه الفتاة ، فهمت إليها ووقفت على السبب ، ثم كظمت ما فى نفسها من غيظ وحنق .

جبر الله خاطر العائلة الصغيرة ؛ وأضفى العافية على رجلها واستعاد صحته ، ولم يكن يعرف ما جرى ، ولكنه عرف أنه من وقت أن بدأ يستعيد قواه ، وصهره العتيد لم يعاود زيارته ، والاطمئنان عليه . وقد تحدث فى ذلك مع أهله ، ولم يكتمهم استغرابه . لكن الفتاة أسرعت بالرد ، وأقسمت جازمة بأنها زاهدة فيه ، وناشدته العمل على خلاصها من هذه الرابطة ، وهى تجثو على ركبتيه . ذهل الأب ، وتساءل ، وعرف السبب . وعندها ، لم يحتمل الاستمرار على هذه الصلة ، وعمل على قطعها مع التعويض . ويقول الرجل متألماً ، إنه على الرغم مما قام به من مآدب وحفلات لا تعد ، لم يشرب فنجانة واحدة من القهوة فى بيت العريس أو والديه طيلة مدة الاتصال ! ! .

هذا نوع من الناس يكثر وجوده ، ويمتد أثر فعله حتى ولو تم الدخول .

كذلك يوجد شىء آخر اسمه الهدايا التى درج العريس على تقديمها لعروسه ، أثناء هذه المدة ، ومالها من آثار دقيقة واعتبارات . لأن هدية العريس لعروسه ، هى الحبل الأثيرى الذى يحرك القلوب ، ويربط ما بين النفوس . ويدلل على ما يكون لها فى نفسه من تقدير . والفتاة وأهلها يعتبرون ذلك من الفأل الحسن لمستقبل سعيد .

لكن بعض الأزواج يهملون هذه الناحية ، ولا يقومون بها . ويُبنى على هذا الإهمال ما لا يجعله يمر ناعما على النفوس . وسوف لا تنسى الزوجة هذا الإهمال فيما يأتى بعد ذلك من زمن .

والأثاث الذى يجهز به بيت الزوجية ، يعتبره الزوج وأهله مقياساً لسخاء أهل الزوجة ومقدرتهم . كما يدلهم نوعه على مالهم من رقى وتقدير . ولذلك فهو وهم يتجسسون أخباره ، ويتحسسون أنواعه ، ويتحرون أثمانه . فإذا كان مما يخالف خيالهم ، وما يطمعون فيه ، عدوا ذلك فى نفوسهم من الأسباب التى لن تنسى . وقد يذهب البعض إلى مصارحة أهل العروس بعدم رضائهم ، وقد يبنى على ذلك ما لم يكن فى الحسبان .

كذلك المنزل الذى يهيأ للزوجة ، وهل يكون مستقلا أو مشتركا بينها وبين أهل زوجها . وقد يحدث أن يبدى أهل الزوجة رغبة فى الإقامة المنفردة ، وينتج على ذلك الرفض والافتراق ، أو يكون ذلك بمثابة القطيعة المبكرة بين أهل العريس وأهل زوجته وفى هذا ما فيه من خطورة على المستقبل .

أما ليلة الدخول وما تتطلبه من ولائم وأفراح ، فلا تسل عما يجد فيها من اختلاف بين الأمانى والرغبات ، ووجهات النظر . وقد يستعر الخلاف بفعل كثرة الموجودين من الطرفين ،

وتتسلل كلمة عابرة ، تكون كشرارة لأتون تحترق فيه هذه الرابطة بما احتوته .

هـذه وقائع دقيقة لا بد من مرورها على كل المتزوجين . وكل منها يحمل بين ثناياه ما يحمل من الخير أو الشر . ويبنى على طريقة معالجته مستقبل الحياة بين الزوجين إن سعادة أو شقاء .

مثل آخر :

قيـل لأحد الشبان إن الفتاة التى ترغب فى الارتباط بها ، والدها غنى يحب فتاته . وقد أفرد لتجهيزها وتأثيث منزلها « ألفين » من الجنيهات . وإن الرجل قد رغب فيك لرجولتك وشهامتك ، ولم يقطع بمبلغ معين من المهر ، لأن الرجـل يشترى شخصك بكل مال . وكان الشاب حيياً مؤدباً ، فدفعه هـذا التقدير إلى رفع المهر الذى كان قدره ، وإلى تعرف كل ما يرضى فتاته وتقديمه كهدية ووسيلة إلى الإرضاء .

وفى اليوم المحـدد للدخول ، قدم الشاب لصهره مفتاح المسكن الجديد ، لتهيئة فرشه وترتيب أثاثه . وحضر الزوج آخر النهار ليرى ما تم فيه ، ويشير بما يتفق ونظره فى ترتيب بيته . ولـكنه عند ما دخل من باب المسكن ، رأى الصالة قفراء . فنظر فى الحجرة التى على يمينه وكانت معدة لاستقبال الضيوف فرآها خاوية ، فانتقل إلى الثانية فرأى فيها جهاز النوم فقط ، فدخل إلى الثالثة فرآها أرضاً فارغة ، فدخل المطبخ فلم يجد فيه حلة أو صحناً ! ! ! .

دهش الشاب وراجع حماه فى هذا الذى رأى . فما كان من الرجل إلا أنه اعتذر بمخالفة المصنع للمواعيد المتفق عليها ، وتأخره لمدى أسبوع . وحسن للشاب إتمام الدخول وانتظار هذا الميعاد .

لـكن الشاب دخل ، وأمضى أسبوعاً ثم أسبوعا ، وتلى ذلك شهر ، وحمـاه يتهرب من مقابلته ، وزوجه تصر على أن الجهاز سيأتى . إلى أن كان يوم تربص فيه الشاب وترك عمله ليلاقى حماه ، ويضع حداً لهذا الانتظار وهـذا التهرب . وكانت دهشة وكانت خيبة أمل مريرة ، حينما وضح للشاب عجز الرجل عن استحضار شىء غير ما استحضر ، أو تحقيق شىء مما أمل فيه . وأنها كانت وعود من غير اعتزام على وفاء .

كان لذلك أثره المادى والأدبى . فقد جمح قلب الشاب وانقبض ، وانخفض فى ميزان التقدير مركز الأب ومركز فتاته . واعتبر الشاب أنه كان محلا للغش وعدم التقدير ،

فاهتزت جوانب البيت ، وتزعزعت الرابطة ، ولم يأسف الشاب على رؤيتها تترنح وهى ساقطة إلى فناء .

* * *

ولعلاج هذه الحالة يجب أن نصارح الجميع بالحقيقة .

فليفهم الزوج وأهله أولا أن والدى الزوجة لو ملكوا ذهب الدنيا لأنفقوه فى إسعاد ابنتهم ، وإحاطة كرامتهم بسياج من التقدير والاعتبار . ولذلك فإن ما يقومون به من تكريم وتأثيث ، هو آخر ما فى استطاعتهم بعد الروية والحيل والتدبير ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . ويجب عليهم قبول ذلك قبولا حسناً ، ليهيئوا لابنهم راحة فكرية وسعادة نفسية . فالأكل لا يدوم ، والأثاث لا يدوم . وإنما الذى يدوم هو ارتباط النفوس بالود والألفة . ولم نر زوجين امتد بهما العمر ، عاشا على الأثاث الأول ، أو تذكرا طعم ما أكل فى الحفلات والمآدب .

وعلى الزوجة وأهلها التحرز من الظهور فى ألبسة براقة ، أو ثياب ففضاضة ؛ فإن لكل دعوى دليل ، ولكل ادعاء تبعة . وليس أشق على النفس من رد الفعل ، وخيبة الأمل . وأن الصراحة والظهور فى ثوب الحقيقة لا يخجل إلا مرة واحدة .

وعلى هؤلاء أجمعين ، التجاوز عن الهنات ، والابتعاد عن الاستنتاج والتخريج . واطفاء الشرارات الصغيرة التى يشعلها المغرضون ، وما أكثرهم فى هذه المناسبات . ؟

الاستهانة بمستقبل الزوجية

ثبت أن كل الأعمال الناجحة التى يقوم بها الناس، قد سبقها التفكير، وتقليب وجهات النظر فيها، وتعرُّف خيرها وشرها، ثم رُجحت كفتاها، واختير من بينهما ما عُقدت النية عليه واعتُزم تنفيذه. كما ثبت أن أكثر الأعمال الارتجالية مآلها إلى الخيبة، لأنها غالباً ما تبنى على فورات نفسية حادة، وقلما تؤدى هذه إلى خير.

وعملية الارتباط الزوجى، من أهم الأفعال التى يقوم على تنفيذها الناس رجالا ونساء. ولأهميتها الحيوية عند أصحابها، يتعين عليهم أن لا يقصروا هذه النية على ما يسبق العقد أو الدخول. بل يجب أن تمتد هذه النية أيضا إلى ما بعد العقد أو الدخول. وتتجدد مع العزيمة القوية، على استدامة الحياة الجديدة، واعتزام التغلب على ما يستجد من عقبات حرصا على سلامتها.

لكن بعض الناس يحلو لهم الاستهانة بما هم قادمون عليه فى هذا السبيل، فينتوون: ولكن: لغير الاستدامة. إستهانة منهم بمستقبل الحياة الزوجية، وعدم ثبات نفوسهم على الاستمرار فى حدودها. وسرعان ما تهوى بهم مقاعدهم فيها، إلى ما توجسوا منه خيفة وتهيبوا وقوعه. ولو أنهم تخيروا التمسك واعتزموه، لكان لهم ما أرادوا من الخير.

فمن هم هؤلاء؟ وما هى الأسباب التى تدفعهم إلى هذه الأخطاء؟

لقد ثبت أن هذا الخطأ يقع فيه الرجال كما يقع فيه النساء على السواء، وإن توحدت الأسباب التى تنحصر فيما يأتى:—

(١) الإخفاق فى زواج سابق (٢) الأخبار أو الأفعال الطارئة المنفرة من الشريك (٣) الرغبة الملحة فى حب التغيير (٤) كثرة الحوادث التى جرت للآخرين.

فالذين أخفقوا فى زواج سابق، هم الذين سبق لهم الارتباط وكانت لهم فيه نوايا حسنة، ولكنهم أخطأوا فى اختيار شركائهم، ولم يقووا على احتمال ما رأوه مخالفا لوجهة نظرهم فى الحياة، ولم يعالجوه معالجة تطبيب يتفق مع الداء، ثم يئسوا من الإصلاح فاختاروا الفراق راضين أو مرغمين.

هذا الصنف من الناس يداخله اليأس من الحصول على المرجو لنفسه. ويقطع بعدم إمكانه. وعند ما تهيأ له رابطة ثانية، لا يستقبلها بعزيمة حب الحرص عليها، ولا بنية

استدامتها . ولكنه ينتوى فى نفسه التخلص منها عند أول هفوة ، ترفعا لنفسه عن أن تكون محل تجربة ثانية ، أو استهانة بقدرها ، ما دام قد قطع فى نفسه باستحالة صلاحيتها . ويتخذ من موقفه فى الزواج السابق الدليل الحى على تأييد نفسه فيما يريد .

وأما الذين خبروا ، أو رأوا أفعالا طارئة من شركائهم لا تتفق وما يريدون ، فهم أولئك الذين وصلوا إلى عقد الرابطة ، ثم جاءهم من يلقى بين يديهم بأقوال ووقائع تحد من تقدير ذلك الشريك ، أو يكون الشريك نفسه قد كشف لمناسبة ما عن فعل غير مرضى . ومثل هذه الروايات أو هذه الأفعال الطارئة ، التى تحدث قبل الدخول أو أثناءه ، تجفل القلوب وتهز النفوس وتؤذى الشعور وتخلق أجنة عدم التمسك المبكر ، وتكون النتيجة اعتزام انهاء هذه الرابطة لأول حدث فيها .

أما أصحاب الرغبة الملحة فى حب التغيير ، فهم أولئك الذين يتشبهون بالنحل فى تنقله من زهرة إلى زهرة ، ومن فنن إلى فنن . يزدهيهم اللون فيسرعون إليه . حتى إذا ما ارتووا أو وصلوا إلى ما يريدون ، رنت عيونهم واتجهت نفوسهم إلى ما يبدو لهم من بعيد . فيتركون مكانهم إليه ، إرضاء لرغباتهم الملحة فى حب التغيير . ومماشاة لنفوسهم غير المطمئنة فى الحياة .

وهناك صنف رابع من الناس سلمت نيته ، وضعفت نفسه وإرادته ، واستجاب لما يوجه إليه من الآخرين . هذا الصنف ، له أصدقاء وله معارف ، نقلوا عن غيرهم أو وقعوا هم فى مشاحنات ومشاكل فى روابطهم ، فشقوا بها ولم يسعدوا . وحينما يقف هذا الشريك الجديد على الوقائع والمآسى ، ويكون لها من الآثار النفسية ما يخيف ، يوجد فيه التهيب ويخلق الخوف ، وتتزعزع الثقة فى المستقبل ويزرع التهاون فى الرابطة ، حتى إذا كانت كل جوانب الارتباط قد تمت ولا سبيل إلى الدخول فيها .

هذه هى الأسباب الدافعة لبعض الناس إلى اختيار الاستهانة بالمستقبل ، واعتزام عدم المحافظة على الروابط قائلين : إذا صلحت كان بها ، وإلا فإلى خراب ، ولا أسف . وقد أخطأ هؤلاء فى اتخاذهم هذا الطريق ، كما أخطأوا فى نواياهم ونوعها ، لأنها ستوقعهم فيما كانوا يتخوفون منه . إذ المعروف أن الرابطة تجمع بين اثنين ، نشأ كل منهما فى بيت وفى عائلة ، وربما فى بلد آخر غير بلده . ولكل منهما منازع شخصية ، كثيراً ما تختلف عن مثلها فى شريكه . ووجود هذين الانسانين فى رابطة زوجية ، واحتواء منزل عليهما تجرى فيه النفوس على طبيعتها ، سيظهر معه فوارق المنشأ ، واختلاف الرغبات . فإذا نظر الشريك إلى شريكه بمنظار أسود فإنه لا يرى الأشياء على حقيقتها ، وينبنى على ذلك ظلم للغير ، واعتداء من غير مبرر . وهذا ما لا تستقيم معه حياة .

وإذا لوحظت العدالة فى تقدير هذه الأسباب ، لقضى على متخذيها بالاتهام . لأن الشريك فى الزواج الثانى ، لا يمكن أن يحتمل نتيجة أفعال شريك الزواج الأول ، وأن الأخبار أو الأفعال الطارئة ، التى اتخذت سبباً للنفور ، ليست مما يقطع باستحالة إصلاحها عند التطبيب . وأن الرغبة فى التغيير غير متعسرة مداواتها ، وأن كثرة الحوادث التى عرفت عن الآخرين لا يلام عليها إلا مرتكبوها ، ولا يمتد أذاها إلى غير أصحابها .

وإذن فالبناء عليها بما يشاهد من استهانة واستهتار ، نوع من الخطأ والاعتداء وقع على الشركاء الآمنين .

ولو درى أصحاب هذه الأسباب أن دخولهم فى رابطة زوجية ، يستأهل منهم نية حسنة ، وعزيمة قوية ، واستقبالا راضيا لحياة طويلة ، واستعدادا قويا للتغلب على مايجدون من صعاب ، لوصلوا إلى ما يبغونه من سعادة الارتباط ، وبقاء المعاشرة ، ولحصنوا أنفسهم من الوقوع فيما توجسوا منه خيفة ، ولسلموا من أذى محقق نتيجة لما يقدمون عليه . وإليك مثلا واحداً من أمثال :—

« رغب رجل فى تحصين نفسه والمحافظة على كرامته . فسعى جهده حتى وفر لنفسه وسائل الارتباط الزوجى ، وأقترن بسيدة سبق لها الزواج . وقبل مضى ثلاثة أشهر على المعاشرة الزوجية ، كانا معا أمام المحكمة الشرعية يختصمان . ويظهر أن الرجل كان ممتلئاً حزنا على موقفه ، فدفعه ذلك إلى البكاء كالأطفال أمام المحكمة . مع أن القضية كانت عادية يمر عشرات مثلها كل يوم ، دون أن تحز فى نفوس المدعى عليهم . وقد لفت موقفه نظر القاضى — وكان رجلا مشهوراً بتحسس مواضيع النزاع فى المتشابك من الخصومات — ففتح صدره لسماع ما يؤلم الرجل ودفعه إلى سرد حكايته فقال :—

لقد أمضى بضع سنوات يجاهد الحياة ويغالبها ، حتى تجمع بين يديه ما يمكنه من الأخذ والعطاء فى محل عطارة صغير . ولما اعتزم الزواج ، شكر له الناس أخلاق هذه الزوجة فاتجه إليها وأتم الارتباط بها . وكان له أمل أن يسعد بحياة مع شريكة تساعده على الحياة . ولكنه أمضى معها شهرين لا يذكر أنها استيقظت قبله لتهيئ له مطالبه قبل الخروج إلى عمله ، أو أن يجد رداء نظيفا حين يريد تغيير ملابسه ، أو أن يجد سريره مرتبا عند ما يعود إليه ، أو أن يجلس فى مكان ولا يجد حوله الأشياء مبعثرة . وأكثر من هذا فإنه لم يحاسب مرة واحدة حسابا عادلا فى ثمن حاجات البيت . وقد احتمل وقوع هذه الأشياء فى مبدأ الحياة الزوجية خوف الاصطدام العاجل ، وصدق أعذارها المتكررة بمرضها المدعى . ولكنه فى يوم

أرهقه فيه العمل وكثرت عليه المطالب ، أراد عتابها على هذا التقصير فأجابته بأنها (كده ! وإذا لم يعجبك حالى دورلك على واحدة أحسن) فقال الرجل ردا على كلامها وهو كذلك : فما كان منها إلا أنها قامت من فورها تجمع حاجياتها وتصخب بألفاظ مهينة . وقد أغاظته بما أبدته ، فرد عليها واحتدم النقاش وانتهى إلى توقيع الطلاق . ولم تمكن الرجل من التريث فى موقفه فسارعت إلى رفع القضية التى هو فيها الآن وهذه هى كل حياته معها .

ولما لم يكن فى هذه الحادثة ما يمنع المحكمة من الحكم للمدعية بنفقة عدة فقد انتهت القضية بما أرادته الزوجة . لكننى رأيت فى الحادث حلقة مفقودة لا توجد إلا عند السيدة . أتعرف ما هى ؟ .

لقد عرفت أن السيدة سبق لها التزوج مرتين ، ولسوء حظها شقيت فيهما ، بالرغم مما بذلته من إخلاص وخدمة ، وقيام بالواجب عليها . وقد أوجد فيها هذا الشقاء فكرة سيئة عن الرجال وعن الزواج ، واعتقدت أنهم كلهم واحد فى البلاء . فاعتزمت أن تخلع عنها رداء معرفة الواجب ، وقويت فى نفسها العزيمة على هذه النية . ولما ارتبطت بالرجل ، وكانت قد عرفت من الليلة الأولى ماله وما عليه . . . لم تجد ما يدفعها إلى تغيير عزيمتها ، أو ما يرغبها فى الرجوع عما انتوته . وانتهى الأمر بها إلى ما يسميه زوجها بالإهمال والاستهتار فى واجباته ، ثم أخيرا إلى الفراق . ومما يدهش حقاً أن هذه السيدة أفصحت عن اعتزامها عدم الدخول مرة أخرى ، فى رابطة زوجية . لأنها قد تحققت من حظها ؟! . »

وبنظرة سطحية إلى دعوى السيدة ، يتبين كيف انزلقت إلى الخطأ فى حق نفسها ، وفى حق الرجل الذى لم يرتكب معها ما يستحق عليه هذا العنت والإهمال . ولو كانت هذه السيدة وأمثالها والآخرون الذين لهم هذه النوايا ، قد أقفلوا سجل الماضى ، وفتحوا للارتباط الجديد صفحة جديدة ، وانتووا المحافظة على روابطهم ، وقاموا بواجبهم ، وجعلوا من أنفسهم أطباء للأدواء الطارئة ، لكانت لهم مواقف أخرى تخالف ما هم فيه . ولنالوا من سعادة المستقبل ، كل مرجو ومأمول ؟

انعدام الثقة بين الأزواج

الثقة تاج يضيء على مفرق من يعتز بالفضائل من الأخلاق . وهى فى حياة الإنسان ظهر وسناد ، ولا يمتنع عليه بها شيء يريده . ونظرة عابرة فى ميدان الحياة ، ترينا على ذلك ألف دليل ودليل .

فالموظف الموثوق به ، يغمر بعطف رؤسائه ، ويؤيد بمؤازرتهم ، ويصل إلى ما يريده من علو ورفعة . والتاجر الموثوق فى معاملته ، يهفو عليه العملاء والمتعاملون ، ولا يفضله أحد فى الأخذ والعطاء . كذلك يكون حال الصانع والطبيب والمحامى ، وكل ذى صلة بالناس.

وإذا تعرى الإنسان من جميع أردية الحياة ، ولم يبق له منها غير رداء الثقة ، فكفاه بذلك ستراً يستظل به ما عاش من زمن ، ويغتنى به من الاحتياج ، ويحتمى به من العاديات.

وإذا كانت للثقة هذه الآثار الحسنة فى حياة صاحبها العملية ، فإن لها فى حياة الرابطة الزوجية ، ما يسمو على ذلك من آثار روحية . فيها الهدوء ، وفيها الطمأنينة ، وفيها الراحة ، وفيها سعادة الحياة . ولذلك كانت من اللزوميات المؤكدة ، ليستقيم الحال بين أفراد الأسرة الواحدة ، ويعيشوا مستظلين ببركة الله . وطوبى لزوجين تبادلا الثقة ، واتخذها كل منهما عدته وفخره . فإن رابطتهما تكون من خير الروابط ، وحياتهما من أسعد أنواع الحياة .

إذ الرجل الذى تثق فيه زوجه ، يعامل منها بمنتهى الإخلاص ، وتغمره بفيض من العطف والود ، وتضحى فى سبيل هنائه نفسانياً وجسمانياً بكل ما تستطيع عن طواعية واختيار ، وتحرص على كرامته ، وماله ، وشرفه : وتقيم من نفسها عضداً له فى السراء والضراء.

والمرأة التى يثق فيها زوجها ، يطمئن على تصرفاتها فى بيته ، وفى نفسه ، وفى ماله ، وفى كرامته . ويرزق هدوء النفس وطمأنينة الشعور والقلب . فلا يجعل للوساوس سبيلا ، ولا للانزعاج بابا ، ولا للغيرة مكاناً . وتصير كل قوته وكل تفكيره ، وقفا على ما يوفر به وسائل العيش الرغيد ، والهناء النفسى لشريكة حياته .

وبيت تشيع فيه الثقة بين أفراده ، يرفرف عليه الهدوء ، وتدعم جوانبه ، ويهاب ساكنوه ، ولا يكون مطمع نظرة تجافى الاحترام .

وعلى رغم ما للثقة من هذه الآثار الرفيعة فى حياة العمل ، أو الارتباط الزوجى ، نرى كثيراً من الناس يعرضون عنها استهانة بمصائرهم ، واستهتاراً بنفس الحياة التى يحيون فيها .

ويتركون الحبل على الغارب ، ويجهّلون أنفسهم بالنتائج ، فيقعون فى مهاوى الردى ، ويسقطون من حيث كانت بأيديهم وسائل السلامة ، فتركوها مستهترين .

ترى الرجل من هـذا الصنف يتحدث ، فلا يصدق . ويعد ، فلا ينجز . ويتعهد ، ولا يوفى . يغلب عليه التهريج ، وتستولى عليـه الاستهانة بكل ما حواليه . فإذا خرج من بيته فإن زوجتـه لا تجزم برجوعه فى ميعاده ، ولا يعرف هو متى يعود . وإذا جلس بين اخوانه ، فكل ما يعرضه من وقائع أوروايات عليهم ، محتاج إلى تدليل . وإذا عرض أمراً على رئيسه لا يقبله منه قبول المطمئن ، بل يضطر إلى تحريه . وإذا تعامل مع أحـد ، فقلما يصل إلى ما يريد . حتى إذا حضر إلى زوجه ، فإنها لا تجـد دافعاً إلى مناقشته فى شىء ، لاعتقادها بأنها سوف لا تصل إلى الحقيقة فيما تريد . وزوج هـذا شأنه لا يملأ عين زوجه ، ولا يتمتع باحترام بيته ، ولا يمكن أن تستديم له رابطة زوجية .

وترى المرأة التى خلت من شرف الثقة مطعوناً عليها فى كل شىء ، حتى الشرف . ومثلها لا تنال رضى على بقائها ، ولا سعادة فى حياتها الزوجية .

ومن الناس من يهب ثقته دون تروّ ، ويضفيها منحة ، دون عمل ما يلزمها من تحريات واجبة . وهذا الصنف من الناس قد حسنت طويته ، وكرمت نيته . قد اعتقد الطيبة والصدق فى جميع الناس ، لأنه طيب صادق . واعتقد الإخلاص والأمانة فى الجميع ، لأنه مخلص أمين . ومن أجل ذلك تراه يصدق كل رواية ، ويخلص فى كل معاشرة ، ويأتمن كل الناس سواء فى ذلك معارفه وأصدقاءه ، أو زملاء عمله أو أفراد أسرته .

مثل هذا الرجل يكون فى الحقيقة عرضة للوقوع فى حبائل الغير ، إذا منى بمن لا ثقة فيه . ويكون غالباً مجنياً عليه ، ومطموعا فى رحابه . وربما استهين به فلا يعمل له حساب . لأنه سيصدق العذر الـكاذب ، ولا يناقش الوقائع المختلقة التى توضع للجواب . ويمنعه حياؤه من مراجعة الغير فيما يقول .

هذا الرجل إذا منى بزوجة ضعيفة الأخلاق ، لا يمكن له الوقوف على حقيقتها ، إلا إذا انفجرت القنبلة أمامه ، وجرحته شظاياها . ولا يعلم حقيقة أمره الخاص ، إلا إذا وجد الواقعة بين يديه . وهنا فقط يستفيق على الصوت المدوى ، ويستيقظ من آلام جراحه ، وتحزنه دماؤه المتدفقة ، ويجد أنه كان ضحية بلا ذنب ، ويوقن أنه كان مجنيا عليه ؟!!

ولو درى مثل هذا الرجل الطيب القلب ، أن الناس لا يستوون . وأن عناصر الأخلاق فيها الطيب ، وفيها الخبيث ، لفتح عينيه على كل شىء ، ولـكان له فى صفاء نفسه ما يمهد له

الوقوف العام على كل ما يحيط به ، فيأخذ حذره ، ويقدر الأمور بقدرها الحقيق . ومن أجل ذلك لا يعفى مثل هذا الرجل من اللام ، لأنه لم يبن الثقة على أسباب البحث والتحرى ، فجعلها هبة منه ، لا حقًّا لمستحقيها ، وكسبا حلالا للعاملين لها . ويعجبنى معنى الحديث الشريف الذى يقول فيه النبى صلى الله عليه وسلم (إعقلها وتوكل) ومعنى آخر لمثل متداول يقول (إحذر صاحبك ولا تستخونه) .

إن الرابطة الزوجية التى تعقد بين اثنين ، فى حاجة إلى تبادل الثقة لإحداث الطمأنينة والتفرغ لمقتضيات الحياة . ولأجل إيجادها يجب على الزوج أن يجشم نفسه فى فجرها متاعب البحث والتحرى ، وتقصى الأمور والأفعال ، والوصول إلى حقيقة كل شىء ، حتى يتأكد من حسن سير الأمور على اختلاف منازعها . على شرط ألا يجابه زوجه باستيرابه فى شىء يكون غير مستند فيه على الدليل القوى . وألا يعلم زوجه بما يجريه وراءها من طرق الاستيثاق . حتى لا تفاجأ هى بما لم يكن فى خلقها ، مما يؤذى شعورها وينفر قلبها . فإذا اطمأن إلى أنها فى قولها صادقة ، وتثبت من مطابقة روايتها للواقع ، كان ذلك حافزا له على الطمأنينة ، ودافعاً له على إعطائها حقها المكتسب من الثقة . وإلا فيجب عليه أن يفتح عينيه ، وأن يهديها إلى الرشاد فيما تقوم عليه ، ويعالج فيها هذا الضعف النفسى حتى تقوى على الأخذ بأساليب الفضيلة ، ولكل مجتهد نصيب .

كذلك يجب على الرجل — وهو فى مقام الأسوة لبيته — أن يكون مثلا حياً لمن يضمهم بيته . ليسيروا على سننه ، وينهجوا نهجه . ولا بد واصل بهم إلى ما يريد . لأن طرق الخير سهلة معبدة وتوصل إلى خير الأمنيات .

وليست الزوجة مكانا مخصصاً لعدم الثقة ، فإن بعض الأرواح كما أسلفنا الشرح فى صفاتهم — قد حرموا منها . والزوجة التى تعتز بمستقبل رابطتها وسمعتها بين لداتها ، يجب عليها أيضا أن تفتح عينها على أفعال زوجها ، فتقدرها قدرها . حتى إذا وجدته رجل بيت وزوجاً كريماً لا يهدف إلا إلى خيرها وخير بيتها ، فإنها لا تتردد عن إعطائه حقه المكتسب من شرف الثقة ، ليتفرغ إلى الجهاد فى الحياة دون مشغولية ما .

ويحضرنى على مآل الروابط التى تخيم عليها الثقة الموهوبة حادثان .

يتلخص الحادث الأول : فى أن أحد الشبان قد استكمل علومه ، ثم دخل معترك الحياة عند ما وظف فى وظيفة يسيل لها لعاب الكثيرين من أقرانه ، ويبين فيها من يشغلها على من يحيط به من الزملاء . وقد اشتهر الشاب بكرم نفسه ، وطيبة طويته . ولم تعوزه الوسيلة

فى الارتباط بزوجة رأى هو أنها قد استوفت من الصفات ما يريد . ولقد كان الشاب يرى عدم قيام مانع يمنع من الاختلاط والتزاور ، والحضور فى المجتمعات والملاهى ، ترافقه زوجه . فعرفت عن هذا الطريق أصدقاءه ومعارفه ، وعرفها كل أصدقائه ومعارفه . وبلغ من ثقته فيها أنه لا يسألها عن خروج إذا خرجت ، أو عن خطاب وصل ، أو وجود صديق فى البيت حضر فى غيابه وجالسته . بل كان يأخذ الأمور أخذا هينا لينا على الدوام .

وفى يوم ، ودون مقدمة ولا معرفة منه ، اختفت الزوجة من البيت ، لأنها خرجت ولم تعد إليه . وفى اليوم التالى حضرت إليه الزوجة متأبطة ذراع واحد من أولئك الأصدقاء ، الذين تمتعوا بثقة الزوج ، لا لتعتذر عن تأخرها لسبب قاهر وهو الدليل ، ولكن لتحيطه علما بأنها قد اعتزمت الافتراق منه ، للارتباط بهذا الصديق . وأنهما حضرا لينهيا الموضوع دون شوشرة أو نقاش ، حيث أنهما متحابان منذ زمن ؟ !!

ولقد فوجئ الرجل بما لم يكن فى حسبانه . وعز عليه أن يكون ضحية هذا العبث ، وأحزنه أن يجازى ممن أحبها ووثق فيها ، وركن إليها بهذا الجزاء . ولكنه وجد نفسه أمام أمر واقع إذا حال دونه فسيتم على أية صورة . وقد رضى الرجل أن ينفض يده من هذه الرابطة ، وأن ينهيها على سلام ، مع ما يحترم نفسه من عوامل مريرة وأسى أليم . وعلى رغم هذا الموقف الشاذ الذى أوقفته فيه زوجه ، فإنه لم يتنبه إلى حقه فيحتفظ به ، لأنه أوقع الطلاق من جانبه ، وبعث إلى زوجه بالوثيقة . ومثل هذا الطلاق لا يحميه من حقوق تدعى ، ولا يدفع عنه طلبا يسعى إليه .

لأن الزوجة عند ما طلقت ، اتجهت إلى من أرادت مشاركته ، وحدث أن نكص هذا الحبيب عن الوفاء بما عاهدها عليه ، فوجدت نفسها فى حاجة إلى تقدير موقفها ، والندم على ما وقعت فيه . فأرادت الصفح ، فلم تنجح . لأن كريم النفس لا يقبل الإهانة فى شرفه وعرضه . فلجأت للانتقام منه بمخاصمته أمام المحكمة الشرعية طلبا لنفقة عدة ، ومسكن وخدم ، ومؤخر صداق ، وغير ذلك مما يدعيه عادة السيدات المطلقات . وكانت خصومات وقضايا فاح منها ريح كانت محبوسة ، لو لم تلجأ هذه المستهترة إلى العناد .

أما المثل الثانى فإنه يتلخص فى أن إحدى الزوجات تملكت بعد وفاة والدها ما كان يملكه من عقار ومحل تجارى ، ولم يكن قد انقضى على زواجها بزوجها إلا أيام معدودات . وعلى الرغم من أنه كان للزوجة ابن عم يعمل فى المحل التجارى ، فإنها اختارت زوجها لمراقبة العمل فيه ، والإشراف عليه . وركنت إليه فى الإدارة والتصرف .

ويظهر أن المال وبهرجه لعب لعبته فى نفس الزوج ، وحبب إليه ما يحببه الشيطان إلى النفوس الضعيفة . فبدأ الرجل يعمل لهواه ، ويلعب بالثقة . فأزاح ابن العم من طريقه بإشارة صغيرة ، وانفرد فى التصريف . وليته أخذ وكنز أو اقتصد . ولكنه أخذ ليبذل فى سبيل الهوى المحرم ، وعلى موائد الشيطان . ولم يطل مدى التستر لأن للجريمة ريحاً . فقد عرفت الزوجة ممن تثق فيه تلاعب زوجها بثروتها ، وحصول ما كانت تخشاه من تبديدها . وعند ما همت بالوقوف على الحقيقة صدمت بما لم يكن فى حسبانها وتقديرها ، إذ لقيت لزوجها شريكة أخرى من بنات الكاس والطاس ، ووجدت أن المحل قد فرغ ممافيه ، والبيت قد وقعت عليه جملة اختصاصات حفظا للديون . وكانت ملاحم وكانت خصومات ، ولكن سبق السيف العذل ، والبكاء لا يحيي الموات .

***

مما تقدم يتبين أن الروابط الزوجية عمادها الثقة ، والثقة لا توهب ، ولكنها حقوق مكتسبة . وواجب الأزواج تحرى أسبابها ، والعمل على اكتسابها ، والتذرع إلى الوصول إليها بالفضائل من الأخلاق ، لتستديم الحياة الزوجية . ويأمن الشركاء ، جانب الشركاء . فيتفرغ كل شريك إلى إجادة ما عليه من واجبات . ويتحقق للنفوس الهدوء والطمأنينة ، وللحياة الزوجية الاستدامة مع السعادة والهناء .

عدم الرضا بالواقع ؟!!

أنى سرت ، ومع أى إنسان تقابلت وتحادثت ، لا تجد واحداً يمدح دهره ، ويقنع بنصيبه ، ويرضى عن حياته . فالكل متذمرون ، والكل ضائقون بما يرون أنه مضاد لشعورهم ، وحائل دون أمانيهم . وندر أن تجد واحداً لا يعدد الشكوى المريرة مما يلاقى ، لا فرق بين رجل أو امرأة ، ولا بين عامل أو صاحب عمل ، ولا بين معدم أو مالك ، ولا بين رئيس أو مرءوس ؟!! وبقدر الأمانى والرغبات ، يكون التذمر والضيق . وما أكثر رغبات المتذمرين بالحياة ، وما أوسع خيالهم . ولذلك تراهم معذبين متألمين ، وقلقين مضطربين . حرموا أنفسهم لذة الاستمتاع بالحياة ، وأغرقوا أنفسهم فى طوفان من التفكير فى غير الموجود .

ولو عرف هؤلاء أن راحة النفس ، واطمئنان الشعور ، والهناءة بالحياة ، قد بنيت على أساس واحد ، هو الرضا بالواقع ، والقناعة بالحال التى وجد عليها ، لخف عنهم ثقل ما يحملون ، ولبرد فى نفوسهم ما به يحترقون ، ولكنهم لا يعرفون ، ولذلك يتعذبون ويشقون .

خلق الإنسان عجولا ، كما خلق طموعا . وإن الطمع لا يقف عند حد ، ولا يكتفى صاحبه ، ما دامت له عيون تبصر ، وقدم تسير . ومع أن الله سبحانه وتعالى قدير على أن يعطى الطالب ما يطلب ، والمؤمل ما يأمل ، إلا أنه جل شأنه وقد أراد تعمير الكون ، وتسيير عجلته ، جعل الله الناس بعضهم فوق بعض درجات ، وفضل بعضهم على بعض فى الرزق . حكمة كبرى ، وإرادة جليلة نافذة على الناس ، تستوجب منهم الرضوخ والتسليم ، وتلزمهم الرضا بالواقع .

وليس المعنى فى هذا أن ينزع الناس من نفوسهم الآمال والأمانى ، ويقبع كل فى مكانه لا يتحرك ولا يجتهد ؟ كلا . فالعمل والاجتهاد والسعى والتفكير فى طلب الرزق ، شرعة الحياة ، وركن الدين . وجبت على الناس لتحصيل ما يرغبون فيه من خير الحياة .

لكن النظر إلى ما فى يد الغير بعين الحسرة والحسد ، والحقد والطمع فيه ، هو هذا الذى لا يرضى عنه الله ، ولا يرضى على أصحابه من أجله . لأنه فضلا عن أنه معاندة لقضاء الله وإرادته ، فهو تعذيب للنفوس ، وسعى لإشقائها ، ثم هو لا يوصل إلى خير .

هؤلاء المتذمرون بمقاعدهم فى الحياة ، يجعلون هذا الضيق منسحبا على كل شىء ، حتى الروابط الزوجية . ومن أجل ذلك تراهم مغمورين بالاضطراب النفسى . قد استولى عليهم

القلق فأقض مضاجعهم ، وحرمهم من الطمأنينة ، وقلص هدوءهم ، وحال دون اتصالهم الروحى بشركائهم ، وأوجد فى سبيل الوداد النفسى عقبات كأداء . نفوسهم ثائرة ، وحياتهم مضطربة ، وغضبهم للاشىء ، وخصوماتهم تودى بالحريات والنفوس ، لأنهم قد استهانوا بالنعم التى بين أيديهم .

يرتبط الرجل بزوجته ويعاشرها . وما تكاد الحياة تأخذ طريقها حتى يهب فى نفسه الملل . لأنه رأى فى زوجة جاره الذى يساويه ، جمالا يزيد على ما فى زوجته ، أو رأى فى عائلة زوجة جاره أو زميله ، جاها ونفوذا غير متوافرين فى عائلة زوجته ، أوسمع عن ثرائها ما لا يوجد عند زوجته .

يدفعه حسده إلى ما يكون عليه غيره ، وحقده على تملكه دونه ، إلى الضيق بنصيبه . فيهمل الاستمتاع به ، ويفوت على نفسه الراحة والطمأنينة ، ويزرع فى شعوره نبت القلق والاضطراب ، ويشعل حريق التبرم بنفسه ، والاستهانة بالشريك .

هذا الرجل وأمثاله ماديون فى الحياة ، طامعون جشعون . لا يقدرون قيمة الأخلاق ، ولا يعرفون سمو الروح ، ولا ينعمون بالروابط ، يشقون فى الحياة ويشقون من معهم ، وتتأكل قلوبهم من الحقد ، ويعيشون فى عذاب . ولا بد من نهاية عاجلة بعد مآس فاجعة ينتهون إليها .

وليس أصعب على نفس زوجة من تعييرها بنقص فى جسمها ، أو فى مكانتها العائلية . أو قدرتها المادية . ولذلك لا يوجد البيت الذى بقى واقفا بعد أن وقع على سيدته مثل هذا التعيير .

مثل من الأمثال : « تزوج شقيقان فى يوم واحد بزوجتين ، كل منهما من بيت . كانت إحداهما وحيدة والديها ، والثانية إحدى أخوات . وقد اعتاد والد الأولى الإكثار من زيارة ابنته مع أمها ، للاطمئنان عليها والتمتع برؤيتها . وكان حبهما لها يدفعهما إلى أن لا يستمتعا بشهى مأكول دون إفراد نصيبها منه ، أو أن يذهبا إليها دون استصحاب شىء كهدية لها . كما كان يومهما السعيد هو الذى تذهب إليهما فيه مع زوجها . وقد جعل هذا الود فى نفس زوجها صدى ، دفعه إلى التحدث به كثيرا أمام والديه وأخيه .

وكانت الثانية ابنة والدين شغلتهما كثرة أولادهما ، بالانتباه إليهم ومراعاتهم . فقلّت زيارتهما لها ، وبالتالى هداياهما . وكانت الفتاة تعرف الموقف وتحيط بجوانبه . فتغطى بإخلاصها لزوجها ، وتفانيها فى خدمة البيت ، بما يخفف عن نفسها ما تعرفه من هذا النقص . ومع ذلك فقد كان زوجها يضيق بها ذرعا ، ويغمض عينه على القذى . ولم يطق صبراً حينما اندفع يعيرها بفقرها ، ويؤنبها على نصيبه بها . فى الوقت الذى يكيل المدح والشكر لأصهار أخيه ،

ويحسده على ما وصل إليه . وقد اشتد فى نفس الشاب قلقه ، واحترق قلبه بالحسد ، وعدم الرضى ، وانتهى الأمر به إلى أن تمتد يده فى ثورة غضبه إلى ضرب زوجه ، ويتسامع من فى البيت بالصخب الذى كان .

بلغ الأمر والديها ، وكان مجلس ضم العائلتين ، ولم يطق الوالد هذا الادعاء فتساءل : هل أتلفت ابنتى شيئاً ؟ هل قصرت فى خدمتها للبيت ؟ هل تلفظت بألفاظ أساءت بها الأدب أو اعتدت بها على الغير ؟ هل نشزت فى طاعة ؟ ولكن الشاب لم يجد جوابا على هذا التساؤل غير السكوت ، حتى خجل منه أخوه وخجل منه أبواه . وأخيرا قالها الرجل كلمة واحدة . إنك يابنى نظرت إلى غيرك ، وما دمت كذلك ، فقد فتحت على نفسك باب عذاب لا أرضى لابنتى باحتماله ، وقد أرحتك منها . ثم أخذها فى يده وذهب . ولم يقو أحد من الحاضرين على الوقوف فى وجهه . وكانت الرابطة لم تستكمل بعد نصف عام . »

وليس الضيق بالحال والتذمر بالنصيب وقفاً على الرجال دون النساء . فإن كثيرا من هؤلاء يكون لهن من المآرب ما يشق به الرجال . فشباب الجار أو الصديق ، الذى يفوق على شباب الزوج ، والأناقة ، والقدرة المادية ، والمكانة الاجتماعية ، تغرى كثيرا من السيدات خصوصا أولئك اللوائى لهن صلات المعرفة بهذه الأنواع . والمرأة فى فى بعض أصنافها يغرها البهرج وتضعف أمام القوة . ويجذبها البريق ، ويخضعها اللفظ المعسول ، ويسكرها المدح . ولا ننسى الجانب الأهم . وهو التطلع إلى ما تستمتع به الصديقات أو الجارات من نعمة أو حياة تغاير ما هى عليه من حياة .

هذا الصنف من النساء يجد من نفسه ، ما يوجد عند الرجل الضائق بحالته وأكثر . ولا يكتفى بالضيق والتذمر ، بل يتهور ويندفع إلى السقوط . ويكون الأثر الذى يحدثه عدم الرضا بالواقع عندهن ، أخطر وأعم وأدوم لشقاء الأزواج .

من ذلك يتبين أن عدم الرضا بالواقع ، يشق النفس ، ويجر على البيوت الخراب ، وعلى المرتبطين روابط الزوجية ألوان الشقاء . وخير علاج لهذه النفوس القناعة بالحال ، والاجتهاد فى التحصيل ، والرضا بالواقع ، والاستمتاع به . ليتحقق الهدوء ، وترتشف كئووس السعادة

سوء التفاهم وتراكمه

يوجد اختلاف النظر حيث يوجد الاتصال . ففى العمل مع الزملاء ، وبين الرؤساء والمرءوسين ، وفى الصداقة بين الأصدقاء فى الحديث والاجتماعات ، وفى السوق ، وفى الطريق وبين المارة أو الجالسين فى المحلات العامة ، فى كل هذه الأمكنة يوجد الاختلاف بين وجهات النظر فى الشيء الواحد بين الاثنين .

ومنشأ هذا الاختلاف بين الناس ، يرجع إلى التفاوت بينهم فى التفكير والتجارب ، والمعرفة ، وتقدير الأشياء . وعلى قدر هذا التفاوت يكون الاختلاف ، أو يكون سوء التفاهم .

وكما يوجد الاختلاف فى هذه الأمكنة ، يوجد بين الزوجين فى المنزل . لأنهما شريكان فى إدارة بيت ، ويعيشان فى عيشة واحدة . ويقوم هذا الاختلاف بينهما فيما يختص بمعاشرتهما الشخصية ، أو ارتباطهما بالخدم ، أو بصلتهما العائلية ، أو فيما يختص بالمعارف والجيران ، أو حوادث الماضى أو الحاضر أو المستقبل ، إلى غير ذلك مما يتصل بهما ، ويجرى فيه الحديث بينهما ، أو يرجع أمر الفصل فيه إليهما .

واختلاف النظر بين الأزواج ، وسوء التفاهم بينهما ، يختلف ضعفا وقوة ، حسبما يكون التفاوت بينهما فى التجارب والتقدير . وحسبما يدين كل منهما للآخر بالثقة والوداد . كما تتفاوت مدة بقاء أثره ، حسب تقديرهما لقدسية الزواج والتمسك بها .

وصنفان من الأزواج لا يترك اختلاف النظر أو سوء التفاهم بينهما أثرا : أولهما من تزوجا حديثا . لأن غمرة سرور الارتباط وجدته تمحو ما يوجد من هذا الاختلاف . وثانيهما اللذان تحابّا ، وتوثقت بينهما عرى المودة والمشاركة ، وتمكنت فى نفسيهما المحافظة على الرابطة . هؤلاء وهؤلاء نكتفى بالإشارة إليهما دون التفصيل .

أما أولئكم الذين يتحرقون غيظا لكل صغيرة هينة ، ويلتهبون غضبا لكل ما يخالف نظرهم ، فهم الذين يغالون فى تفتيح المغلق ، وتوسيع الضيق ، ويوجدون أنفسهم وشركاءهم فى مآزق ضيقة صعبة ، ما كان أغناهم عن الوقوف فيها ، لو أنهم أخذوا الشيء بالطريق الحسنى والنوايا الحسنة .

هؤلاء الأزواج هم الذين نعنيهم ونُعنى بالحديث عنهم . لأنهم بنوا على اختلاف النظر

ما لا يصح من الأمور . وأخذوا بالشدة ما كان يؤخذ بالرفق . فوقعوا فيما لم يقدروه من شر ، وخسروا نتائج كانوا لها من الرابحين .

لقد يكون منشأ الخلاف تافها ، ومن الهوان بحيث لا يصح التمسك به . ولكن زمن وقوعه صادف نفساً فى غير حالتها العادية ، إذ كان الشعور متعبا بأحاسيس خاصة ، أو كان الجو الذى يحيط بظهور هذا الاختلاف غير عادى . هذه المصادفة جعلت الهين كنقطة فاضت بها الكأس . فيحدث الانفجار ويحدث الغضب واللام . ويوجد طبعا كل الاستغراب من الطرف الثانى . فيقوى الاختلاف ويوجد سوء التفاهم ، ويعز التراجع ، حين يقف كل من الزوجين موقف المتمسك بحقه من الآخر .

ومبعث ذلك هو الخلط الذى يقع فيه الزوج أو الزوجة ، بين الأمور وبعضها . كأن يكون الرجل متأثر النفس من ضغط عمله ، أو تصلب رئيسه ، أو اعتداء زميل . ثم يدخل البيت فيجد صراخ طفله أو بعض أثاث المنزل فى غير مكانه . فإنه يهيج رغبة فى التنفيس ، ويصرخ ويصخب ، ويرمى زوجته بالإهمال وعدم العناية . وترى الزوجة أنها قد قضت يومها فى متاعب البيت ، ولا تزال فى تتميم ما بدأته من أول النهار ، وكانت تنتظر كلمة هينة لينة لتشجيعها الأدبى ، فوجدت عقابا صارما ، وصوتا صارخا ، فتسارع من فورها بالاستغراب ثم إنكار حق زوجها فى هذا العمل ، ثم يختلف التفاهم بينهما . هو يصر مثلا على أن صوت الطفل ما كان إلا من اتساخه أو من جوعه ، وهى تصر على أنه قد رضع وغيرت لفته ومسح جسمه . زوبعة فى فنجان ، و « الجنازة حارة والمتوفى كلب » ! .

واختلاف النظر أو سوء التفاهم ، إذا لم يبادر بتصفيته أولاً فأولا ، فإنه يتضخم مع الزمن ، لأن الهين الصغير ، إذا وضع على الهين الصغير ، كانا شيئا مجسما فى وقت ليس ببعيد . والنفس إذا احتفظت بما يقلقها ، إزداد اضطرابها ، وتأزمت حتى تصبح غير مستعدة لمزيد ، وسرعان ما تضطرم رغبة التنفيس فى الصدر ، ويطفو ما فى الكأس بهذا المزيد .

ومثل سوء التفاهم فى تراكمه ، كمثل الهباء الذى يحمل مع الهواء ، وينفذ من المنافذ والأبواب المقفلة على الأثاث . إذا ترك مسحه وتنظيف مكانه يومين متواليين ، صار مرئيا . وكلما زاد تركه ، ازدادت طبقاته . حتى يأتى يوم لا يمكن لأحد استعمال هذا الأثاث بتلك الحالة ، بل إن معالجة إزالته المتأخرة ستذهب بالرواء ، وتترك أثرا فى الأثاث .

كذلك بعض الناس ، يجنحون إلى كظم ما فى نفوسهم ، وينطوون على ما يرون من مخالفات تبدو ضد ما يرون ، ظنا منهم بأنها تزول دون التحدث فيها ، أو إرجائها إلى وقت تكون فيه

قد وقع غيرها أو أكبر منها . وكثيرا ما يكون الطرف الثانى قد خلا ذهنه من معرفة أثر فعله فى نفس شريكه ، أو أنه كان يفعل ذلك دون أن يعرف فى فعله مخالفات ، وأنه كان على صواب . ونتيجة ذلك طبعا استمراره فى الإتيان بما أتى به . كما أن الشريك الثانى سيزداد غضبه أو ألمه حين التكرار . وتصبح النفس بين عشية وضحاها متأزمة حانقة ، جانحة إلى الصدام .

ولو أن هذين الطرفين قد اتخذا الصراحة المطلقة ، لجعلا الحياة بيضاء لا تشوبها غيوم الاختلاف . ولا يعكر صفوها سوء التفاهم الباقى من غير حل ولأراحا نفسيهما من ضيق الصدر وما يترتب عليه ، أو كظم الغيظ ونتائجه .

إن نسيم الصفاء بين المرتبطين ، هو عصب الوداد النفسى بينهما ، وهو غذاء روحيهما ، وقوة فتية لجسميهما ، وبركة فى حياتهما . وإن ندى الصراحة الرطيب ، بلسم للانسجام ، ووسيلة للوئام ، وأداة للدوام . لكن بعض الأزواج بل كثير منهم ، لا يعرفون كيف يفرقون بين المواضيع وبعضها ، فنرى الواحد منهم يغضب من شىء ، ثم يتشفى منه فى شىء آخر . حتى إذا وقع المحظور ، وقف مغلول اليدين ، لا يعرف المخرج ، ولا مداواة الداء . وإن نظرة واحدة تنفذ إلى أصل أية خصومة ، تنتهى قطعا إلى وجود صاحب حق يصمم عليه ، وصاحب باطل يدافع عنه ، وقد يكون صاحب الباطل حسن النية إذا عرف موقفه واقتنع ، تنازل وانسحب . ولكن متى يكون ذلك ، والأمر متأزم والصدور ضائقة .

إنهما لم يتخذا الروية والهوادة ، والرغبة فى الوصول إلى حقيقة المتنازع عليه . وإنهما لم يستعرضا الموقف على ضوء حرية الدفاع والوصول إلى النتيجة . ولم يضبطا الشعور ويمنعا النفوس من الغضب تمهيداً لتفهم الواقع . ولم يوجدا بينهما الاستعداد للرجوع إلى الحق، نشمخ كل منهما كبرياءً وعز عليها الرضوخ . ومن شأن هذا كله أن يكون وقوداً لنار الخصومة .

وقد يلجأ بعضهم إلى الاستعانة بأهله ، أو بأصدقائه ، أو بجيرانه ، رغبة فى الوصول إلى حل ما صار إليه الموقف من تعقيد . ويصادف كثيرا أن يتحزب أهل الشاكى إليه ، وقد يكون معتديا وليس له الحق . كما أن الأصدقاء والجيران والمعارف ، لا تؤمن مغبتهم فى هذا الزمن ، الذى ملأ النفوس بالأغراض وشحن الصداقات والمعرفة بالأطماع . وبدلا من أن يضيق النزاع يتسع ويتسع ، حتى يفلت الزمام ، وتنقلب الحال إلى مأساة وأى مأساة .

لقد تهاون الرجل فى واجبه كراع لبيته ، ومعلم لمن فيه . وإن أبسط قواعد التربية والهيمنة توجب عليه الهوادة والروية ، ووضع الشىء فى مكانه . وتهاون فى واجبه كزوج ، لأنه أخذ زوجته بالشدة قبل تعريفها السبب ، ومن غير أن يكون للشدة محل . وتهاون فى واجبه

اجتماعيا ، لأنه لم يحسن الحكم على أبسط الأشياء التى تعترضه شخصيا ، بينه وبين شريكة حياته . وتهاون فى واجبه أدبيا ، لأنه خلط بين غضب نفسه من شىء ، فعمد إلى التشفى من آخرين فى ناحية ثانية . وهذا التهاون الذى وقع فيه الرجل له نتائجه الخطيرة عليه ، لأنه الخاسر ماديا ، وأدبيا فى النهاية .

ومع ذلك فلا ننسى أن ننحو على الزوجة ببعض الملام ، على شدتها فى وقفتها ، وتصلبها فى الجدل ، ووقوفها موقف الخصم من زوجها .

فهى تعلم أنه يخرج من البيت ولا تعرف ما يصادفه من مضايقات الطريق . وتعلم أنه يعمل بين زملاء ورؤساء عمله ، ولا تعرف ما يقع فيه زوجها من أحابيل ، وأوامر شاذة ، أو أعمال مرهقة . وتعلم أنه مسئول فى الحياة ، وهذا يتطلب الكدح ، وربما كانت التزاماته تفوق وارده . وتعلم أن له أصدقاء ومعارف ، ولا تعرف ما وقع على زوجها منهم ، أو ناله من ألم بسبب ما وقع عليهم . وتعلم أن له من العائلة جماعة . ولا تعرف ما يمكن أن يكون نزل بأحدهم من ملمات لم ير الرجل أن يذكرها لها احتفاظاً بكرامته .

نعم قد يقع عليه بعض ذلك أو كله فى يوم واحد . ومن يكون كذلك له عذره إذا ضاقت نفسه أو اهتاج شعوره . ولا يصح أن يقابل بعناد ، ولا أن يعامل معاملة الخصم ، لأن ذلك يوقع الرجل فى المحظور ، ويدفعه إلى الزلل . ومع ذلك فقد جنحت إلى هذه المعاملة ثم إلى التمادى .

هذا هو منشأ اختلاف النظر ، ومدى ما يكون بين كثير من الأزواج من سوء التفاهم ، وهو من الخطورة بحيث لا تسلم الرابطة منه ولا تستديم معه عشرة زوجية ، لأنه يقطع الأثير النفسى بين القلوب ، ثم ينقلب إلى حقد وضغينة وحب انتقام .

وكم من الخصومات الحامية أصلها هين وسببها تافه . وكم من الروابط أطاح بها الخصام الذى نشأ عن اختلاف النظر بين زوجين لأمر تافه . إن سوء التفاهم سم الوداد ، وسلاح قاطع لعرى الارتباط .

ولعلاج هذه الحالة يجب على الزوج أن يتبين كل شىء وأن يحسمه أولاً فأولا ، وأن لا يجعل صدره مخزنا للصغائر ، خوفا من تراكمها فيه ، وإيقاعه فيما لا تحمد عقباه فجأة . إن الزواج رابطة مستديمة . ويجب أن يكون الصفاء غذاءها الدائم . أما الزوجة فواجبها الأول هو الاعتقاد بأنها محل راحة الرجل ، والتسرية عن نفسه . ويقتضيها ذلك بعض التجاوز عن الهنات ، وأن تحسن القصد فيما تلاقيه ، تفاديا من إيجاد أثر لما لا يصح أن يكون له أثر .

طفرة التمدين

لفظ المدنية عذب السماع ، محبب إلى النفس ، لاحتوائه على معانى التقدم بمرافق الحياة ، والاجتهاد فى تحصيل العلوم والعرفان ، وتنمية المدارك وإقامة المشروعات النافعة ، التى ترقى بالفرد والمجموع إلى المستوى الأعلى . ولم يقل أحد إن الجهود التى يبذلها المفكرون فى سبيل المدنية ، هى جهود غير مشكورة ، أو إن الآثار التى تترتب على هذه الجهود غير محمودة . لأن مسايرة الزمن وتتبع سنة النشوء والارتقاء ، يتطلب ذلك ويقتضيه . وإلا ، فان الناس إذا كانوا قد بقوا على وتيرة واحدة ، فإنهم ما كانوا إلا بدائيين .

لكن هذه المدنية المحببة إلى كل من يريد الإصلاح ، فهمها بعض الناس فهما معكوسا ، وساروا على هذه العكسية ، حتى ليخيل لمن يراهم أنهم قد فقدوا قوة التقدير ، أو حرموا من موازنة الأمور ، ومعرفة الغث والسمين . وإنك لو راجعتهم فيما يفعلون ، اتهموك عامدين بالرجعية والجمود ، أو اتسعت بينك وبينهم حلقة النزاع بحيث تتركهم كما بدأتهم من غير إقناع أو تغيير .

هؤلاء الناس اعتقدوا خاطئين ، أن المدنية هى الخروج على حدود الاجتماع والتهاون فى أمور الدين ، واللعب بقدسيات الروابط الزوجية ، والتحلل من القومية ، والتفانى فى التقليد . وليت هؤلاء كانوا مبتكرين ليكون ما وصلوا إليه طبعا لا تطبعا . ولكنهم مع الأسف كانوا مقلدين وناقلين . والمقلد لا يجيد ، والناقل لا يفهم سر المنقول ، وهم فى هذا أشبه بلص تسلل إلى دار ، فبهر نظره لمعان زجاج مبلور ، فداخله اعتقاده الخاطئ بأن هذا ماس عظيم . فحمله فرحا وفر به زاعما أنه وقع على ثروة . ومع ذلك فاللص يسبقهم معرفة . لأنه سيقذف بزجاجه إلى الأرض عند ما يقدمه إلى الانتفاع به ، نادما على حمله . وأولئك استمروا على جهل فيما ينقلون .

نحن فى بلد أوجده الله ملتقى لطرقات العالم ، ومحطا لأنظار الطامعين ، ومرعى خصباً للمستغلين . سبقتنا غيرنا فى المجد والمدنية ، ولكننا لم نحرص على التراث الذى كان حقا مكتسباً لنا ، فتهاونا فيه . فأخذه غيرنا واحتفظ به ، وأخذ يبعثه لنا قطرة قطرة بالغالى من الثمن ، ويدس لنا فيه ما لم نعرفه من غش ومن زيف ، ونحن نلتهمه التهاما ، لا فرق عندنا بين المستعذب منه والمزدرى ، حتى اختلط على أكثرنا الأمر ، وصرنا إلى وهدة بعيدة القرار . ونظرة

عابرة إلى الأخلاق العامة ، وخاصة فى البيت المصرى ، ترينا كيف وصل بنا هذا الزيف إلى الحضيض .

فالوالد فى البيت قد استرخت يده ، وفلت منها الزمام . وسقطت هيبته وزال سلطانه ، وأصبحت كلمته السفلى . فطمعت فيه زوجه واستهانت بحقوقه ، وجرؤ عليه أولاده ، فعدوا عليه وأدبروا له . لا احترام له فى وجود ، ولا حسن ذكرى له فى غيبة . كلمته غير نافذة ، وصدره يضيق على الإرشاد . وأصبح كآلة فقط لتوفير المطالب ، ووسيلة للحصول على يريدون .

لقد تناسى حقه الشرعى أو تهاون فيه ، فأهمل الهيمنة على البيت ، والقوامة على الزوجة ، «وزادها حبّات» حينما فتح لها بيده باب الخروج فخرجت ، ومهد لها أسباب التبرج فتبرجت وهيأ لها المواعيد فى المحافل والمجتمعات ، والمحلات العامة فذهبت وتقابلت . وأحضر معه الأصدقاء للمجالسة والمسامرة والترفيه فجالست واشتركت . وأباح فى مجلسها الشراب وبذىء النكات فشربت واستمعت ، بل واشتركت واندمجت ، فزق بذلك ستر الحياء والخجل والخفر .

نعم كل ذلك وأكثر منه ، فعله رب البيت باسم المدنية الزائفة ، وجر شريكة حياته إليه وأقحمها فيه . فعرّفها ما لم تكن تعرف ، وعلمها ما لم تكن تعلم . ويخطىء من يدعى على سيدة متزوجة بأنها قد جرت زوجها إلى مثل هذا ، أو كانت هى البادئة إليه . إذ المعروف أن الزوجة حتى ولو كانت من أولئك اللواتى يرغبن فى هذا التبرج ، لا تجد من نفسها الجرأة على مفاتحة زوج لم تبد منه هذه الظواهر أو الرغبات .

ثم ننظر إلى الزوجة ، فنراها وقد سايرت رجلها فيما يريد . أعقمت نفسها حتى لا يرهلها الحمل ، أو امتنعت عن الرضاع حتى لا يؤخرها الرضاع فى البيت . لا تعرف ما يسير عليه البيت فى طعام وترتيب ، لأنها وكلت ذلك إلى خدم مأجورين . وليس لها أن تعرف النوع أو المادة أو الكم أو القيمة . ثم هى قد تركت صغيرها بين يدى خادم قروية ، أو من طبقة صغيرة . ومثلهما لا يعرف غير بذىء اللفظ ، ونابى الحديث . والصغير مقلد بالطبع ، فيأخذ ما يأخذ ويحيا وتحيا معه جعبة مليئة بالرخيص من العادات . ذلك لأنها مشغولة بزينتها وزياراتها ، وارتياد المجامع والملاهى ، والمراقص والأسواق .

وأولاد هؤلاء يشبون إلى حياة ليس فى مقدماتها ما يبشر بخير ولا طمأنينة .

فإذا سقط الولد فى دراسته ، وسقط فى مهاوى الردى الأخلاق ، فمن هو المسئول عن ذلك ؟

وإذا هوت البنت إلى درك أسفل من الأخلاق ، وانتهى بها المطاف إلى أحضان خادم

أو سائق ، فمن هو المسئول عن ذلك ؟ وإذا جرف السيدة تيار البهرج الزائف ، ودفع بها إلى بؤر الرذيلة ومواخير الفساد ، فمن هو المسئول عن ذلك ؟ .

لا أحد مطلقاً غير الوالد ، الذى هو رب البيت ، وزوج السيدة . فقد كان أسوة فسار الجميع وراءه . وهو المسئول عن كل الجنايات التى تقع من هؤلاء الأفراد على أنفسهم وعلى غيرهم . وأقسم لو أننى كنت منفذا للقانون وحُكِّمت فى حادث «خادم» عاش فى مثل هذا البيت ، لقضيت بالعقوبة على السيد ، وبرأت الخادم ! فما بالك بأفراد الأسرة أنفسهم .

إن السيدة قد تكون معذورة فى انزلاقها إذا جرها زوجها إلى عمل ما يريدها عليه . وإن الأولاد معذورون للإهمال الذى وقع عليهم من والديهم ، من وقت نشأتهم حتى اقتحامهم هذه الحياة من أبوابها الخلفية . وإن ذلك وغيره هو النتائج الحتمية لمثل هذه المدنية الزائفة الخطيرة .

وتبحث معى عن النبع الفياض لهذا الطوفان الجارف ، فتصل معى إلى أن حثالة الأجانب ، ثم تفنن العقول الغربية فى استنباط أسباب الاستثارة للغريزة ، فى قوم جمد دمهم ، وبردت أوصالهم وفترت مشاعرهم ، وإبراز هذه الصور فى وقائع وروايات تعرض على الشاشة البيضاء أو المسارح المتنقلة ، أو النشرات المطبوعة كمجلات ، وتصدير الأدوات البراقة للزينة ، كل ذلك خلق فى أفراد المجتمع شعورا غريبا على أخلاقهم ، وعاداتهم وقوميتهم . فانزلق الكثير من الناس فى هذه المهاوى مختارين . حيث قلدوا ونقلوا وآتت شجرة الزائف من أنواع الثمار المسمومة ما لم تؤت فى منابتها الأصلية ، وسرى سمها فى أعصاب جميع الأحياء لا فرق بين القدامى أو الأحداث . ولو رجعت معى بالزمن إلى ثلاثين سنة فقط لوجدت أن ما كان الناس عليه من مظاهر واجتماع وقومية ودين ، يخالف تماماً ما صار إليه الناس الآن من أخلاق واجتماع وقومية ودين .

لقد ارتقى الأغنياء فى كل ما يحيط بهم ، وقدروا على تتبع درجات الزمن فى الصعود . وفى قدرة هؤلاء واستغنائهم ، الوسيلة إلى ما يريدون ، وليس لنا عليهم غير ما يحق عليهم من واجب المجتمع ، الذى جعلهم على قمته كأسوة ومثل . ومن أجل ذلك فقط نتطلع إلى أن يكونوا فى الأسوة والمثل خيرة للناس .

هؤلاء وإن نزعوا بأنفسهم منازع الترفيه والتقليد لكل شىء — صاح هذا الشى أو فسد — فليس علينا أن نسايرهم فيه . لأننا إذا سايرناهم يوما ، أو أسبوعا ، أو شهراً ، فلا تمكننا مواردنا ولا مسئولياتنا الحيوية ، من الاستمرار فى هذه المسايرة . وخير لنا ولأمثالنا من الطبقات التى تليهم ، أن نحصر نظرنا فيما يعود علينا بالصالح فقط ، دون البهرج والزائف .

لكننا مع ذلك نرى الكثيرين من أبناء هذه الطبقات تأخذ بأبصارهم زينة البهرج ولمعانه ، فيدفعون أنفسهم من غير تدبر إلى التقليد ويقفزون بأنفسهم وبمن حولهم قفزة غير طبيعية ، ويتخذون الطفرة فى الارتقاء إلى الدرجة العالية من غير تدرج ، وهم لا يعرفون تبعته ولا تكاليفه . فيحتملون الثقيل من الوسيلة التى تعوزهم ، ويضطرون لاتخاذ الحيلة فى سبيل الحصول عليها . فيقعون فى المحظور من الأمور ويهوون . ولو عرف هؤلاء تبعة أعمالهم ونتائجها المحتومة ، لوفروا على أنفسهم متاعب القفز والطفرة ، ولكن ضعف النفوس وميلها إلى البراق والزائف ، قد وضع على التفكير حجباً كثيفة من قلة التقدير . وإلا ، فما الذى يدفع الخادم إلى شراء بذلة كبذلة سيده ، أو الجلوس فى مقهى يجلس فيه سيده ، أو ارتياد الأمكنة التى يرتادها سيده ؟ ومثل هذا الخادم كل مأجور صغير يعمل فى عمل تابع لكبير أو مالك . ومن أجل ذلك ترى الكثيرين من هؤلاء يضطرون إلى الانزلاق والتردى .

ثم ما الذى يدفع بالموظف الصغير الذى يعمل طيلة الشهر مقابل مرتب محدود قدلا يكفى ضرورات حياته هو ، فضلا عن ضرورات من يسأل عنهم من المحتاجين له كوالديه أو زوجه أو أولاده — إلى مماشاة رؤسائه ، ومتابعتهم فى أمكنتهم التى اعتادوها ، والظهور بمظاهر يعجز عنها أمثاله ؟ وقد يضطرهم هذا إلى استعمال طرق غير مشروعة فيقعون تحت يد القانون .

ثم ما الذى يدفع بالبنت الفقيرة التى نشأت من أبوين فقيرين إلى الظهور فى مظاهر ذوى الجاه والثراء ، وتألو على نفسها إلا أن تكون مثلهم ، ثم تتنمر لطبقتها وتتنكر لوسطها ؟ .

لا شىء أبدا غير الطفرة وحب الطفرة . وأن هذا الذى يقحمون أنفسهم فيه قد أغواهم منظره ، فجذبوا إليه . وأثقلتهم تبعاته ، فاحتالوا بكل الحيل للوصول إليه . ومع ذلك فهل تستديم لهم هذه الوسائل ؟ كلا . وسيتعبون أنفسهم فى اتخاذ الوسيلة ، وسينتهى بهم الأمر إلى السقوط ؟ ! ولو تحريت أسباب وقائع الآلاف من القضايا والآلاف من الجرائم ، لوجدتها كلها قد نبتت فى نفوس أمثال هؤلاء . وقد ألجأتهم إليها ظروف الحاجة الملحة إلى القيام بتبعات التقليد الذى أرادوا أنفسهم عليه . وإنى لأجتزىء من آلاف الحوادث بواحدة لتعرف معى آثار هذه الطفرة .

« كنت فى إحدى المحاكم الشرعية أتابع سير إحدى القضايا . ونادى الحاجب على المدعية فى القضية التى جاء دورها ، فتقدمت إحدى السيدات تضرب الأرض بخطى كلها دل وزهو . وضعت على كتفيها كاب حريرى ، على فستان لا يزيد على ركبتها ، وقد استكملت زينتها . ولم يثر منظر السيدة مشاعر الناس ، لأن السيدات اللواتى يحضرن للمخاصمة ، من شتى الطبقات

فلما مثلت أمام المحكمة وقف أحد حضرات المحامين للدفاع عنها . ونادى الحاجب المدعى عليه قائلا (... أفندى) فرأينا شخصاً قد مثل أمام المحكمة حافى القدمين ، مهلهل الثياب ، يلبس على رأسه قلنسوة عفا عليها الزمن . وقال : أنا هو ؟!! وقد لفت نظرنا الفرق بين المظهرين ، وعدم التوافق بين الشخصيتين . فأعرنا الأمر ما يستأهله من الاهتمام ، إشباعاً لنهم حب الاستطلاع . وذهب الخيال ببعض الناس إلى أن هناك خطأ فى الشخصيات !!

نظرت الدعوى فعرفت أنها تضمنت طلب السيدة الحكم بالطلاق من هذا الزوج الذى أعسر ، ولم يعد قادراً على الإنفاق . وقد تحدث المحامى فيها بما يشعر بعجز المدعى عليه ، واستدل بذلك على الهيئة التى هو عليها .

لكن المدعى عليه لم يسكت ، فقال : إننى غير عاجز عن الإنفاق ، لأننى عدت إلى الحالة التى كنت عليها عند ما دخلنا معاً فى الرابطة الزوجية . ومستعد للصرف عليها كما كنت حينذاك . ويظهر أن هذه الدعوى كانت قد وصلت فى ذلك اليوم إلى نهايتها ، وأن الرجل قد ملئ مما وقع عليه ، فاختار الطلاق ، وخرج كل منهما وكأنه قد ألقى حملا ثقيلا كان على كاهله .

ولقد دفعنى الاختلاف البين بين المظهرين ، إلى تحرى هذه الخصومة من ألفها . فعرفت ما اضطرنى إلى إثباته ، والتدليل به ، وألخصه فيما يأتى :

نزح هذا الشاب مع زوجه إلى العاصمة سعياً وراء الرغيف الذى عز عليهما كسبه فى القرية التى نشآ فيها . ولأن الشاب يعرف القراءة والكتابة ، أمكنه أن يجد له عملا يدر عليه بضعة قروش يوميا كانت كافية لتوفير أسباب حياتهما الهادئة زمنا طويلا .

ولقد هيىء للشاب أثناء عمله الوقوف على سره . فاجتهد حتى أمكنه أن يأخذ ويعطى فى صفقات صغيرة درت مبلغاً من المال . فانتقل بزوجه إلى مكان آخر ، ورأى أن يستبدل حاله وحال زوجه ، حتى يساعده ذلك على الظهور فى مظهر ملائم لأعماله الجديدة ، ومقره الجديد ، وجيرانه الجدد . وتدخل الشاب مع آخرين . واقتضت أعماله الاتصال بهم ، فدفعه فخره بما هو فيه إلى أن يجعل بيته مكانا للاجتماع ، وأن يجعل من زوجه مؤنسا ومساعدا على الأعمال ، وكان لوجودها أثر وأى أثر ، لما هى عليه من قسامة ووسامة وشباب .

لم ير الشاب بأساً فى المنادمة والمسامرة ، ولم ير مانعاً من قبول دعوة زملائه إلى الملاهى مع زوجه ، ولم ير مانعا يمنع من دفع زوجه إلى أن تكون (أسبور) لأن العمل يحتاج « والدنيا

كلها كده !! » وأتى الزمن الذى أصبحت السيدة فيه لا تعرف أنها من كوخ مخيف ، بل من قصر منيف . زى ، ومظهر ، ودل ، وحديث .

ولشى يعلمه الله ، دخل الشاب فى صفقة لم تنجح نهايتها ، ولم تبق على شىء فى يده أو فى بيته ، وأرجعته صفر اليدين خاوى الوفاض . وكانت زوجه قد تذوقت حلاوة المآكل ، وعذوبة المنادمة ، ومسرة المظاهر ، وامتلأت نفسها شغفاً بالحالة الجديدة . فعز عليها أن تنقلب إلى ما كانت فيه ، ولم يعز عليها ما صار إليه حالها . فابتدعت الخصام ، وتركت الشاب يهيم على وجهه من غير عمل ولا مقام ، حيث لا يعرف أين هى وفى أى مكان تعيش .

ولقد هيىء للسيدة الاتصال بواحد من الذين كانوا يتعاملون مع زوجها وعاشت معه . ثم اتجهت إلى المحكمة بعد ذلك رغبة فى فسخ عقدة الارتباط وكان لها ما أرادت .

هذا مثل واحد صغير فيه الدلالة على آثار التراخى والخلط بين العمل والبيت ، الذى جنح إليه الزوج . وفيه الدليل على صعوبة الرجوع عن حب الزائف ، الذى ملك على الزوجة شعورها . نكتفى به عن سرد المآسى الفاجعة التى انتهت بالقتل أو السجن أو مواخير الفساد ، مما لا يتسع المجال لإثباته وبسرده .

وإن رجلا أو شابا دفعه بهرج المدنية فلبس الزائف واختار البهرج سيضطره السير عليهما إلى اتخاذ الحيل وكثير منها غير مشروع — للوصول إلى ما يشبع نفسه . وتكون النتيجة القضاء عليه أولا ، وتخريب منزله ثانيا ، وضياع زوجته ثالثا ، وجلب العار على ذويه أخيراً .

من هذا يتبين أن طفرة التمدين ، لها من الآثار الخطيرة على الأسرة ما يعصف بها ويهدم صرحها ، ويلقى بأصحابها فى مهاوى الردى والحصومات .

ولأجل تفادى الوقوع فيما يخشى ، يجب على الرجل أن يحتفظ بحقوقه ، وأن يقوم بواجباته ، وأن لا يهمل ولا يتهاون ، وأن يتفهم نتائج كل شى قبل الدخول فيه . إذ الرجل أسوة لبيته ، وقدوة لمن فيه . فعلى سننه يسيرون ، وعلى نهجه يعيشون . وصدق من قال :—

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

الكذب والتمويه

فى جميع الكتب السماوية حرم الكذب ، واعتبر معصية وخطيئة . وقد توعد الله متخذه بسوء المصير . وهو رذيلة إذا عرف بها إنسان كانت سببا فى ضياع الثقة منه ، وعدم التعامل معه . فينبذه المجتمع وينال التحقير ، ويبوء بخيبة الأمل فى الحياة . وللكذب أنواع كثيرة ودوافع متعددة حسبما يهدف إليه الكاذب . ولكنها تتحد فى الجرم وتتفق فى استهداف تضليل الغير والتمويه عليه ، لحاجة فى نفس يعقوب ... وليس هنا مكان شرحها .

غير أنه يوجد نوع من الكذب تدفع إليه دوافع شريفة يعبر عنه بالكذب الحسن ، أو يقال له الكذب الأبيض ، وهو فقط ، النوع المرغوب فيه أوالمستثنى صاحبه من العقاب ، لشريف الأغراض التى تدفع إليه .

فإذا رأى رجل صالح اثنين متخاصمين من الأصدقاء أو الأقرباء أوالأزواج ، ورأى أن فى الكذب ما يجمع الشمل ويزيل الاختلاف ويحل الوئام محل الخصام ، فإن دافعه يكون شريفا إلى غرض شريف .

وإذا جاز لإنسان أن يكذب لحاجة خاصة كما يفعل الناس كلهم الآن ، فلا يجوز مطلقا وجود الكذب بين الزوج وزوجه ، لما يترتب عليه من آثار خطيرة ، أقلهارفع الثقة بينهما ، وعدم اطمئنان أحدهما للآخر فى كل ما يتعاملان فيه .

وليس الكذب فى الروابط الزوجية بقاصر على الرجل دون المرأة ، ولا على المرأة دون الرجل . ولكنه يكون أحيانا شركة بين الزوجين ؛ ولكل حالة آثارها وأخطارها من الزوابع والمشكلات .

فعند ما يكذب الرجل تكون له دوافع شخصية . تنحصر فى رغبة عدم إطلاع زوجه على موارده ، أو على سيره الشخصى ، أو على تقديره الحقيقى لزوجته وأهلها .

إذ قد يرى بعض الرجال بناء على ما له من رياسة البيت وسيادته ، كتمان حقيقة حالته المادية عن زوجته . فلا تعرف كم مرتبه إذا كان موظفا أو عاملا ، ولا إيراده إذا كان طبيبا أومحاميا ، ولا مورده إذا كان تاجرا أو مالكا . وبالتالى لا تعرف رصيده إذا كان دائنا أو مدينا .

هذا البعض من الرجال إذا سئل فى ذلك امتنع عن الإجابة بتاتا ، أو حرف الحقيقة وموه على زوجته وضللها ، وحتى إذا أجاب فإنه يعطى أرقاما تقل عن الواقع ، إما لمصلحته الشخصية ، وإما تخوفا من طمع زوجته وتبذيرها .

ولما كانت الزوجة معتبرة شريكة للرجل فى حياته ، وهى منه مكان الراحة والسر ، فمن الحق لها أن تعرف حقيقة ما عليه زوجها ، لتصرف أمور منزلها حسب النظام الذى يتفق والإيراد . إذ المفروض فى الزوجة أنها تقوم بشئون البيت ، وتعرف واجباته وتكاليفه أكثر مما يعرفه الرجل . كما أنه مفروض فيها أنها المدبرة لأمور حياة الزوجية ومستقبلها .

فإذا كانت لا تعرف الحقيقة التى أخفاها عليها شريك حياتها ، ثم رأت من تصرفاته الشخصية ما يدلل على وجود ما يغايرها ، فإن ذلك يحز فى نفسها ، ويصغر من شأن تقديرها فى نظر زوجها ، وهو ما تحزن الزوجة من أجله ويجرح به شعورها .

ومع ذلك فإن ما يبنى على مثل هذه الحالة ليس مما يخشى على الرابطة منه ، مادام حرص الزوج على التوفير والاقتصاد وقيامه بواجب بيته مكفولا فى هذا المقام .

أما إذا كان إخفاء الحقيقة طمعاً فى توفير ماله لنفسه وملاذه ، وضغطا على زوجته فى حياتها وتقليلا من شأنها ، أو دفعاً لها لتصرف مما قد يكون مملوكا لها . فإن ذلك من شأنه إثارة الخصومات والضغائن ورفع الطمأنينة بين الاثنين . وهذا ما يجب أن يحذره الرجل فى تصرفاته ، خوفا من المضاعفات التى تبنى عليه . هذا فيما يختص بالكذب فى حالته المادية .

أما الكذب الذى يتخذه الرجل لستر تصرفاته الشخصية ، كمغامرات « الترفيه » !!! التى يجنح إليها بعض الأزواج ، فان حبله قصير وهو سريع الانكشاف لكثرة ما يؤتى بالوقائع المختلقة ، التى تحاك وقتيا من غير حبك ، وهى عرضة للزلل ، لأنها لا تقوى أمام التحليل . وهذا النوع من الكذب وإن كان قد اتخذه الرجل لستر موقفه ، وعدم إيلام زوجته وإهانتها ، من أخطر ما يكون على العلاقة الزوجية . لأن الرجل إذا كان محترما هذه العلاقة فلا يصح له أن يخونها ثم يسترجحاً ، بدم جرح آخر . وإما أن لا يكون محترما هذه العلاقة ويقترف فى سبيلها نفس المعصية . وفى الحالتين يكون الجنوح إلى الكذب توجيهاً خاطئاً للحياة الزوجية سرعان ما تنكسر على صلابته ، وسرعان ما يصبح له هو عادة . وويل له حينذاك فى حياته الاجتماعية والعملية .

وعلى قدر ما ينال الزوجة من ألم كذب زوجها فى تقدير مورده ، وما يسىء إليها كذبه عند ما تريد التعرف على أوقاته التى قضاها خارج البيت ، فيحيك لها حلقة كاذبة تتبين هى حقيقتها المؤلمة — على قدر ذلك كله من ألم وإساءة — تكون مسرتها ورضاؤها حينما يكذب رجلها ليسمعها كلمات الإعجاب بها وبذويها ، ولا يجد فى نفسه القدرة على قولة الحق المرة فى بعض الأوقات .

وهذه الحالات ، التى اتخذ الرجل فيها الكذب ، إذا ما حللت تحليلا من غير تحيز تنتج ولو خطرا واحدا هو أن الرجل ، وهو سيد البيت ، قد ضرب مثلا سيئاً لزوجته باتخاذه الكذب وسيلة من وسائل التعامل معها ، ففتح بنفسه بابا لعدم الثقة فيه ، ومهد لها طريق استعماله . وويل للأولاد من الوقوف على هذه النقيصة وتقليدها .

وخير للرجل فى حياته الزوجية أن يكون صادقا ولو كان استعمال الصدق مؤلما ، لأن فضيلة تقرير الواقع تريح الضمير وتضع الأمور فى نصابها ، وتحمى من الوقوع فى الجدل وتجعل قائلها ينام ملء جفنيه .

* * *

أما المرأة حينما تكذب ، فدوافعها الشخصية الضعف الذى تحس به ، ولا تريد أن يعرفه الرجل ، ثم مظهر التقدير الذى تسعى وراءه وتريده من الرجل .

وضعف المرأة فضلا عن أنه خُلق فيها ، إلا أنه يضاعف فى حياتها بما يمكن أن يكون نقصاً فى جمالها أو مكانتها الاجتماعية ، أو قلة حذقها لأعمالها النسوية والمنزلية . فهى فى هذه الحالات كلها لا تقرر الواقع . لأنه يشعرها بالضعف الذى تحسه ، ولا تريد أن يعرفه الرجل . وبالتالى تريد أن تظهر بما يخالف الواقع ، وتحب أن يكون هذا هو تقديرها الحقيقى فى نظر الرجل .

فمثلا — السيدة التى تكون قمحية اللون أو سمراء البشرة ، لا يمكن أن تسمع منها غير المفاخرة بهذا اللون على جميع ألوان السيدات ، لأنها لا تريد أن يكون نصيبها من الطبيعة أقل من تلك التى تضىء بشرتها .

والسيدة التى يكون لذويها نقص فى الوسط الاجتماعى ، لا يمكن أن تعترف بأن أهلها أقل من غيرهم رجولة وحسبا وصيتا ، كما أنها تود من عميق شعورها أن يكون زوجها مؤمنا بما تقول ، ومسلما لها فى هذه الحالات .

ومثل هذا الكذب الذى يتطور إلى عناد إذا نوقش ، لا يصح أن تجافى المرأة من أجله . ولا يمكن أن نقول للمرأة انض عنك لباس الضعف والزهو ، واتخذى قولة الحق فى وصف نفسك ، وتقدير وسطك .. لأننا نكون حينئذ قد اعتدينا على الطبيعة ، وكلفنا المرأة بما يفوق احتمالها .

لقد تصدق المرأة فى كثير من الوقائع . ولكن إقرارها بالواقع عندما لا تكون جميلة ، أو بها نقص جسمانى أو اجتماعى ، هو مطلب عسير عليها ، عزيز المنال منها . لأنها تأبى التحقير لنفسها والتصغير لشأنها .

غير أن الكذب الذى تتخذه المرأة فى معاملتها كطبع ، هو الذى نعنيه ، لأنه يسبب خراب البيوت وشقاء الأزواج . لأن الزوج إذا استمع إليها فى واقعة يداخله الشك فيها ، وإذا قدمت له حسابا عن تصرفات فلا يثق فيها . ويصبح الشك والريب فى نظر زوجها حتى فى الصغير التافه من تصرفاتها . ومن الطبيعى أن الشك إذا داخل النفس رفع الثقة منها . وما دامت الثقة غير موجودة فقل على الطمأنينة النفسية والراحة المنزلية السلام .

مثل واحد :

اعتاد أحد الأزواج أن يعطى زوجته فى كل شهر ، مبلغا معينا من المال ، لتصرف منه على طلبات المنزل ، وتدبر أمره به حسب حالته المادية . وكانت الزوجة تقوم بالصرف على المأكل وتوابعه المنزلية ، حتى آخر يوم فيه . لكنها لم تسر على هذه الوتيرة إلا شهرين أو ثلاثة . ثم ابتدأت تطالبه بعد السادس والعشرين ، بما يكمل مصروف الشهر . فيضطر الرجل إلى التضييق على نفسه فى مصروفه الشخصى ، ويوفر للبيت مطالبه ، أو يستدين ويقوم بواجبه ، لاعتقاده أن تغير الأسعار أو زيادة المصروف فى بعض الأوقات تحتاج إلى ما يسددها . وكان من عادته ألا يسأل بكم هذا ، ولا كم صرف البيت اليوم .

وفى يوم مرضت الزوجة ، وعجزت عن شراء مطالب البيت . ثم رؤى لاستجمامها عدم قيامها بتكاليفه . وقد باشر الرجل مع الخادم شراء المطلوبات ، وعرف الأثمان ، ووقف على الميزانية وقوف العارف الواثق ، وتبين له أن حالة منزله لا تزيد على ما قدره ، حتى ولا ترتفع إليه .

فلما رجعت إلى الزوجة عافيتها وعادت إلى القيام بشئون البيت ، طالبته بالمزيد . فأراد أن يتعرف الأسباب ، فاعتذرت إليه بغلو الأسعار ، ثم بزيادة الكميات . فجابهها الرجل بما يعرفه وما وقف عليه ، ولكنها أصرت على قولها وعززت ذلك بكل الأيمان .

وتشاء الظروف أن يختفى للرجل فى أركان البيت شىء ، وتلح الحاجة إليه ، فيقوم بالبحث عنه . فعثر أثناء البحث على مبلغ من المال مخفيا و لم يكن هو واضعه . وكان فى اليوم السابق على هذا اليوم ، قد ارتهن خاتمه من أجل دين حل عليه ، ورأى من الكرامة تسديده ، وقد وقفت زوجته على هذه الواقعة .

فلما رأى هذا المبلغ تملكته الدهشة ، وساوره الشك ، واستفسر من زوجته عن طريق ملكيتها له . وعندما فوجئت بذلك ، قالت إنه أمانة لسيدة ذكرت اسمها وكان الرجل يعرفها . فلما تحرى الزوج الواقعة وقف على كذبها . فأخذت تحاول ستر الموقف بروايات أخرى ، ولكنها لم تذكر أبدا أنه كان توفيراً من مصرف البيت . ولو قالت ذلك من أولى الأمر لكبرت

فى نظر الرجل . ولكنها لم تقل واختلقت الوقائع الزائفة ، ولم يطل بالرجل التفكير فقد عرف كذبها . وكان ذلك سببا فى مناقشتها دائما فى كل حساب وفى كل صرف ، وفى كل تصرف ، ثم كان سببا فى أن يرفع الرجل المصروف من يديها ويتولاه هو . ولا تسل عما ترتب على ذلك من مخاصمات أثارتها هى وعاند هو فيها ، حتى انتهى الأمر بينهما إلى مخاصمات قضائية ، جند كل منهما لخصمه فيها ما يقدر عليه من دفاع ومدافعين .

يتبين مما تقدم ، أن الكذب فى التعامل بين الأزواج يكون كريح عاصف ، يطيح بعش الروابط ، بعد أن يزيل من النفوس هدوء الطمأنينة ، ويخلف مرارة الشك الذى يعز رفعه ، ويوقد نار الجدل والخصام .

وخير سبيل لاستقرار النفوس هو تقرير الواقع . والصراحة فى التعامل ، لتسعد النفوس بالراحة ويكتب للروابط الدوام .

« الليونة والصلابة »

يقول المجربون : « لا تكن لينا فتعصر ، ولا صلبا فتكسر » وهو قول حكيم ، أثبتت التجاريب قوة معناه . إذ الليونة تطمع الناس فى صاحبها ، وتكون سببا فى سلبه حقوقه . والصلابة تنفر الناس من صاحبها ، وتقطع صلاتهم به . ولهاتين الصفتين فى الناس ذيوع كما أن لهما فى الروابط الزوجية آثاراً ، نذكرها فيما يأتى : —

الليونة : والليونة فى أية رابطة إما أن تكون فى الزوج ، وإما أن تكون فى الزوجة ، وإما أن تكون فيهما معا . ولكل من هذه المواقف ما يترتب عليها .

فعند ما تكون فى الزوج ترجع إلى حالتين : إما أن يكون طربا بطبعه ، وإما أن تكون ليونته لضعف مركزه عن مركز زوجته ، ولكل من الحالتين آثار خطيرة على الرابطة .

ذلك أن الرجل اللين بالطبع ، نادر الغيرة ، مسير فيما يرادعليه ، متهاون فيما يراد تحريه ، مهمل فيما يجب التدقيق فيه . لا تدفعه الحوادث ، ولا تحرقه الحرارة ، ولا يفور ولا يثور . ينزلق إلى الخسارة ولا يقاوم ، وتتلقفه أيدى الطمع فيه ولا يعارض . مآله إلى فقر ، ومرده إلى عدم الاعتبار . وهو فى البيت لا ذكرى له ولا هيبة ، حيث يتمرد عليه أولاده ، وتتسلط عليه زوجه ، ويهمل فى واجبه خادمه ، وفى الخارج يكون دائما محل طمع من جيرانه أو زملائه ، أو المتعاملين معه . وكثيرا ما تهضم حقوقه ، أو حقوق أهله ، وكثيرا ما يجر على نفسه وعليهم الذلة والاعتداء .

مثل هذا الرجل يترك زمام تصريفه وتصريف بيته لزوجه . ويستسلم لما تشير به ، ولا يقوى على الاحتفاظ بحقوقه . لأن القوة غير موجودة فيه .

وقد جرت العادة أن السيدة نزاعة نفسها دائما إلى حب التسلط ، وتملك الزمام . وحبها لهذا النوع ، لا يتوافر لها إلا مع الجهد الذى تبذله فى سبيله . ولكنه لا يكون محببا إليها ، أو عزيزا عليها ، إذا وضعت يدها عليه ، دون حرب أو دون جهاد ! فإذا وجدت زوجها قد وضع نفسه بين يديها وضعف عن التمسك بحقوقه ، شعرت فى نفسها بخيبة أمل دقيقة ، وأنقصت التقدير الذى قد يكون عندها لهذا الزوج قبل أن تتحقق فيه هذا الاستسلام :

وهناك ناحية أخرى للين الزوج وطراوته ، يؤذى شعور الزوجة ، عند ما يجد من الأمور أو الحوادث مع الخدم أو الجيران أو المتعاملين ، ما يحتاج إبرامه إلى كلمة الرجل ، وحزمه ،

وحمايته ، واعتزازه بكرامته . ولقد يبلغ هـذا الإيذاء حدا فى نفس الزوجة يجعلها محل الذلة والحيرة ، لانكسارها وضعف حاميها ، والتهاون فيما قد يكون من حقوق ثابتة لها .

وإن السيدة التى كانت تسعى إلى التسلط فنالته من غير سعى ، تزهد نفسها فيه بل تمله ، ثم تشعر بالوحشة إلى من يتسلط عليها . وفى هذا أكبر الخطر على مستقبل الزوجية . وإن السيدة التى تستنجد بالرجل من اعتداء خادم ، أو جار ، أو متعامل ، ويتخاذل الرجل ويتهاون فى عدم إنصافها ورد كرامتها إليها ، والدفاع عنها ، تشعر تماما بمرارة الإهانة ، وبعدم الحماية واستباحة حرمتها . وفى ذلك مافيه من ألم ماحق لمكانة الرجل وهيبته فى نفسها . وسيترتب على هذا ، ما يتفق وما تنزع إليه السيدة . فإذا كانت فى حاجة إلى البقاء مع هذا الرجل ، فإن عيشها معه يكون خلواً من الحرارة النفسية ، التى تستديم بها الروابط ، وستنتهز الفرصة لازدرائه والابتعاد عنه ، عند الاستغناء .

وبعض هؤلاء ينحرفن عن الأمانة الزوجية ، وتتجه مشاعرهن إلى من تتوافر فيه رغباتهن الناقصة فى هذا الإنسان ، ويتفانين فى الالتجاء إليه . وإذا لم تكن السيدة فى حاجة إلى كد هذا الرجل والعيش معه ، فإنها تسارع إلى تحقيره والابتعاد عنه . وعدم الرثاء له ولو ذرف دموع الحب والرغبة فى البقاء .

أما الحالة الثانية لليونة ، وهى التى تنشأ من ضعف مركز الرجل عن مركز زوجته . فإن سببها أن هذا الرجل قد اختير زوجا ، ولم يكن له الخيرة ! وأنه يعلم فى نفسه انه غير أهل لمن تكون معـه ، وأنها تعلوه ثروة وجاها هو فى حاجة إليهما ، وأنه من أجل ذلك قد خلع راضيا رداء السلطان ، وألبسه لزوجته ، وتخلى عن الزمام ، ووضعه مختارا طائعا بين يديها . ومثل هذا الارتباط على رغم انطوائه على سبب هدام ، وهو عدم التجانس ، فإنه قد احتوى سببا جديدا للهدم وهو الضعف الذى تشعر به الزوجة قبل غيرها من الناس . وإن سيدة ترى فى نفسها التفوق على زوجها فى النواحى المادية والاجتماعية ، ثم ترى نفسها فى رابطة مع من لا يقوى على التمسـك بحقوقه ، ويتهاون فى رجولته ، قلما تفتح قلبها له ، أو تملأ عينها منه ، أو يحس شعورها بوجوده أو غيبته . وفى هذا ما فيه من خطر على استدامة الحياة بينهما .

هذه هى النتائج المحتمة لليونة ، التى تكون عند الرجل بإحدى حاليتها أو كليهما . وقبل أن نترك هذا النوع لا يفوتنا أن نذكر جانبا آخر من اللينونة ، هو ذلك الذى يكون نتيجة التسامح وهدوء النفس ، والحلم وكرم الطبع . فذلك الجانب يعتبر خلقا عظيما لصاحبه ، يتمم به الرجولة ، ويحسن به المعاشرة . وصاحب هذا الخلق لا يثور إلا بعد أن تفيض كأسه ، مرة

واحدة : ويكون فيها فصل الخصاب . وهو يسامح فى كل شىء ، إلا فى الشرف ، ويتهاون فى كل شىء إلا فى الكرامة . ومثل هذا اللين الحليم أداة فعالة لكبح الجماح ، وسند قوى لدوام الرابطة . ولم يكن معنيا فى هذا الذى نتحدث فيه .

وإذا كانت الليونة فى الزوجة ، أوكانت فيهما معا ، فإن ذلك يكون أدعى إلى دوام الرابطة وأسلم لها من الأعاصير ، لأن الزوجة الليّنة لا تصدم الرجل ولا تصطدم به ، ولأن ليونتهما معا تكون حصانة لهما من الاختلاف .

مثل من الأمثال :

« كان لأحد أصدقائى وحيدة لم تكن له أمنية فى الحياة غير رؤيتها زوجة ، وسيدة بيت سعيدة ، فى رحاب زوج . وكنت أعرف أن هذا الأمر يشغله ، خصوصا وأن ابنته هذه قد استكملت أنوثتها وطاب قطافها . وفى يوم لقينى ذلك الصديق وهو فى شبه حيرة . فلما تساءلت عن هذا الذى أهمه وأشغله ، ذكر لى أن رجلا تبين عليه علائم الوداعة وهدوء النفس ، وفرط الأدب ، قد تقدم يطلب ابنته . وأنه فى سياق الحديث فهم أنه كان متزوجا ، ثم طلقت منه زوجته . ويخشى أن يكون هذا الطلاق صادرا عن أسباب يخشى الوقوع فيها . ومن أجل ذلك تعترك فى نفسه عوامل متناقضة. إذا أقدم فربما كان خطأ ، وإذا أدبر فربما يكون فى هذا الإدبار حرمان لابنته من خير مرجو . . ولا يعرف ماذا يصنع . وقد داخلته الحيرة لأول مرة مع هذا الإنسان . وبعد حديث ومناقشة قام صديقى معتزما تنفيذ الحيلة التى سيتوصل بها إلى معرفة اسم مطلقته ومكانها واسم المأذون من الورقة الشرعية المحررة بالطلاق ، والتى يعرف أن الخاطب يحملها . ومر يومان على هذا الحادث دون أن أرى الصديق . ولم أر موجبا للاستفسار لهوان الأمر . ولكن صديقى جاءنى فى اليوم الثالث وهو يزفر زفرة من يلقى بحمل ثقيل فقال : لقد قررت رفض الطلب بل وطرده إذا جاءنى ؟! فشعرت باستغراب وتساءلت : ماذا رأيت ؟ وعلى أى الوقائع وقفت ؟ فقال :

لقد ذهبت إلى المأذون وعرضت عليه أمرى ، وكفانى مؤنة البحث ومقابلة المطلقة أو أقربائها . لأن الموضوع قد شرح أمامه وهو على صلة بالطرفين . لقد قال إن فلاناً رجل كان يعطى زوجته كل مرتبه ، وهو لا يرتكب شيئا من المحظورات . وقد عاشت معه زوجه فترة من الزمن اعتقدت فيها بأنها سوف لا تبرح دارها إلا إلى مقبرتها . وكانت تصف زوجها بالأدب والهدوء وكرم النفس وغير ذلك من الصفات . وتباهى به بين قريباتها وزائراتها .

ولكننا لم نشعر إلا وهذه السيدة تأتى إلى مع والدتها، لتعرض كل ما فى يدها لقاء خلاصها منه وهى تبكى بغيظ وحقد ، وقد ذكرت السيدة أنها أخطأت تصوير الهدوء ، ووصف رجلها بالأدب . لأنه ظهر أن هذا السكون عن طراوة وليونة وإهمال وضعف ، وعدم غيرة . ولم تطق السيدة الاحتمال بعد ما وقع عليها من نتائج ذلك . فقد حدث سوء تفاهم بينها وبين جارة لها ، فأقحم زوج جارتها بين الاثنتين ، ونال من كرامتها هى بألفاظ شديدة . ولما حضر زوجها وشكت له مما وقع عليها لم يغر عليها ولم يحاجج الجار فى حقها . بل خشى مغبة الموضوع . واضطرب من لقائه ، وكانت نتيجة ذلك طمع الجيران فيها . وفى يوم كان يرافقها إلى قضاء مصلحة ، فاعتدى عليها شاب بما يجب أن يعاقب عليه ، ولم يجشم زوجها نفسه متاعب تأنيبه أو ردعه حتى أطمع ذلك المعتدى وجعله يسير وراءهما معظم الطريق ، فاضطرت السيدة إلى الرجوع من غير ما خرجت من أجله . ومرة ثالثة كانت نهاية الأمر . إذ نادت السيدة بائع خضر فى الطريق فلما صعد إلى المسكن وأخذت تنتقى ما تريد ، قام سوء تفاهم بينها وبين البائع كانت نتيجته أن البائع رفع يدها عن البضاعة بقوة جعلتها تترنح وتسقط . وكان زوجها واقفا فلم يدفع عنها الاعتداء ، بل حمل الرجل حمله ودعا له بالسلامة . وقد رأت السيدة أن هذه الليونة تعريها من الحماية ، وشعرت بأنها ضائقة الصدر بمعاشرة الرجل . ومن أجل ذلك لم يشفع له شىء وصممت على الطلاق وكان . ولما عرف الرجل من المأذون هذا الوضع ، خشى مغبة الإقدام ، وقرر جازما بأنه سيرفض طلبه ولن يقبل لابنته إلا رجلا يغار على حقه ويغار على بيته . ويعرف كرامة البيوت فى لين الحليم ، وتسامح الخلق ، لا ليونة الطراوة وبرودة الطبع » .

نكتفى بهذا القدر شرحا لليونة وندخل فى القسم المضاد وهو الصلابة . وليست الصلابة المعنية هى التمسك والحرص على الحقوق : كلا . بل الذى نعنيه هو التصلب ، والتشدد ، بل والتزمت وضيق الصدر الذى ينزع بصاحبه إلى الثورة والصخب ، والصراخ والعجيج وكل شىء إلا الهدوء والاستقرار . وهذه الصلابة أيضا خلق مشاع بين الرجال والنساء ؛ وفى الروابط الزوجية ، إما أن تكون الصلابة فى الرجل ، وإما أن تكون فى المرأة ، وإما أن تكون فيهما معاً .

فإذا كانت فى الرجل دون المرأة ، فصاحبها يكون جاف الطبع ، حاد المزاج ، نارى المعاملة ، وهو فظ غليظ القلب ، لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا . ومستبد برأيه لا يقبل حجة ولا دليلا ، يضفى على وجهه الاستبداد عبوسا وتجهما ، ينفر الناس منه ، ومن التعامل معه . ويباعد

بينه وبين أقرب الناس إليه ، تحاشيا مما قد يقع عليهم منه . وكثيرا ما يكون سليط اللسان طويل اليد أحمق التصرف .

هذا الإنسان يكون مرجع الصلابة فيه إلى حالتين : الجهل مع القدرة ، أو الاستغناء بعد الحاجة . وكلا الرجلين لا يبقى على صداقة ، ولا تؤثر فيه مودة ولا تهزه أريحية . فهو مثال لنكران الجميل ، وتمثال نحت من مادة الكراهية والبغض . وأكثر تصرفاته الشاذة تقع دائما على بيته وذويه ، وعلى من يكونون تحت إمرته بحكم عمله .

مثل هذا الإنسان الصاخب دائما ، الثائر فى كل وقت ، لا تطاق معاشرته ، ولا تحتمل ثورته . وقل من تكون من السيدات اللواتى فى حاجة إلى العيش معه ، مستسيغة حالته ، وراضية عن مقامها . فإن ذل النفس يصعب احتماله ، خصوصا نفس السيدة التى تعرف أنها قد أتمت واجبها وأدت ما عليها . والغالب دائما فى مثل هذا الموقف اختيار المفارقة والابتعاد عن معاشرته .

كذلك السيدة التى تكون صلبة خشنة الطبع ، مع زوج يقدر الأدب ويجيد المعاملة . لا يمكنه الاستطالة على احتمالها ، وستمحق صلابتها ما قد يكون لها من مودة نفسية عند زوجها ، وسيختار عاجلا أو آجلا الابتعاد عنها ، والتخلص منها .

أما إذا منيت إحدى الروابط الزوجية بصلابة طرفيها ، فقل عليهما وعليها السلام . وقلما يسلم أحدهما أو كلاهما ، من عاهة جسمية ، أو مصيبة نفسيه ، أو خسارة مادية ، نتيجة الالتحام المستمر ، والصخب الدائم ، والغلظة المشتركة . وعندما تقع الواقعة بينهما ، لا تقدر شماتة الجيران فيهما ، ولا توازى الفرحة فى خرابهما ، إلا الرغبة فى الهدوء والراحة ، التى عزت عليهم أثناء وجود هذين الصاخبين .

من كل ذلك يتبين أن الليونة إذا كانت تهاونا وطراوة ، لا تؤهل الرجل للاحترام والتمسك به كزوج ، وستودى به الى موقف المجنى عليه ! كما أن الصلابة اذا كانت جفافا فى الطبع ، وحدة فى المزاج ، لا يثبت له معها ود فى نفس زوجه ، ولا تستديم له بها رابطة . وكلا الخصلتين مدمر للروابط الزوجية .

وخير ما يتخلق به الإنسان ، هو لين الحلم ، وتسامح الكريم ، والمحافظة على الكرامة الذاتية ، والحرص على شعور الشريك . فإن ذلك أدعى لدوام الروابط ، واخضرار شجرة الودّ بين القلوب . ؟

التبذير والتقتير

يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ، فتعقد ملوما محسورا .) ويقول (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا) .

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) .

هذا قول الله ، وهذا قول رسوله ، تعليما للناس ليكونوا فى الحياة وسطا ، لا مبذرين ولا مقترين . وخير الأمور الوسط .

لكن بعض الناس يحلو لهم الخروج على تعاليم الدين فى النواحى الاقتصادية ، فيكونون مبذرين ومسرفين ، وبعضهم يكون من المقترين المعنين فى التقتير ، وقبض اليد حتى على الماء . وهؤلاء وهؤلاء قوم خالفوا الله ورسوله ، ومن خالف الله ورسوله فقد حق عليه العذاب .

ولقد ثبت أن التبذير والتقتير صفتان تشيعان فى كثير من الناس ، سواء منهم الرجال أو النساء . ولكنهما لا تجتمعان فى شخص واحد لأنهما متناقضتان .

ولأجل أن نقف على كيفية فعلهما فى الروابط الزوجية ، وآثارهما عليها ، يتعين علينا أن نبحث كلا منهما على انفراد ، حينما يتسم بأيهما أحد الزوجين .

التبذير :

فإذا منى بيت الزوجية بتبذير سيده ، وإسرافه لموارده أولا فأولا . فإن مآل البيت إلى الضيق والقلة ، والاحتياج والدين ، وفقدان الكرامة ، وخلق الاستهتار بالشرف ، إلى آخر ما يكون عادة من نتائج الحاجة . إذ الرجل وهو سيد البيت معرض لتسديد طوارئ المرض ، والتكاليف غير المنظورة ، وهى غير محصورة . فإذا كان يسرف ويبذر ولا يعقب ، فإن أول طارئ يتطلب تكليفا ماديا ، يدفعه إلى الاستدانة . فإذا تم له ذلك فإنه غير مسدد لأنه مبذر غير معقب . وعندما تتعدد الطوارئ تزداد ديونه ، وما أكثر طوارئ الحياة .

فإذا ابتدأ التسديد للدين الأول ، فإن ما بقى من مورده لا يقوم بحاجياته ، وسيستدين ثانيا ثم ثالثا ، وهكذا ، لأنه وقع فى طريق وعر المسلك .

ومن الطبيعى أن الدائن يطالب ، وسيجنح الزوج إلى التصرف أولا فيما يملك ، ثم إلى ما فى

البيت ، حتى يأتى على ما فيه . ثم تنقلب حالته إلى عدم الثقة فيه ، فتقبض عنه يد المساعدات ، وتكثر الإهانات التى توجه إليه من الطالبين .

تحتمل الزوجة أولا ، ولكنها عند ما ترى نفسها نهب الكلمات اللواذع ، والتقريع المؤلم والطلبات الحادة من الدائنين ، تشعر بشقاء نفسها ، وميل بختها ، وسوء مصيرها . فيضيق عليها بيت الزوجية ، حتى تحس باختناق أنفاسها فيه ، فتفر منه إلى أهلها ، أو إلى بيت تجد فيه من البعد عن هذا الإيذاء ما تستريح فيه .

والطامة الكبرى إذا كان لهذا الزوج أولاد ، فإنهم سيكونون — ولا بد من أنهم يكونون — ضائعين ومشردين .

إذ الإسراف والديون لا تبقى لهم ما يسترون به أجسامهم ، ولا ما يدفع لهم مقابل تعليمهم فتضاعف الجناية ، ليست على الزوجية فقط ، ولكن على الأولاد . وياويلهم إذا كان فيهم فتيات.

ولقد يقول قائل وما عمل السيدة إذن وهى ربة البيت ، ومطلوب منها تدبير شئونه وحمايته من هذا الانكشاف ؟ والجواب بسيط . فإن الرجل المسرف الذى نعنيه ، جموح فى تصرفه . يفعل فعله ، وينفذ ما تهفو إليه نفسه ، قبل أن تعرف زوجته ما يفعل . وهو عادة يستهتر ويستهين .

المثال من الوقائع :

انعقدت رابطة الزوجية بين زوجين من العائلات المتوسطة الجاه ، وكان الزوج يعمل فى وظيفة محترمة بأجر محترم ، يسيل له لعاب الكثير من الناس ، ويكفى للإنفاق على ثلاث عائلات من نفس الوسط .

وعرف الرجل بنقاوة الضمير وحسن الطوية ، فكان وديع النفس ، حسن المعاملة لمن تجمعهم به صلة عمل أو معرفة . وكان فى فجر زوجيته أنيق المظهر ، يضطر رائيه إلى احترامه ؛ خصوصا إذا لوحظ ما هو عليه من قسامة ووسامة . عرفه بعض أصدقائه ، إذ عرفوا فيه هذه الوداعة ، فاجتمعوا حوله وسار هو فى طريق مرضاتهم أو إرضاء نفسه لهم ، فابتدأ يقطع الوقت معهم خارج البيت ، وكانوا يستعينون على السهر بالشرب . ومع أن الرجل كان غير ذى مناعة فى هذه الناحية إلا أنه كان يزورها غبا ويقربها لماما .

اندفع الرجل فى هذا الطريق ، واحتقر المال الذى يكون فى يده ، ما دام يصل به إلى إرضاء أصدقائه ، والخدم الذين يقومون على مجلسه . ولم يعر غدا أى اهتمام ، حتى وصل به

الأمر إلى أنه صرف مرتبه مرة واحدة ، فى ليلة واحدة ، مع جمع من هؤلاء الذين زعموا الصداقة ، وذهب إلى منزله آخر الليل مشيا على قدميه .

اقترض فى اليوم التالى ، ثم أراد السداد فعجز ، فرأى التصرف فى حصة يملكها ، فلما باعها سدد جزءا مما عليه ، وكان قد تراكم . وتصرف فى الباقى . ثم ابتدأ دينه يزيد ، فقامت زوجته بالتصرف فيما تملكه أيضا ، وسددت الدين كله ، وخرج الرجل من تحت ثقله مرة واحدة .

لكنه كان قد ألف ما فيه ، وأسلس قياد نفسه لمعارفيه . فأعاد الكرة مرة ومرة ، وتجرد بسبب الدين من التصرف فى أثاث البيت ، ثم عجز عن تغيير ملابسه الخارجية ، بعد أن لحقها البلى ، فتغير مظهره الشخصى ، بعد أن انقلب مظهر بيته رأسا على عقب .

كان للرجل ولدان ، أدخلهما المدارس فتغير زيهما تبعا لحالة والدهما ، ثم حرما من متابعة الدراسة لعجزهما عن تأدية واجباتها المادية . وهنا كانت الزوجة قد فاضت كأس احتمالها . فحالها انقلبت إلى عسر ، وأولادها شردوا . ومكانتها صارت إلى هوان . وما كان لها أصبح فى خبر كان . وضاقت فى وجهها الدنيا بما رحبت ، بما نالها من آلام طلب الجزار ، والعياش والكواء ، والبقال ، وغيرهم ممن فتحوا لهم حسابات نظير ما يأخذونه للمعاش . وزاد الطين بلة أن الرجل لا يزال مجدا فى طريقه ، لأنه اعتاد احتمال الطلب والمطالبة ، وتبلد شعوره بحيث لم يعد يتألم لما وقع فيه ، حتى صار ذلك سببا فى فصله من عمله .

لم تجد الزوجة خيراً من مفارقة الرجل ، ففرت لا تلوى على شىء ، وتركت البيت الذى احتواها ربع قرن من الزمن غير آسفة على شىء .

أتعرفون ماذا كانت النتيجة بعد ذلك . لقد دخل الولدان الجندية نفرين ، لأنهما لم ينالا من التعليم قسطا يحميهما ، أو يعفيهما منها . مع أن كل أفراد العائلة من الموظفين المبرزين .

واضطرت السيدة تحت ضغط الحاجة إلى السقوط عندما مد لها بعضهم فى حبل الآمال التى تعيدها إلى مجدها السابق .

وشرد الرجل أكثر من عامين ، لأن الأبواب جميعها قد سدت فى وجهه ، ووصلت به الحال إلى الاستجداء . وأخيرا عمل كاتبا صغيرا فى محل بقال ، بأجرة لا تسد رمق صغير .

هذه هى نهاية الإسراف ، وهذه نتائجه ، عصفت بجاه البيت وكرامة الزوجة ، وشردت الأولاد ، وأسقطت رب الأسرة من عل . فهل بعد ذلك من شقاء ؟

لكن الزوجة عندما تكون مسرفة ومبذرة ، فالنتائج لا تصل إلى هذا الحد من الفجيعة

وإن كانت تخلف الشقاء فيما بين الأزواج ، ويودى بعضها بالروابط إلى الانفصام .

ذلك أن الزوجة المسرفة يكون تصرفها فى مالها أو فى المال الذى يصل إليها من زوجها تصرفا خاطئا . ففى الملبس تبذل المال ثم لا يبقى على الملبس ، لأنها ستهبه لصديقاتها . وفى مصروف البيت ستبذر فى شراء المأكل ، وحاجيات البيت ، ثم تعطيه للآكلين من الزائرين والطالبين ، ولا تبقى منه شيئا . وحتى فى أثاث البيت لا تقبض يدها على ما عندها منه لأنها مستهنية بكل شىء .

وقد لا تكون الزوجة مالكة لشىء من الإيراد الشخصى . وقد يكون تصرفها الخاطئ فيما يصل إلى يدها من ثمن مطلوبات بيتها . فيدفعها تبذيرها إلى عدم القصد فيما تفعل . فمثلا إذا كان ما يقدر عليه الرجل كمصروف يومى لبيته قد قدره بخمسين قرشا ، فإن الزوجة بدلا من أن تقسم هذا المبلغ على اللحم والخضار والسمن والبصل والعيش والحلو ثم النور والصابون والجاز والبن والسكر ، إلى غير ذلك من طلبات الحياة اليومية — تجنح المبذرة إلى شراء إوزة بتسعين أو بثمانين قرشا ، فتعطى الخمسين ، وتستدين الباقى من الثمن ، ثم تستدين بدورها جميع المطلوبات من عيش وخضار إلى غير ذلك ؟ !

ولقد تكون الاوزة كافية مثلا إذا وزعت كلحم على يومين ، ثم سددت بمصروف اليوم الثانى الخانة التى فتحتها . لكن هذه المسرفة المبذرة ، قبل أن يرى الرجل شيئا أو يتذوق شيئا ، تكون قد استضافت عليها بعض صويحباتها ، فأتين عليها ، أو لم يبقين منها ما يزيد على أدام الرجل لمرة واحدة فقط .

ومثل هذا التصرف الخاطئ سيوقع الرجل فى ارتباك مادى . ولكنه يملك التصرف ويملك المنع ، ويملك مسك الزمام . ومع ذلك فسيكون لها تصرف آخر فى نفس ما يأتى به الرجل . لأنها ستبذر فيه وستحرم البيت مما فيه . وتكون كعامل الخراب لا تبقى على شىء والرجل فى هذه الحالة سيعز عليه أن يرى نفسه مبعثر الكد ، غير مصان فى داخليته . فيهب للاحتفاظ بكيانه ، وسيشقى لأن زوجته مخروقة الكف ، غير حاسبة لواجبات بيتها أى حساب .

حادث فكاهى :

حل عيد على زوجين . وكان الرجل فى حالة لا تسمح له بعمل ما جرى عليه الناس فى هذه الحالة ، من عمل الكعك وتوابعه ، لأن مطلوباته فى الشهر السابق على العيد ، قد استنفدت ما فى يده من حصيلة توفيره . وكانت زوجته من أولئك اللواتى لا يبقين على شىء ولا يعنين بما يكون عليه الغد . فطالبت الرجل بمال . يمكنها من عمل ما تريده فى هذه المناسبة وأصرت .

فأخبرها الرجل بأنه لكى يستر نفسه ويرضيها سيشترى ما يقدر عليه جاهزا من السوق . فهال الزوجة ما سمعت . واستكبرت أن تكون أقل من جاراتها اللواتى يعملن فى بيوتهن ، ويتفاخرن بأنواع ما يعملن . وكيف ترضى أن تكون أقل من هؤلاء ؟

حاول الرجل إقناعها بأن القليل والكثير لا يدوم ، وأنها سوف لا تحرم من عمل ما تريده ، عندما تساعفه ظروفه ، وتمكنه قدرته ولكنه لم يفلح ، ثم اشتد به الجدل حتى غضب فحلف أنه لا يشترى شيئا ولا يستدين .

أما السيدة فقد امتلأت تهيبا من حضور هذا اليوم عليها ، دون أن يخرج من بيتها الفران حاملا « صاجات الكعك والغريبة » كما اعتاد أن يفعله وسيفعله مع جاراتها فماذا تفعل .

ليس فى يدها مال ، وليس لها حلى يباع أو يرتهن ، وليس فى بيتها ما يستغنى عنه من أثاث ، ولم تجد من تستدين منها . فماذا تصنع حينئذ ؟

لقد كان الرجل يحتفظ ببذلة لها جدة . يلبسها عند المناسبات الهامة ليستر موقفه مع أخوانه ، ومن هذه المناسبات طبعا يوم العيد . إذن فلتكن هذه البدلة مقابل ثمن الكعك .

وقبل العيد بيوم دخل الرجل إلى بيته ، فوجد الفران يسبقه إليه ، وهو يحمل على رأسه عدة صاجات تفوح منها رائحة الكعك فدهش واعتقد أن الفران قد أخطأ طريقه . ولكنه عرف أنه هو المخطئ ، لأن الزوجة استقبلته ورفعت عنه ما يثقله ، وهى فرحة مستبشرة . فذهل الزوج وتملكته الدهشة . وتساءل من أين لك مصاريف هذا ومتى ؟ فأجابته الزوجة العتيدة بكل بساطة وثبات . لقد نظرت حولى فلم أجد شيئا . ولما كنت قد حلفت بأنك لا تشترى ولاتستدين ، فقد رأيت أن أبيع البدلة التى لا تلبسها إلا كل حين واشتريت بثمنها لوازم العيد !! ولا تسل بعد ذلك عما أحرق الرجل من غيظ ، وغليان دم . فقد أطار عقله هذا التصرف ، ودفع به إلى إعدام هذا الكعك جميعه برجليه ، وانهال على هذه الزوجة ضربا وركلا ، وحلف لتغادرن البيت فى الحال مصحوبة بكلمة الفراق !!

هذا حادث من حوادث كثيرة كانت نتائج تبذير السيدات . وكما أسلفنا قد خلقت مشكلات وشقاء ، وفصمت عرى الرابطة ولكنها لا تكون فى درجة النتائج التى تتخلف من تبذير الرجال .

أما التقتير والشح وقبض اليدفله موقف آخر ، ونتائج أخرى . ذلك أن البيت الذى يحتوى زوجة مقترة وبخيلة ، لابدوأن يسعد بها لأنها ستكون بمثابة صندوق ادخار جبرى . تعيش بالقليل من المرتب وتنفق القليل مما تأخذ . وتنتفع أكبر انتفاع بأقل ثمن . فالبائع لا يتغلب عليها

والخادم لا تأخذ منها أكثر مما ترضى هى ، ولا تتمكن من البعثرة ولا من الاختلاس . لأن سيدة البيت تعمل على شراء كل شىء بنفسها . والنور والجاز والسكر والبن والصابون وفتات العيش وبقايا الأكل لا يفرط فى شىء منه ، لأنه مراقب مراقبة شديدة مستمرة . حتى الضيوف تكون التحية التى تقدم لهم الكلام . لأنه لا يكلفها صرفا ولا يوقع عليها غرما . والسيدة المقترة تحافظ على الأثاث من التلف ، وعلى الملابس من البلى ، وعلى أدوات المطبخ من الكسر وهى لا تتهافت على الأكل ، وإذا أكلت فإنها تحاسب نفسها على الكثرة ، فلا تفرط وتفعل مثل ذلك مع من فى البيت ومثل هذه السيدة فى تقتيرها وفى حرصها تكوّن حصيلة تكبر كل يوم ، وتصل إلى خميرة من المال بما يتجمع إليها من المليم والقرش ولا يوجد رجل فى الدنيا يفرط فى مثل هذا الحارس الأمين . وإذن : فطوبى لمن تكون له زوجة مقترة ، لأنه لن يحتاج فى يوم إلى مساعدة غريب .

أما البلاء الذى لا عزاء فيه فذلك عند ما يكون الرجل بخيلا مقترا ، مقبوض اليد بحيث لا يسيل منها الماء .

هذا الرجل يدفعه حرصه إلى أن يقحم نفسه فى كل شىء داخل البيت ، ولو فى غير اختصاصه . فلا يكتفى بشراء ما يؤكل وشراء ما يلبس بنفسه ، كى لا يمكن أحدا من أخذ شىء من ماله ، بل ويحذر الكثرة ويخشاها ويعدها تبذيرا .

فإذا اشترى اللحم مثلا « وقدر الله له ذلك » فإنه فضلاً عن شراء الرخيص منه فإنه لا يبتاع إلا النزر اليسير . والعيش لا يزيد ما يشتريه منه على عدد من فى البيت . أما الفاكهه وأما الحلو فذلك من الكماليات التى لا لزوم لها .

وفى البيت يقطع اللحمة بيده . ويعد قطعها بنفسه . ويراقب تصريفها بعد تسويتها . و« طبق » الخضار ينظر إليه وتثور نفسه إذا رآه ممتلئا . فإذا تبقى فيه شىء فحذار من إعدامه لأنه سيطالب به .

وفى عدد الوجبات يراوغ ، فيحسن الاكتفاء بوجبتين أو وجبة واحدة ، زاعما بأن الطب يقرر ذلك . وأن المعدة بيت الداء إلى آخر ما هنالك . وإذا أرادت الزوجة فستانا أو رداء خارجيا أو حذاء فإنه قلما يجيبها إلى طلبها ، وإذا أجابها ، ولو بعد لأى ، فإنه لا يستحضر لها إلا ما ضخمت لحمته وسمك سداه وقل ثمنه . أما أدوات الزينة وأما المصروف الشخصى للزوجة فهذا شىء غير معقول الوقوع فيه .

وإذا مرض البخيل فلا طب ولا دواء وإنما وصفة بلدية ، ولو تضاعف المرض أو ذهب

بالحياة . كذلك إذا مرضت زوجته فى المستشفيات العامة ما يتسع لعشرات مثلها .

وإذا أراد البخيل الانتقال من مكان إلى مكان ، فرجلاه أداته ولو بعد المزار .

هذا بعض من كل مما يصدر عن الزوج المقتر . فإذا منيت زوجة بزوج هذا طبعه ، وهذا فعله وتصرفه . فما هو الضيق الذى تشعر به ، وكيف يكون احتمالها لمحاسبة جبار فى كل آونة وسماع اعتراضه فى كل وقت ، وكيف تقبل إقحام أنفه فى كل صغيرة وكبيرة فى البيت ؟

إنها تشعر بأنها كسائمة لا فعل لها ولا عمل ، ولا تصريف لها ولا رياسة على البيت . وباويلها إذا كانت قد امتلأت من خير والديها ، وقضت المدة السابقة على هذا الزواج ، منعمة فى بحبوحة بينهما .

إنها ترى الفرق بسرعة بين المعاملتين ، وتقف على القلة فوراً بين البيتين . ولقد كانت تنتظر سعادة أكثر مما كانت فيه ، ومنت نفسها ككل مقدمة على تملك بيت أن تكون درجة هناءتها متفوقة على ما عاشت فيه . لكنها وقد أحيطت بدقيق المحاسبة وشديد المراقبة وشل اليد ، تراها قد نفرت هى وقلها من هذه الحياة ، فلا اتفاق ولا انسجام ، ولا رضاء عن حالها ولا دوام .

مثل من الخصومات :

تجمعت فى يد مدرس صغير حصيلة من فرق مرتبه على معيشته ، واعتزم تكملة نصف دينه بمن تتوافر فيها رغبات أعلنها بين عارفيه . وتشاء له الظروف الاتصال ببيت كان ربه رئيس عمل فنى واسع ، يدر عليه من الكسب ما يضفى عليه وعلى بيته السعة واليسر .

وكان للرجل ابنة أخ توفى والداها وتركاها طفلة صغيرة فى أحضان عمها . فرعاها الرجل رعاية الحنون الشفوق ، واستعاض بها عن حرمانه من الخلف ، وصارت فى بحبوحة من العيش لا تعرف غير عمها أبا ولا غير زوجة عمها أما . قضت سنيها لا يؤخر لها طلب ولا يقتر عليها فى صرف .

فلما كملت أنوثتها ، واستوى عودها ، ونضجت محاسنها ، تسابق عليها كثير من الطالبين الراغبين فيها ، وفى التقرب من والديها . غير أن حظها كان فى هذا المدرس الصغير فعقدت لها الرابطة به وهيىء لها من الأثاث والجهاز ما يسيل له لعاب الكثيرات من لداتها ، ثم زفت إلى العريس العتيد ، رجاء العيش فى البيت السعيد إلى العمر المديد . كانت هى وكان والداها وكان الجيران والمعارف ، يتوقعون حياة هنية وعيشه رضية ، لما اشتهرت به الفتاة من قسامة وحذق لأمور بيتها ، وأدب فى المعاملة ، وعفة وكرامة ، وحصانة ، وهى أدوات الزوجة

وأسلحتها فى الحياة . وما كان يدور بخلد أحد أن تسارع هذه الفتاة بالرجوع إلى بيت والديها ولم ينقض على زفافها أسبوع واحد ، شاكية باكية صارخة نادبة .

استنكر والداها تسرعها وحضورها ، وداخلهما الشك فى ما عزته إلى زوجها ، لولا أنهما يثقان بها من طفولتها . فأبقياها فى المنزل ، واستحضرا الزوج ليقفا منه على ما نسب إليه .

لم تكن الفتاة مبالغة ، ولا جانبت الحق فى حديثها . فقد أقر الزوج بأنه تدخل فى شئون البيت ، وأقحم نفسه فى عمل المطبخ ، وقطع اللحم بيده ، وعدها عليها ، ووزن بيده قيمة السمن ، وأدخله فى دولاب وقفل عليه ، واحتفظ بمفتاحه . وأنه يخرج لها الجاز أو السكر أو البن بمقدار ، وأنه حاسبها على قطعة صابون استهلكت فى أسبوع . وأنه نهرها عندما غرفت طبقا إلى أعلى من منتصفه ، وأنه أمرها بحفظ باقى ما فى الطبق ، وتقديمه فى المرة المقبلة إلى غير ذلك مما يزهق النفس ويضيق به الصدر .

ولقد رأى الرجل وزوجته أن من العار لسمعتهما إفشاء هذا الموضوع . واختارا إمداد ابنتهما بالطعام والطابات الواجبة لها ، واحتفاظه هو بما يستحضره لنفسه . وأزالا من نفس ابنتهما ما صممت عليه من عدم الرجوع إلى بيتها

لكن الزوج وقد تشربت نفسه بالشح ، وشاع فى دمه التقتير ، كف عن استحضار شىء من جيبه للبيت ، اكتفاء بما يحضر للزوجة من بيت والديها ، وبما يمدانها به من تغذية .

ومع أن ما كان يأتى للبيت يأتى يوميا وقد خصص ليومه ، ومع أن الزوج لم يدفع فيه شيئا ولا غرم عليه فيه ، إلا أنه تعرض للزوجة فى تصرفها وحاسبها عليه ، وقتر فيه وسار سيرته كما كان .

لم تحتمل الزوجة وضاقت ذرعا بتصرفات هذا البخيل ، ولم يكتمل الأسبوع الثانى ، حتى رجعت إلى بيت والديها . يشعر مرآها بالهم ، وتبين فى وجهها علامات الكمد والغيظ . فلا نضارة ولا بشر ، ولا حيوية ولا روح ، ولكنه جسم يتحرك تحت ثقل لايخفى على الناظرين . وفى هذه المرة لم يرض والداها بهذا المصير ، وعملا على إنقاذها من شر مستطير . وبتضحية فى حقها وفى أثاث بيتها ، أمكن شراء حريتها وفصم الرابطة التى كانت تربطها بهذا البخيل .

مما تقدم يتبين أن التبذير والتقتير إذا وجدا فى الروابط الزوجية ، كانا سببا من أسباب الشقاء ، وعاملا من عوامل الهدم لا يمكن مداواته ولا تلافيه .

ولعلاج هذه الحالة يجب على الزوج أن يكون دائما وسطا بين النهايتين ، كى لا يقع فى

خطرهما . وليعرف مسئولياته ، ويقدر تبعاته ويحفظ كرامته كرجل . وليعلم أن التقتير يضيق به الصدر ، وأن المال خلق لسد المطالب ، لا لجمعه والحرص عليه . أما المرأة فيجب عليها أن تحتال على زوجها المبذر « بطرقها اللينة » لتضع يدها على المورد الذى يحفظ لهما كيان حياتهما وأن تكون مفتوحة العين غير متهاونة وستتمكن فى النهاية من الوصول . أما تلك التى وجدت مع المقتر فلتستعمل الأناة والحكمة فربما كانت للرجل مشاريع يحتفظ لها بأداتها ، أو تكون عليه تبعات لاتعرفها ، وإن الزمن لكفيل بتغيير كل شىء ، ومنه أعمال هذا الزوج البخيل .

الغيرة الجامحة

الغيرة هى أحاسيس نفسية حادة تستثار بوقوع ما يتعارض والتقدير الذاتى للغيور . وهى عاطفة توجد فى الرجال والنساء ، كما توجد فى الحيوان الأعجم ، بل وكثير من الطيور .

والغيرة إذا كانت تتصل بالأعمال . تنتج فى بعض الأحوال دفعاً إلى التقدم والاجتهاد ، كما تتحول فى البعض الآخر إلى أنواع من الحقد والضغينة فى نفوس الأشخاص المتخلفين .

وإذا كانت تتصل بالروابط ، فإنها إما أن تكون غيرة فاضلة أوجبها الدين ، وأقرها العرف والاجتماع ، وإما أن تكون من النوع الحاد الذى لا ضابط له . وهى مانعنيها بالجامحة ، وهى نفسها التى أردناها سبباً من أسباب انهيار الروابط ، وجعلناها تعريفاً لهذا الباب .

وقبل أن نطرق الحديث فى النوع المعنى منها ، يجب علينا أن نمر عابرين على ماهية الغيرة الفاضلة التى أوجبها الدين . فقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (إن الله يغار ، والمؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله) . رواه الترمذى والبخارى .

وقال سعد بن أبى عبادة رضى الله عنه . لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح (أى بحده لأقتله) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير منه والله أغير منى . رواه الشيخان .

فالغيرة إذن خلق فاضل أقره الدين ، لأن الله يغار ، ورسوله صلى الله عليه وسلم يغار ، ومن لم تكن الغيرة فى دمه ، فإنه لم يستكمل الشرف النفسى ، ولا الكرامة الذاتية (رجلا كان أو امرأة) .

وهى بين الزوجين دليل الحب ، ووجود الرابطة النفسية بينهما . كما هى دليل على وجود الشرف النفسى ، الذى يأبى النزول إلى فعل ما يثيرها . وكل رابطة لا تكون فى طرفيها الغيرة ، إنما تكون قد خلت من الكرامة والشرف والعصمة ، وأسباب الاحتفاظ بها . هذا هو حكم الشرع ، وحكم الاجتماع فى الغيرة ، ومنهما يتبين لزومية وجودها فى الإنسان ، بله المتزوجين .

غير أن الفضيلة النفسية لها حدود . إذا تجاوزتها ، خرجت بها عن تقديرها الدينى ، والاجتماعى ، إلى حد الاجتراء والطغيان والتعسف . وهو ما لا يرضى به الدين ، ولا يقره

الاجتماع . إذ حدود الغيرة تنتهى عند حد استعمالها أو إثارتها بوسائل تحريكها ، وإفاقتها من سباتها ، وإيقاظها بالأفعال المذرية ، ويجب أن يتوافر ذلك لإيقاد نارها .

فإذا وجدت أسباب الاستثارة فى نفس زوج أو زوجة ، فلا يصح أن يقال إنه ذهب أو ذهبت بها الغيرة إلى حدود بعيدة ، مهما كانت الآثار التى نجمت عن هذه الاستثارة . لأن الغيور يأتى من الأفعال كل ما يستطيع ، وكل ما يلهمه به الثأر لجرحه ، دفعاً للعار الذى علق به ، وغسلا للقذارة التى مسته . وتختلف الاستطاعة عند الناس باختلاف قواهم ، وأفكارهم ، وأساليبهم ودرجة حرارة دمائهم ، وتقديرهم لذاتيتهم . ومن أجل ذلك لا توجد درجات يصح أن توضع الغيرة فيها ، لأن إشفاء النفس ، أو التنفيس عنها ، أو الانتقام للكرامة من المعتدين ، هو ما يستهدف ، وفى سبيله يكون ما يكون .

أما التجاوز الذى نعنيه ، والذى يرد أو يرجع على الغيور آثار شعور غيرته بالوبال ، ويلزمه حق الاعتراض عليه ، بل ويوقفه موقف المعتدى على الحق ، فهو بناء الغيرة على مظنة السوء ، وقيام التخوف ، والمغالاة فى التحفظ على مالا يضيع .

هذا النوع من الغيرة هو المقصود فى هذا الباب : وهو ما نسميه بالغيرة الجامحة . لأنه يجمح بصاحبه عن الحدود السليمة ، ويتنكب به طريق العدالة ، ويضعه موضع الاتهام والاعتداء . فمتى تكون هذه الغيرة الجامحة ، وما هى آثارها ؟

لقد دلت التجاريب على أن هذا النوع يوجد فى أنواع من السيدات ، كما يوجد فى مثلها عند الرجال ، ولكل منهم دوافعه .

دوافع السيدات :

فأما دوافع السيدات إلى الغيرة الجامحة فإنها تكون :

١ — عندما تتزوج السيدة بمن هو أصغر منها سنا .

٢ — عند ما تعرف الزوجة أن بها عيوبا ونقائص طبيعية لا يوجد ما يقابلها عند زوجها .

٣ — عند ما تكون الزوجة ضرة لأخرى .

٤ — عند ما تكون مغرورة جاهلة ومستندة إلى نوع من الزهو .

فالسيدة الأولى هى تلك التى تمسكت بالشباب بعد أن فارقها ، فتزوجت بشاب يصغرها بعدة سنين ، كما نعرف عن كثيرات من المسنات فى المدن . وهذه السيدة تعرف فى نفسها

تقدمها فى العمر ، وما يتبع ذلك من ضعف الحركة ، وتجعد البشرة ، وقرب صيرورتها إلى هيكل عظمى لا نفع فيه . وهى تعرف أن الشباب الذي يملأ جسم زوجها ، فضلا عن أنه زادها الوحيد ، فإنه يتطلب ما يرضيه من قوة ونضارة ، وحيوية تنسجم مع حيويته . وهى من أجل ذلك تغرق نفسها بالمساحيق ، وتدفع جسمها إلى الحركة ، وتتظاهر بمظهر القوة ، لكى تذر الرماد فى عين الشاب أولا ، وتقوى فى نفسها الروح المعنوية ثانيا . وأن من يعاشر مثل هذه السيدة يعرف مقدار جهودها التى تبعثرها فى سبيل ذلك ، مع أنها فى الحقيقة لو احتفظت بها لنفسها لازدادت مناعة من آثار مرور الزمن ! لكن أنانيتها هى التى سولت لها ذلك ، ودفعتها فى هذا الطريق الوعر . ثم جعلتها تتشبث بهذا الموقف .

هذه السيدة يداخلها هاجس خفى ، سرعان ما يستحوذ على جميع شعورها ؛ وهذا الهاجس هو تخوفها من تحويل قلب زوجها الشاب ، أو وقوع نظره على شابة يتفق سنها مع سنه ، وشبابها مع شبابه ، وحيويتها مع حيويته . ثم تفكر فى هذا الموضوع حتى تصل بتفكيرها إلى الوقت الذى يتركها فيه إلى تلك ، ويبعد عنها إلى حيث يجد خيراً منها . فتثور نفسها لهذا المصير ، وتخشى وقوعه خشية الموت للجسم السليم .

عند ذلك ترى السيدة نفسها فى حاجة إلى عمل يحول دون ذلك . فتبدأ بمحاسبة زوجها على أوقاته فى كل مرة يخرج . لم ؟ ، وفيم ؟ ، ومع من كان ؟ ، وفى أي شىء قضى وقته ؟ ثم تحاسبه أيضاً على ما فى جيبه . فى أى شىء صرف ما فيه أو بعضه ؟ وعلى من كان الصرف وفى أى مكان ؟ وتحاسبه على هندامه . لم يهى نفسه ؟ ومن الذى سيقابله ؟ الخ . . .

ثم يكبر ذلك فى نظر السيد وتفكيرها حتى يصير شغلها الشاغل ، وربما كان زوجها قد خلا ذهنه من كل ما تفكر هى فيه ، ويكون سيره عاديا لا عوج فيه .

لكن الشاب وقد احتمل وقع الشك فى أذنه ، وأبدى الأدلة على براءة نفسه مرة ومرتين وثلاثا ، وكان صادق القول حين دفع عن نفسه مظنة زوجته — سيعز عليه موالاة اتهامه ، وستغرس فى نفسه بعض عوامل الألم . وسيدفعه ذلك إلى طلب التسرية عن نفسه مع أصحابه خارج البيت . فتمتد أوقات غيابه ويكثر خروجه : وهنا تكون هواجس المرأة قد وقعت فى نفسها موقعاً لا تحتمله . فيداخلها الاعتقاد بوجود روابط غير شريفة مع زوجها ، بأخريات من الصنف الذى تخشاه وتخافه . فتتهم الزوج بالعلاقة الآثمة ، وتختلق له أسماء أخريات ، وتتخبط فى الاتهام ، ثم تذهب إلى حد ألا ترتاب فقط ، بل وتعتقد أن كلمة لينة تخرج من

فيه إلى قريبة أو خادم ، أساسها اتصال غير مشروع ، ودليل لا يقبل الشك على وجود صلة مريبة ! ! .

يرى الشاب أن صبره قد نفد . وأنه وضع بين المطرقة والسندان . فلا هو بالقادر على أن يقضى كل أوقاته يتغزل فى وجهها حتى تخف حدة انزعاجها واتهامها له ، ولا هو بقادر على نزع ما فى نفسها من قلق وغيرة قاتلة ، لم تبن على سبب . ويحس بأنه أصبح كالعصفور داخل القفص الحديدى ، الذى حرم من حريته وراحته النفسية . فتهفو نفسه إليهما ، ويسترخص فى سبيلهما وجوده . ومهما كان لهذه السيدة من جاه ، ومهما كان لها من عصبة أو يسر ، فإن الشاب فى سبيل حريته سيفر بعيدا عنها بل وسيشترى حريته بأى ثمن حتى الموت .

والأمثلة على ذلك كثيرة نجتزئ منها بالمثل الآتى : —

أقام أحد الشبان من مصر العليا فى منزل لإحدى السيدات . وكانت هذه السيدة على رغم تقدمها فى العمر ووقوفها على رأس الحلقة الخامسة ، مكتنزة الجسم قوية البنية نضرة الوجه ، مليحة القامة . وساعدها على ذلك أنها لم تلد ولم ترضع ولم تمرض . فكان من ينظر إليها لا يقدر سنها بأزيد من نصفه أو من ثلثيه . وكانت هى تقول عن سنها بأنه لا يزيد على مبدأ الحلقة الثالثة . مع أن آخر اخوتها الصغار له ابن تزوج ودفع البدل .

كان لهذه السيدة على ما هى فيه من قوة ، مال ، وعقار . فلما سكن الشاب فى منزلها رأت فى شبابه وقوته وبهجة وجهه ، ما دفعها إلى تعبيد الطريق بينه وبينها . وكان الشاب بكراً لا يعلم من أمور النساء قليلا ولا كثيراً . لأنه عاش فى وسط متحفظ دينّ ، مع أنه يشتغل عملا مدنيا ويظهر بمظهر مدنى مهندم .

تزوجت السيدة بالشاب واستعملت فى ذلك حيلا كان من السهل عليها النجاح فيها . لأن الشاب لم يعرف المكر بعد ، وليس هنا مكان لسرد تلك الحيل .

كان للشاب أقارب ومعارف وأصدقاء . وكان يتزاور معهم ، فيوم هنا ويوم هناك . فما أن تزوج بالسيدة حتى احتجب عن التزاور وطال عهد غيابه عنهم . فلما تساءلوا عنه بالزيارة ، عمدت هى إلى إشغاله عنهم وعدم القيام برد زياراتهم فاضطروا إلى جفوته وتركه .

وفى البيت أحاطته بسياج من التخفى والتحفظ ، بحيث لا يمكن أن ينفرد برد تحية لزائرة أو جارة . وحتى الخادم ، صدرت إليها الأوامر المشددة بعدم الانفراد به ، بل وضربت مرارا لقيامها بتأدية طلباته ، عند ما تكون السيدة فى المطبخ أو الحمام ؟ ! ! .

ثم تدرج ذلك إلى أنها تتعقبه فى عمله . فتلبس لباس السائلات ، وتختفى وراء تنكرات

لا يعرفها ، ثم تسير وراءه من باب عمله ، إلى أن يدخل البيت . وتعرف مع من يتحدث وأى طريق سلك .

وفى يوم كان الشاب راجعاً فى طريقه إلى البيت . وتصادف أن كانت إحدى السيدات تريد الاسترشاد عن شارع تجهله ، فأشارت إليه واتجه هو إليها ليجيب عن سؤالها . لكنه ما كاد يخطو إليها ، حتى سقطت عليهما الزوجة فى أثمال رثة صائحة صارخة ، تنادى بأنها قد وضعت يدها على جريمته وعرفت اتصالاته . وقد اجتمع الناس من حولهم ليقفوا على سر هذا الالتحام .

ذهل الشاب وسقط فى يده . وغلا دمه فى عروقه . وأحس بأن الدنيا ضاقت فى وجهه وأظلمت فى عينيه . كذلك أحرج موقف السيدة الغريبة وأجهشت بالبكاء ، ولعنت اليوم الذى اضطرها إلى الخروج من منزلها . أما الزوجة العتيدة العنيدة ، فقد ملأ صوتها أركان الشارع زهواً وافتخاراً بقوتها وأسلوبها ، ووقوفها على ما خفى عليها ! .

لكن الشاب لم يحتمل هذا الموقف مضافا إليه ما وضع فيه من ضيق . فعدل عن طريقه إلى اللوكاندة ، وهناك استحضر مأذوناً شرعياً وشاهدين وأوقع على الزوجة الطلاق .

أما القضايا الشرعية ، وأما المشاكل والخناقات ، والالتحامات فى الشوارع ، ومحاضر البوليس ، وقضايا الجنح ، فحدث عنها ولا حرج . فقد حصل منها الكثير بين هذين الزوجين !!

هذا حادث واحد من حوادث كثيرة كانت نتيجة للغيرة الجامحة . وهو ما يحصل عند ما تكون السيدة متزوجة بمن هو أصغر منها سنا .

أما النوع الثانى من السيدات اللواتى يغرن لوجود عيوب فيهن . فأولئك أصحاب نفوس طويت على المحاربة النفسية والانزعاج الدائم .

ذلك أن بعض النساء مثلا ينقصهن إيجاد التناسل لسبب يعلمه الله سبحانه وتعالى ، وكثيراً ما يكون ذلك بين الناس . لكنها تخشى على زوجها من اليأس منها ، فتجهد نفسها فى ألا تريه أو تسمعه صوت طفل ، حتى لا يحرك ساكن نفسه . وإذا فرض وسارا فى طريق ، أو ذهبا إلى زيارة ، أو نزهة ، فإنها تشغله بالحديث ، عن الالتفات إلى ما قد يصادفهما من الأطفال .

ومع أن من عادة الأطفال إذا وقع نظرهم على أى إنسان فإنهم يضحكون ويبتسمون ، وهى براءة فيهم ، ولازمة لهم ، وقد جرت عادة الناس مقابلة هذه البسمات بمثلها ، فإن السيدة لا يمكنها احتمال ذلك إذا رأته مع زوجها . وتبلغ بها درجة الغيرة الجامحة إلى فرض رغبتها وتنفيذها

وإلا فالبكاء والعويل ، والهم الدفين والحزن المقيم ، سيخيم على المنزل وعلى من فيه .

وسيدة أخرى ترى فى جسمها عيباً كخشونة البشرة ، أو حول العين ، أو أثر احتراق ، أو ليونة طبيعية أو غير ذلك مما تعرفه السيدات وتعوف أنه عيب جسمى يلازمها .

مثل هذه السيدة تعذب نفسها فى التحايل على إخفاء ما بها . وتتشكك فى كل كلمة ولو بريئة تتفهم منها اتصالا بذلك العيب خطأ — كأنها مقصودة . وهى لا تصدق دفاعاً فى مثل هذا الموقف ، وتكثر من الكلام فى هذا الباب إلى درجة الملل . وويل للرجل إذا تحدث بوصف سيدة تكتمل أنوثتها وتخلو من عيوب .

كذلك السيدة الثالثة التى تزوج عليها زوجها بأخرى لسبب ما . فإنها لا تفتأ تذاكر الرجل فى كل خلوة بما جناه عليها ، وبما حدث منه إلى زوجته الثانية وتتساءل عن نومه ، وعن أكله ، وعن محادثته ، وعن حبه لتلك ، وعما أحضره لها فى أمسه ، إلى غير ذلك مما يضيق به الرجل ذرعا . بل وتندفع إلى طلب الانفراد بالحسن من المأكل ، والحسن من السكن كما تطالب بعدم مبيته خارج بيتها ، وعدم إخراج شىء من ملابسه إلى الثانية ، زعما منها بأن ذلك يعطل الانتفاع الزوجى ، أو يسير بالزوج قسرا فى الطريق التى تريده أنانيتها .

ولقد تكون هذه السيدة معذورة فى تصرفها ، لأن وجود شريكة لها فى زوجها شىء ثقيل على نفسها . لكنه الشرع قد أجاز ، والظروف التى تساعد كثيرة . كما أن جنوحه إلى التزوج عليها لم يكن حبا فى كثرة سيدات فى عصمته ، ولكنه كان لاستكمال نقص فى زوجته الأولى :

ومع ذلك فمثل هذه الواقعة ستكون نذير حرب ضروس بين الزوجين ، ستنتهى حتما بكارثة أقلها التخلص من الزوجة القديمة ، بعد أن كان فى عزمه الإبقاء عليها .

أما رابع السيدات وهى الجاهلة أو قليلة الإدراك ، فتلك تدفعها غيرتها من غير تعقل ولا فهم — إلى جلب النكد على زوجها ، وتأتى من الأعمال ما لا يمكن التسامح فيه ، لأنها ارتكبته خطأ ولأن ما تأتيه كل يوم يزيد على الاحتمال .

هذه كلها أصناف السيدات اللواتى تدفعهن غيرتهن الجامحة إلى إغراق الرجل بالمشاغل والأفكار ، وتعذيبه بالاتهامات الكاذبة ، وتسوىء سمعته ، وجرح كرامته وجعله هدفا لنقمات بلا ذنب ، واعتداءات دون مسوغ .

وليس من شك فى أن الرجل فى كل هذه الحالات ، سيعمد بعد نفاد الصبر إلى قطع الصلة ، وإلى تهديم الباقى من عش الزوجية الذى خربته هذه الأفعال . وذلك كله نتيجة دوافع الغيرة عند النساء اللواتى من هذه الأصناف .

بقى علينا أن نعرف دوافع الغيرة الجامحة عند الرجال . فمن هم هؤلاء وما هى هذه الدوافع ؟

لقد بينا فى صدر هذا الموضوع أن غيرة الرجل فضيلة دينية . ولذلك كانت الغيرة أصلا من أخلاق الرجال . إذ فيهم تكون الحماية ، وبجهودهم يكون العيش ، ومن أيديهم يكون الصرف . وكلما اشتدت غيرة الرجل كانت دليلا على استمساكه ، وتقديره لمن يغار عليها .

لكن بعض الرجال تتملكهم الشكوك والوساوس ، ويقادون للشيطان . فيجرهم إلى مظنة السوء بزوجاتهم ، ويدفعهم إلى ارتكاب جرائم وأخطاء لا يمكن تلافيها . فإذا ما حققت تلك المظنات بعدالة ، ثبت الاعتداء وبرأت الزوجات ووجدن أطهارا محصنات . وكثيرا ما حدث ذلك ولكن بعد فوات الأوان .

هذا البعض من الرجال صنفان . أحدهما تزوج بسيدة جميلة ، أو بزوجة نافسه فيها آخر . والثانى رجل غالى فى الاحتفاظ بالحجاب والخدر ، وكلاهما من ذوى الدم الحار .

فالأول رجل جن جنونه بجمال زوجته وخشى على جمالها من الناس ، ومن العيون ، ومن الهواء ، ومن الطريق ، ومن الباعة ، وحتى من الجارات والمحارم . فإذا رآها فى نافذة فقد توجس خيفة واتهمها بأنها تنظر رجلا . فتضطر المسكينة إلى عدم الوقوف فى نافذة . وإذا نظر إليها رجل فى طريق اعتقد بأنها تعرفه . فتضطر المسكينة إلى النظر فى الأرض دائما ولو صدمها جدار . وإذا تحدثت مع بائع اعتقد أن لها به صلة . فتضطر المسكينة إلى عدم شراء شىء من الباعة . وإذا زارتها جارتها اعتقد بأنها واسطة لصلة غير شريفة . وتضطر المسكينة إلى عدم استقبال زائرات . وإذا زارها محرم لم يتورع عن اتهامها بحبه حبا غير شريف . وتضطر المسكينة إلى قفل الباب فى وجه أقاربها .

كذلك إذا كان له منافس سابق فى زوجته . فإن جميع الأقارب والجيران والمعارف والأصدقاء وسطاء شر فى نظره ، والويل كل الويل إذا كان للرجل الآخر أخت أو قريبة لم تقطع الصلة ، واستمرت على الوداد مع هذه الزوجة . وليتصور الناس مبلغ شعور زوجة تقذف بتهمة تلو تهمة ، وتؤلم بتعذيب تلو تعذيب . وتجرح فى كرامتها كل يوم ، وتطعن فى شرفها مع كل الناس . وهى فى ذات الوقت خالية العلاقة ، نقية الشرف ، محصنة العرض ، كم يكون ألمها وما هى شقوتها وما مبلغ عذابها .

إن المرأة تحب أن يكون رجلها غيورا عليها . وبعض السيدات يستثرن الغيرة فى نفوس أزواجهن للاطمئنان على مبلغ ارتباطهم بهن وتقديرهن فى نفوسهم . ولكن الشريفة إذا جرحت فى شرفها . وطعنت فى حصانتها ، تثور نفسها ، وتغضب لحصانتها ، وتقطع اتصال

قلبها بقسوة مهما تألمت . وتفر من بيت الزوجية ولو أقيم على أسس من الماس والزبرجد . وسيبقى الزوج محترقا بلوعة البعد ونار الغيرة ، التى لا يطفأ لها أوار .

مثل هذا الرجل الذى غالى فى إخفاء زوجته عن الدنيا بما فيها من شمس وقمر وهواء ، وأغلق عليها الباب والنوافذ حتى كادت تعمى من عدم النور .

هذا الرجل لم يعرف من الحياة إلا الجانب الأسود . نزع من نفسه الرحمة ، وطبع قلبه على القسوة . أساء الظن بجميع الناس واتهمهم بأنهم من إخوان الوسواس الخناس . حرم الخروج وحرم الدخول وحرم الصلات وحرم التزاور وحرم الاستمتاع بجمال الدنيا وما فيها من خيرات . إذا خرج أغلق الباب والنوافذ ، وأخذ المفتاح فى جيبه . فلا أم تزور ولا أخت تسلم ولا جارة تصبح أو تمسى .

والسيدات والفتيات فى المدن نشأن على السفور وعشن فى مدنية . يعرفن ويصادقن ، ويتزاورن مع الصديقات والجارات والأقارب . وتعودن أن يشترين حاجاتهن بأنفسهن ، ويبحثن على ما يردنه لأنفسهن من حاجيات أينما تكون . وأن الحصانة والمناعة تيجان شرف لا تنزعها يد ولو كانت لإبليس . وأن من خلا مفرقها من هذه التيجان لا يحصنها حائط مبنى ، ولا سياج مضروب . وهى التى تفوق بأساليبها وكيدها كل أساليب وحيل الشيطان .

فما بال مثل هذا الرجل يأبى إلا أن يأتى بنفس حرة طليقة فيدعها فى غياية سجن لا حس فيه ولا نور ؟ وما باله يرمى بإنسان فى ظلام كأنه قطعة أثاث ، ويحرمه من كل شىء فى الدنيا حتى صلة القربى ، بدعوى الغيرة على الكرامة والعرض ، مع عدم وجود سبب لهذه المصائب كلها ؟

إن الزوجة مهما كانت فى حاجة إلى العيش فى بيت زوج ، ومهما تدله قلبها فى حب رجل ، فإنها لن ترضى بمثل هذه الحياة . وسترتضى الموت وهصر غصنها ، على حياة خلت من نبضات الحياة . وإليك مثلاً من الأمثال .

كان واحد من أولئك الذين أطلقوا لحاهم ، وأرخوا ذوائب عماماتهم ، وادعوا مظاهر التدين ، قد تزوج بسيدة لها أب زميل فى التجارة لهذا الرجل . فما ان دخل بها حتى أغلق عليها الأبواب والشبابيك ، وحرم عليها التزاور والخروج ، والنظر من وراء ستر النوافذ ، ومنعها من استقبال أحد ، أو التحدث إلى أحد ، مهما كان لها من المقربين .

وعلى الرغم من أن الزوجة كان والدها من الذين يحتفظون بالرجعية ، إلا أنه كان لا يمانع فى زيارة أهله للأقارب واستقبالهم ، وتأدية الواجبات فى السراء والضراء . وشراء الحاجيات

اللازمة . فنشأت ابنته متمتعة بالحرية المحدودة ، مع تمسكها بكرامة نفسها .

فلما بنى بها هذا الزوج رأت أنها دخلت فى سجن ، وحرم عليها فيه ما لم يحرم على المسجونين . إذ أنه كان للسيدة شقيق طفل دفعه شعوره إلى زيارتها ، ولكنه لم يتمكن من رؤية أخته ، واكتفى بمحادثتها من وراء الباب لأن مفتاح المسكن مع الزوج .

وذهبت الوالدة لزيارة ابنتها فكان نصيبها نصيب فتاها ، بعد أن كانت فى شك مما أبلغه لها . ولما عرض الأمر على والد الزوجة ، قال إن الرجل فى بيته حر يستقبل من يشاء ويغلق بابه فى وجه من يشاء . لكن الزوجة لم تحتمل عدم مقابلة أخيها وأمها ، فأبدت اعتراضا لزوجها وطلبت إليه ترك مفتاح البيت . فصمم الزوج على اتباع هذه العادة ، واشتد فى حديثه حتى انتهى به الحال إلى ضربها ضربا مبرحا .

انتهزت السيدة خروجه إلى عمله ، واستغاثت بالجيران ففتحوا لها الباب ، وذهبت من فورها إلى بيت والدها . وكانت تنتظر إنصافها على يده . فما ان أخبرته والدتها بهذه الواقعة ، حتى غضب الوالد وقام من فوره فزادها ضربا على ضرب ، وحلف لترجعن من فورها إلى بيت زوجها .

رجعت المسكينة مثقلة بالهم إلى سجنها ، ولكن زوجها لم يقدر ذلك ، بل عاقبها ثانية على خروجها واتهمها بأنها تريد شيئا آخر !!!

ضاقت الدنيا فى وجه الزوجة ، وعرفت أنه لا معين لها على مخرج من هذه الحالة . وفى فورة نفسية ، ولوثة عقلية ، صبت الجاز على ملابسها ، وأشعلت فى نفسها النار ، وانتقلت الى حيث الراحة الأبدية من هذا العذاب المقيم .

ذلك مجمل لحادث واحد من حوادث كثيرة كانت كلها نتيجة الغيرة الجامحة وعدم تقدير الواقع . وهى أخطاء مصدرها أولئك الرجال الذين يتشدقون بتمسكهم بالدين ، مع أن الدين رحمة ويسر ، وهو من هؤلاء فى واد وهم فى واد آخر . إن الدين يقتضينا العفة والشرف وعدم التبرج . وليست السيدات اللواتى يقمن على أعمالهن بخاليات من هذه الفضائل . بل إن قيامهن بها هو نفسه فضيلة مشكورة ، وهو ينبئ عن وجودها فيها . لكنه الشيطان قد وسوس ، والهواجس قد تحركت ، والنفس قد ضعفت ، والويل للمعاشرين .

ولعلاج هذه المشكلة يجب على الزوج أن يبدأ حياته الزوجية بالبحث والتروى ، ودقيق التحرى حتى يتأكد من تصرف زوجته ومقدار أمانتها . فإذا وثق منها فيجب عليه ألا يشغل فكره وألا يستريب فيها . وليس معنى ذلك أنه لا يغار إذا حدث ما يثير الغيرة . ولكنه

يكون فى حدود معقولة ، إذا تمتعت الزوجة بالثقة بعد التحرى .

أما الزوجة فإن ما يبدو منها وإن كان دليله الحب والحرص على العلاقة ، إلا أن الريب والشكوك وحدها لا يصح أن تكون سببا فى إشعال نار الفتنة والالتحام بين الزوجين . وعلى الزوجه العاقلة أن تستعمل الهدوء والصبر وأن تجنح إلى تعرف مسرات رجلها وتفعلها ، وهذا وحده قمين بتمسكه بها وعدم التهاون فى رابطتها .

وليعلم الزوجان أن زمام النفس إذا أفلت من كل منهما ، فالنهاية المحتومة ضياع ما كان كل منهما يحرص عليه . وخير لهما استعمال الروية والرزانة والسعى وراء الحقائق فقط والابتعاد عن مظنة السوء التى هى باب جموح الغيرة ؟

تنبيـــــه

أيها القارئ العزيز

إذا كان لك من نزاع غير وارد فى أبواب هـذا البحث ، فنحن على استعداد لإرشادك إلى سببه ومعالجتـه . ويسرنا الوقوف على شىء جديد فى هـذا الموضوع .

المؤلف

تعدد الزوجات

فى كتاب الله الكريم قال الله جل شأنه (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) . ومعناه أن الدين قد أباح للرجل التزوج بغير واحدة إلى أربع ، متى تحققت قدرته وعدله ، قدرته على الانفاق عليهن ، وعدله فيما بينهن .

وليس تعدد الزوجات معناه الزام الزوج بفعله ، ولا معناه أن يكون للرجل جيش من الزوجات ، يوقف على خدمته . فى حين أنه معدم لا يقوى على اعالة نفسه ، فضلا عن مطالبهن ومطالب من ينسل منهن من ذرية . كلا .

بل إن إباحة التعدد يرجع السبب فيها إلى أغراض شريفة ، وتدفع إلى الإقدام عليها أغراض شريفة .

فالرجل القادر القوى ثروة وجسما ، مفروض فيه رغبة النسل . فلا حرج عليه إذا تزوج غير واحدة ليكون له نسل عندما لا تعطيه الأولى نسلا .

والرجل القوى القادر ثروة وجسما ، مفروض فيه قوة الحيوية ، ومطلوب منه العصمة . فلا حرج عليه إذا تزوج ليعصم نفسه ، ويحفظ فرجه ، إذا كان فى زوجته الواحدة مالا يكفيه أو كانت ذات عيب أو مرض .

وزوجة الرجل الأول ، لا يغضبها زواج رجلها بأخرى . عند ما لا تكون ولودا .

وزوجة الرجل الثانى . لا يؤلمها زواج رجلها بأخرى ، عندما يكون فيها عيب أو مرض وهذه وتلك ، قد أبقى كلاً منهما رجلها ولم يفرط فيها . وهو قادر على تسريحها ، ولكنه لم يفعل . وقد استعمل حقه الشرعى . كما أنه لم يضار زوجته بتركها وإبعادها ، وحرمانها من وجودها فى عصمته .

وهذه الإباحة مع شروطها ودوافعها الشريفة ، ندر أن تكون فى المدن بين كثير من الناس . ولكنها توجد بكثرة فى الريف ، وأكثرها مبنى على هذه الدوافع . ومع ذلك فإن تعدد الزوجات سواء أكان بدوافع شريفة ، أو بدوافع الاستمتاع أو الأغراض الأخرى فقد أنتج فى هذا الزمن كثيرا من الخصومات ، وأوجد كثيرا من أنواع الشقاء ، وخلق فيما بين العائلات تفككا وانقساما ومشاكل وصل أكثرها إلى منصات القضاء . ذلك لأن الرجل

لم يسر على مقتضى الشرع والاجتماع ؛ والمرأة كذلك لم تسر على مقتضى الشرع والاجتماع . فكيف كان ذلك ولم ؟

أما الرجل فحاد عن الطريق القويم لما يأتى : —

١ — جنوحه إلى التزوج بثانية من غير سبب .

٢ — تركه الأولى وهضم حقها وتعذيبها وعدم قدرته على العدل .

٣ — تزوجه بثانية مع عدم قدرته على إعالة واحدة .

ولأجل أن تتبين حالة كل من هؤلاء نورد لك ما وصلنا إليه فى بحثنا عن الحالات المذكورة واحدة فواحدة .

فالذى يتزوج بثانية من غير سبب . هو ذلك الذى وجد المال فى يده ، وله زوجة قائمة بشئون بيتها على الوجه الأكمل ، وقد أنجبت له من الذرية ما يكفى لتعمير البيت ووجود الذكرى من ذكور أو إناث . ولكن هذا الرجل قد أتى لزوجته بأخرى تشاركها فيه وفى ماله وتنقص حقوقها وحقوق أولادها ، لا لسبب الا أنه يرغب فى أن يكون صاحب بيتين ، وزوجا لاثنتين ، وآكلا على مائدتين .

ونبحث بأدق من ذلك فنجد أن الزوجة الأولى قد روضت نفسها على طباعه ، وتعرفت بالخبرة أحواله ، وأعدت كل ما فى استطاعتها لإرضائه . وهى كذلك مستوفية لصحتها ، وربما كانت تفوق الثانية قسامة ، أو حذقا لزينتها . هذا الرجل قد ظلم زوجته وظلم أولاده ، وجنح إلى الأنانية فقط ، وعمل على إرضاء رغبة شخصية طارئة ، ففتح لشقاء نفسه وشقاء أهله باب النزاع على مصراعيه . فدخل الريح العاصف بالطمأنينة ، فلم يبق على ما كان منها .

إن للسيدة الأولى الحق فى الغضب لنفسها ، لأنها ترى بعد أن أدت واجبها على وجهه الأكمل لم ترع لها كرامة . ولها الحق فى الغضب لنفسها ، لأنها بيتت النية ووطدت النفس على أنها سيدة البيت ، والزوجة الوحيدة للرجل لا يشاركها فيه مشارك ، فأصبحت بين عشية وضحاها جزءا بعد أن كانت الكل ، وفى الصف الأخير بعد أن كانت الأولى .

ولها الحق فى الغضب لنفسها لأنها مع ما قدمته له من مطالب لم تكافأ عليه بالطمأنينة فى الحياة .

ولها الحق فى الغضب لنفسها لأنها أصبحت تجد من يقض مضجعها ، ويثير فى نفسها غيرة مؤلمة ، لا حد لها مع الصبر ، ولا نهاية لها ليكون عندها الاحتمال ؛ وقد انتقصت حقوقها المادية والحيوية والاجتماعية .

ولها الحق فى الغضب لأولادها لأن قلب والدهم قد توزع توزيعا جديدا قلل من حقهم المعنوى ، وعما قليل سيقل نصيبهم المادى .

نعم لهذه الزوجة الحق فى الغضب لنفسها ولأولادها . ومن أجل ذلك ستجد نفسها مدفوعة إلى الذود عن كرامتها وكرامة أولادها . ومتى رأت الزوجة ذلك فقد ساءت المعاشرة وسادت جو البيت عوامل الاضطراب والقلق ، وعصفت بالطمأنينة عواصف مختلفة ، أقلها تأليب الأولاد على والدهم ، وقطع صلة الوداد بينهم وبينه . ولا يبعد أن تدفعهم أو تدفعها نار الغيرة على قتله والتخلص منه .

حادث أخير :

قضى زوجان فى المعاشرة عشرات السنين . بذلت فيها الزوجة ما وسعها الجهد فى المحافظة على ما يرضى زوجها وما يحفظ بيتها وأنجبت له أولادا ذكورا وإناثا .

وكان للرجل بعض ثروة زادت مع الزمن من محافظة الزوجة عليها . فحدثته نفسه بزواج أخرى كانت تصغر الأولى سنا ولا تزيد عليها جاها . فما أن عرفت الزوجة الأولى ما جنح إليه زوجها حتى اتقدت فى نفسها نار الغيرة ونار الحقد معا ، وخشيت استمرار هذا الزواج كى لا ينجب من الأولاد ما يقلل أنصبة أولادها فى مال كانت هى وكانوا هم عوامل أكثاره . ففعلت من الالتحام والتخاصم والمشادات ما يتصور القارئ وقوعه فى أمثال هذه الأحوال . ولما لم يجد ذلك دفعت أولاده إلى التألب عليه . فخاصموه وخالفوه وحقدوا عليه وانتهى الأمر بينهم بالائتمار عليه فقتلوه بلا أسف . وقد حققت هذه القضية وثبتت فيها الأدانة ، وقضى فيها بأحكام مختلفة لتعدد أيدى الجناة ونشرت هذه الحادثة فى أغلب الصحف (فبراير سنة ١٩٤٧)

وليس هذا الحادث بالأول ولا بالأخير فسجلات الحوادث طافحة بالكثير من أمثاله والقضاء مشغول دائما بالفصل فى أمثال هذه الجرائم . فلو أن هذا الرجل الذى جنح إلى التزوج بلا سبب تروى فى نتائج فعله ، لأبقى على هذا الخراب الذى عصف بالبيت القديم وبالبيت الجديد معا .

أما الرجل الثانى الذى تزوج بثانية ثم ترك الأولى أو هضم حقها وعذبها . فهو ذلك الذى اندفع بكليته إلى البيت الجديد . يبيت فيه ويأكل ، ويستحضر فيه ما لذ وطاب ويؤدى له ما يطلب من مطلوبات ثم يترك زوجته الأولى محرومة منه أولا ، ومن طلبات بيتها ثانيا . فلا هى بالمطلقة التى عرفت مصيرها ، ولا هى بالزوجة المؤدى لها حقوقها . لأنه

علقها وتركها فى عصمته مهملة ، تعضها الحاجه ، وتحرقها الغيرة ويؤذيها ما تعرفه عن الثانية من الاستغناء .

هذا الرجل ليس بعادل . لأنه ظلم ، والظلم شر لا يرضى به الدين . وقد عرف أن المظلوم يدرأ عن نفسه الظلم بما وسعه جهده ، فإذا لم يكن له جهد فدموعه بينه وبين الله فى وحدته لا يرضى بها الله .

وأى إنسان يقدر على احتمال مثل هذا الحزن الذى يكتنف زوجة فى وحدتها . لا لذنب جنته ، ولا تقصير اقترفته ، ولكنه عنفوانه وقدرته ، غلباها على أمرها ، وتمردا على ضعفها

وأى إنسان يرى فى زوجته الانكسار والذل وانهمار الدموع ، وعجزها عن الوصول إلى طمأنينة لتعيش ، ثم لا يحزنه ذلك ولا يؤلمه ؟ وأى رجل ذلك الذي يترك زوجته بعد أن كشفته على كل ما فى نفسها وجسمها ، وحيدة فى حجرتها من غير حماية ولا رعاية ، ولا تأدية واجب ، وهى لم تعمل ما يوجب هذا العقاب أو ذلك الحرمان ؟

إن هذا الرجل المستهين بالحقوق المتسبب فى كسر الخاطر ، وجرح النفس لزوجته ، لهو أحق بما تجره عليه من خصومة ، ومن اقلاق لراحته ومن تغريمه فى القضايا ومن تسوىء سمعته اذا تمكنت . وستندفع هذه السيدة تحت تأثير ما بها الى الانتقام ، وستغضب ، وستقاضيه ، وستأخذ وقته فى المحاكم ، وستضطره الى الصرف والغرامة ، وستقض مضجعه وتحرمه الهدوء والاستمتاع بزواجه الجديد .

وهناك رجل ثالث يتزوج بثانية مع أنه عاجز عن اعالة واحدة . وهذا النوع من الرجال ينتشر أولا فى القرى وبين الفلاحين الذين يعملون بأيديهم فى المزارع رغبة فى المساعدة بما يجتنى من نتائج العمل . وهذا الصنف من الناس قلما يوجد بينهم نزاع لأنهم يتضافرون على السعى وراء الرزق وما يأتى منه يعيشون به قانعين قابعين . ومن أجل ذلك نكتفى بالإشارة إليه دون البحث عن النادر من الخصومات الصغيرة التى تقوم عليه .

لكن الذى نعنيه من هذا النوع فى الرجال ، هو ذلك الذى يوجد منه فى المدن وتسود طبقته جميع الطبقات كثرة وتقل عنها موردا . ذلك النوع يوجد بين العمال ويوجد بين صغار الموظفين محدودى الموارد .

فكثيراً ما رأينا العامل الذى لا يملك قوت يومه عند الراحة ، يجنح إلى التزوج بأخرى ويترك الأولى بغير تسريحها والدخول فى مشاكل قضائية تنتهى بزجه فى السجن مقابل متجمد النفقة . وكذلك بعض صغار الموظفين الذين لا تعدو مرتباتهم الستة أو الثمانية من الجنيهات

يجنحون كذلك إلى إنشاء روابط ثانية ، مع أن مثل هذه المرتبات لا تكفى للضرورى فى حياة الفرد الواحد ، خصوصاً فى هذا الزمن الذى ضوعفت فيه أثمان الحاجيات . فلم يجنح أولئك وهؤلاء إلى هذا السبيل الخاطىء فى حياتهم وبم يدفعون ؟ .

لقد دل البحث والتحرى عن بواعث هذا الجنوح ، على أن العامل الذى يفعل ذلك لم يستكمل الرشد العقلى . لأنه ضيق الصدر قليل المرونة ، عديم الخبرة بالحياة . لا يفهم غور الواقعة ولكنه يأخذ بالظاهر ويقضى حسب الهوى وحكم الهوى خاطىء . وهو عندما يدخل فى رابطة زوجية لا يقدر فى العادة ما ألقى على كاهله من مسؤلية جديدة ، فأجرته تذهب ذات اليمين وذات الشمال يومياً على ملاذه الشخصية ، وغروره الكاذب . فمن قهوة إلى شاى إلى ترجيلة إلى غداء من السوق إلى سهرات فى الملاهى إلى غير ذلك ، مما لا يكثر عليه نقد ولا يعود بفائدة . وزوجته فى البيت كما مهملا إذا تذكرها فيأخذ لها تحت إبطه ما تسد به الرمق ، أو يترك لها من النقد ما لا يكفى لغير الرغيف من غير أدام ؟ ! ! وهو يعتقد أن الزوجية قد شرعت لخدمته دون مقابل ، لذلك فلا يعرف هذا المقابل ، وسيعيش طول حياته لا يعرفه . فإذا هب عليه فى يوم ما نسيم عمل شاذ وربح من ورائه مبلغاً ما ، فأول ما يفكر فيه هو التزوج بثانية . وفى يوم وليلة ، ومن غير ترو ولا بحث ، تراه مرتبطا بزواج آخر . مع أن زوجته الموجودة قد تكون باتت على الطوى فى انتظار ما يأتيها به من غذاء . تزوج خاطف ، وتصرف خاطىء ، لا مقصد منه قد استهدف ، ولا دافع إليه من دين .

لذلك لا نستكثر عليه عندما نراه كل يوم على باب المحكمة الشرعية .

ولا نستكثر عليه إذا وجدناه كل يوم قد ترك عمله لمقابلة المحامين أو الكتبة العموميين .

ولا نستكثر عليه إذا وجدناه قد التحم مع زوجته الأولى أو مع أهلها فى ساحة المحكمة أو فى الطريق

ولا نستكثر عليه إذا زج فى السجن مقابل النفقه أو مقابل حكم غرامة أو جنحة .

ولا نستكثر عليه عندما نراه يعرض ملابسه وأثاث بيته للبيع لقاء العيش أو دفع الغرامات .

ولا نستكثر عليه تعطله وخلو يده مما يسد رمقه ليومه .

نعم لا نستكثر عليه ذلك ولا أكثر منه ، لأن زوجته الأولى التى تركت من غير جريرة قد اتخذت سبيل الانتقام والتشفى ، ولم تترك وسيلة تعرفها أو يعرفها ذووها أو جيرانها أو مستشاروها الا اتخذتها لتتشفى وتنتقم .

حال سيء وعيش مر . وفضائح لا تحصى . ونتائج غير محمودة . وقلق واضطراب فكر وضيق ذات يد . كل ذلك قد وقع فيه ذلك العامل وأوقع فيه غيره .

ومثل هـذا العامل فى تصرفه ، ذلك الموظف الصغير الذى انعدم مورده إلا من بضع الجنيهات التى يعمل بها طيلة الشهر . فإن بعض هؤلاء يجنح أيضاً إلى زواج ثان مع أنه يعلم أن بذلته التى يلبسها قد غيرت معالمها الشمس ، وأفنت فى رفها وسد خروقها تفكير الرفا أولا وزوجته المسكينة ثانيا.

وهو يعلم أنه يسير على قدميه من قلة . أو يتعلق بالترام المزدحم حتى لا يراه الكمسارى ليصل إلى عمله البعيد .

وهو يعلم أنه لا يدفع للفراش المخصص لحجرته مكافأة ولو مرة واحدة ، ولا ينفعه بثمن فنجانة من القهوة لنفسه أو لزائره ، فيضطر إلى تنظيف مقعده بنفسه .

وهو يعلم أنه لا يمكنه أن يجلس مع إنسان من غير أن يشمئز من زيه ومظهره .

وهو يعلم أنه لم يتمكن من تجاريب الحياة ، لأن دراسته القليلة لم تفتح عقله ولم تبصره بالدنيا .

وهو يعلم أن كل طعامه فول وعدس ، وما يستخرج من الفول والعدس . وإذا قدر له أن يأكل لحما فمن الهزيل المسن رخيص الثمن .

وهلم يعلم أن زوجته المسكينة قد قنعت بالقلة ، وارتضت بنصيبها . فلم ترهقه ولم تطالبه بشيء .

وهو يعـلم أن زوجته قد اختلطت ألوان فستانها الوحيد ، وبهت الناصع منها وقطعت أطرافه لإزالة البالى منه .

وهو يعلم أن زوجته قد ارتضت القبوع فى الدار ، ولم تتمكن من زيارة ذويها ، لأن ملاءتها قد صارت خيوطا وهى عاجزة عن استحضار غيرها .

وهو يعلم أن سريره قد وضعت عليه مرتبة بلى وجهها ولم يقدر على سترها بغطاء .

وهو يعلم أن مطبخه هو أهوى مكان فى بيته لأنه لم توقد فيه نار .

نعم . هو يعلم ذلك وغيره فلم يتزوج ثانية ؟

إنه لا يريد أن يعرف الناس عنـه ذلك ، فهو يكذب ويدعى ، ويدفعه الغرور إلى أن يتظاهر بالمجد والغنى والجاه . وأنه يعمل على إيقاع الزوجة الثانية فى أحابيله دون صداق ، وأنه يتزوج من غير تقدير للنتائج ، وغالبا ما يكون فى سبيل أطماع شخصية للوصول إلى شيء .

عقلية سطحية ، ونظر خاطئ للحياة ، لا سبيل إلى حماية صاحبها ، من الزج فى معمعان الشقاق وميدان الخصومة كزميله العامل سواء بسواء .

هذه هى نتائج تصرفات الرجل على أنواعه ، عندما لم يسر على مقتضى الشرع والاجتماع ، وكانت كلها فى غير مصلحته ، وفى غير مصلحة زواجه الأول وزواجه الثانى .

بقى علينا فى هذا الباب شرح ناحية أخرى ، هى الخاصة بما يصدر عن بعض السيدات عندما لا يراعين مقتضى الشرع والاجتماع . ويتلخص ذلك فى أن بعض الزوجات يصممن على عدم الاعتراف على أنفسهن بنقص شرعى أو عيب جسمى ، فى حين أن ذلك يكون قد استعمل فى مداواته وعلاجه كل ما فى الطب من وصفات وحيل ، ومع ذلك لم يبرأ ولم يستكمل . والنقص الشرعى مثلا هو عدم إنجاب ذرية لزوج يسعى إليها مع قدرته ، وتضطره حالته الاجتماعية والمالية إلى أن تكون له ذرية . وقد عاشت الزوجة فى عصمة رجلها بضع سنوات وربما عشرات ، حتى يئس الرجل من نسلها ، ويريد الاستعانة بزواج آخر ، مع احتفاظه بالأولى وتوفير مطالبها .

والنقص الثانى هو ما يكون عيبا جسمانيا لا يكمل معه استمتاع الرجل بزوجته ، ولا يعصمه ويكون سببا فى انشغاله وتفكيره . وكل الناس يعرفون العيوب الجسمية .

هذا الرجل يريد العصمة ، ويريد المحافظة على كرامته فيتزوج بأخرى ولا يحرم الأولى مطالبها والنبى صلى الله عليه وسلم حينما تزوج بامرأة من بنى غفار وأبصر بكشحها برصا ردها ؛ ونص الحديث ما يأتى :

« عن كعب بن زيد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج امرأة من بنى غفار . فلما دخل عليها ووضع ثوبه وقعد على الفراش أبصر بكشحها بياضاً (برصاً) فانحاز عن الفراش ثم قال خذى عليك ثيابك ولم يأخذ مما آتاها شيئا . رواه أحمد والبيهقى والحاكم » .

فما ذنب هذين الرجلين فيما اتخذاه من الزواج الثانى ؟

إن بعض الزوجات من هذه الأصناف يثرن ويغضبن ويبذرن بذور الخلاف والشقاق ويفتحن على الرجال أبواب الخصومات أنانية منهن وعدم تقدير لمصلحة أزواجهن . وتكون النتيجة دائما انهيار صرح الروابط وفصم العرى وتفكك الأسر ، وقد يجر ذلك إلى ما لا تحمد عقباه .

مما تقدم يتبين أن تعدد الزوجات فى أغلب الحالات من الأسباب المؤديه بالروابط أولا ، وبالراحة النفسية ثانيا ، وبالأموال ثالثا ، وبسلسلة من الخصومات القضائية أخيرا . وفى ذلك مافيه من أنواع الشقاء .

ولعلاج هذه الحالة يجب على الرجل إذا اضطرته ظروفه إلى تعدد الزوجات أن يعدل فى الحقوق ، وأن لا يجعل سبب هذا التعدد البطر والتمرد . فإن ذلك طريق الانحراف الذى نهى الله عنه ، ما دام له زوجة تقوم بواجبها وتحفظ كرامته وتقوم على خدمته .

وعلى الزوجة التى تبتلى بشريكة ثانية ، ألا تسير وراء عاطفتها ، وأن تهدئ نفسها . فربما انفرط عقد هذه الشريكة عندما لا يتحقق لزوجها ما زعمه ، حين اتجه هذا الاتجاه . وخير لها البقاء على أمل ، من الانفصال على حرمان ؟

تنبيـــــه

أيها القارئ العزيز

إذا كان لك من نزاع غير وارد فى أبواب هـذا البحث ، فنحن على استعداد لإرشادك إلى سببه ومعالجتـه . ويسرنا الوقوف على شىء جديد فى هـذا الموضوع .

المؤلف

موجة كراهية الحماة

وأثرها بين الأزواج

فى حياة المتزوجين ، يستشعر الإنسان موجة حادة من الكراهية ، تسرى فى جوها مدفوعة بانفعالات نفسية نحو والدة كل من الزوجين .

فأنّى سرت ، تستمع الصيحة مدوية ، والشكوى مرددة ، والحيرة مستولية ، والراحة مولية . فإذا ما أردت استقصاء أو رغبت فى إحصاء ، وجدتها كلها تتجمع حول كلمة واحدة هى ، (حماتى) . تخرج من فم الرجل أو المرأة ، كما يخرج اللفظ المكروه غير المحبب إلى النفس .

وإذا ما جست خلال دور القضاء ، واطلعت على كثير من الخصومات الزوجية . رأيت أكثرها قد تأججت ناره ، واستعر أواره من شرارة (الحماة) .

وإذا رأيت أعشاشا مخربة ، أو بيوتا كانت بالأمس آهلة ، ثم أضحت خالية أو مهدمة ، ثم تساءلت ما الذى حل بها ؟ قيل لك على الفور ، لقد (زنت) عليها (الحماة) فصيرتها كما ترى .

ولقد استفحل الأمر ، وعمت الصيحة ، وكبرت الطامة ، حتى تسرب كل ذلك إلى الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية ، فنشرت الكثير من الفواجع والجرىء من الوقائع ، والفكه من النوادر ، وكان أبطالها جميعا (الحماة) .

والآن تشاء سوء المصادفة أو حسنها لا أعلم ، أن تقع عيناى على خبرين مختلفين فى الوقائع وإن أتحدا فى النتائج والهدف . أحدهما فى جريدة (المصرى) الصادرة فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٤٤ والثانى فى مجلة (الشعلة) المؤرخة ٢٦ منه .

يتلخص الأول فى أن شابا مدرسا أزهق نفس والدته خنقا لأن زوجته غضبت من والدته وتركت منزل الزوجية . فلما أراد إرجاعها شكت من ثرثرة والدته ، وتمالكها زمام السلطة على المنزل دونها . وأن الابن قد دفعه الحقد والغيظ إلى اقتراف ما اقترف ، ولما اتهم بجريمته اعترف .

وأما الخبر الثانى الذى نشر بالمجلة فهو لزوج وقع باسمه تحت عنوان : (عند ما أعلنت حماتى الأحكام العرفية) ضمنه شكواه من غضب حماته عليه ونقمتها ، وسطوتها ورعبه منها ، وشدتها فى معاملته . وقد أقر على نفسه بأنه سهر سهرة (حمراء) وتأخر فيها حتى ضحى اليوم التالى . وأنه عند ما عاد كذب على زوجته وخدعها بأسباب لتأخره غير حقة . وأن حماته حينما

استمعت لروايته لم تصدقها ، وعرفت وجه الحقيقة فيها ، فصارحته بها وعتبت عليه من أجلها . وأنه لذلك يبغضها وينادى بالشكوى منها على صفحات المجلة .

هاتان حادثتان إحداهما وصلت إلى دور القضاء ولم تكن الأولى أو الأخيرة . والثانية كتبها زوج عن نفسه ، وقد اطلعت على أمثالها كثيرا فى جرائد ومجلات أخرى واستمعت إلى أنواع متعددة من خصومات الزوجية التى كانت مركبة على الحماة .

فلم هذه الكراهية ؟ ومم تنشأ وما هى الأسباب الحقيقية للخصومات ، وما هى الأدواء التى يصح أن تلتئم بها جروح الروابط ، وتحفظ بها حياة المتزوجين ؟ ذلك ما سنعرض له ، ونحاول تقصيه فيما يأتى من بحث .

ليس للحماة فى روابط الزوجية مركز واحد . بل هى ذات مركزين . أحدهما حينما تكون أم الزوج ، فتكون فى هذه الحالة حماة الزوجة . وثانيهما عند ما تكون أما للزوجة ، فتكون فى هذه الحالة حماة الزوج .

ولأجل أن نقف على مركز كل منهما وما يحيط به ، يجب أن نتحدث عن كل منهما على حدة .

حماة الزوجة :

إليك يا سيدتى الزوجة نوجه الحديث . إن أم الزوج هى بالنسبة له الكل ، وهو منها جزء ، وهى التى تعرف معرفة اليقين ما يرضيه وما يكرهه ، وما يفرحه وما يغضبه ، وهى التى نشأته صغيرا ، أو شب فى حجرها إلى أن صار شابا ، فهى التى وجهته فى التربية الوجهة التى أرادتها ، وبثت فيه من روحها ، وهى التى حينما اشتد ساعده وترعرع ، واكتمل نموه ثم توسمت فيه الرجولة ، عملت على استكمال هنائه وتوفير سعادته . فنتحت أمام نفسه باب التفكير فى الزواج ، ثم قامت بانتقاء تلك الشريكة لتحل محلها فى رعايته ، وتجلس مكانها فى الحدب عليه وصيانته . وهذا أكبر جميل قدمته أم الزوج لزوجته .

نعم يا سيدتى إنه أكبر جميل ، لأنك تذكرين أنها هى التى خطبتك ، وأنها وصفتك وصفا راق فى سمع ابنها ، وأنها هى التى حسنت له قسامتك وصفاتك ، وأقنعته باختيارك شريكة لحياته ، وأنه لولا رضاها يا سيدتى لما كنت زوجة ، ولولا اختيارها لما كنت سيدة بيت وربة منزل ، بل كنت لا تزالين عذراء فى بيت أبيك . فهل تذكرين ذلك يا سيدتى ؟

وهل تذكرين ما كانت عليه نفسيتك يوم أن سبقك إلى الخطوبة ثم إلى الزواج بعض

لذاتك ؟ ثم ما كان بك من ثورة نفسية على الحظ وعلى الزمان وعلى من يحيط بك ؟

هل تذكرين يوم أن تقدمت هذه السيدة إلى خطبتك ، وما كان يداخلك من أمل حار ، وخوف مزعج ، الأمل فى قبولك ، والخوف من عدمه ؟

وهل تذكرين عندما ابتسمت فى وجهك ، وربتت على كتفك ؟ أن هذه الحركة كانت بالنسبة لك نشوة فرح ، لم يتسع لها أفقك ؟ إنها بعينها أم الزوج يا سيدتى . لقد أرادتك لتحلين محلها فى العناية بأمور ابنها وإتمام سعادته . وهى تريد أن تكونى له وحده ، جسما وقلبا وعقلا . وتريد أن تكونى له محل الرعاية والمحافظة وراحة البال . وتريد أن تكونى له مخلصة مدبرة ومعاونة وشريكة له فى احتمال ما فى حياته من خير وشر . وتريد أن تكونى له أمينة على شرفه ، كما تريد أن تكونى له أم أولاده . وتريد أخيرا أن تكونى بها بارة .

هذه هى إرادة الأم وتلك أمانيها . فهل هى متعسفة فيما تطلب ؟ أو متغالية فيما تؤمل ؟ لا أظنك تقولين نعم . لأن ما تطلبه الأم هو دستور الزوجة الكاملة . وإن ما تريدك عليه سبق لها أن قامت به .

فهل قمت يا سيدتى بواجبك ؟ وهل أديت ما عليك من حقوق لزوجك ، ثم رأيت من حماتك بعد ذلك ما اضطرك إلى الشكوى ؟ أظن لا .

لقد ثبت يا سيدتى من الاطلاع على أكثر الخصومات ، أن الحماة تغار على مال ابنها الذى تستهلكه الزوجة فى الزيارات والاستقبالات ، وفى شراء ما لا يلزم ، وفى بعثرته ذات اليمين وذات الشمال . وأن الحماة تغار على كرامة ابنها ، إذا وجدت زوجته تهمل بيت ابنها ، وتقضى أوقاتها فى الشوارع والزيارات .

وأن الحماة تغار على ابنها إذا رأت ملابسه غير نظيفة ، أو حوائجه غير مرتبة ، أو منزله غير معنى به .

وأن الحماة تغار على شرف ابنها إذا رأت زوجته تتحادث فى التليفونات ، أو مع الغير بالرموز ، أو تكتب خطابات ، أو تأتى إليها خطابات لا يعلمها ، أو تستقبل غير محرم لها من الرجال .

وأن الحماة تغار على ابنها إذا رأت أولاده غير مرعيين فى حياتهم ، أو وجدتهم مهملين فى تربيتهم .

وأن الحماة تغار على نفسها أخيرا ، إذا رأت أنها فى حاجة إلى مساعدة حيوية ، وأن زوجة ابنها لا تبرّ بها وتحرمها من كدّ ابنها ، فى حين أن زوجته تهش فى وجه أمها وذويها ، وتقدم لهم أطايب ما فى البيت الذى هو ملك ابنها .

فإذا ما حصل ما تغار منه أم الزوج ، كان رد الفعل قويا فى نفسها . وحينئذ تثار المشاكل وتتأجج نار الخصومة ، لأن حرص الأم على حقوق ابنها شديد ، وقلما تقبل المساومة فيه .

تلك هى أسباب سعادة أم الزوج وهذه أسباب ثورتها ، وإن من يمعن النظر بين الشقين يجد تكافؤا وموازنة لا مطعن عليها فيهما .

غير أنه من الإنصاف للزوجة أن نذكر وجها ثانيا للخصومة . ذلك أن كثيرا من أمهات الأزواج يكن فى حاجة إلى العيش من كد أبنائهن . وقد جرت عادة الأزواج على توفير حاجات الزوجة دون العناية بحاجة الأم ويعتبرها كالكم المهمل . فالمأكل الطيب والملبس الناعم والقول اللين يهيئه لزوجته ولا يذكر ضرورة الأم . فترى الأم هذا الحرمان ، وتغضب لهذا الهوان ، ويلحق بنفسها حزن مكبوت ، لحقها المهضوم . فتنشأ من ذلك عوامل الحقد والضغينة ، ويدخل فى روعها أن زوجة ابنها قد حولت عطفه على أمه إليها ، وحرمتها منه . وهذه الحالة ليس على الزوجة فيها ملام ، وإنما الملام كله راجع إلى تصرف الزوج ، وهو المسؤول وحده عما يقوم على مثل ذلك من نزاع .

وخير علاج لمثل هذه الحالة هى تخصيص مكان وعيشة لأمه ، حتى لا ترى بعينها مايجرح شعورها ، وحتى تستمر المودة قائمة بين الأم والزوجين .

حماة الزوج

أجملنا القول فيما بين الزوجة وحماتها . وندخل الآن فى شرح مركز الحماة (أم الزوجة) بالحديث إلى الزوج :

إن أهنأ يوم فى حياة أم ، هو أن ترى ابنتها زوجة ، وسيدة بيت وأم أولاد .

وإن أسعد أوقات حياتها هى التى ترى أثناءها أن ابنتها فى غناء عن الحاجة إلى الغير ، بما يوفره لها زوجها من كد ، وأنها محبوبة ومرضيا عليها منه .

تريد هذه الحماة لابنتها استمرار الحياة الزوجية ، وتريد أن تكون منفردة بقلب زوجها ، فلا يشاركها غيرها فى قلبه . وتريد أن تكون مستمتعة بالحياة كما يستمتع لداتها . ولا تريد أن يكون كد الزوج منصرفا على نفسه فى المسارح والملاهى والخمور ، ثم يتركها ضائعة .

وتريد أن تكون ابنتها محل عناية زوجها ورعايته ، فلا يهملها إذا مرضت ، ولا يستهين بطلباتها الممكنة عندما تكون فى حاجة إليها .

وتريد أن تكون ابنتها بمنجاة من الرذائل ، فلا يدفعها زوجها إلى الاستهانة بالأخلاق

الفاضلة ، أو يخرجها من دائرة المحافظة التى نشأتها أمها عليها .

ولقد عرفنا بالتجارب أن أم الزوجة تحب روج ابنتها وتضعه مكان الابن من نفسها ، بل وربما أؤتمن على مالم يؤتمن عليه الابن ، وأفضى إليه بما لم يفض به لأحد من الأبناء .

وعرفنا بالتجارب أن زوج البنت له من الاحترام عند أم الزوجة ما لا يقاسمه فيه أحد . فهو الذى يقدم له التكريم ، وهو الذي تفتح له الأبواب المغلقة للتدليل والتسرية ، وهو الذى يختص بالمكان الوثير عند حضوره ، والقمة الهنية عند زيارته ، كل ذلك تقوم به حماته أم الزوجة ، إكراما لابنتها فى شخصه ، وتقديرا لكرامتها فى نفسه .

لكن بعض الأزواج يجعلون زوجاتهم كقطع الأثاث . يفترضون فيها عدم الرغبة فيما يطالب به الأحياء ، من مأكل وملبس ومصرف . فيستمتعون بما يريدون خارج المنزل ويتركوهن ، ويطالبوهن بخدمتهم دون الاهتمام بحقوقهن ، ويشمخون بأنوفهم عليهن ، وهم المقصرون فى طلباتهن .

فترى الحماة تغضب لابنتها إذا رأت زوجها مهملا لواجباتها كزوجة . وترى الحماة تغضب لابنتها إذا رأت زوجها يشرك أخرى فى قلبه . وترى الحماة تغضب لابنتها إذا رأتها مهيضة الجناح مكسورة الخاطر من قسوة زوجها . وترى الحماة تغضب لابنتها إذا رأت زوجها يصرف ماله فى غير ما خصص له ، فى حين أن ضرورات بيته غير متوفرة . وترى الحماة تغضب لابنتها إذا رأت زوجها غير غيور عليها . وترى الحماة تغضب لابنتها إذا رأتها أقل من لداتها استمتاعا بالحياة .

لذلك تغضب الحماة . ولذلك تقف موقف المدافع المكافح ، لأنها ترى من واجب أمومتها حماية ابنتها ، والمحافظة على حقوقها ، والعمل على إسعادها .

فهل تلام مثل هذه الحماة إذا غضبت ؟ وهل للزوج أى حق للشكوى من حماته إذا هو لم يقم بواجبه نحو شريكة حياته ؟ أظن كلا .

لقد فرضت للزوجة حقوق . كما فرضت للزوج حقوق . فإذا قام كل منهما بما يجب عليه للآخر ، امتنع تدخل أم كل منهما ، وعاشا سعيدين .

أما أن تقصر الزوجة فى واجبات زوجها ، وتتهم حماتها بتنغيصها ، أو يقصر الزوج فى واجبات زوجته ، ويكيل التهم جزافا لحماته ، فهذا ظلم محقق بل وانتهام جرىء .

إذن فليس الذنب ذنب الحماة ، وإنما هو فقط الاستهتار بالحقوق والواجبات .

* * *

بينا فيما تقدم موقف الحماة على أنواعه المختلفة ، وفى درجاته المتباينة . وكشفنا عن أسباب

الأنين والشكوى ، التى يصيح بها الأزواج فى جميع المجالس والمجامع . وقد تبين أنه أنين من من غير ألم ، وشكوى من معتدين .

غير أننا وقد أخذنا على عاتقنا التقصى عن جميع الأسباب ، والتحرى لجميع الوقائع ، نرى من أمانة البحث ودقة الإرشاد ، ألا نترك النادر الشاذ ، دون إثبات . لأنه حمل واقعة ، وآذى نفساً أو نفوساً ، وفرق بين مرتبطين .

هذا النادر الشاذ ينحصر فى نوعين : —

الأول . يحدث أن تكون لبعض الأمهات بنتان ، سواء من والد واحد أو من والدين . تزوجت إحداهما بزوج صغير المركز ، قليل المادة متوضع الجاه . ثم تزوجت الثانية بزوج يفوق الأول ويعلوه فى ذلك .

وتبعاً لهذا التفاوت تكون الأولى فى ضيق ، وتكون الثانية فى رغد . وقد يكون من الطبيعى أن تفرح أم الزوجة لهناء ابنتها الثانية ، وتمجد من أجل ذلك زوجها وتحابيه وتدلله وتصطفيه . نعم قد يكون ذلك من الطبيعى . وفى هذه الحالة يكون الرثاء للأولى والنقمة على زوجها من غير ما ذنب ، لأنه رجل على حالة لم يسمح الزمان له بغيرها .

أما الذى يؤسف له ويستغرب حدوثه ، هو أننا نجد بعض الأمهات تعكس الآية . فتدفعها غيرتها على حرمان الأولى وعجز زوجها ، إلى حسد الثانية والحقد عليها وعلى زوجها . ومن علامات ذلك أنها تأخذ من حق الثانية وتعطى للأولى رضيت أو لم ترض ، وتقتر على نفسها لتستكمل نقص الأولى ، ولا تعامل الثانية حتى بالبشر والود الذى يكون عادة بين الأمهات والبنات .

قد يستغرب ذلك ولكنه حق واقع . فقد ذهب الحقد ببعض الأمهات إلى الافتراء على ابنتها عند زوجها رغبة الوقيعة بينهما . وإلى حد الانحياز إلى الزوج ، عندما يكون سوء تفاهم بينهما . أملا فى توسيع الخرق ، وتوصلا إلى نفاذ تشفيها من هذا الاتساع .

نعم لقد ذهب الحسد ببعض الأمهات إلى تمنى خراب البنت ، ومجاهرتها بالفرح عند مأساتها ، والحزن عند سرورها . وبعض الأزواج الذين لا يعرفون مدى ما فى بعض النفوس من قسوة تجوز عليهم هذه الأعمال ، وتصبح الزوجة المسكينة بين شقى الرحى أو بين المطرقة والسندان . فلا هى بواجدة رحمة من الأم ، ولا رحمة من الزوج ، فتضيق بها الدنيا ، وتتسامع بصيحاتها وأنينها الجارات ، ولا تجد تسرية إلا مع معارفها من الغرباء !!! .

مثل عجيب :

كان لإحدى الأمهات بنتان ، كبراهما من أب ترك والدتها وتزوج بأخرى . وصغراهما من أب توفى وهى فى عصمته . وقد ربيت الأولى فى أحضان والد الثانية ، وأغدق عليها من عطفه وولائه مثلما تمتعت به ابنته . وعندما استوى عود الأولى ، ونضجت أنوثتها ، زوجها بمعرفته شاباً كان يعمل فى أحدى المهن اليدوية بأجر زهيد ، وعاشت البنت فى بيت زوجها ممتعة بعطف مزدوج من والدها ثم والدتها ثم زوج أمها حتى توفى الأخير .

كبرت البنت الثانية وطاب قطافها . وكان نصيبها فى شاب متعلم يقوم على عمل رسمى فى إحدى مصالح الحكومة . وكان الشاب إلى ذلك المركز على درجة من التجارب والمعرفة وتقدير البيت . فآنس فى زوجته الأدب والكرامة ، والتقى ولين الجانب . فعاملها بما تستحقه من تقدير ، وأغدق عليها من كده ووارده ما أغناها ، وملأ يدها ، وألهج لسانها بحمد الله وشكره على ما صارت إليه .

كان للأم بعض المورد الذى يحق للثانية فيه ولا يحق للأولى . فتنازلت لها ابنتها عنه لتوفر لها مطالب الحياة ، وتعيش فى سعة . أما الذي حدث فهو أن الأم عندما رأت ما صارت إليه ابنتها الثانية ، تحرقت أسفاً على الأولى ، وامتلأت حقداً على الثانية . ودفعها هذا الشعور إلى عداء ابنتها والاعتداء عليها دون ذنب . فكانت تختلق لها مشادات ، وتنتهز فرصة وجود زوجها وتشكو له سوء أدبها ! وعدم احترامها لأمها ، وأنها من يومها قليلة أدب طويلة لسان إلخ . لتوجد فى نفس زوجها الموجدة عليها ، ومعاملتها بما تستحق بتقريظ أمها ! ! ولم تكتف بذلك ، بل انها تنتهز فرصة تكون فيها ابنتها مريضة ، فلا ينتهى لها ضحك ، ولا تنقطع لها قهقهة ، رغبة فى غيظها ، وازدياد آلامها فى مرضها . ولا أعجب من أن ابنتها المسكينة قد تعسرت فى ولادتها وحضر الأطباء لإنقاذها ، وكانت بين الحياة والموت ، وأمها جالسة تضاحك ابن ابنتها الأولى وتؤاكله .

رأى الزوج فى حماته ذلك ، وتبين ما فى عينيها من نظرات الشامت ، وما فى قلبها من نيران البغض والحقد . فلم يسعه إلا أن ينفجر فيها لاعنا ، طارداً محرماً عليها دخول بيته ، أو وقوع نظره عليها فيه . ولم يدهش حينما كالت له من ألفاظ النذالة على ملأ ومسمع من الناس ما كانت تجازى عليه بالركل ، لو أنه كان رجلا من عينة أخرى .

أرذل الأنواع :

أما النوع الثانى من الشذوذ والخروج عن المألوف فى الحماوات . فهو نوع مصدره الحماة

(أم الزوج) وهو من شر أنواع الاعتداء على الزوجية وعلى أهل الزوجة. لما يترا كم فيه من مصائب وإحن ندر ألا تطيح بشاهق الأمل، وتأتى على صروح الأخلاق والروابط.

فقد يحدث أن يكون لأم الزوج أخوة أو صديقات لهن فتيات. وتكون الأم قد عقدت النية أو فتحت الحديث فى رابطة ابنها بفتاة من هؤلاء، دون أن يكون للابن رغبة، أو يكون على علم بما تدبر له أمه أو قطعت فيه وعودا.

وبينما تكون هذه الأم قد قطعت شوطا أو أشواطا فى طريق تنفيذ نيتها، إذ بابنها يفاجئها بأنه قد اعتزم الاقتران بفتاة يعرفها هو. وأنه قد تحرى وتقصى ثم عقد العزم على تنفيذ رغبته.

فى هذا الوقت تشعر الأم بأنها صدمت وأن موقفها صار صعبا. فإن هى أغضبت ابنها فإنها تخشى التجاوز عنها والاستقلال بنفسه، ومباشرة أمره دونها رضيت أم كرهت، ولأنها فى ذات الوقت قد فتحت قلبها لأخرى انتوت أن تكون لابنها وعرف ذلك أهل الفتاة وقبلوا تنفيذه. فماذا تصنع ؟ ...

إنها تطيع على مضض، وتقبل مكرهة، وتضغط على شعورها حتى الكبت. ولكنها تضمر فى نفسها الشر وتأخذ الأهبة لتوقع الضربة. وتتحين الفرص وتفتح عينيها للبحث عن المساوئ، وتصبح متربصة مترصدة للطم قبل حدوث الجنازة! فويل للفتاة التى رغب فيها ابنها، بل وويل لذويها الآمنين ؟!

إن باب المكاره والبلايا، والإحن والرزايا، سيفتح حينما تذهب مع ابنها كخاطبة لترى عروسه، وموضع اختياره. فهى تذهب متحفزه لحرب، ومتهيئة لنزال. وعين السخط دوما تبدى المساوئ، وتغضى أو لا تبصر مطلقا وضح النهار ووهج الشمس. فإذا أمكنها إقناع ابنها بأن فتاته سمراء، أو قصيرة، أو نحيلة، أو بخرة، أو فقيرة، أو إلى آخر ما تدعيه، فعدل عن رغبته، فقد وصلت إلى ما ابتغته من أقرب طريق. وإلا فإن هذا الباب الذى فتح، يتصل بطريق طويل وشعب مختلفة فى ثناياها الأمل حىٌّ. وما حرمت منه اليوم لن تحرم منه غدا.

تأتى الخطوة الثانية وهى مسألة الشبكة والاتفاق على المهر. فلا تترك الأم وسيلة من وسائل النصح المرذول، حتى تضفها فى عقل ابنها تحت ستار المصلحة. وهيهات أن تكون هديته للفتاة مما يبهر النفس.

فإذا مر هذا الأمر بسلام، واحتمل أهل الفتاة ما رأوه من تقتير، جاء الوقت الذى بين ذلك وبين العقد، ثم تلاه الوقت الذى بين العقد والدخول ثم جاء بعده الزفاف الخ ...

فى هذه المدة لا تهمد الأم ، ولا تتوانى عن التجسس أو تحسس المساوئ . ولا تغفل عن تسوىء الفتاة أوأهلها أو تصغير شأنهم ، أوإلصاق التهم والمعايب بهم أونقدهم ، والتغنى بنقص مدعى . ثم تهىء ابنها لأن يغير معاملته ، ويلبس ثوبا غير ما ربى عليه ، مستعينة بحنانها عليه ، وأمومتها له، وخضوعه إليها . فلا تدعه يقدم هدية مثلا ، ولا تطاوعه إذا أراد إقامة مأدبة ، ولا توافقه إذا هم بعمل ما يعد تكريماً لفتاته أو ذويها . ستكون هذه الأم كلولب كهربائى ، اتصل بتيار ، فدار دون توقف ، ليؤدى المهمة التى دار من أجلها .

ولما كان كل شاب نشأ فى أحضان أمه ولم يفارقها بعد ، قد مرن على حب أمه وإطاعتها والخضوع لأوامرها ورغباتها ، والاعتقاد بتفوقها عليه عقلا وتجريباً — وهذا الابن واحد من هؤلاء — فإن كثرة الرغبات والأوامر والنصائح التى تقدمها الأم له ، ستجد سامعاً وطائعاً ، إن لم يكن لكلها فلبعضها . والبعض والكل فى هذه النصائح مفروض فيه أنه تعليل لواجب الفتاة أو أهلها .

أما الفتاة وذووها فإن ما يرونه من تقصير ، وما يبدو لهم من إهمال لشأن فتاتهم ، يغمضون عنه ولا يتحدثون فيه ، ويدارون ويختلقون الأعذار ، ويدفعون عن عريس فتاتهم ما قد يكون من نوايا سيئة ، أو عمل صغير . ذلك لأنهم يريدون قدسية الزواج ، ويرغبون فى الارتباط . ولأنهم لا يعرفون ما يدور وراء الستر ، وحتى لو عرفوه فأنهم يحتملونه ، فلا يدفعون ولا يدافعون . وجل ما يعملون أو يريدون ، هو أن يظهروا راضين مغتبطين ، وحتى مغالين فى الرضى والتكريم والحفاوات التى لا ينقطع لها خيط ولا يخلو منها بيتهم فى نهار أو ليل .

سيتم الارتباط ما دام قد قدر لفتاتهم أن تكون زوجة لابن هذه الأم ، وهو عمل من صنع الله سبحانه وتعالى لا بد من نفاذه . ولكن . ما الذى سيكون لهذه الأفعال من نتائج وهى أفعال الشيطان ؟!!

لقد دست الأم كثيراً ، واختلقت كثيراً ، وكذبت كثيراً . وحاكت خيوطاً كثيرة من تغيير نفس ابنها وتحميلها مما يزعج أو يبغض أو يحول به دون السير فى طريق الصواب .

وهى من ناحيتها قد كثر غليان مرجلها ، وكانت عزمة ابنها على تنفيذ رغبته ، كصمام متين لهذا المرجل . ومن شأن هذا الغليان المستمر إذا وصل إلى حد معين ، أن يطيح بالصمام ويفيض ما يحتويه المرجل على الجوانب !! ومن أجل ذلك يتغير لديها معيار الحديث ، وتقدير الكلام . لأنها إذا تحدثت خرجت عن الطور ، سواء فى التعبير أو الإشارة . وإذا استمعت

تذمرت وأساءت فهم ما تسمعه ، بل وتوجهه إلى الوجهة السيئة التى تكون الفتاة وذووها قد أخلوا أذهانهم منها . ومثل ذلك يكون كالنار إذا وضعت على هشيم . فلا تؤمن سلامة . ولا يؤمل خير .

وهناك ما هو أدهى وأمر . ذلك أن هذه الأم إذا كان قد قدر لها أن تعيش فى نفس البيت الذى يعيش فيه ابنها مع زوجته ، فأن سلسلة من الأكاذيب والاختلاقات ، والدس والتدبير سيواجه بها الشاب وستلصق بالفتاة . فيوم واحد قد لا يمضى دون جديد ، ومواجهة واحدة قد لا تمر دون آلام .

وإذا عرفنا أن القلوب لا يفتح مصاريعها إلا الود . وأن الحب ليس له لقاح ، غير لقاح واحد ، هو حسن المعاملة . وأن هذين العاملين لم يفقدا فحسب ، بل زيد على الحرمان منهما ، الاختلاق والدس ، وهما شر مستطير ، يذهب بالرواء ، ويجفف الندى من النفوس ، بل ويكون بذوراً للحقد والضغينة . إذا عرفنا ذلك تبين لنا ما تعانيه الفتاة من رد الفعل ، وخيبة الأمل ، وانصرافها الكلى إلى شىء واحد ، هو تدبير الخلاص من هذا الجحيم .

وليس الزوج أسعد حالا ، ولا أهنأ مآلا . لأنه بدوره قد استمع كثيراً لوالدته ، ولم يعرف ، أو هو لم يتنبه إلى حقيقة موقفه فشغلته الحوادث المتوالية ، والوقائع المتلاحقة ، عن الأخذ فى تمحيص موقفه ، ولم يمد حبلا من حبال الود إلى تلك التى اختارها ، ورغب فى مشاركتها . فداخله الانحياز إلى أمه . ووقف كعضد لها ضد فتاة لا تعرف سبباً واحداً لهذه الحرب المشبوبة ضدها ، ومن المحقق أنه يختار فى الوقت المعين فصم العروة ، والخروج من هذه الشركة زعماً منه بأنه يستريح !!!

أمل منقود ، ورجاء خائب ، وحياة ضيعتها أم الزوج ، بما اتخذته من رعونة وأحابيل ، ذهب ضحيتها ابنها أولا ، ومن رغب فيها ثانياً ، وذوو الفتاة أخيراً والعياذ بالله .

مأساة فتاة !!

كان لإحدى النسوة ولد دخل معترك الحياة واتسعت طرق ارتزاقه ، واعتزم البحث عن شريكة تقاسمه الحياة . وكانت لهذا الشاب شبه نزعة استقلالية لم تستقر بعد ، ولم تصهر فى بوتقة التجارب ، ولم تمتحن بالاحتكاك لأنها كانت جنيناً لثقافته ، وبذرة لجهوده فى الحياة . ومع ذلك فقد كان به ضعف يكاد يصير عجزاً أمام والدته ، التى عودته الخضوع لرأيها ، وملأت رأسه بالطاعة العمياء لأوامرها .

إلا أنه وقد نبتت فى نفسه بذرة تلك النزعة ، أراد أن يستقل بالبحث عن شريكته ، وواتته ظروف عرف بها الطريق ، ووصل إلى ما اعتقده أنه خير ما يريد . وانتهز الفرصة وخطا خطوات كان من نتيجتها اتصاله بالفتاة وذويها ، ووضع الأسس لإتمام الارتباط ، ومن هذه الأسس الاتفاق على إحضار والدته لتتولى عنه إتمام الموضوع .

ذهب الفتى لأمه فرحا مستبشراً ، وطلب إليها الذهاب معه لزيارة خاصة لم يشعرها بحقيقتها زعما منه بأنه سيفاجئها مفاجأة حسنة . وحضرت الوالدة مع ابنها إلى بيت الفتاة وذويها ، وكانت جلسة قام فيها أصحاب الدار بما يهيىء لها كل أسباب البشر والايناس . ومع ذلك فقد آلت الأم ألا ينفض المجلس قبل أن يبدو منها ما يعبر عن نفسيتها ، واعتبرته الفتاة وذووها من الهنات .

ولما سار الموضوع جديا فى طريق التنفيذ ، ورأت الأم ألا مفر من مسايرة ابنها — على ما فى نفسها من مضض — تحركت فى نفسها لواعج النقمة على الفتاة وذويها . فحسنت للفتى قضاء أوقاته فى بيت الفتاة . فكان يخرج من عمله إلى هناك يأكل ويشرب ويحتفى به ويراعى بكل ما يمكن من حفاوة وتكريم . وقد عزت الفتاة وذووها ذلك إلى أن الفتى أصبح بعد عقد الرابطة لا يقوى على الابتعاد عن فتاته . ولكن الأم كانت تقصد إلى شىء آخر هو إرهاق ذوى الفتاة ليملوا ، ويكون ما يكون من نتائج الملال . ولكن ذلك مرّ دون أن يحدث فى نفوس ذوى الفتاة أثراً .

عرجت الأم بعد ذلك إلى محو كلمة الإهداء والهدايا من قاموس تفكير ابنها ، فامتنع عن تقديم شىء مّا لعروسه طيلة المدة من يوم الخطوبة حتى ليلة الزفاف . ولا تسل عن نفسية الحيران والمعارف إذا وقفوا على هذا الشطط ، وعرفوا ما يتكلفه أهل الفتاة فى الاحتفاء بمثل هذا الزوج البخيل . لكن أهل الفتاة احتملوا ذلك وصغروه فى عين فتاتهم ، والتمسوا للشاب العذر بل الأعذار التى تحميه .

وفى ليلة العقد قام أهل الفتاة بعمل مأدبة فخمة ضخمة ، جمع فيها العريس أقاربه ومعارفه ، واستمتعوا ومرحوا . وكم كان مؤسفاً أنه حضر من غير أن يستحضر من الواجبات ما لا يجهله أحد من الناس .

انقضت مدة التجهيز وقد بلغت حوالى الشهرين وحدد يوم الزفاف . وفى ليلة كانت أم الزوج مع ابنها فى بيت العروس . فجر الحديث ما سيكون عليه هذا اليوم أو ماذا سيكون فيه . فقالت أم العروس ضاحكة لقد أدينا واجب الحفاوة بليلة العقد ، ونرجو أن تكون ليلة الفرح

محتوية على ما يدخل السرور علينا جميعاً . لكنها ما كادت تنطق بهذه الجملة حتى همت أم الزوج واقفة صائحة صاخبة مزمجرة ، وقد أقسمت أن ابنها لن يشترك فى أى مصروف .

لقد ذهلت أم العروس وابنتها وأندهل رجل البيت لهذا الانفجار الذى لا يوجد له ما يبرره . فقال والد الفتاة مهلا ياسيدتى . إننى لا أعتب عليك ما سقط من لفظ ، ولكنى أهون عليك الأمر . إذا لم تروا داعياً لعمل شىء فهذا أمر غير محتم عليكم . وإننا بعد انهاء التجهيز سوف نخبركم فتحددون يوماً تحضرون فيه لأخذ الفتاة من غير ماجلبة ولا غضب . وإذا كنا نريد فرحاً فسنفرح ، ولكن ذلك سنرجئه للظروف . وانتهى هذا الحادث ومر ، بفضل تجاوز أهل الفتاة وملاغاتهم لما قد يجد من جديد ، على مثل هذه الحوادث .

حدد يوم الزفاف . وقام أهل الفتاة بعمل ما يدخل على ابنتهم السرور ، وكان يوما تحدث بجلاله والاستعداد له جيران البيت ومعارفه . وحضر الزوج وأهله وأصحابه ، ووقفوا على ما عمل واستمتعوا بما لذوطاب . ومع ذلك فقد احتمل أهل الفتاة هذا الإهمال وغضوا أبصارهم على ما فيه من مساوئ وإن كانت كالرمال فى المحاجر . وانتهت الأمسية وزفت الفتاة إلى الفتى وأصبحت فى بيت يضمها وتلك الأم الحمقاء .

لقد كانت الفتاة تأمل فى زواج خلو من هذه المنغصات ، وترجو لنفسها هناء وسعادة ككل الفتيات ، ولكنها لم تجد أو عزّت عليها الراحة .

وكان الفتى يرجو لنفسه مستقبلا غاصاً بالسرور والبهجة ، ولكنه لم يعمل للحصول عليه . وفلت من يده الزمام .

وكان أهل الفتاة يحبون أن تسعد أنفسهم بسعادة ابنتهم ، فتجاوزوا ، وتكلفوا ، واحتملوا ، ولكن رد الفعل أصابهم فى شقائها .

أما أم الزوج فكانت دائبة العمل على هدم ما بناه ابنها ، والرقص على انقاضه ، فكان لها ما أرادت : وهى التى وصلت إلى ما تريد .

نفوس مأزومة ، وحقوق مهضومة ، وقلوب مغلقة ، وجو خانق : وحق على أمثال هؤلاء التخلص والفرار وهجر الديار .

* * *

هذه هى آثار أعمال الحماة بحسب مركزها وموضعها . كشفنا عنها وعريناها من أرديتها ليقف الناس على الحقيقة .

ولأجل أن يحتمى الأزواج مما يترتب على هذه الأفعال ، يجب أن يقوم كل بما يجب عليه فى حدوده .

فأم الزوج يجب أن تعرف أن لابنها رغبات ، وأنه سيكون رجلا ووالد أولاد . فلتترك له حرية الاختيار ، ولا توجهه إلى ما تريده هى من أهداف .

وأم الزوجة يجب أن تفرح لابنتها عندما تراها قد سعدت بزواجها ، ولو انفردت دون أولادها بهذه السعادة ، لأن الله جعل فى الناس سعداء وأشقياء .

والزوج يجب عليه أن ينظر ويتروى ، فلا يحكم بالسماع ولا يتغير بالأقاويل . وأن يقوم بواجبه كرجل .

أما الفتاة وأهلوها وهم ضحايا هذه الحماقات ، فإنى أشير عليهم بالتجاوز حينما يتكشف لهم الأمر ، وينالون ترضية من الزوج ، ويعرفون أنه قد اختط لنفسه خطة الاستقلال والإقدام .

تنبيـــه

أيها القارئ العزيز

إذا كان لك من نزاع غير وارد فى أبواب هـذا البحث ، فنحن على استعداد لإرشادك الى سببه ومعالجتـه . ويسرنا الوقوف على شىء جديد فى هـذا الموضوع

المؤلف

تقلبات الزمن وطوارئه

إن الذى يقول بأن الدنيا تدوم على حال واحدة ، وتسير على نمط واحد ، يقرر الخطأ ويجانب الصواب .

وإن الذى يعتمد على دوام السرور والهناء ، أو دوام المال ، قد اعتمد على خلو ، واستند إلى هواء .

وإن الذى يعتقد بدوام الصحة ، أو دوام الحياة لنفسه ، أو لمن يحب ، قد غالى فى الأمل ، وخرج على ما قرره الدين .

وإن الذى يقرر دوام الاستقرار ، واستمرار الاجتماع وعدم الفراق ، يكون قد خالف سنة النشوء والارتقاء .

يقول المثل (دوام الحال من المحال) . ولم يتخذه المجربون إلا تعريفا لتقلبات الزمن وتطوراته ، التى تقع على الإنسان . وإن من ينظر إلى نفسه كيف نشأ ، ثم درج ثم شب ، ثم دخل معترك الحياة ، وما مر عليه من أحداث بعضها صغير ، وبعضها كبير ، ومقدار أحاسيسه عند وقوعها ، وما أصبح عليه بعد مرورها بشهور ثم بسنين ، إلى آخر ذلك ، يعرف كيف تطور به الزمن وتقلبت عليه أحداثه . وإذن فلنعتقد بالتغيير ، ولنؤمن بعدم دوام الحال .

غير أن ذلك الاعتقاد والإيمان ، لا يمنعنا من الأمل فى بقاء ما يمكن بقاؤه ، بالعمل والمحافظة عليه . فالصحة يمكن بالمحافظة أن تدوم . والمال يمكن بالمحافظة عليه والاجتهاد فى تحصيله أن يستمر . ومع ذلك فلا يمكن الاطمئنان لمغبة الزمن وتقلباته .

فالنبى عليه الصلاة والسلام وهو أكبر وأعظم من احتفظ بصحته قد مرض . وكذلك أكبر الأطباء مرضوا وحيروا زملاءهم فى أمراضهم . وكذلك جرف ميل الدهر بثراة ، وأغنياء ، وأصحاب ملايين ، وتيجان . ولم يحل دون ميله كثرة ولا جاه . ولذلك كله كان تقلب الزمن أمراً واقعاً يستوجب الاعتقاد .

والزوج والزوجة من الأحياء الذين تجرى عليهم الحوادث ، وتقع عليهم التقلبات . وكل منهما هدف لما يصيبه من الزمن حسب حظه من الخير والشر فى الحياة . وقد يكون بين الزوجين ولاء وعطف ، ووداد وحب ، وانسجام وامتزاج فى التفكير والأرواح ، ويعطيهما الدهر وجهه الوضاح ، ويسقيهما كأسا مترعة من الانشراح . لكنه وعلى حين

غرة ، ومن غير حسبان لما يخفيه عنهما ، يرجمهما بالطوارئ ، ويقلب لهما صفحة الحياة فى ناحية أو نواح مختلفة الأنواع ، فيهتز بهما مقعد الاستقرار ، وتتأرجح بهما جنة السرور ، ويتغير الحال إلى نقيض الحال .

كثير من الأزواج تصهرهما الحوادث ، وتوحد بين نفوسهما ، وتمزجهما ثم تصبهما فى قالب واحد فيخرجان روحا واحدة ، تشعر بما يشعر به كل الأعضاء فى الجسدين . وهؤلاء أناس أفادتهم الحوادث ، وكانت سببا فى تعليمهم .

لكن بعض الناس تزعجهم الحوادث ، وتقلقهم التقلبات ، فتدفعهم إلى التهرب ، وتميل بهم إلى التغيير ، وتبث فيهم الانزعاج . وكما قلنا ، تقع هذه الحوادث على الرجال وعلى النساء سواء . ولكن لكل من النوعين مقدار من المؤاخذة . ونصيب من الملام ، يغاير ما لشريكه فى هذا المقام .

ذلك أن بعض الأزواج أو الزوجات ينكب فى عزيز « أخا كان أو أبا أو والداً أو ابنا » فما تقع الواقعة حتى يحتويه الحزن تحت ذراعيه القويتين ، وتتقلب حالته النفسية رأساً على عقب ، ويداخله اليأس من الحياة الهنيئة ، وتظلم الدنيا فى عينيه ، فيجانب كل ما فى الحياة من استمتاع ، إلى آخر ما يعرف عن المحزونين الذين تهتك أعصابهم الصدمات .

ويحدث أن يكون الطرف الثانى ، من الذين لا يأبهون بمثل هذا المصاب ، ولا يقدرون الآثار التى أوجدها موت هذا العزيز . فلا تتغير أوضاع حياتهم ، ولا يخالف أحدهم ما تعود عليه ، أو يوقنه . وفى هذه الحالة يكون المحزون ممن قد أرهفت أسماعهم ، ورق شعورهم ، وحدت أبصارهم ، فتشعره هذه الأفعال بالاستهتار بأمره ، وعدم الاهتمام بمصابه ، والويل كل الويل إذا كان ضمن هذه الأفعال ، ما تكون أداته السرور ، وسبيله الهناء واشتراك الطرف الثانى !!

إن المحزون سيضيق ذرعاً ، وستتأزم نفسه ، ويثقل الهم تفكيره ، فلا يعاتب ولا يجادل ، ولكنه يندفع مؤاخذاً على جرم ، ومنتقماً على تقصير ، فى عناد وصلابة حادتين ، أملا فى التنفيس .

وذلك الطرف الذى لم يتأثر للمصاب ، وسار على نمطه بغير تغيير ، سوف لا يكون أقل اعتراضاً ، أو أخف حدة ، أو أميل إلى الاقتناع ، لأنها عادته ، ولأنه خلقه ، ولأنه السبب فى تحرج الموقف .

ومن أجل ذلك . نرى أن أمثال هؤلاء الأزواج ، قد تدخل بينهم المصاب . وهو يجر

مصاباً آخر ، هو الخصومه ، وهو الشقاء ، الذي ندر أن يمر دون أن يطيح بما كان من هدوء واستقرار .

ونوع آخر من ضربات الزمن ، يتمثل فى البطالة ، أو انعدام المورد ، وهو عادة مصاب الرجل ، لأنه المسئول عن توفير العيش وما يتبعه . فقد يحدث أن يكون هناء العيش ، وقيام الزوجة بلوازم زوجها ، وقفاً على اطمئنانها ، عند ما يكون مستمراً فى عمله ، يقبض الأجر أو الوارد من إيراده فى وقته المعين ، فتوزعه الزوجة فى أبواب العيش والمطالب ، طيلة المدة المعينة . وتكون الحياة بذلك على روتين معين ، أو وتيرة معروفة ، أوطريقة محددة . وما دام الوارد وارداً ، وما دام العمل قائماً ، فالمعاشرة مستمرة ، والنفوس هادئة .

لكن التاجر قد تطيح بثروته خسارة ، وهو فى السوق معرض لذلك . والموظف قد يقع فى خطأ أو إهمال يقصيه عن وظيفته ، وقد يقصى بدون خطأ أو إهمال ، كاتخاذ مبدأ يغاير مبدأ رؤسائه ، الذين يملكون طرده وإبقاءه . وقد يقصى للاستغناء أيضاً وليس ذلك بذنبه . ومالك الأرض أو العمارة ، قد تذهب بأرضه أو عمارته صيحة خصومة لم يتمكن من دفعها عنه . ومستحق الريع فى وقف قد يحرم من استحقاقه بشرط الواقف ، إلى غير ذلك من حرمان الرجل من وارده . وكل ذلك سهل على الدهر أن يجىء به ، وسهل على الحياة أن تجعل الرجل هدفا لمثل هذا المصاب .

ولقد يصادف أن تكون زوجة مثل هذا المنكود ، من أولئك اللواتى سبق وصفهن ، فما أن تقع مثل هذه الواقعة وترى تغير الحالة حتى يتملكها اليأس من الفرج ، ويفلت منها زمام أعصابها ، ولا تعرف للصبر طعماً ، ولا للأمل فى المستقبل حساباً ، ولا للاعتماد على الله بابا . هذه الزوجة يقلبها اليأس رأساً على عقب ، فترفع يدها عن البيت مرة واحدة ، وتدبر للزوج والزوجية ، وتهرب غير آسفة على شىء ، لأنها لا تحتمل القلة ، ولا تستسيغ تغير الحال . ثم تترك المسكين فى وحدته يعانى ما نزل به وحيداً ، ولا يحدثها ضميرها بمشاركته بأساءه ، كما شاطرته سراءه .

هذا النوع من النساء أقرب إلى الغدر وإلى الغرض ، وأبعد ما يكون عن عرفان الجميل ، وتقدير واجبات الزواج . عاشت مع زوجها فى قدرته ، وتركته حين احتياجه . ضحكت فى وجهه وقت أن كان تاج المال على رأسه ، وعبست له حين ذهب . كانت زوجة للعز والجاه ، وأبت أن تكون كذلك بعد الزوال .

هذا النوع من النساء كالرجل الجاهل الصامت . إذا تحدث ونطق كشف عن نفسه ،

وأبان عن جهله ، فحرم مما كان ممتعاً به من احترام الصمت . وهو من النوع الذى ينطبق عليه قول الشاعر :

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوى من صديقى

مثل هذه الزوجة يشقى الرجل تصرفها ويشقيه العيش معها ، ولن يقبل إذا عادت إليه أحواله ، إعادتها إليه ، أو العيش معها مرة ثانية ، لأنها ناكرة الجميل .

كذلك الرجل الذى يصاب بمرض بعد صحة ، وضعف بعد قوة ، واعتلال بعد سلامة ، ويكون زوجا لمن لا تحتمل المواساة ولا ترضى بالتمريض . سوف تهمله مثل هذه الزوجة ، ولا تعنى به ، وسوف تشكوه لطوب الأرض ، وتندد بعاته . وسوف تتركه مهملا يقاسى آلامه وحيداً ، ولا تقطع زيارة ولا خروجا ، بل ربما بحثت عن تسرية لنفسها بعيداً عنه . ومثل هذا المسكين إذا كان فعل العلة به قد أضعف جسمه ، فإن فعل امرأته به يضعف نفسه ، وقواه المعنوية ؛ فيضاعف مصابه ، ويكون ذلك سبباً فى اتخاذ ما لا تحمد عقباه مستقبلا .

هذه الزوجة ومن سبقها من زوجات ، يوجدن كثيراً تحت أزواج : وكلهن تختبىء حقيقتهن تحت ستار : وتختفى منازعهن وراء حجب . وهذه الأستار والحجب إذا شفت أو أزيلت ، كشفت عما وراءها مما لا يسر الزوج ، ولا يشرف الزوجة .

هذا الصنف من السيدات لم تطبع نفوسهن على الاحتمال والصبر ، والمشاركة فى السراء والضراء . نفوسهن حائرة ، وتفكيرهن فى أنفسهن أولا . وهن أنانيات ؛ يأخذن ولا يعطين ، ويحملن ولا يتحملن . قسمة ضيزى ، واجتراء على قدسية الزواج فى جوهره وصلبه .

هذا الصنف من السيدات شقاء على الأزواج ، وحرب على أنفسهن ، ما دمن فى الحياة ، وما دام الدهر لا يؤمن .

وإذا كان ما ذكرناه قد وجد ويوجد فى كثير من الزوجات ، فإن مثله يوجد فى كثير من الرجال ، غير أن ما يبدو من الرجال أبعد أثراً ، وأشد وقعاً مما يبدو من المرأة على صعوبته .

ذلك أن الرجل مفروض فيه الرعاية والمسئولية . ومفروض فيه رجاحة العقل والروية . ومفروض فيه واجبات الزوج الذى يحتمل عن زوجته متاعب الحياة ، ويوفر لها أسباب عيش هنىء ، وبيت سعيد . فإذا كان مايبدو منه هو عينه ما يبدو من المرأة ، فقد رفعت الفروق بين مركز الاثنين ، وهو ما لا يقره الدين والاجتماع . إن المفروض فى الرجل هو توفير عوامل السعادة لزوجته من مأكل وملبس وسكنى . ومفروض فيه أنه لا يدخر وسعاً فى تطييبها إذا مرضت ، وفى مواستها إذا أصيبت ، وفى التسرية عن نفسها إذا حزنت .

لكننا نجد كثيراً من الرجال لا يهتمون بمصائب الزمن على زوجاتهم ، فلا يشاركونها فى حزنها على أعزائها ، ويسرحون ويمرحون كأن شيئاً لم يكن ، ويتركونها تقاسى آلام المرض ، وشدة الضعف ، دون رعاية ولا عطف . بل إن بعضهم ينتهز ذلك فرصة للتخلص منها ، كأنها علة على نفسه ، وبعضهم يزهد فى زوجته إذا تغيرت فى منظرها بإصابة أو حادث ، ويشيح بوجهه عنها . وهذا وغيره يصدر عن بعض الرجال لزوجاتهم عقب ما يأتى به الزمن من تغيير الأوضاع . وقد ثبت أن آثاره أحدُّ فى فعلها من الآثار التى تترتب على جنوح بعض الزوجات إلى الانقلاب فى مثل هذه الحالة .

ذلك أن الرجل إذا تركته زوجته وهو فى ضائقة مالية عقب خروجه من عمله ، أو قطع مورده ، فإنها تكون فى الحقيقة قد خففت عنه مسئولية الحياة ، أكثر من مضاعفة متاعبه بمسئوليته عنها .

وإذا تركته لطول مرضه ولو زهد فيه ، فإن ذلك يريحه ويكشف له عن نفسها وهو طبعاً أقدر على تغييرها بأحسن منها .

إن المسلم به هو أن الرجل يأتى بالمرأة ، وليست المرأة هى التى تأتى بالرجل على أكثر الحالات . فإذا ترك الرجل المرأة فقد أضاعها ، لأنها فى أغلب الأوقات لا تجد من يعولها ، ولا يمكنها أن تعرض نفسها على الناس .

وإذا تخلص الرجل منها وهى فى حالة من الحالات السابقة ، كالحزن أو المرض أو التشويه فى جمالها ، فإن مصيبتها تكون مضاعفة ، لأنها تكون قد فقدت كل شىء .

ولا أدل على ذلك من أنك تتصور امرأة كانت لها صفة الزوجية ، يقوم على حياتها إنسان . وكانت لها وسامة تشعرها بحقها فى الحياة كزوجة ، ثم أصيبت بما شوه وسامتها ، وترتب على ذلك زهادة زوجها فيها ، وتركها وقد لا يكون لها معين ! ؟.

هذه السيدة كيف تنظر للحياة ، وبأى أمل تعيش ؟ وعلى كاهل من تلقى تبعاتها ؟ إن مجرد انفرادها وخلوها يوجب الحسرة ويوجد الأحزان .

هذه هى أفعال الزمن وتقلباته ، وآثار تغيره على الحالة الزوجية ، قد أوجدت الشقاء ، وخلفت التعاسة ، وهدمت ما كان يؤمل بقاؤه ، والاعتزاز به . ولما كان لكل داء دواء يستطب به ، فإن التجارب أوجدت دواء هذا الاعتداء الزمنى .

إن الزوجية تستوجب المشاركة فى السراء والضراء وتحميل الطرفين نصيباً متساويا من الخير والشر . ومن الواجبات الأولية لهذه المشاركة هى الإخلاص ، والمواساة ، والتعضيد ، وعدم الأنانية ، وبذلك وحده يكون علاج هذه الحالة لمن أراد أن يداوى هذه المؤلمات .

جرائم الأقارب والأصدقاء

أقارب الإنسان هم من تربطه بهم صلات الرحم أو العصبة . وأصدقاؤه هم من تنزع نفسه إليهم ، بوسيلة الاتفاق المزاجى . وهؤلاء وهؤلاء ، لهم حقوق الود ، وواجبات الاجتماع ، عندما يحافظون على الحدود ، ويقومون بما عليهم من واجبات . أما إذا كان منهم من يحتمى فى صفته ، ويستغل مكانته للوصول إلى غرض ضار ، بالقريب أو الصديق ، فى ماله أو عرضه أو نفسه ، فإنه يكون شرا عليه من الأعداء ؛ إذ العدو معروف بعداوته ، ويسهل الحذر منه . أما هذا القريب أو الصديق الضار فإنه يتستر تحت رداء مزيف ، ويضرب ضربته وهو آمن حتى من الاتهام .

وأمثال هؤلاء الأقارب والأصدقاء ، شر على الزوجين ، وحرب على الرابطة التى تكون بينهما . ومن أعمالهم ما يعصف بالهناء ، ويلقى بصرح الزوجية فى وهدة ليست بذات قرار . لقد صاروا الآن حربا على الائتلاف والاجتماع ، والصلات العائلية . وهم أساحة قطعها وإبادتها ؛ فالغنى منهم ينكر الفقير ويتنكر له . لا يساعده بمركزه ، ولا يؤازره بجاهه ، ولا يمد له يد المعونة فى عوز أو احتياج .

والفقير يتحسر على نفسه مما يلاقى ، ويحزنه مجافاة قريبة الغنى ، وقبض يده عنه ، والابتعاد منه . وهو من أجل ذلك يشمت فى مأساته ، ويفرح ويتمنى زوال نعمته ، وصيرورته إلى العوز .

إن الأب إذا كان غنيا صرف أمواله على ما يعود على ملاذه الشخصية وأنانيته ، دون مراعاة لحاجات ابنه أو ابنته ، إذا كانا فى عيشة بعيدة عنه .

والابن قد عق ونسى البر وتنكر لوالده الفقير . وكثيرا ما نرى بعضهم ينكر صلته بوالده المغمور أو والدته الفقيرة . هذا وغيره خلق الأقارب ، ولذلك ازداد بين الناس استعمال المثل المشهور (الأقارب كالعقارب) يتأسون به عند كل حادث ، يكون نتيجة لاعتداء الأقارب .

هؤلاء تدفعهم نفوسهم المكتظة بمختلف الدوافع ، إلى إفساد الروابط الزوجية ، تشفيا وانتقاما

فإذا تزوج قريب بفتاة غريبة عن العائلة ، توفرت فيها مطالبه الشخصية ، فإن بعض الأقارب الذين يكون لهم فتاة تستحق الزواج ، ينقمون على هذا القريب ، ويضيقون بالزوجة ذرعا . يحيكون لها الدسائس ، ويأتمرون بالرابطة ، ويأتون من الأفعال ما يفسد بين قلبى الزوجين ، ولو ائتلفا .

كذلك إذا تزوجت فتاة من العائلة ، برجل يكون فى مستوى أعلى من مستوى أفراد

العائلة ، فإن الذين يكونون قد عولوا على التزوج بها منهم ، أو الذين ما كانوا يقدرون لها هذا المستقبل ، يتحرقون على خروجها ، أو وصولها إلى ما وصلت إليه . أولئك هم النهازون للفرص ، الساهرون على الوقيعة ، المتربصون للمآسى .

أمثال هؤلاء إذا دعوا لتهدئة النفوس مما يكون قد علق بها ، أثاروها زوابع . وإذا حكموا فى منازعات وسعوا الخرق على الراقع ، وانحازوا انحيازا يلهب الخصومة ، ويعقد المشكلة . تراهم فى السرور حزانى ، وفى الهموم فرحين .

والذى يؤسف له أن الزوجين لا يعرفان عند قيام سوء التفاهم ، أو حدوث إشكال ، كيف يصفيان موقفهما ، ويلتجئ أحدهما أو كلاهما إلى هؤلاء ، ثقة بالصلة ، فيكون ما يكون مما لا تحمد عقباه ، ولا يرتضى أثره .

وإذا رأى الأقارب الهدوء يخيم على حياة زوجين فى العائلة ، فى حين يوجد ما يعصف بغيرها ، حسدوا الهادئين على هدوئهم ، وتمنوا لهم مثل ما يقيمون فيه ، بل ويعمد البعض إلى إيقاد نار الفتنة ، فى زيارة عابرة لم يكن لها حساب .

أما كيف تكون هذه الأفعال وما هو آثارها ، فذلك ما يتجلى فى المثل الآتى : —

وجد فى بيت فتاتان ، كل منهما لأم شقيقة للأخرى . وكانتا فى سن واحدة وإن اختلفتا فى الأخلاق والمظهر ، تبعا لوالديهما وتوجيه كل منهما لفتاته . وكان هناك تنافس خفى بين الوالدتين ، يرجع إلى الحظ فى الزواج والمكانة المكتسبة به .

وقد ذهب التنافس بالأم الكبرى ، إلى انتهاز الفرصة والتعجيل بتزويج ابنتها لأحد أبناء جيرانها ، وكان متواضع القدر محدود الحال . ومع أن ابنتها كانت تلاقى من شظف العيش وشدة الحال ، ما يستأهل الشكوى ويدفع إلى الكلام . إلا أنها خشية الشماتة كانت تلهج بالمديح ، وتعدد من محاسن حياتها بما لا يوجد منه غير التعبير فقط .

شاءت الظروف أن يتقدم للفتاة الأخرى أحد الشبان ، وكانت له ميزات اجتماعية وطبيعية تفوق ما عليه زوج ابنة خالتها . فما ان عرفت الأم وابنتها ذلك ، حتى ائتمرا بالمسكينة ، وصمما على إيجاد ما يوغر النفوس ، وينفر من إتمام الرابطة : فماذا يصنعان ؟ لقد تزاوروا أولا ، وتحت ستار تكريم العروس ، دعوا الزوج إلى الاحتفال به فى بيتهم . وهناك على مائدة الطعام ابتدأت الحوادث .

لقد أبدى الزوج أثناء تناول الطعام رغبته فى أن يذهب بعد الحفلة مع زوجه إلى السينما . وكانت الفتاة لا تخرج معه قبل ذلك لأنه لم يتم الزفاف بعد وتعودت أن تستشير . فما كان منها إلا أنها رجته إعفاءها هذا اليوم ، حتى تأخذ إذنا من والديها أولا . لكن خالتها أسرعت

بالإعتراض عليها ، ووصمتها بأنها متصنعة شدة الحذر ، وأنها اعتادت الخروج منفردة وشراء كل مطالبها بنفسها ، وأن الأولى أن يكون هذا الخروج مع الزوج ؟ وقد تألمت الفتاة ودهشت ولكنها بلعت الحادث وسكتت !

قدمت الخالة أحد الألوان من الطعام ، وقبل أن تتذوقه الفتاة قالت الخالة : إن هذا من عمل ابنتها ، وإنها تتفنن فى الطهى ، وتعمل الغريب من الألوان . ثم تساءلت « هل تركت لك والدتك فرصه لتتعلمى يا فلانة ، والا برضه بتعمل حاجتها بنفسها ؟ !» فتساءل الشاب : وهل فلانة (زوجته) لم تتعود الطبخ ؟ فأجابت الخالة (يا أخويا دى أمها مدلعاها ولا تخليهاش تعمل حاجة بأيديها أبدا !!!) فأسرها الشاب فى نفسه وسكت .

وهنا رأت الفتاة أن الموقف قد بدأ يتحرج ، فهمّت تستأذن لتعود إلى منزلها ، شاكرة لخالتها هذه الحفلة .

لكن ابنة خالتها أسرعت تعترض عليها بدأها بالاستئذان ، قبل أن يبدأ به زوجها ، فى صيغة التأنيب على عدم معرفة قواعد الاجتماع . وهنا لم تمتلك الفتاة صبراً ، فسلمت وخرجت عائدة إلى منزلها ، وهى لا تعلم إذا كان زوجها قد خرج عقبها ، أو استمر جالساً . وفى اليوم الذى كان محدداً لحضور الزوج عادة لم يحضر . ولكن والدته حضرت لا لتسلم ولا لتعتذر عنه ، ولكن لتخبر أهل الفتاة أن ابنها قد عدل عن الدخول والزفاف ، لظروف خاصة .

لم تكن والدة الفتاة تعرف شيئاً ، لأن ابنتها لم ترض أن تخبرها بما كان ، حرصاً على العلاقة العائلية بين الأختين . فذهلت لخبر والدة الشاب ، وتساءلت فزعة عن سر هذا العدول ، بعد أن تم كل شىء أو كاد . . . وأخيراً عرفت بما ادعى على ابنتها من أنها لا تعرف الطهى ولا تجيد عمل شىء فى البيت ، وأنها تخرج كثيراً ، وأنها أهانت زوجها وخرجت ، وتركته فى منزل خالتها إلى غير ذلك من الأسباب .

ذهلت الأم وحاولت تبرئة ابنتها مما ادعى عليها ، ولكن القرار كان قد وضع ، وانتهى الحال إلى هذا المآل .

لم يكن هذا كل ما فى الأمر . بل إن رفع اليد عن الفتاة بعد العقد عليها ، يشيع فى الناس حدثا وتخميناً ، ويكثر الاستنتاج . وهو ما كان من نصيب الفتاة . فقد صار هذا الموضوع عقبة كأداء فى سبيل زواجها ، حتى دب فى نفسها اليأس من الزواج ، وصارت هى حربا على الزواج ، لأن ثقتها فيه رفعت ، ونفسها نفرت ، وسد قلبها دون قبول المتقدمين خوفا من إعادة المأساة !!! .

هذا لون واحد من المآسى ، لصنف واحد من أقارب هـذا الزمن ، سقناه تدليلا على ما يجره بعضهم على بعض من الخراب والشقاء ، بدافع الحقد والبغضاء .

أما الآخرون الذين يرتدون ألبسة الصداقة ، ويتظاهرون بالمودة والإخاء ، فهم والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، كثيرون لايحصيهم عد ، ولايحصرهم جمع . لهم غايات ومآرب يسعون إلى تحقيقها . ومطالب وآمال يلبسون من أجلها الابوس الملائم ، لسترها وإخفائها .

إنهم إلى اللدادة أقرب ، وبالعداوة الحادة أحق بالوصف ، من الصداقة المدعاة .

يدخل الرجل بيت صديقه تحت ستار حبه ، والانسجام معه ، ويزيف القول حتى يطمئن إليه . ثم ينظر إلى امرأته أوأخته أو ابنته وماتكون عليه من جمال ، ليغويها ويضع يده عليها . أو يطمع فى مال يكون فى يد هذا الصديق ويعمل للاستفادة منه والحصول عليه . أو يجد له من النفوذ ما يأمل الانتفاع به . وبين هذا وذاك ، لا هو صديق يرجى فى مواساة ولا تسلية ، ولا هو حبيب ينتظر منه مناصرة أو تضحية . إنه فى الحقيقة حسود عند ما يرى الخير ، وشامت إذا رأى الضر ، ونمـام سريع إذا وقف على سر . ثم هو خبيث لئيم يزيف القول وينافق . لأن ما يبديه يخالف ما يبطنه . وكل ما يتظاهر به تغرير فى تغرير . وأكثر من هذا فإنه ذئب على العروض .

كثير من مدعى الصداقة أو كلهم فى هذا الزمن ، يحكمون على خطأ ويتفقون على شر ، ويدفعون إلى الضرر . لأنهم فى آخر الشوط لا هم لهم إلا ما يعود عليهم من الهـدم . ومع ذلك لا يزال يوجد بين الناس من يحسن الظن بالصداقة والأصدقاء .

إن هؤلاء لم يجربوا ولم تقع عليهم الحوادث ، أو وقعت عليهم قبل ذلك ولـكنهم لم يعتبروا ، ولذلك ستتوالى . ويكون هناؤهم الشخصى وراحتهم المنزلية ضحية هذه الحوادث . إن آلاف القصص المكتوبة ، وعشرات المواضيع التمثيلية ، ومئات القضايا الجنائية ، كان الجانون الأولون فيها هم مدعو الصداقة ، ومرتدو ألبستها المزيفة . ومع ذلك فإننا لا نزال نجد بعض الأزواج يفتحون لهم صـدورهم ، ويطلعونهم على خواصهم الداخلية ، ويحكمونهم فيما شجر بينهم من خلاف ، أو يشاورونهم فيما يريدون من أعمال .

وأمثال هؤلاء الأصدقاء المزيفين ينتهزونها فرصة يستغلونها . وصاحب الغرض لا يصيب فى حكمه بل ويتعمـد ألا يصيب . وهو يجهد تفكيره فى تزييف الوقائع وتحويرها وتوجيه نتيجتها إلى الناحية التى يريدها . وما يكاد صاحب الحق يطمئن إليه حتى يفاجأ بضياعه ، بل وبإلزامه به ، واتهامه بالاعتداء .

كذلك صاحب الباطل ، ربما يكون قد فقد الأمل فى التحكيم ولكنه يجد فجأة أن السراب أصبح حقيقة ، وأن الضعف أصبح قوة ، ولذلك نتائجه الخطيرة وآثاره المؤلمة على المعاشرة ، لأن صاحب الحق حينما دعا الصديق المزعوم للتحكيم كان معتقداً بصحة دعواه ؛ فإذا قضى الصديق بغيره اضطر صاحب الحق لأن يتشكك فى تقدير نفسه ، فتنبت فى مشاعره بذور الوسوسة والتخوف ، ثم يجبن بعد ذلك عن الدفاع عن نفسه ، كلما همت نفسه بالمحافظة على حقوقه . وصاحب الباطل يقوى فى نفسه الباطل حتى يعتقد بصدق تصرفه ، وصواب عمله . فيستمر فيه حتى ينسى الصدق والصواب ، ويصبح فى وقت قريب هو فى واد والحقيقة فى واد .

إن هذا سبيل الخصومة المستمرة ، مهده الصديق المدعى ، تحت ستار الصداقة المزيفة . فغرس بفعلته الخطيرة بذور عدم الائتلاف الدائم ، وأطفأ برغبته العاصفة ، نور الحق بين الاثنين .

إن الزوج الذى يحترم نفسه ، يعرف حقوقه وحقوق بيته . وهو أقدر على إقرارها وحمايتها من غريب لا يهمه منها شىء . وإن الزوجة التى تقدر كرامتها وكرامة بيتها ، وتتمسك بقدسية ارتباطها بزوجها ، تحرص الحرص كله على عدم اطلاع أحد على ما يدور داخل بيتها .

أما أولئكم الذين يقحمون الغير فى داخلياتهم ، ويرون من آثار ذلك الخراب والدمار ، فلا يتذمرون من النتائج . ولا يرمون حملها على غيرهم ، ولا يتملصون بما يحضرهم من الأعذار تخلصاً من أخطائهم .

من عمل الأصدقاء :

نزح أحد الشبان الريفيين إلى العاصمة والتحق بأحد الأعمال فيها ، وكان على صلة بموظف من بلده يقيم فى العاصمة ؛ توثقت بينهما أواصر الألفة من يوم أن كانا معاً فى بلدتهما .

وتصادف أن الشاب قد اقترن بسيدة كانت على جانب عظيم من الجمال والجاه فى الحى الذي تقيم فيه مع زوجها . وأنها كانت تكبر الشاب بعدة سنين وتعلو عليه بعدة درجات .

رآها ذلك الصديق فوالى الزيارة ، وأكثر من الاتصال ، وساعده على ذلك حسن الوفادة أولا ، وخلوه من الزوجية ثانياً . ولم يكن يخالج الشاب ولا زوجته فى هذه الزيارة ما يريب . بل على العكس كان الزوجان يعتبران هذا تودداً ، فوثقا ورحبا .

وفى يوم حصل نقاش بين الزوجين اختلفت فيه وجهة النظر ، وجمح كل منهما عن الآخر تعصباً لنفسه ، بدعوى أن الحق فى جانبه ، ولم يجدا لنفسيهما مخرجا من أزمة الشقاق ،

إلا تحكيم هذا الرجل الذى اغتصب الثقة بما كان يبديه من زائف القول ، ومعسول اللفظ . فأخبر وأسرع بالحضور ، متصنعاً دهشته للحال التى وصل الزوجان إليها .

لقد كان للزوج عادة الحضور بعد فراغه من العمل مباشرة . ولكنه وهو فى طريقه إلى البيت فى اليوم الموعود ، صادف أحد أصدقائه القدامى ، قد حضر إلى قضاء عمل فى مصر ، فاضطر بدافع الحنين ودافع الواجب ، إلى التأخر معه ردحا من الزمن ، اطمأن فيه على حالته وحالة من يهمه أمرهم ، وقضى له فيها بعض مطالب طارئة ، ثم استأذن ورجع إلى منزله .

وبدلا من أن تتعرف السيدة من زوجها سبب تأخيره بروية ، وتثق فيما يجيبها به ، اتهمته بأنه على صلة أخرى بغيرها . فلما حاول الشاب دفع هذا الظن ، لم يجد لدى الزوجة استعداداً للحد من غضبها واتهامها . فثار الزوج على كرامته ، ونفر كل منهما عن صاحبه ، وهذا هو موضوع النزاع . فانظر بماذا حكم مدعى الصداقة .

لقد آخذه أولا بأنه لم يعط زوجته خبراً بالتأخير ، وآخذه ثانياً بأنه كان يجب عليه أن يحضر أولا ثم يرجع إلى مقابلة صديقه ! ! وآخذه ثالثاً بأنه كان سبباً فى تحمل انتظار زوجته له ، والانتظار مر . وآخذه رابعاً لعدم تقديمه الاعتذار لزوجته بدلا من الغضب ! ! ثم حكم عليه أخيراً بأنه « محقوق والحق عليه وتحته !!! » .

ولم يكتف بذلك ، بل أردف يعدد محاسن الزوجة ، وأن مثلها يجب أن يحافظ على شعورها من الايذاء ، وأنها نعمة يتمنى لو أن نصفها فى يد من هو أعلى منه ، و . و . و . إلى آخر ما أمكنه من رفع للسيدة وخفض للشاب .

ذلك ما فعله الصديق الكبير ، ولو أنه فعل ذلك عن حسن نية ليحسم النزاع ، ثم أفهم السيدة أنها تجرأت على إهانة زوجها وأنه أنصفها ليضع حداً للخصومة ، لكان ذلك منه غاية فى الولاء ، واجتهاد فى إزالة الجفاء .

لكنه فعل ذلك عمداً ، وعن رغبة خبيثة لينال ثقة الزوجة ويصير له عندها يد ، وكانت النتيجة أن الزوجة كلما جد الجد ، تسارع إلى تحكيم صاحبنا ، والتحدث إليه فى كل صغيرة طارئة . فاستذل الشاب وصغرت نفسه وتشكك فى مقدرته على الاتجاه السليم . كما أن الزوجة قد انتفخت أوداجها وقلت فى مشاعرها الخاصة أحاسيس الانصال بزوجها ، ثم تطورت إلى زهد فيه ، ثم طرده من البيت (وكان ملكها) ليتربى !! ولعب صاحبنا لعبته ، فقد استغل الانفراد ، وحجل فى الوسط كالغراب . يعطيها كلاماً ، ويعطى الشاب غيره ، حتى أفسد ما بين الاثنين من أمل فى الإصلاح ، وحتى وصل هو إلى ما يريده من نجاح !! ؟ .

لقد عرف الشاب أخيراً ، ولكن بعد وقوع الواقعة . وعرفت هى أيضاً ، ولكن بعد فوات الوقت ، وسقطتها التى لا تغتفر . فهصرت المودة وطيح بالرابطة ، ولم يبق فى النفوس غير الندم الذى لا يرجع مفقوداً ، ولا يحيي ميتاً .

هذه إحدى مآسى الأصدقاء ، يتبين منها كيف تبدلت الحال وانقلب المآل .

ومما تقدم يتبين أن جل الأقارب وكل الأصدقاء ، خصوصاً فى هذا الزمن الذى شاعت فيه الأغراض بين النفوس . من أهم العوامل فى إحداث الشقاء الزوجى بين الأزواج .

وخير علاج لها هو أن لا يدخل الزوجان أحداً من هؤلاء فيما يجد بينهما . وأن يستعينا على حل مشاكلهما بروح الوصول إلى الحق ، مجرداً عن التحيز للنفس ، فكلاهما مرتبط بالآخر برباط مقدس ، خصوصاً وقد ثبت أن الأقارب عقارب ، وأن الوفاء قد جانب الأصدقاء ، وأن الصداقة قد قبرت وعفا عليها التراب .

تنبيـــه

أيها القارئ العزيز

إذا كان لك من نزاع غير وارد فى أبواب هذا البحث . فنحن على استعداد لإرشادك إلى سببه ومعالجته . ويسرنا الوقوف على شىء جديد فى هذا الموضوع .

المؤلف

أطفال الزواج السابق

الأطفال الصغار كالدمى المتحركة . وهم قرة عين الآباء والأمهات ، وفلذة من أكبادهم ، وقطع من أرواحهم . هم بهجة الدنيا وزينتها فى نظر الوالدين . وأساس للاقدام والكفاح ، وموالاة الاحتمال لمشاق الحياة فى سبيل ما يوفر لهم السعادة ، ويهيئ لهم هناء العيش ويحميهم من الحاجة . وهم عند والديهم أعز عليهم من نفوسهم ، يؤثرونهم بالعزيز عليهم عن رضى ، ولا يجدون فى حرمانهم منه أثرا ، ما دام فى ذلك سرورهم وهناؤهم .

وكما يكون الأطفال فى نظر والديهم علائم سعادة . ووسيلة هناء ، فإنهم من جانب آخر يكونون عوامل هم ، وأداة شقاء . ولو أردنا بحث هذا الجانب ما انتهينا منه لتشعب نواحيه ، واختلاف مناحيه . ولكنا نجتزئ منه بما يتصل بشقاء الوالدين فى الارتباط الزوجى .

ذلك أن كثيرا من الآباء أو الأمهات يكون لديهم أطفال من زواج سابق ، ثم يضطرون إلى الدخول فى ارتباط لاحق ، وهم فى أبديهم .

هؤلاء الأطفال يكونون لوالديهم فى مثل هذه الحالة علة العلل ، وأسلحة قاضعة لما يؤمل من هناء . وبسببهم وعليهم تقوم الاختلافات . ومنهم ولهم يتحمل الآباء والأمهات ، ما لا يحتمله غيرهم من الناس .

يحدث كثيرا أن ينفصل رجل عن زوجته بطريق الطلاق أو الوفاة ، ويكون له منها طفل أو أطفال . ثم تضنيه خدمة نفسه وأطفاله ، ويعجز عن القيام بعمله . ويخيل إليه أنه يجد الراحة لنفسه ولأولاده ، فى زواج آخر . ليوفر لبيته خدمة ، ولأطفاله رعاية وأمومة جديدة . فيقدم على الارتباط ، ويصبح زوجا مرة أخرى .

كما يحدث كثيرا أن تدخل سيدة فى ارتباط آخر ، وفى يدها طفل أو أطفال من زوج متوفى ، وليس لهم من يضمهم ؛ إذ قلما يكون فى يد سيدة مطلقة ، أولاد من والد على قيد الحياة ، ويتركها تتزوج وهم فى يدها .

هذه السيدة حينما يرغب فيها زوج جديد ، تقبل الارتباط به وهى راغبة فى تربية أولادها أو توفير معاشهم فى ظل الزواج الجديد . سواء كان لهم بعض الإيراد أو لم يكن .

هاتان الحالتان هما ما أقصد الحديث فيهما ، لأبين أنواع ما يشقى به الأب أو الأم بسبب هؤلاء الأطفال ، ويلحق كلا من الزوجين الجديدين .

أطفال الزوج :

وأطفال الزوج أما أن تكون أمهم على قيد الحياة ، أو تكون متوفاة : فإذا كانت الأولى فالشقاء يضاعف والهم يثقل الكاهل ، والعبء يصبح أكثر من الاحتمال .

إن الزوجة الجديدة تعرف حين دخولها فى الرابطة أن للرجل أطفالا . وبغريزة الأمومة ستقوم بما تستطيعه من رعايتهم ، شفقة عليهم ، وائتناساً بهم ، وربما حباً فيهم مع الزمن . لأن حركات الأطفال وأفعالهم ، مما يزيح عن الصدور فى كثير من الأوقات وحشة الانفراد ، وتعب النفس .

وهى حينما تقوم بهذه الخدمة ، تعتقد أنها تزيد فى إرضاء زوجها عليها ، وتتمكن من نفسها بواسطتها . وأن قبولها لزواجه ومعه أطفاله ، الذين يزيدون فى واجبها وفى تكليفها ، لدليل قوى على أنها تريد العيش ، وترغب فى الاستمرار . كما أن إقدامها على مثل هذا لارتباط يحمل فى طياته معنى دقيقاً ، هو أنها يئست من وجود زوج خير من هذا . وإلا فإن أية سيدة أو فتاة ، لو قدم لها اثنان ، أحدهما لم يكن له ذيل من الذرية ، ويقل قدراً وقدرة عن زوج له أطفال . فإنها تسارع إلى قبول الأول عن الثانى ، ولو مهرها والد الأطفال بما يزينها من المال .

هذه الزوجة قبلت الزواج بما فيه من تكاليف ، ودخلت فيه مسلحة بالرغبة فى المعيشة كما بينا . وقامت بالفعل على أداء مأموريتها قدر ما تستطيع . ولا يخفى على إنسان ثقل هذا العبء ومقدار هذه المتاعب .

إنها تتولى نظافة الأطفال ، من ملبس ومنام ، وغسل أجسام ووجوه وأيدى ، كل وقت وكل يوم .

وهى تتولى طهى الطعام وتنظيف الأوانى ، وتتولى الإرشاد والتربية ، والمحافظة على حياتهم ، ومراقبتهم فى ألعابهم ، وهى دائماً مرهفة الحس لحركاتهم خوفا عليهم ، وتستيقظ من نومها مبكرة لتأدية طلباتهم ، وتعمل كل ما تعمله الأم عند ما يكون لها أطفال .

هذه السيدة تقوم بذلك كله مضافا إلى ذلك واجبات زوجها وواجبات بيتها وواجبات نفسها ، وقد لا تكون لها خادمة . وتضطر للقيام لهذا كله منفردة . وإن يوما مدته أربع وعشرون ساعة ، ليضيق على تأدية المطالب والأعمال التى لا تنقطع طول الحياة .

فى هذا الوقت الذى تكون فيه السيدة تعمل بشعورها وقوتها وكل جارحة فيها ، يكون الأطفال وهم المدللون عند والدهم يلقون فى أذنه رغبات ومطالب ، ويستعملون للوصول إليها

التأثير على والدهم ، كادعاء الحرمان أو التقتير من زوجة الوالد .

كما أنهم يلقون فى أذنه الوقائع مشوهة أو مقلوبة ، حينما تنهرهم زوجة أبيهم ، عن أعمال فيها ضرر على تربيتهم أو أخلاقهم .

وأكثر من هـذا وذلك ، أن الأطفال الذين لهم أمهات ، يعادون امرأة أبيهم غيرة على أمهم ، ويفعلون ما يؤمرون به من مؤامرات وتنغيص .

والوالد الذي يكون له هؤلاء الأطفال ، تثيرُه دمعـة أطفاله ، ويصدق ما يقولون ولو كان كذبا . فما باله إذا حضر ورأى طفـلا متسخاً ، أو مجروحا من لعبه ، أو باكياً لعدم إجابته طلباً مستحيلا ؟

إن بعض الآباء بل أكثرهم لايقدرون ما تقوم به زوجة الأب من متاعب فى غير أولادها ، وتتجسم فى نفوسهم الادعاءات المتواترة عن زوجات الآباء . فلا يصدقون دفاعا عند اتهام ، ولا أيماناً عند تأكيد ، ولا أدلة ملموسة عند تحقيق . وأقل ما عند الأب هو أن طفله الصغير لم يعرف الـكذب ، وأن كلامه هو الواقع الحق ، مهما غالى الطفل أو دفع بشتى الدوافع . إنه لا يفتح ذهنه إلى فعل الطفل ، ولا يداخله شك من ناحية دافع جاء إليه من الخارج ، كأم أو جدة أو خالة . وإنه لا ينظر إلى ما تقوم به زوجـة الأب من تكاليف مرهقة ، ومتاعب غير محدودة .

إنما الذى يهمه ويستولى على مشاعره نوع واحد فقط ، هو رفع الشكوى دون معرفة أسبابها ، والوقوف على سرها . وأنه ليؤنب الزوجـة ويؤلمها بالقول المر ، ويزيد فى متاعبها النفسية والجسمية ، بل ويكون سوط عذاب لها ما دام أطفاله من الشاكين الباكين ، ولو مدفوعين مفتعلين .

لأن زوجة الأب لو منعت عن الطفل التخمة اتهمت بتجويعه .

ولو منعته من تقطيع ملابسه ، أو إتلاف الأثاث اتهمت بكراهيته والضغط عليه .

ولو عجزت عن إعطائه شيئاً مستحيلا اتهمت بالتقتير والشدة .

ولو رغبت فى تربيته وإرشاده إلى ما يصلحه ، لنسبت إليها القسوة والغلظة . إلى غـير ذلك مما تتهم به زوجة الأب بحق وبغير حق .

ومن أجل ذلك كله ، تصبح المسكينة بين المطرقة والسندان ، وتعجز عن إرضاء هؤلاء الجماعة (الزوج وأطفاله) كما تعجز عن مواساة نفسها بعد أن تكون قد احتملت ما احتملت ، من صنوف المتاعب والآلام .

إن الزوج يهمها ويؤلمها . وإن الأطفال يدعون عليها ويتعبونها . وإنها تقوم بخدمات لاحصر لها . وإنها غير مرتاحة الجسم ولا النفس . ولا مأمونة الشكوى منها إلى ذويها . وإن ذلك وغيره فوق احتمال زوجة . وإنها سترى فى هذا الزواج تكليفاً ثقيلا ، وعبئاً يثقل كاهلها الضعيف . ولا بد لها من التألم ، ولا بد لها من الهروب إلى حيث تجد الراحة بعيداً عن هذا العذاب .

أطفال الزوجة :

أما أطفال الزوجة الذين يكونون فى يدها ، فهم على الوجه الأعم يتامى توفى والدهم . ولم تجد أمهم من يقوم عليهم تربية أو إنفاقا فاستمرت حاضنةً لهم . وقد قبلت الزواج الثانى لظروف خاصة بعضها لقصد الاستعانة على تربيتهم ، وبعضها بقصد حمايتهم فى ظل رجل . وهى تدخل فى الرابطة الجديدة مسلحة برغبات أولى هى مصلحة أطفالها ، وقلما توجد أم تتزوج لنهم نفسانى أو لوازع شخصى يسمو على حب أطفالها . وإن هذه السيدة كمثيلاتها تراها دائمة التيقظ مفتوحة العين على حاجات أطفالها ومطالبهم . وإنها تفرد لهم من قوتها ومن قوتها ومصروفها الشخصى ومن راحتها ما تسعدهم به .

إنها تكون عليهم رءوماً أكثر من اللبوءة على أشبالها . وأسوأ الأيام عندها هو الذى ترى فيه عبوس زوجها فى وجه أحدهم ، ولا تملك منعه من ذلك . وتضنى نفسها من العوامل النفسية التى تكتنفها فى حياتها .

فزوجها إذا حضر متعباً مجهداً ولم يقبل طفلها ، أو لم يحضر له طعاماً أوصاه عليه قبل ذلك ، فإنها تتألم لذلك .

وزوجها إذا أراد راحة من قيلولة وهاج الطفل ؛ وحال دون هذه الراحة ، وتحدث الرجل فى ذلك ، حزنت وتألمت .

وزوجها إذا أرادها لخلوة ، واستيقظ طفلها ولمح الزوج لذلك ، حزنت وتألمت .

وزوجها إذا رغب فى إرشاد الطفل أو تأديبه على خطأ بكت وتجهمت .

وهكذا تجد العوامل المخزنة للنفس ، الهادمة للهناء ، من الأحاسيس الداخلية ، التى ربما كانت إلى الصالح أقرب ، من زعم الغرض أو الخطأ .

إن الزوج مهما صنع من خير ، وبذل من جهود ، يذهب كله فى لمح البصر ، حينما يكشر للطفل عند فعل خاطىء .

وإن الطفل مهما دلله زوج أمه وقدم له من عوامل السعادة ، ينسى خيره حينما يحزم فى تربيته .

وإن الأم لا يذهب من قرارة نفسها اعتقاد راسخ ، هو أن طفلها غريب عن زوجها ، وأن ما يقع عليه منه ، أساسه عدم العناية به أو كرهه .

فحياة الرجل فى هذا المقام غرم عليه ، وشقاء له . وجهوده ، وبذله ، ومتاعبه ، تذهب كلها من غير شكران ولا حمد .

حالتان شاذتان ، تشيعان فى جو المتزوجين ، حتى تجعله حاراً تضيق منه الأنفاس . وخانقاً يضطر متنفسيه إلى التهرب منه إلى استنشاق الجو المريح .

لقد ثبت من التجاريب ومن كثير من القضايا أن روابط هؤلاء الأزواج ، تنتهى دائماً إلى الشقاء النفسى ، والعذاب الذى ييئس النفوس من الفرج . وأن جلهم إن لم يكن كلهم يهرعون إلى الافتراق وفصم العرى ، وهدم ما بنى من الأعشاش . وسبب ذلك كله المغالاة فى التحزب للأطفال ، وتجاهل الحقائق ، وإغراق النفوس بأستار الحب الكثيف ، الذى يمنع من تحرى الصواب ، كلما كان الأب غارقا فى حب أبنائه ، والأم غيوراً على أبنائها إلى هذه الدرجة .

مثل من الأمثال : «رزق شاب من زوجة بطفلين متعاقبين ، وقد ألم بزوجه مرض خطير لم تبرأ منه إلا بمفارقة الحياة . وكان للمتوفاة والدة على قيد الحياة أرادت احتضان الصغيرين ، ولكن ذلك عز على والدهما فاستعان بالخدم على قضاء لوازمهما مدة من الزمن . ورأى بعد مدة وجيزة أن من العسير عليه الاستمرار فى هذه المشغولية خصوصاً مع ما رآه من خيانة الخدم وإهمالهم شئون ولديه . وحدثته نفسه بالانصياع إلى نصح أهله وأصدقائه ليجدد رابطة زوجية بأخرى ، ترفع عنه هذا الحمل وترجع إليه شيئاً من الاطمئنان فى الحياة ، حتى يتفرغ لأعماله التى حدت منها مشغوليته بالسهر على أطفاله .

ولقد وجد كثيراً من الفتيات والسيدات الملائمات له ، ولكنه لم يوفق فى إرضاء واحدة منهن بقبوله مع طفليه ، وتراجعن خشية ثقل المسئولية ، حتى كاد يدب اليأس فى نفسه . وأخيراً .. وصل إلى ما يريد وارتبط بعذراء قبلت مع ذويها احتمال المهمة عن رضى واختيار .

وفى فجر الارتباط رأت الزوجة أن الطفلين يأتيان أعمالا تدل على إهمال تربيتهما الأولى ، ولا يعنيان بنصح وينفران من التوجيه . فأرادت الزوجة ترويضهما على الحياة الملائمة وإلباسهما ألبسة ملائمة من الأخلاق التى نشئت الزوجة عليها . فكان الولد ينصاع على مضض ولكن أخته التى تكبره بعامين تتصلب وتحاول أن تتملص من الطاعة ، بما تلقيه فى أذن جدتها وأذن أبيها من وقائع غاية فى الغرابة عن امرأة أبيها . فقد ادعت عليها عند الجدة بأنها تضعها مع

أخيها من المغرب فى السرير وتأمرهما بالنوم وتجلس هى مع أبيها . وادعت عليها بأنها تريد منعهما من زيارة جدتهما فى حين أن سبب المنع كانت حقيقته أن زوجة الأب منعتهما من الخروج بعد أن غسلت لهما جسميهما بماء ساخن ، وخشيت عليهما من المؤثرات الجوية . وهكذا حتى امتلأت نفس الجدة حقداً على زوجة أبيهما مضافاً على الحقد الدفين الذى غرسته فى قلبها أنها وجدت مكان ابنتها . فعملت الجدة الكثير على تأليب الزوج عليها . ولا تسل عن الصياغة الخاصة والغرض المبيت .

أما الزوج فإن الطفلة كانت تسر فى أذنه الكثير صباحا ومساء . فزوجة أبيها تقتر عليها فى الأكل ، وتحرمهما من المصروف ، وتضيق عليهما حرية اللعب ، ولا تجيبهما إلى طلب إلى غير ذلك من الروايات والوقائع . فيستمع الأب من الجدة ويستمع من الطفلة ولا يتحرى شيئاً ، ولكنه بعد أن يمتلىء يجابه زوجته بالعقوبة مباشرة . وتحاول الزوجة تعرف أسباب هذا التأنيب اللاذع أو الالتحامات الحادة ، ولكنها لا تعرف والزوج لا يذكر شيئاً معيناً .

اصطبرت السيدة وقامت بمهمتها خير قيام وأرضت ضميرها وفعلت الخير ابتغاء مرضاة الله . ورجت أن تكشف الأيام ما خبىء عنها . ولكن كأس الصبر فرغت مما فيها ، وامتلأت النفس بالمتاعب المتوالية فتغيرت مسرتها وجفت نضارتها وهزل عودها .

ورأتها والدتها على هذه الصورة المحزنة أخيراً ، ووقفت على ما يتنازع نفس ابنتها من صنوف الألم ، فعز عليها أن تكون كذلك وهى وحيدتها التى دللتها وبذلت فى سبيل نشأتها ما بذلت . فلما كانت الجلسة التى أرادتها لعتاب زوج ابنتها على معاملته لها ، تبين لها أن هذا الزوج زهد فى معاشرتها وأنه مصمم على الافتراق عنها . وقد رحبت الوالدة كما رحبت ابنتها بهذا الخلاص وافترق الزوجان ولم تكتمل الرابطة عدة أشهر .

ويشاء الله للحقيقة الظهور . فقد عرفت الجدة هذا الافتراق فأطلقت لنفسها عنان الفرح وأخرجت (زغرودة) اجتمعت عليها جاراتها وحضرها الطفلان واستمعا إلى ما قيل . فلما التقى الوالد بطفليه بعد عمله ، ذكرا له هذه الواقعة فرحين مهللين . ولكن الوالد فهم منها شيئاً ما كان يفهمه قبلها . ودفعه ما فهم إلى تعرف حقيقته . وقد تبين له أنه كان منفذا لمؤامرة ، وأنه قد عمى عن حقيقة موقفه حتى وقع فى شر ما يقابل به حسن الصنيع . أراد الرجل العودة وأراد الاعتذار . ولكن مطلقته مع والدتها لم ينسيا الجرح الذى خلفه رد الفعل فى نفسيهما وشماتة أعدائهما فيهما . فرفضتا قبول العذر ورغبتا عن العودة إلى ذلك الإذلال » .

هذا مثل واحد من أمثال كثيرة يتبين منه بوضوح ما يجرى وراء الستار فى مثل هذه الأحوال

وإذن فما هو العلاج لهذه المشكلة ؟

إن معالجة هذه المشكلة يتطلب أحد أمرين .

أولا : على من يكون له طفل أو أطفال من زواج سابق ألا يدخل فى رابطة ثانية مع آخر حتى يكبر ذلك الطفل ، لأنه قلما يعمر فى زواج جديد .

ثانياً : أو أن يقدر ما يقوم به الطرف الثانى من خدمات إذا تزوج ، ويرفع من نفسه التحزب ، ويسعى وراء الحقيقة . ثم يقدم الشكر لشريكه بين الآونة والأخرى على ما يؤديه من خدمات لأطفال غيره . فإن ذلك يشعره بعرفان جميله ويدفعه إلى المزيد .

ويجب على الرجل أن يدخل فى اعتقاده أن زوجته تعمل عمل الأم ، ولها حق التربية والإشراف ، كما يجب على الزوجة أن تدخل فى اعتقادها أن زوجها يعمل عمل الأب ، وله حق التربية والإشراف . وبهذه الروح يتفادى أمثال هؤلاء الأزواج الحرج النفسى ، ويوجدان لحياتهما مناعة ضد الشقاء

هذا هو العلاج الوحيد وبغيره تكون النتيجة ما ذكرنا من أنواع العذاب والشقاء .

***

إلى هنا ننتهى من سرد أسباب الشقاء الزوجى الذى يقع على المرتبطين فعلا ، ابتداء من إجراء عقد النكاح . وقبل أن نترك هذا القسم ينبغى أن ننوه بأن نتائج الاتجاه الخاطىء التى فصلناها فى القسم الأول ، سينكشف عنها الغطاء فى هذا الوقت الذى أتينا عليه . ولكننا نكتفى بالتحليل الذى أجريناه فى كل نوع من تلك الأخطاء ، والوقوف على نتائجها مقدما .

وندخل الآن فى القسم الثالث من البحث .

القسم الثالث

الذين أدبروا للزواج

فى المجتمع المصرى الآن ، وفى العواصم بنوع خاص ، نشتم رائحة خبيثة تهب علينا من أوكار كثيرة ، تحوى شبابا وشيبا من الرجال ، وقليلا من النساء . يأتمرون بالارتباط الزوجى ، ويبثون الرعب منه ، والتخوف من الدخول فيه . وقد غالى بعض هؤلاء فألّفوا النكات المجوجة ، واختلقوا الوقائع المثيرة ، تنفيراً من الإقدام عليه ، وسندا لدعوتهم التى نصّبوا أنفسهم على بثها بين الناس ، طائعين مختارين . وقد كشفت هذه الشائعة الخبيثة عن نفسها ، ولقيت بعض الرواج بين لفيف ليس بالقليل ، من أولئك الذين تسلط عليهم الاستهتار ، وغرقوا فى حمأة الرذيلة ، ولم يرعوا للحرمات كرامة ، ولم يبالوا بحقوق الرجولة وما فيها من شهامة.

هؤلاء الذين أدبروا للزواج ، ونادوا بالابتعاد عنه ، ونددوا بالمتزوجين ، هم قوم ضعاف النفوس ، لم يجرؤوا على تحمل المسئوليه ، وأنانيون ، يسعون ، إلى ما يشبع أنفسهم فقط .

هؤلاء الذين امتنعوا عن الدخول فى الروابط الزوجية ، أكثرهم لصوص أعراض ومختلسو كرامات العائلات ، قد أثيرت من أعمالهم المخازى ، وهتكت أستار ، واستبيحت قدسيات ، وقطعت صلات وأربطة أوجدها الله ، وكانوا ولا يزالون حربا على الدين وعلى الوطن وعلى القومية وعلى قواعد الاجتماع .

تسائل هؤلاء . لم لم تقيموا الروابط الزوجية وتكون لكم زوجات ثم أولاد ؟ وتستمع إلى إجاباتهم المختلفة وأسانيدهم المدعاة ، فلا تجدها تخرج عن الآتى :

١ — إنهم رأوا كثيرا من الخصومات الزوجية وسمعوا عنها كثيرا من اخوانهم المتزوجين

٢ — إنهم يخشون مسئولية الزواج ونتائجه الكثيرة .

٣ — إن بعضهم يقول أنا متزوج بفنى وليس لى وقت أضيعه فى الزواج .

٤ — إن بعضهم يقول إن كثرة رقته تخيفه حينما يكون زوجا وتمرض زوجته أو ابنه وحينذاك يذوب هلعا ! ! !

وليس غير ذلك دعوى لهؤلاء ، لأنها الأسباب التى ذكرت عن بعضهم ، وأذاعوها عن أنفسهم وعرفها الناس .

فهل هم جادون فى هذا الادعاء ؟ وهل حقا توجد الأسباب المذكورة ومن أجلها رغبوا عن الزواج ؟ هم يقولون نعم . ونحن نصيح لا . لا . لا .

ولأجل أن نقرن الصيحة بالحجة ، ونرد عليهم ادعاءهم بالدليل ، يتعين علينا مناقشتهم الحساب ، مفندين هذه المزاعم بما يحسمها ويقر الصواب .

عن الأول :

ونبتدئ بتفنيد الحجة الأولى ، فنقول لأولئك الذين رغبوا عن الزواج تخوفا من الوقوع فيما وقع فيه أصحابهم ، إن الناس لم يكونوا على درجة واحدة فى التفكير والاتجاه ومطامع الحياة . وهم لم يخلقوا من نوع واحد فى المزاج والتقدير والرغبات . وتبعا لذلك ، يجب أن يقتنع الإنسان بوجود الخلاف ، ما دام هذا التفاوت بين الناس .

وهذا الخلاف الذى يجد بين المتزوجين يحسم أو يضخم ، تبعا للأفكار التى تتناول البت فيه سعة وضيقا ، وروية ورعونة . وليس وقوع إنسان فى أى خطأ معناه حتمية وقوعك فيه وضرورة سيرك على سننه . فقد يحدث أن يخطأ إنسان فى اتجاهه إلى هدف معين ، حينما يسلك إليه طريقا وعراً ، لعدم معرفته طريقا آخر ، أو عدم تقديره ما يترتب على سلوكه لهذا الطريق ، . وتكون النتيجة لهذا الاتجاه الخاطىء ، عدم وصوله إلى ما يستهدفه ، أو وصوله بحالة غير مناسبة . وهذه النتيجة شخصية بحته تكون على قدر المسعى . فهل لمن يستهدف نفس الغرض ، ويعرف حسب تفكيره وتجاربه طريقا خيراً من هذا الطريق ، أن يكون حتما عليه ، تقليد المخطىء ومجاراته فى خطئه ؟ أو أن له صفة وشخصية وعقلا يلزمه باتخاذ الطريق القويم ؟

إن أولئك الذين شقوا بزواجهم ، ولم يسعدوا فى ارتباطهم ، إما أن يكونوا قد أخطأوا فى الاتجاه إليه فسلكوا سبيلا غير معبدة ، أو تسلحوا بأغراض لا تتفق وقدسية الزوجية ، أو ارتدوا ألبسة لا تتفق والشرف الشخصى والأخلاق القويمة . وهؤلاء لا بد لهم من الوصول بأنفسهم إلى مآزق ضيقة ، وشقاء محتم . ولا يستبعدن إنسان ما يفعله الزمان مع الذين يلبسون من الأثواب ما لا يليق بهم ، ويضعون أنفسهم فى أمكنة لم تخصص لهم ، لأنهم سيكشفون عن حقيقتهم ، خصوصاً وأن الارتباط الزوجى احتكاك مستمر ، واتصال غير منقطع . والمدعى فيه بدعوى كاذبة ، لا تدوم له المحافظة عليه ، ولا يتمكن من إخفائها .

وإما أن يكونوا قد خرجوا عن الحدود المألوفة ، ولم يقوموا بواجباتهم وقت المعاشرة ، واتخذوا الاستهانة والاستهتار بالحقوق صفة وطبعاً .

وأمثال هؤلاء يفتحون على أنفسهم أبواب المؤاخذات ، ويضعون أشخاصهم موضع الاتهام والتأنيب ، بل والتذمر والتحقير . وإن شخصاً يخرج عن المألوف ، ويهمل واجبه الزوجى ويستهين بالحقوق التى عليه ، لا يصح له الشكوى مما يجرى عليه ، لأنه تسبب فيما يشكو ، وهو الذى زرع وعليه أن يجنى .

إن شكوى هؤلاء وهؤلاء لها أسباب هم صانعوها ، وشقاء هؤلاء وهؤلاء كان نتيجة لوقائع هم فاعلوها . وعليهم وحدهم وزر ما يصنعون ، وعلى أشخاصهم فقط تقع نتيجة ما يفعلون .

فهل يكون أمثال هؤلاء المقصرين ، أئمة لأمثال أولئك المتخوفين من الزواج ، وأمثلة لمستقبل حياتهم ، يسيرون على سننها ؟ من البدهى أن نقول : لا .

وإذا لاحظنا أن هؤلاء الذين يتمثلون شفويا بالمخطئين لم يجربوا ، ولم يستعملوا طرقهم الشخصية فى عمليات الارتباط واكتفوا فقط بالنفور بناء على ما يسمعون ، فإننا لا نتورع من أن ننسب إليهم ، أو نستنتج من أفعالهم هذه ، أنهم من ضعاف النفوس أصحاب أخيلة كاذبة ، بل هم جنباء القلوب لا يجدون الشجاعة الشخصية للاقتحام والتجربة . وأنهم من الذين يكتفون بمشاركة الغير فى ما يطهيه ، ولا يتورعون عن أكل بقايا الطعام بعد شبع الغير .

إن أولئك الذين أدبروا للزواج من هذا النوع ، مثلهم كمثل شخص جلس مع آخر ، فتحدث إليه عن آلامه من جار فتألم بدوره منه وعاداه ، وهو لا يعرفه ولم يره ، ولم يجالسه ، ولم يحدث له منه شىء ؛ فإذا اجتمع به فى ظرف آخر أعرض عنه وقاطعه ، بل وتعرض لتحقيره ، دون أن يكون ذهن الجار منصرفا إليه .

وليس لإنسان له ذاتية وله عقل ، وله تقدير خاص ، أن يجافى إنسانا أو يدبر له دون أن يقع عليه منه شىء .

إن هؤلاء قد أخطأوا فى حق أنفسهم ونزلوا إلى مستوى أخلاقى يعز علينا أن نراه فى كثير من رجالنا شبابا وشيبا .

عن الثانى :

أما النوع الثانى من هؤلاء المعرضين عن الزواج الذين يخشون مسئوليته ، ولا يريدون تحمل نتائجه ، فأولئك قوم تهيبوا المجهول منهم ، وتخوفوا ما لم يعرفوه .

هؤلاء أصحاب أخيلة وأوهام ، أطلقوا لأنفسهم الأعنة نحو المجهول ، فصاغت وصنعت لهم من الأشباح والرؤى — حسب الاجتهاد — ما أفزعهم وأرهبهم .

هؤلاء لم يستعملوا عقولهم ، ولم يقووا على الاستطلاع تهيبا مما قد يكون وراء ستار الوهم والخيال .

هؤلاء لم يعرفوا الزوجية ولم يدخلوا فيها . فمن أين يعرفون أن لها مسئولية . ومسئولية ثقيلة يخشى من العجز عن القيام بها ؟

إن الذى يحكم ، لا بد له من سابق التجربة . وإن الذين جربوا ، لا يؤيدون أمثال هؤلاء فى أوهامهم وتخوفهم . لأنهم يجدونها مسئولية الرجل الذى خلق لها ، حملها مستعذب ، والمحافظة عليها أمر هين .

إن مسئولية الزواج فى حقيقتها ، لا تعدو أحد أمرين . وهى إما مادية وإما أدبية .

فالمسئولية المادية وهى الأهم فى نظر المدبرين ، قصاراها توفير أسباب المعيشة للزوجة ، وما يرزق به الزوجان من أولاد .

وهذه المسئولية إذا خلصناها من الخيال والوهم ، وجردناها من التخوف والتهيب ، وأفرغناها فى حدودها الملائمة مع المركز والوسط ، لهانت وسهلت ، بل وحببت لحاملها .

فالرجل الذى يكون كسبه لا يزيد على العشرة أو العشرين جنيها مثلا ، يكون صرفه فى داخل حدود مورده ، مع زوجة من مستواه الاجتماعى .

هذا الرجل يصرف أمره ويظهر بمظهره الصحيح السليم ، ولا يقحم نفسه فى أوساط تتطلب موارد تكثر على موارده . وزوجته التى خرجت ونشأت فى ذات الوسط ، لا ترى أنها هضمت حقها ، ولا أضاعت بوجودها فى هذا المقام من مكانتها . وكذلك أولادهما عندما يأتون للوجود ، يجدون أنفسهم فى وسط لا ينفرون منه ، ولا يستعلون عليه ، وستكون كفايتهم مما يزيد أثناء ذلك من تقدم الوالد . وهذا أمر لا شك فيه . لأن الله سبحانه وتعالى يرزق كل نفس برزق خاص .

هذا الرجل يقنع بما قدر له ويؤدى رسالة الحياة التى خلق لها . وهو فى أثناء ذلك عامل مجد ، مكافح فى سبيل الله . ومن جد يجد ، ومن اجتهد ينال ، وهذه أخلاق الرجال .

لكن ذلك الذى يكون كسبه عشرة ، ويخرج فى مصرفه على حدودها ، يتعرض للدين وتتضخم تبعاته ، ويعجز عن القيام بها . خصوصا إذا أقحم نفسه فى وسط أعلى ، أو تزوج بمن تعلوه مكانة وقدراً . وعلى حسب خروجه من وسطه ، ومقدار بعده عنه ، تكون المسئولية والتبعة .

إن الرجل الذى يريد أن يكون هادئ النفس مرفوع الرأس ، ليس لغيره سلطان عليه ،

هو الذى يسير فى حدوده ولا يطمع فيما فى يد غيره ، ولا يقلد ما لا يمكن له الاستمرار عليه .

إن أى إنسان مهما صغر شأنه ، يصح أن يلبس بدلة يلبسها أثرى الأثرياء ، وأكبر الكبراء . أو يجلس فى المكان الذى يجلس فيه أولئك الأغنياء الكبار . ولكن : هل يمكن له الاستمرار فى التقليد ؟ وهل إذا تمكن من شراء بدلة وطربوش وحذاء بما كان فى يده مدخرا من جهود الشباب ، أن يكون بها كبيراً وغنياً ؟ كلا . إن الثرى أو الكبير له مورد يؤمنه على الاستمرار والتغيير . لكن هذا الفقير المقلد لا يمكنه أن يفعل ذلك إلا مرة واحدة ، ومع ذلك سيضعف بعدها ولا يقوى على مكافحة الحاجة الماسة الملحة .

وإذن : فسعادة النفس فى القناعة والرضى بالنصيب ، والسير فى الحدود الملائمة .

ولذلك تكون المسئولية فى هذه الناحية خفيفة هينة ، وليست بثقيلة يتخوف منها المتخوفون . ما داموا فى حدودهم يعيشون. ولست متجنياً إذا قلت إن معظم أولئك المدبرين للزواج قد توافرت فى أيديهم وسائل العيش وأمنوا الاحتياج .

أما المسئولية الأدبية ، وهى ما تكون بين الإنسان ونفسه ، أو بين الانسان والناس ، فأمرها من السهولة بمكان . ذلك أن الرجل الذى يعتز بنفسه ، ويقدر مكانته وكرامته ، لا يأتى من الأفعال ما يؤنبه عليه ضميره ، ولا يجر على الناس ما يدفعهم إلى مؤاخذته والعتب عليه . وكلما سار فى هذا الطريق شعر براحة الضمير ، وراحة كاهله ، ونال بسهولة احترام الناس له وتقديرهم لرجولته .

فمن أين تكون مسئولية أدبية إذا لم يكذب ، وإذا لم يدع بدعوى كاذبة ، وإذا لم يلبس نفسه رداء غير ردائه الحقيقى ؟ ومن أين تكون مسئولية أدبية إذا لم يهضم حقا ، أو يعتد على أحد ، أو يماطل فى واجبات ؟

إن المسئولية الأدبية لن تكون إلا على من ليس له ضمير ، ولن تكون إلا على من يجترئ على الناس .

وإن التهرب من تحمل المسئولية فى الحياة يحمل معنى الضعف النفسى والتهيب ، وهو ما يتنزه عنه الرجال .

هذه هى جوانب المسئولية . فى أى جانب يرى أنفسهم أولئك المدبرون للزواج وبأى شىء يدعون ؟

عن الثالث :

وهناك صنف من الناس يرغب عن الزواج بدعوى توافره على فنه ، واستغراق وقته فى الاخلاص له والرقى به .

هؤلاء الناس مدعون كاذبون ، ومغرورون مضحكون ، وشر البلية ما يضحك ! ! .

ماذا نقول لهؤلاء ! وبأى لسان نخاطبهم ؟ أما نسائلهم ما هو نوع فنهم الذى يمنعهم من الارتباط الزوجى ؟ أهو التمثيل ! أهو الغناء ! أهو التأليف ! أهو التلحين ! أهو الأدب ! أو هو ماذا ؟ لأنى لا أجد فى غير هذه الأصناف من الفنون ما يشيع فى هذا البلد المسكين . وإلا لقلت إن البحوث الطبية ، والبحوث الطبيعية ، والبحوث الفلكية ، والبحوث الميكانيكية ، والبحوث المائية وما شابهها من الفنون ، هى ما يُغرق أولئك الفنيين المدعين !!! وهذا ما لا يمكن أن أقول به . لأن هذه الفنون لا يشتغل بها أولئك المدعون .

إن العباقرة فى قديم الزمان وحديثه ، يدخلون فى الروابط الزوجية . وإن كثيراً من الزوجات قد ساعدن أزواجهن على النهوض بفنونهم ، ودفعنهم إلى الاجتهاد من غير أن يكن عوائق ولا عقبات .

إن مأمورية الزوجة فى بيتها ، هى العمل على توفير هناء زوجها ، وإراحته من الوحدة والانفراد ، وتهيئة وسائل حياته من مأكل وملبس ومنام .

فهل أولئك الفنيون فى غنى عن من يهيىء لهم أكلهم وملبسهم ، ويقضى حاجتهم ، ويؤنسهم فى وحشتهم زهادةً وتعبُّدا ؟ أو أنهم يستخدمون فى ذلك آخرين بالأجر ، أو هم يقومون على ذلك بأنفسهم ؟ .

إنهم إذا كانوا من الصنف الأول ، فقد انتقلوا إلى صفوف الملائكة ، لأنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون . وإذن فليس لنا عليهم من سبيل ، ونعتذر إذا آخذناهم أو ألحقنا بهم أى ملام .

وإذا كانوا من الصنف الثانى فإن من يستخدمون بالأجر ، يصرفون ويكلفون هذا الفنى ما لا تكلفه له زوجة . والخدم يعرفون أنهم غير ملزمين بالاستمرار ، فضلا عما فيهم من الخيانة وعدم الاطمئنان . بخلاف الزوجة التى تحرص على بيتها وموارد زوجها من الضياع . زد على ذلك أن هؤلاء الفنيين غير معصومين ، وهم بطبيعة الحال يقترفون الإثم ويواصلون الاجرام .

وإذا كانوا من الصنف الثالث ، فأن الوقت الذى يضيعونه فى إداء أعمالهم المنزلية ،

أكثر من الوقت الذى يطالبون به عند الارتباط . ووجود وقت لديهم يصرفونه فى قضاء مطالبهم المنزلية ، يناقض ادعاء عدم الفراغ .

إن شباب أو رجال هذا النوع لم نر لفنونهم من البروز ، ما يجعلهم فى صفوف الفنانين أو المفنين الذين تزوجوا ، وكانوا أصحاب بيوت وآباء أطفال ، وأزواجا لسيدات عشن معهم سعيدات .

فماذا يمنع هؤلاء وأمثالهم إذن من الزواج ؟ وما هذه العلل التى يتعللون بها ما داموا بشراً يأكلون ويشربون وينامون ويلبسون ويستمتعون بما يستمتع به الرجال أو النساء ؟ .

الحق أن إدعاءهم كاذب ومؤسف : والحقيقة التى لا يمكن أن يتهربوا منها ، هى أن أمثال هؤلاء يعيشون فى أجواء إباحية لا يرعون للآداب حرمة ، ولا للعروض كرامة . تحيط بهم السلع الحرام بكثرة فيكتفون بها عن الطعام الذى أحله الله . يعيشون معها فى مظاهر كاذبة ، لهم مخالب الذئاب وحيل الثعالب ، والله من ورائهم محيط .

عن الرابع :

أما أولئك الذين يدعون رقة الشعور وغزارة الإحساس ، ويتهيبون مواقف المرض للزوجة والأولاد ، فأمرهم عجب ! ذلك أن رقيق الشعور يخشى الوحدة ، ويفر من الانفراد . ويثأر لمن حوله فى الخير والشر . وهو إذا كان كذلك زج بنفسه فى المجموع ، ليحمى نفسه من الوحشة . فيرى من ألوان المؤثرات الخارجية ، ما يفيض بكثير على ما كان يراه على فرض تحقيق وجوده فى حالة واحدة ، هى حالة زوجة أو ولد .

ومن من الناس خلق وله مناعة ضد المرض بأنواعه ؟ إن المرض شىء عارض ، يحل بجميع الأجسام . وجسم هذا الرقيق الشعور أول الأجسام ، بل هو أكثر تعرضاً لجميع الأمراض من نفسية وعللية .

أفلا يحق أن تكون له زوجة تواسيه فى وحشته ، وتمرضه فى علته ، وتشد من أزره فى ضعفه ؟

إن رقيق الشعور أحوج الناس إلى الزواج ، وأحوجهم إلى من يهيىء له أسباب عيشه الداخلى . وهذا يعتبر حجة على رقيق الشعور لا حجة له ، ودليلا على ادعائه المكذوب لا مفر له منه .

ياهؤلاء ؟ إن المرأة تلاقى فى الحمل ، وتلاقى فى الولادة ، ما لا يقدر من آلام ، ولا يحتمل

من عذاب ، على ما لها من شهرة مستفيضة فى رقة الشعور وغزارة الاحساس . ومع ذلك تحتمل بصبر ، وتعيد الكرة فى اختيار ، فترى ما رأته لأنها تؤدى رسالتها فى الحياة .

فهل أنتم أيها الرجال أضعف احتمالا لواجبكم الطبيعى من النساء ؟ أنا لا أعرف الجواب !!

* * *

هذه أصناف أربعة من الناس قد أدبروا للزواج عرفنا كيف يدعون وكيف يستترون .

لكن هناك صنف آخر لا نريد أن نقرنه بسابقيه ، ولا أن ندمجه مع المؤاخذين لاختلاف أسباب امتناعه وموقفه عن المواقف المذكورة سابقاً .

هذا الصنف الأخير يمتنع أصحابه من الارتباط الزوجى ، لأمد حدده كل منهم ، بحصوله على أمانيه فى المستقبل . وهؤلاء يعتبرون فى صفوف الطامحين المجدين العاملين . يرجئون الارتباط إلى الاستعداد له ، ويؤخرون الدخول فيه إلى أن يصلوا إلى مراكز علمية أو أدبية يطمحون إليها .

هؤلاء يعملون ويجتهدون ، ولا يجدون فى أوقاتهم ولا فى نفوسهم ما يؤنبهم عليه ضمير ، ولا توجه إليهم من أجله مآخذ . هؤلاء لهم حق ، وليس لنا فيهم حديث بل لهم منا التشجيع .

وبعد . فقد يتبين مما تقدم أن المدبرين للزواج من الأصناف الأربعة ، رجال لم يؤدوا رسالة الرجولة للمجتمع والوطن والقومية والدين . وكانت أسباب إدبارهم واهية وادعاءاتهم خاوية . ويكفى أنهم أصبحوا بهذا الموقف الشاذ أعداء الشرف والكرامة ، وذئابا فى المجتمع .

الذين أدبروا

وشرط وجود المال ؟!!

بحثنا فى الموضوع السابق الأسباب التى تذرع بها أولئك الذين أدبروا للزواج . ونعتقد بأننا فنَّدْنا مزاعمهم ، وألزمناهم الحجة ، وأوقفناهم موقفاً لا يشرف أمثالهم من المدبرين .

ونذكر الآن آسفين صنفاً آخر من هؤلاء ، قد أدبروا للزواج ولكن إلى حين . قد وضعوا لقبول الدخول فيه شرطاً ، إذا تحقق دخلوا ، وإلا فهم على إعراضهم سائرون ، وعن الزواج راغبون .

هذا الشرط هو وجود مال أو ملك ، فى يد من يرتضون الارتباط بها . أو من تحب أن يكون لها شرف الزوجية والمشاركة لهؤلاء الغر الميامين ؟!!

هذا الصنف من الناس كنا نود إهمال ذكره تحقيراً لشأنه ، وازدراء لعقليته وتفكيره ، وترفعاً عن الدخول معه فى مناقشة ، لولا أن هذا الصنف قد تمكن من نفث سمومه فى المجتمع فآذت الحياشيم ، وأدخلت اليأس فى قلوب الفتيات والسيدات المحصنات الفقيرات . هذا الصنف من الناس ، يؤجرون الوسطاء ليجوسوا خلال الديار ، باحثين منقبين عن من يكون لديها مال موروث ، أو مكتسب ، ليأتمروا بها ، وينقضوا عليها باسم الزواج .

فإذا قيل لهم إن الفتاة أو السيدة عوراء أو شوهاء أو سمراء ، قالوا نقبلها راضين مختارين !

وإذا قيل لهم إن أهلها صغار القيمة ، أو أهل حرف صغيرة . قالوا نضعهم على العين والرأس !

وإذا قيل لهم إن الفتاة لا تعرف طهياً ولا تدبيراً . ولا اجتماعا ، ولا تحسن من أمور البيت شيئاً . قالوا قابلين !

وإذا قيل لهم إن الفتاة لعوب ، وتعرف كيف تمضى أوقاتها بين أصدقائها ، وأنها لا تحب المنزل قالوا : ولو !! وما دام فى يدها جواز القبول ، فكل ما فيها مقبول .

هذا الصنف من الناس يقدم بجرأة ، بل ويستعمل الحيل والألاعيب للدخول فى الروابط الزوجية ، إذا توافر الشرط المطلوب .

لكنه إذا قيل لهم إنها فتاة جميلة على استحياء ، وإنها سيدة بيت وخدر ، وإنها نشأت فى أهل محترمين لا سمعة لهم . فيقولون إنها لا تحوز رضاءهم ، ما دامت لم تستوف الشرط الأول وهو وجود المال ! وهم من أجل ذلك لا يتزوجون ولأجل ذلك فقط ، يدبرون للزواج.

لقد كثر أمثال هؤلاء ، وازدادت إحصائيتهم ، وانتشرت فى أوساط الفتيات والسيدات رغباتهم ، وعرفت شروطهم . فعم الأسى النفوس ، وانتشر الحزن فى البيوت ، ووقع الكساد فى سوق العذارى والسيدات بفعل هؤلاء المدبرين للزواج .

وتسأل العدد الوفير من هؤلاء المتنعين المشترطين . من أنت ؟ وما هى وظيفتك ؟ وكم مرتبك ؟ وما هو المال الذى بين يديك حتى تكون كفئاً لمن بيدها المال ؟ وبعد اللتيا والتى . وبعد التحرى والتقصى ، تجده هيناً نشأ فى هوان ، وفى عمل هين ، ومرتب لا يكفيه هو للضرورات ، فضلا عن أنه خالى الوفاض بل وفى الدرجة النهائية فى الإدقاع . ومع ذلك يكابر ويقول : إنه إذا لم يجد من يكون فى يدها المال ، ليستعين به على الحياة ، فلا سبيل له إلى الزواج .

ونسائل هذا الإنسان ثانياً : إذا كنت وأنت رجل فرض فيك السعى ، وفرض فيك العمل ، وفرض فيك كسب المال ، لم تكن إلى هذا الوقت الذى تدعى فيه الرجولة صاحب مال ، ولم يترك لك أبوك ، ولم تترك لك أمك ، ما يورث عنهما من المال . ولم تتمكن أنت من تدبير المال ، مع فرض القدرة عليه فيك كرجل .

فمن أين لفتاة لم تخرج إلى العمل ؟ ومن أين لسيدة فرض فيها الخدر والقيام على شئون البيت . من أين لهما هذا المال ؟

إن المال لا يوجد فى يد إلا بالكسب أو الميراث . وليس كل الناس من يزيد كسبهم على مصرفهم فيختزنوه ، وليسوا كلهم من الوارثين حتى يتوافر فى أيدى بناتهم أو سيداتهم المستحقات للزواج .

ونسائل هذا الإنسان ثالثاً :

أتريد زوجة تخرج إلى العمل مثلك ، لتحصل على أجر تضيف حصيلته إلى أجرك ، حتى يتسنى لك الاستمتاع بالصرف ، أو أن تقوم بعمل له إيراد مقابل عيشها بجوارك ؟ ومن الذى يقوم على خدمة بيتك فيهيىء لك طعامك ويغسل لك لباسك ويرتب لك فراشك ؟

وإذا كانت قادرة على العمل ، فما الذى يضطرها إلى الارتباط بك ، ووضع نفسها تحت سيطرتك ؟

أم هل تريد زوجة يملك والدها المال والعقار ، فتتقدم الزوجة لمجرد ارتباطها بك ، فتأخذ ميراثاً من حى يرزق ، أو تتآمر على قتله حتى تدفع ثمن وجودها فى عصمتك ؟

أو أنك تريد أخذ المواثيق على ربك أن يميت حماك قبل الدخول على ابنته ، حتى تستمتع بما قد يكون لها فيه من نصيب ؟

أم هل تريد زوجة قد مات عنها زوجها ، وخلف لها من توفير كده ونتائج جهوده الشخصية ما يطمعك فيها ، ويكون لها كجواز لمرورها إلى دارك ؟

أم هل تريد زوجة تكون قد فقدت والديها ، وتركا لها نصيباً جعله الله لها لتحمى نفسها به من ضرورات الحياة ، وتحفظ به شرفها عن التنزل إلى ما لا يتفق ومكارم الأخلاق .

خبرنى بالله . ما الذى تريد أن تكون عليه زوجتك من هذه الأنواع . ثم قل لى ما هى إذن وظيفتك كزوج ؟ وما هو مركزك كرجل ؟

لقد دلت التجارب على أن الزوجة لا تحترم رجلا لا يكد ولا يشقى ، ولا تطيع رجلا ينظر إلى مافى يدها ، ولو كان على جانب عظيم من الثراء .

إن الزوجة إذا أخلصت لرجل أدى واجبه فى الحياة وعرفت فيه الرجولة والحماية والغيرة عليها ، يمكنها أن تساعده إذا دهمته شدة أو ألم به مصاب فى رزقه عرضاً .

وإن الزوجة لا تقبض يدها عن زوجها إذا رأت فيه التعفف والشهامة والمحافظة على حقوقها .

أما تلك التى تعطى حين يطلب منها ، أو تهب من غير ما ضرورة ، فهى غير زوجة ، لأنها إما أن تكون قد جعلت عطاءها ستاراً لهيمنتها على الرجل ، لتيسر لنفسها سبل الحرية فى تصرفاتها غير المشروعة ، وإما أن تكون قد منيت بمتعطل من الذين لا يعيشون إلا على جيوب النساء .

وإن الرجل الكريم النفس ، الذى يحس بكرامته ويشعر بذاتيته ، وتدفعه رجولته إلى المحافظة على شهامته ، ليأنف جد الأنفة من مال امرأته ، بل ويقبل على الاستدانة من صديق إذا اضطر ، ولا يظهر عوزه لزوجته ، حفظاً لرجولته واحتفاظاً بسلطانه وسيادته على بيته .

لقد خلق الرجل للسعى وراء الرزق ، وخلق المال ليكسبه الرجل بالكد والعرق ، ليصرفه على حاجته وحاجة أهله وولده . وإن نفقة الزوجة وأولادها من الفروض الشرعية على الزوج ، وقد أفردت لها القوانين الدينية والشرعية أبوابا واسعة ، وجعل عقاب عدم دفعها مع القدرة الحبس والزج فى السجن . وإذا كان صاحب الدين جل جلاله قد ألقى على الرجل فروضاً وواجبات فى الحياة ، لانه صنعه رجلا ووهب له القوامة . أفيكون من الرجولة أن يتهرب الرجل من مميزات الرجولة وصفاتها ثم يتغنى بجنسه بين الأحياء ؟

إنه لخير لمثل هذا الانسان أن يستعير لباس المرأة وزخرفها، ثم يجعل نفسه عالة على رجل آخر ، من أن يظهر بمظهر الرجال وهو خلو من صفات الرجال .

المال لا يوفر السعادة الزوجية

يذرع البائع المتجول الدروب والشوارع والأحياء جيئة وذهابا فى اليوم الواحد عشرات المرات ، سعياوراء المال . ويقف التاجر على قدميه ليعرض على زائريه أنواع سلعه ، يحمل هذا ويرفع ذاك طول النهار ، وراء كسب المال . ويحرك المدرس لسانه بالشرح والتفصيل ، وفكره بالبحث والتنقيب فى الفصل مع تلاميذه من أول اليوم إلى آخره لكسب المال . ويعمل العامل والصانع بجسمه ويديه ورجليه وعينيه وكل جوارحه ، من أول النهار إلى آخره ، سعيا وراء المال . ويبكر الموظف فى الذهاب إلى عمله ويجلس وراء مكتبه يقلب الملفات ، ويكتب فى الأوراق ، ويصرف الأمور التى توكل إليه ، وذلك كله من أجل المال

كذلك الطبيب والمحامى ، والقاضى والوزير ، ومن إليهم . كل منهم يقوم بما عليه من تكاليف وأعمال ، نظير الحصول على المال . ذلك لأن المال هو الشق الأول من زينة الدنيا ، ووسيلة الاستمتاع فى الحياة ، وواسطة التعامل ، والأخذ والعطاء بين الناس .

وتختلف حاجة الناس إلى المال تبعا لأقدارهم ومعرفتهم . فما يكفى العامل منه ، لا يكفى صاحب العمل . وما يكفى الموظف الصغير ، لا يكفى مدير مصلحة ، وما يكفى المدير ، لا يمكن أن يكفى الوزير . لأن كلا من هؤلاء له مطالب ، تختلف فى جوهرها عن مطالب غيره من أصحاب الطبقات التى تعلوه . أما كسب المال وطريقة الحصول على الوفير منه ، فذلك فن لا يجيده كل الناس ، وإن كانت كل جهودهم المنوعة متحدة الأهداف .

ولقد كان المال فيما مضى يكفى القليل منه طالبيه ، لأن جهات الصرف كانت مقصورة على ضرورات الحياة من مأكل وملبس ومقام . غير أن المدنية التى اتخذها الناس رداء لهذا الزمن خلقت كماليات واسعه متعددة النواحى ، لها بهرج ورواء مغر ، ولها بريق جذب إليه كل الناس ، لا فرق فى ذلك بين العامل الصغير وصاحب المصنع الكبير . وأصبحت هذه الكماليات من ضرورات الحياة .

وكان من الطبيعى أن تسدد المطالب الجديدة ، وأن يضاعف السعى فى الحصول على المال ، وأن يصبح المال منشأ الحركة والنشاط والتسابق والتدافع بين الناس .

وأنى وجهت وجهك أو أصخت بسمعك ، فإنك لا ترى ولا تسمع الآن إلا كلمة المال .

وكلمة المال الآن كلمة تكاد تتجمع فيها خيوط الأثير النفسانى للخليقة البشرية .

يسمعها الرجل فتدب فى جسمه حرارة وحركة وانتباه ، وتسمعها المرأة فتتنبه فيها جميع الحواس . والحقيقة التى أعرفها أنا وأنت ويعرفها جميع الناس ، أن المال فى هذا الزمن قد جعل وسيلة لقضاء جميع مآرب الحياة من مأكل وملبس وإقامة ومظهر وكماليات .

فبالمال يمكنك بعد سكنى الكوخ أن تسكن القصور الفخمة ، وتقيمها وسط الحدائق الغناء ، والأراهير الفيحاء ، وإن شئت جعلت من تحتها مجرى للأنهار .

وبالمال يمكنك أن تلبس بعد العرى الدمقس ، وتدفن نفسك فى الرياش الوثيرة ، وأن تضع حواليك جيوشا من الخدم أو الأجناد .

وبالمال يمكنك بعد الإهمال أن تجلس بين العظماء والكبراء ، أو يزورك الكبراء والعظماء . وأن لا تخلو حفلة ولا سهرة من رجائك لتشريفها ، ولا جمعية فنية أو علمية من رياستك .

وبالمال يمكنك حتى مع الجهل إنشاء المصانع والمعامل ، وتملأها بالآلات والمهندسين والعمال

وبالمال يمكنك أن تبنى السائرات الضخمة فى البحر كالأعلام .

نعم : بالمال يمكنك أن تعمل ذلك وغير ذلك مما يخطر لك أو لا يخطر على بال .

لكن شيئا واحدا فقط ، يعجز على إيجاده المال ، ويقصر عن توفيره المال . أتعرف ما هو هذا الشىء ؟ إنه السعادة الزوجية لأنها شىء روحى ثمين . لا يشترى بمال ولا يقوم بمال .

هذه السعادة الزوجية هى التآلف بين قلبين ، وانسجام بين نفسين ، وامتزاج بين روحين . وهى الوداد المتبادل ، والحب فى أسمى مراتبه إلى حد التضحية والايثار .

السعادة الزوجية صرح معنوى شامخ ، لبناته روحية ومواده روحيـة ، والأجواء التى تحيط به روحانية خالصة ، لم يكن للمادة فيها مكان ، ولا للمال فيها مقابل .

السعادة الزوجية نفثات القلب ، ذلك المضغة اللينة التى لا تزيد على ملء اليد . هذه المضغة ترفع عن المادة ، وتسمو على التقدير ، ولو بماس أو زمرد وزبرجد ، أو غير ذلك من كنوز الدنيا أو أكداس المال .

هذه السعادة التى يشعر بها كثير من المتزوجين ، تتكون من أسس ينشىء بعضها بعضا فى سير طبيعى ، عنـدما يعنى بوضع الأساس . وهذا الأساس ، من البساطة بمكان . أتعرف ما هو ؟ ومم يتركب ؟

أنه الرغبة النفسية المشتركة فى نفس الزوجين ، رغبة المحافظة على قدسية الزواج ، واعتزام استدامة الرابطة . وهما من أوليات الارتباط الصحيح

فإذا وجدت هذه الرغبة تبين لكل من الزوجين أنهما أمام منظر جديد ، وحاجة ملحة تقوم فى نفسيهما لتدعم هـذا الأساس ، وهذا المنظر الجديد معنوى أيضاً ، إذا عبر عنه كل

منهما أخبرنا بأنه التضحية وإنكار الذات ، والقناعة بالأمر الواقع ، ثم سرعان ما يشعران بأنهما قد تملكهما شيء آخر عجب . وهذا الشيء العجب هو الميل الشخصى ، أو الجاذبية النفسية أو التمازج الروحى ، أو الحب العميق لذلك الشريك . وهذه المعانى كلها وما يتفق معها من ألفاظ وجمل ، تنضوى تحت علم واحد ، واسم واحد ، هو السعادة الزوجية .

وإذن فالسعادة الزوجية قد صارت صرحا شامخا ، ولكن لم يكن من لبناته ما يسمى (المال) . بل هو معنى روحى فى أساسه ومواده .

ولقد يتوهم بعض المفتونين بالمال ، أنهم إذا تملكوه ، وصلوا به إلى مايريدون من سعادة زوجية . وهيأ لهم بهرجه رواء الحياة ، وواتتهم بوجهها الصبوح . وهذا زعم خيالى بحت ، بينه وبين الواقع كما بين الحق والباطل من فروق وأبعاد ، وإليك الدليل :

لقد جرت سنه الكون على أن يعيش العامل فى طبقة العمال ، والصانع فى طبقة الصناع وهكذا . لكن هناك شيئاً لم تجر به الطبيعة . وإذا حدث يكون خارقا للعادة . ذلك الشيء هو أن يقحم العامل نفسه وسط عائلة متعلمة ، أو بيت عاش أفراده فى مستوى المدنية الراقية . فهو لا يعرف قواعد اجتماعهم ، ولا يعرف أنواع عيشتهم ولا معاملاتهم ، ولا يعرف حتى الأدب فى محادثاتهم .

وهب أن فرصة المال قد واتت واحداً من هؤلاء ، كما سمعنا العجب فى أثناء هذه الحرب . فخلع عن نفسه رداء العمل الأزرق ، وليس البدلات الصوفية والحريرية ، وركب بعد السير على الأقدام ، سيارات خصوصية ، وانتقل بعد الإقامة فى الحجرة الأرضية ، إلى سكن العمارات . ثم افتتح المصانع ، وجعل نفسه من أصحاب الأعمال ، والمال قد واتاه حتى كادت خزائنه تنفجر به .

هب أن هذا العامل تقدم فى سبيل استكمال نصف دينه إلى صاحب السعادة أو العزة فلان باشا أو بك من أولئك الذين نسلوا من الرجال المعروفين ، والعائلات العريقة ، رغبة فى الظهور بالمظهر الضخم الذى يتناسب مع ثرائه الضخم .

وهب أن هذه العائلة عرفت حين الاستفسار عن صاحبنا ، أنه كان عاملا نشأ فى المكان الفلانى ، ووالداه فلانة وفلان . وربما كان أحدهما من مستخدمى أحد أفراد العائلة فى زمن ما .

فهل يمكن لهذه العائلة أن ترضى بادخال مثل هذا الثرى وسطها ، فيجعله الرجال منها أخا وندًّا ، وتجعله واحدة منها سيداً وربا ؟

وهل إذا أحاط نفسه بهالة خالت حقيقتها على العائلة ، حتى رضيت به نسيباً وصهراً ، أتكون هناك ضمانة لإشغال قلب السيدة أو الآنسة لهذا الإنسان ، الذى سيكتشف أمره الأخلاقى والأدبى والثقافى فى أول ليلة من ليالى الارتباط ؟

لقد رأينا فى هذا الزمن كثيراً من الناس الذين أثروا فجأة وكانوا مدقعين ، ورأينا كثيراً من بيوت عالية أدخلتهم وفتحت لهم مصاريع أبوابها لظروف المال . ولكن للأسف الشديد وجدنا القلوب ، تلك التى بين الجنوب متنغرة وغاضبة ، بل متحولة ومغرقة بالحنين إلى ما يتفق وما نشأت فيه ، تواقة إلى معاشرة أولئك الذين يفهمون لغتها ويعرفون غذاءها الروحى ، ضاربة بما تراه من وجوه مختلفة كل الاختلاف عما رأت وسمعت ، وبالثراء الواسع عرض الحائط .

نعم . وجدنا نفوراً ووجدنا شقاقا بل ووجدنا خيانات لا يرضاها الرجل الشريف ، اضطرت إليها المرأة التى انحدرت فى الناحية التى لا تتفق ومكانتها .

لأن القلب لا يحرك نبضه بالميل ، المال والثراء . ولكن يحركه ويجذبه شىء روحى يعرفه هو ويقدره ، ولا يعرف هذا الشىء غير سعداء الحياة الزوجية .

وإن المرأة العالية ذات العائلة العريقة لا ترضى لنفسها وضعاً تحت إمارة من تعرف أنه دونها ، ولو ملك مال قارون . وأنها إذا اضطرت أو اضطرها ذووها إلى هذا الوضع ، فانها لا تعرف فى قرارة نفسها أن هذا زوجها العتيد المطلوب ، بل تعتبر نفسها كسلعة تجارية بيعت جسما ولكنها احتفظت بجوهر الروح ، فلا يكون ضمن المعروض .

وإن الرابطة التى تكون بين اثنين أحدهما مثل هذه السيدة ، أو يكون قلبها مثل هذا القلب لا بد وأن تخلو من الأساس الأصيل ، الذى تبنى به صروح السعادة الزوجية .

وإذن فقد عجز المال عن الوصول إلى ما يريده مالكه ، فى هذه الناحية المعنوية عجزاً تاماً لا قومة له منه ، ولا حيلة فيه .

فإذا كان المال على قوته وهو فى يد الرجل ، لا يصل به إلى ما يرجوه من أمل محبوب للنفس ، مرجو فى كل رابطة زوجية ، فما باله إذا خلا منه الرجل ، وبحث عنه فى يد سيدة أو آنسة ، ليستكمل به سعادته ؟ أو ليهيىء به ما يسمى السعادة ؟ إن الأمر سيكون فى هذه الحالة أخطر وأشق ، بل أبرز فى إيجاد النفور والاختلاف ، بل وأقطع فى إيجاد الحرمان من الاسم الملفوظ لهذه السعادة .

* * *

وإذن قد عرفنا أن السعادة الزوجية ، أو جذب القلب ، ليس للمال سبيل إليهما . وآن لنا الآن أن نعرف أن المال تأتى به السعادة الزوجية ، أو هو أثر من آثارها . وجس بنا خلال البيوت التى ترفرف عليها أعلام الهناء النفسى ، والرضاء الروحى . حيث تجد الهدوء والسلام ، والتوافق والرضاء ، والقناعة والمحبة .

هناك نجد المرأة معتزة هانئة برجولة زوجها محافظة على رابطتها ، مطيعة لرب بيتها. لا يعدله فى نظرها كبير ، ولا يوازيه فى تقديرها ثرى أو عظيم . صحته أمالها ورضاؤه رجاؤها . دعوتها الخالصة بينها وبين ربها من أجله هو ، وسلامته هو . وزينتها وتفكيرها وقف عليه . لا تكلفه ما لا يطيق . ولا تطالبه بما لا يملك ثمنه . قانعة بما يبذل ، راضية بما قدر لها من نصيب . وهى التى تحتجز له البسمة القلبية الخالصة ، حين تلقاه ، والسرور النفسى الذى يشيع فى وجهها ، حين مرآه . حمله قلبها على صفحته فهو عندها كل شىء . وانشغل به حسها حتى أصبح عندها يملك منها كل شىء .

أما الرجل ، فتراه سعيداً فى بيته . قد تفرغ إلى الجهاد فى الحياة من غير تفكير فى ظهره . يشع فى أعضائه وفكره النشاط ، ويواصل الجهود ليوفر لهذه الرابطة ما تتطلبه من واجبات .

إذا فرغ من عمله هرع إلى مسكنه سعيداً بذهابه ، مشوقا إلى شريكته . وهذا الاتجاه وذلك التوفر على العمل ، هما أساس الوصول إلى المال ، لأن لكل مجتهد نصيبه منه .

فهنا وفى هذه الحالة فقط ، تعرف أن المال قد خلقته السعادة الزوجية ، وكان وجوده مبنياً على أساس سبقها . بعد أن تبين لك بوضوح أن هذه السعادة لا يمكن أن يهيئها المال .

ومما تقدم يتبين أن المال مهما بلغ مقداره لا يوصل صاحبه إلى السعادة الزوجية ، ولا يكون وسيلتها . وعلى العكس تلد السعادة الزوجية المال عندما توجد . وحينئذ يخطئ كل الذين يعلقون السعادة الزوجية على توافر المال .

تنبيـــه

أيها القارئ العزيز

إذا كان لك من نزاع غير وارد فى أبواب هـذا البحث ، فنحن على استعداد لإرشادك الى سببه ومعالجتـه ويسرنا الوقوف على شىء جديد فى هـذا الموضوع

المؤلف

الوحدة عذاب والزواج سعادة

ليست الوحدة التى نعنيها هى الخلو إلى النفس طلباً للراحة والاستجمام ، أو التفكير فى مشكلة تحتاج إلى الانفراد .

وإنما الوحدة التى نعنيها ، هى تلك التى يعيش فيها الإنسان منفرداً من غير شريك ، ولا مؤنس ولا مساعد . أى يكون أعزب من غير زواج . هذه الوحدة أمر غير طبيعى فى حياة الرجل ، وحياة ضد السنن الاجتماعى . وقد خلق الله لأبينا آدم أمنا حواء لتؤنسه ، وجعل ذلك سننا يسير عليه الأبناء . وما خلق الناس فى هذه الدنيا ، إلا وجعل الاتصال والارتباط والتناسل من أوليات حياتهم ، بل إن هذا الاتصال سبب وجودهم وكثرتهم فيها .

ولقد قضت الطبيعة على الرجل بأنه عند ما يبلغ سناً معينة ، وكذلك المرأة ، فإن كلا منهما يشعر برغبة استكمال ما ينقصه ، ولو كان يقيم بين ظهرانى أهله . وإن الرجل ليفر من الوحدة إلى الائتناس بالآخرين ، فى المسارح والملاهى خارج المنزل . وإن المرأة تشعر بإحساس نفسى عنيف يهز أعصابها ، وينحل جسمها ، ويغير من نضارتها ، إذا استدامت وحدتها ، وطال انفرادها . والوحدة إرهاق وضغط ، وتكليف ثقيل ، واستيحاش مخيف . يؤذى الجسم ويحد من التفكير ، ويكثر من التكاليف ، بل ويوجب المسئولية فى كثير من الأوقات .

فالذى يعيش وحيداً ، يقوم على خدمة نفسه بنفسه ، من أول اليوم إلى أن يعود إلى النوم . ولا تسل عن تحضير الانسان لطعامه ، و ما يتطلب ذلك من وقت وعناء ، وتحضيره لأدوات ملبسه ، ومطالبه الأخرى ، وما يقتضيه ذلك من سعى داخل المنزل ، وحمل ونقل وتنظيف وترتيب . وهو ما يتولاه شريك الانسان فى حياته ، أو ما يقوم عليه الخدم . كل ذلك يتعب الجسم ويحمله عناء العمل .

وإن الأوقات التى يبذلها الوحيد فى القيام بمطالب حياته ، تقتطع بلا شك من يومه ، وتنقص من إنتاجه الزمنى .

وإن إرهاق الجسم بالعمل العام ، ثم بالعمل الخاص ، ينقص من نشاط الفكر ، ويحد من الانتاج . ولا تسل عما يترتب على ذلك من مسئوليات .

وإذا كان الوحيد قد استعان على مطالب حياته بالخدم ، فقد وكل أمره وحياته ، إلى من

لا يعنيهم أمره . فهم فضلا عن عدم أمانتهم فى الأخذ والعطاء والنظافة ، فهم أيضاً لا يؤتمنون على شراء . وهذا من شأنه زيادة للتكاليف ومضاعفة للأعباء .

والرجل الوحيد يعيش مطوياً على نفسه . فهو يدخل بيته المظلم الساكن ، صامتاً . ويجلس صامتاً . ويقوم ويقعد صامتا . ويقضى كل الوقت فى المنزل لا يفتح فمه بكلمة ، إلا ضجراً من وحشة ، أو من شىء عجز عن قضائه لنفسه ، حتى يخرج من البيت . وهو يهب من نومه فزعاً ، ليجيب الطارق لبابه ولو كان خاطئاً .

وهو الذى قد يضطر للخروج مرة ثانية ، بعد أن يكون قد قطع إلى بيته شوطاً طويلا لأنه نسى استحضار شىء لازم له فى الليل أو الصباح الباكر .

وهو الذى يتحامل على نفسه إذا كان مريضاً ، قد لازم فراشه ، ليأتى لنفسه بكوبة ماء أو جرعة من الدواء .

وهو الذى يعانى آلامه وسقمه ، دون أن يكون له مواسٍ ، أو مساعد فى هذا العجز .

وهو الذى يقعد وراء مكتبه وينشغل فكره فيما سيأكل اليوم ، ومن أى مكان يستحضره ، وكم من الوقت ينجزه فيه ، ومتى سيأكل ، بعد أن أمضى ميعاد عمله ، وغالباً ما ينقضى عليه الوقت المحدد للراحة ، فى سبيل استحضار طعامه وتناوله .

وهو الذى يمر على مسكنه السائرون أو الزائرون . فيجدونه موحشا مظلما ليس فيه نور ، فإذا دخل إليه أحد فلا أثاث ولا نظافة ولا ترتيب ، ولا من يناول كوبة ماء .

والوحدة فضلا عن آثارها الاجتماعية المذكورة ؟ مخالفة لسنة الدين .

قال ابن ماجه محدثا عن النبى صلى الله عليه وسلم (النكاح من سنتى ، فمن لم يعمل بسنتى فليس منى . وتزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم . ومن كان ذا طول فلينكح) .

والوحدة رهبانية حرمها الدين ، لقول البيهقى محدثاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم : (تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم ولا تكونوا كرهبانية النصارى) .

وإذا أضفنا إلى هذه النتائج ما تجره الوحدة على الوطن من تفويت حقوقه عليه ، ومنها تكثير العوانس فى بناته ، وتقليل التناسل فى أبنائه ، وحرمانه من نتائج ما قد يكون لهم من آثار حسنة عليه ، كانت تبعة الوحدة ثقيلة على الرجل الذى اختارها لنفسه ، ولم يؤد رسالة الرجولة .

من أجل هذا تكون الوحدة من الأعمال الضارة بصاحبها فى الدين والدنيا .

أما الزواج فسعادة ، وهو ميثاق سام يعقد بين نفسين ، ويربط بين جسمين ، ويمزج روحين

وهو عقد بين رجل وأنثى على صداق وفى مجلس شرعى ليحلل به الوطء .

وهو إقامة بيت جديد يضم ذاتين ليزيد بهما العمران .

وهو معاونة اختيارية تقوم بين الزوجين على إقامة عش للسعادة النفسية ، وإيجاد مجال حيوى ترفرف فى فضائه الصافى روحاهما معا ، متساندتين متشابكتين ، بل متحدتين ممتزجتين .

وهو رابطة شرعية تبنى على أسس الرغبة والاستمرار ، ما دام فى القلب عصب ينبض بالحياة ، بين ضلوع كل من الزوجين .

هذا الزواج تدفع إليه الحاجة إلى المشاركة واستكمال النقص ، والاستعانة على الانفراد والوحشة ، والرغبة فى العصمة والنسل . ويهدف إلى التآلف والتوادد والمحبة ، والتعاطف والامتزاج ، والعمران الكونى ، والتعاون بين الأسر بالمصاهرة ، والعون على طاعة الله ، وسعة الارزاق ، والاستمتاع بالنكاح بين الزوجين .

وفى الزواج اتباع لأوامر الدين وسير على سننه . قال الله تعالى فى كتابه الكريم :

(وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم أن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم) .

وقال : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) . وقال : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات) .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : (تناكحوا تكاثروا فانى أباهى بكم الأمم يوم القيامة) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : (جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبى صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها[1] فقالوا وأين نحن من النبى صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فقال أحدهم أما أنا فانى أصلى الليل أبدا . وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً . فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . أنتم الذين قلتم كذا وكذا . أما والله أنى لأخشاكم لله . واتقاكم له . لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى) . رواه الشيخان والنسائى .

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال أراد عثمان بن مظعون[2] أن يتبتل فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو أجاز له ذلك لاختصينا .)

---

(١) تقالوها أى استقلوها أو وجدوها قليلة .

(٢) عثمان بن مظعون أخ النبى صلى الله عليه وسلم من الرضاع .

وللترمذى والنسائى والحاكم (ثلاثة حق على عونهم . المكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذى يريد العفاف ، والمجاهد فى سبيل الله) .

ذلكم قول الله وقول رسوله فى الزواج .

وبالزواج يعمر الكون ، ولولاه لما كان بنو آدم الذين ملأوا جوانب الأرض ، واعتلوا الرياح ، وغاصوا فى أعماق الماء ، وشيدوا الأبنية ، وبنوا السارياتِ فى البحر كالأعلام ، واستخرجوا من بطون الأرض ما اختفى فيها من خيرات .

والزواج تدعيم للأوطان وحماية لها . ولولاه لما كان الذائدون عن حياضها ، والقائمون على المحافظة عليها ، والمخترعون للصناعات التى تعود بالخير على سكانها ، وأرضها ومائها وفضائها .

والزواج عمل اجتماعى ، ولولاه لكان الناس كالوحوش فى الافتراس ، أو كاللصوص للأعراض ، وكان النسب بينهم ضائعاً ، والشرف مباحا ، والكرامة مهانة ، والشهامة والرجولة والغيرة فى عدم .

والزواج دافع للاقدام والجرأة والتحصيل . ولولاه لقبع كل إنسان فى مكانه ، ولأكتفى بما يسد رمقه . ويستر عورته ، وعاش كما يعيش البدائيون فى البراري والفلوات .

والزواج اعتزاز بالذاتية والرجولة ، ولولاه لكان الإنسان إباحيا لا غيرة له ، ولا شهامة فيه ، ولا حساسية تدفعه إلى حماية ذمار ، أو دفاع عن عرض .

والزواج صحة وعافية وحماية . ولولاه لانتشرت الأمراض الخبيثة بين الناس ، وشوهت أجسامهم ، وتغيرت سحناتهم ، وقاسوا من الآلام ما يعرفه غير المتزوجين .

والزواج أناقة ونظافة وراحة . ولولاه ، لكانت النضارة التى تبين فى وجوه المتزوجين تجهما وعبوساً وقتامة . ولكانت ملابسهم مراعى خصبة للحشرات الجسمية كالقمل والبراغيث والصيبان . ولكانت مظاهرهم منفرة مزدراة . والزواج استمتاع حر شريف بالمأكل والمشرب والمنام . ولولاه لأكل الانسان ما لا يأمنه ، ولشرب ما يعافه ، ونام نومة الرحل عندما يحضرهم المساء فى الفلوات .

والزواج إيناس ومؤانسة . ولولاه لعاش الإنسان صامتاً ملجماً ، لا يجد من يحدثه ، ولا من يهدئ روعته وحشته ، كلما دخل حجرة أو نام .

والزواج ينير البيوت ويضىء الأمكنة ، ولولاه لكانت المساكن كالقبور ظلمة ، وكالمهاوى سكونا ، ولكانت الشوارع والدروب ظلاما فى ظلام .

فإذا كان هذا كله هو مآثر الزواج أو بعضه ، وفى البعض منه ما يهيىء للانسان رضاء الله ورسوله ، ورضاء المجتمع ورضاء ضميره ويصير به رجلا صحيحاً سليما معافى ، فإن الزواج يكون بلا شك سعادة وراحة وهناء .

ليست المرأة لغزا ولا سما ؟!!

ولكنها باقة نضرة من الأزاهير

تعرضت المرأة فى هذه السنين لهجمات عنيفة شنها عليها كثير من أولئك الذين لم يعرفوها ، أو الذين أرادوا إظهار أنفسهم كأعداء لها ، حبا فى الظهور عن طريق هذا التشهير .

وقد طعنها البعض بعدم أحقيتها للاحترام ، واتهمها بعجزها عن معرفة الواجب عليها لزوجها وأولادها وبيتها .

وطعنها البعض الآخر فى أخلاقها وذاتيتها ، ونسب إليها الهوان .

ووصفها البعض بأوصاف نابية وصفات وضيعة ، لم يصفها به الله الذى كرم الإنسان .

وقال عنها آخرون إنها لغز ، وإنها سم ، وإنها معقدة لا تفهم ، وإنها ماكرة خادعة ، وإنها شيطان .

بهذا وغيره وصفت المرأة ، واستهدفت لكثير من السهام التى صوبت إليها ، فى فصول طوال حبرت بسواد الطعن عليها والحد من قيمتها . حتى خيل للناس الذين لم يعرفوا المرأة ، أنها ما خلقت إلا لعذاب الرجل ، وشقاء الإنسانية . وخشيها البعض حتى نكص الكثيرون عن طريق مشاركتها الحياة ، ومقاسمتها ما فيها . وتهيب منها البعض حتى دفعهم هذا التهيب إلى معاجلتها بإقامة الحيل ونصب الشباك لإيقاعها كالوحش الكاسر ، خوفا من مفاجأتها ، وأعرض عنها البعض حماية لنفسه من العجز عن مجابهتها ، وتفويتا لما قد يقع عليه منها .

فهل كان أولئك الذين وقفوا من المرأة موقف العداء والمخاصمة والتحقير ، يعرفونها معرفة معاشرة ودراسة ؟ وهل كانوا على حق فى معاداتهم لها ؟ وهل هى جديرة بهذه النعوت والأوصاف ، ومستحقة لهذه الحملات والقسوة ؟

إن الجواب على ذلك يستأهل استعراض هذه الخصومة للوقوف على جانب النزاع ، ثم يترك الحكم لمن يكون بعد استيعاب الموضوع .

من هى المرأة :

المرأة مخلوق إنسانى وادع ظريف ، ناعم الملمس ، غزير الحساسية ، مرهف السمع ، رقيق الشعور ، بهى الطلعة ، جذاب المنظر ، أخاذ المظهر . إذا تحدث كان لصوته رنين عذب

محبب إلى السمع ، نال الاتجاه والانتباه . وإذا سار تنبهت إليه العين ، وسمر فيه البصر وشيعه حتى يغيب . وإذا رضى ففى رضائه راحة النفس ، وهناءة الحياة ، وسعادة الدهر . وإذا بكى كانت دموعه المنسابة على صفحات خديه عوامل هم وأسى ، وحزن وهدم لمن أحزنه أو أبكاه .

وإذا أقبل ، أقبلت الدنيا معه ، وإذا أدبر ، فلا خير ولا راحة ولا إيناس .

والمرأة هى أم الإنسان ، وهى النصف الثانى للبشر ، ووعاء المخلوقات العاقلة ، ومصنع المفكرين والقادة والعلماء ، ومخرجة الأنبياء .

والمرأة هى التى خلقها الله خصيصا ليسكن إليها الرجل . قال الله تعالى : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

وهى أول ثلاثة حببت إلى النبى صلى الله عليه وسلم من الدنيا كما جاء فى حديثه صلى الله عليه وسلم حيث قال : (حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة) .

وهى باعثة الشهامة والغيرة فى الرجل ، والكفاح والاجتهاد والعمل فى الحياة .

وهى الدافعة إلى الرقى العلمى ، والثقافى ، والاقتصادى ، والاجتماعى ، ولولاها لما كانت مسارح ولا قصص ، ولا أغان ، ولا سينما ، ولا موسيقى ، ولا رسم ، ولا شىء من الفنون الجميلة ، التى تمت إلى المشاعر والأحاسيس بصلات وثيقة .

والمرأة هى التى تملك علم النصر عندما تريد ، على من تريد . لا قوة واقتدارا ، وقسوة وعنفوانا ، ولكن نظرة وادعة تحقق تسليما اختياريا ، واستسلاما محبباً ، دون مضض ولا ندم . . .

والمرأة مجموعة من المحاسن ركبت بمهارة لا تعدلها مهارة ، وباقة جمعت أزاهير نضرة ، تملأ العين والنفس .

وهى التى إذا ذكر الجمال كانت هى المقصودة ، وإذا ذكر التشبيه بالقمر كانت هى المعنية ، وإذا ذكرت الغزلان فى جاذبية عيونها ونظراتها الحالمة ودقة أطرافها وتثنى أعضائها ، أو التغزل والحب والهيام ، والشوق والدل والغرام ، والنار المتأججة ، والسهد ، والهجر ، ولوعة القلب والضنى ، وغير ذلك كانت هى ولا شك بيت القصيد ، ومبعث الكلام .

وصفها جميل المحب العربى فقال :

يمج ذكاء المسك منها مفلج رقيق الحواشى ذو غروب مؤشر

يرق إذا تفتر عنه كأنه حصا برد أو أقحوان منور
وترنو بعينيها إلىّ كما رنا إلى زرنب وسط الخميلة جؤزر

وقال فيها كثير :

نظرت إليها نظرة ما يسرنى بها حمر أنعام البلاد وسودها

وقال فيها قيس :

إذا عبتها شبهتها البدر طالعا وحسبك من عيب لها شبه البدر
لقد فضلت لبنى على الناس كلها على ألف شهر فضلت ليلة القدر

وقال فيها (مجنون ليلى)

بيضاء خالصة البياض كأنها قمر توسط جنح ليل مبرد
موسومة بالحسن ذات حواسد إن الجمال مظنة للحسد
وترى مدامعها ترقرق مقلة سوداء ثوب عن سواد الأثمد
خود إذا ذكر الكرام رأيتها تحمى الحمى وإذا تكلم تقصد

وقال :

ولو شهدتنى حين تأتى منيتى جلا سكرات الموت عنى ابتسامها

وقال فيها عروة بن خزام :

وإنى لتعرونى لذكراك رعدة لها بين جلدى والعظام دبيب
فما هو إلا أن رآها فجاءة فأبهت حتى ما يكاد يجيب

وقال فيها ابن عجلان :

غراء مثل الهلال صورتها أو مثل تمثال صورة الذهب

وقال فيها ذو الرمة :

ذكرتك إذ مرت بنا أم شادن أمام المطايا تشرئب وتنصح
هى الشبه أعطافا وجيدا ومقلة ومية ابهى بعد منها وأملح

هذا وغيره قاله الكثيرون من الشعراء ، وفطاحل اللغة والأدب فى المرأة . وقد كان كل يغنى ليلاه . وهى أوصاف وتشبيهات رائعة دقيقة لم ينلها غيرها من المخلوقات ، وعقود من تمجيد ، لم توضع لغيرها فى جيد .

فهل عرف هذا أولئك الذين نعتوا المرأة بالحقير من الأوصاف والصفات ؟ كلا . إنهم لم يعرفوه ، ولذلك فهم لا يعرفون حقيقتها ، ويتحدثون مدفوعين بدوافع مضادة للحقيقة

المشهورة المعروفة . وهم يقولون قولة الجاهل بها أو قولة الموتور منها . لأن المرأة لها وصف عام أتينا على بعضه فقط ، وفيه من الكفاية والاقتناع ما يجلس المرأة على عرشها الجديرة به .

لكننا لا نكتفى فى تبيان هذه العداوة والاعتداء بما أوردنا ، بل يجب أن نجوس خلال أصناف المرأة وأنواعها ، لنريهم أى الفريقين أحق باللام ، وأجدر بالاتهام ، وأى أنواع المرأة هم يعرفون ، وأى صنف منها يقصدون .

إن المرأة صنفان : واحدة معلومة ، وأخرى مجهولة . فالمعلومة هى تلك التى يراها الناس فى الأسواق والمجتمعات ، والملاهى والحانات ، والمسارح والمجالسات . خلعت عن نفسها رداء الحياء ، وتمزق عن وجهها ستار الخجل . تلبس كل ساعة رداء ، وتتأبط كل يوم نذلا . لا تعرف البيت إلا إذا أرادت الجريمة ، أو الراحة من الجريمة . ولا من شئون الدنيا إلا ما يزيد فى جعبة التبذل وقتل الوقت . حديثها مكذوب ، ودموعها مسيرة ، إن شاءت جعلتها وابلا ، وإن شاءت جعلتها طلا . أهملت نشأتها فشبت مهملة وسقطت . أو نشأت مهملة فكانت الهاوية حياتها ونهايتها .

هذه المرأة تعول نفسها ولا عائل لها ، وتحمى نفسها من الحاجة ولا يحميها أحد . تسير فى حياتها كسائمة فى البيد ، تقطع الفيافى كلما لاح لها غصن أخضر أو مجرى ماء .

مثل هذه المرأة لا تنكر على نفسها ما تقدم عليه ، وهى تعرف تماماً ما تذهب إليه . وربما تود من الصميم أن تقال من عثرتها ، وأن ترجع إلى الأصل فى سيرتها وطبيعتها ، إذا وثقت من مطابقة أفعال معاشرها لحديثه .

لكنها سقطت . وعرف المختلطون بها سقوطها . فهم يحفرون لها الهاوية ، ولكنهم لا ينقذونها . وهى تعرف أنهم قد خلوا من المروءة فى هذه الناحية . ولا تحدثها نفسها بملامهم ، أو العتب عليهم . كما تعرف أنها لا تقبض إلا إذا باعت ، ولا تنال إلا إذا أعطت ، وكأنها تاجرة فى السوق مع الفارق المؤلم .

هذه المرأة بضاعتها معروفة . لا يمكن أن تأكل ، ولا يمكن أن تعيش ، ولا يمكن أن تلبس ، ولا يمكن أن تسكن ، ولا يمكن أن تزيد نفسها ، إلا بثمن ما تبذله فقط . فهى فى هذا الموقف تمثل الأخذ والعطاء .

وأنت فى السوق تدخل المحل وتشترى منه ما ترين وتدفع ثمنه ، ولا يعرفك التاجر ولا البائع ، ولا يمكن أن تنتظر منه ولاء أو عطفاً أو إخلاصاً أو صداقة أو وفاء .

وهذه المرأة مثل ذلك التاجر أو البائع ، عرضت بضاعتها ، ثم رغبت فيها فانقدتها

المقابل . فلا يكون هناك ذيل للصفقة ، ولا يحق لك أن تنتظر شيئاً بعد ذلك . إن هذه المرأة دعايتها للبيع ، الغزل الكاذب ، كما أن دعاية التاجر الوصف الكاذب . وهى تعطى بمقابل ، كالتاجر تماماً يعطى السلعة بمقابل .

فلم تحمّل المرأة التى تكون هذه صفاتها أكثر مما تحتمل ، وتطالب بأكثر مما لا يحق ، وتجبر على دفع ما لا يستحق ؟

إن الرجال الذين يشترون من هـذه المرأة بضاعتها يصدقون الدعاية . فيطالبون مثنها بالصداقة والوفاء والصدق والأمانة . وحينما يعجزهم الوصول إلى ما يزعمون ، يرمونها بالمكر والغدر ، والخيانة والنذالة . مع أن هـذه المرأة تعيش بلا قلب ، ويجب أن تعيش بلا قلب . لأنها إذا أدخلت قلبها فى السوق جاعت وتعرت ، وشردت فى الشوارع ، ولا تجد من ثمن زينتها ما يجلب إليها نظر الشارين .

هذه المرأة تعرف أن ربحها فى كثرة المعرفة . فإذا كان قلبها ينبض ، فلمن من هـذا الجيش الذى تعمل جاهدة على أن يكون وراءها دائماً ؟

إنها فى داخلية نفسها قد قتلت شعورها ، وهى راضيـة بذلك ؛ لأنه وسيلتها إلى تكرار المعرفة ، ولأنها تريد أن تعيش .

لـكن أولئك الذين لا يعرفون ما هى عليه ، أو من هى ، يطالبونها بارتداء لباس فضفاض . لا يليق بجسمها ، ولا يمكنها أن تظهر به ، أو تحيـا فيه . وهم من أجل ذلك يخلطون بين المعلومة التى لا تجهل نفسها ، وبين غيرها من المجهولات . ثم يقولون إنها هى المرأة . وإن ما يبدو منها عام عند الصنف ، شائع فى النوع .

مع أنهم لو أنصفوا مع مثل هذه المرأة لما حملوها ما لا تطيق ، ولما طالبوها بما لا تحتمل ، لأنهم يظلمونها بهذا التكليف . وتلك هى المرأة المعلومة وهذه أفعالها .

أما المرأة المجهولة ، فهى التى لا يعرفها أولئك المعتدون الواصفون الطاعنون . لأن ميدانها البيت ، ولأنها لا تعرف الطريق إلا لقضاء مصلحة من مصالح الحياة . ولأنها تسير فى أقصر الطرق ، ولا تعرف الالتواء . ولأنها تسير ناظرة إلى الأمام لا تلوى على شىء . ولأنها تغض البصر فلا ترفعه فى إنسان غريب . ولأنها لا تسمح لرجل مهما علا مركزه وسمت مكانته أن ينالها بسوء . ولأنها تجد خفارة قوية من ضميرها وشرفها وشرف عائلتها . ولأنها فى حياتها تسير على نهج من الفضيلة والدين .

هـذه المرأة لا تعرف المجتمعات والحانات ، ولا تدخل المسارح إلا متفرجة مع زوجها

وأطفالها ، ولا الحدائق إلا للترويح فى يوم عطلة ، مع رجلها ليتقاسما الاستجمام .

هذه المرأة المجهولة . وهبت نفسها للبيت ، وشغلت قلبها بحب زوجها ، وملأت شعورها بالكرامة . لا تعرف الكذب ، ولا تعرف الدعاية ، ولا تعرف العرض ولا الطلب . ولا تعرف الكسب ولا تسعى إليه . لأنها فى حماية رجل تعرف أن حاجتها مكفولة عنده ، ومطالبها من واجباته فى الحياة .

هذه المرأة المجهولة . هى التى تملأ البيوت ، وتعمر الدور ، وتنير الأركان والجوانب فى المنازل ، ولا يمكن لأمثال هؤلاء الذين جهلوا من هى المرأة أن يعرفوا مكانها ، أو يتحدثوا إليها ، أو يعرفوا مقرها ، لأنها محصنة وفى حرز مكين .

هذه المرأة المجهولة هى التى مجدناها وأعطيناها حقها من الوصف ، وهى التى يطلق عليها بحق ، أنها مخلوق إنسانى شريف ظريف وديع . إلى غير ذلك من الصفات المحبوبة والأوصاف السامية .

وشىء آخر . أنهم يدعون أن المرأة ثعبان ماكر ، وخادع وفتاك : فهل هذا من صفات المرأة ؟ . كلا . إنها لم تكن كذلك ولا يمكن أن تكون . أتعرف لماذا ؟ أنا أبين لك . وإن ذلك لهين وبسيط .

كلنا يعرف أن المرأة أقل من الرجل إدراكا ، وأقل منه قوة . وقد خلقها الله على هذا لحكمة أرادها سبحانه وتعالى ، ودلت عليها الطبيعة . وهى اللجوء إلى الرجل والاحتماء فيه ، والاتكال عليه ، وعدم الاستغناء عنه . وتعرف المرأة فى نفسها هذا الضعف كما تعرف هذه الحاجة . لكن لها من العزة النفسية ، وقوة الذاتية ، ودقة الشعور ، وغزارة الإحساس ، ما يجعلها تحس بالصغير من الاعتداء فضلا عن الكبير . فإذا شعرت بما يفيض على صبرها ، ويطفو على تسامحها غضبت لنفسها ، وثارت لكرامتها . والرجل الذى يسارع بالاعتذار عن إساءته فى مثل هذه الحالة ، يجد الدليل المادى على ضعف المرأة ، وسهولة قيادها ، أما ذلك الذى ينظر من عل ، ولا يقرر الحق ، فإنه سيجد خصما عنيداً لا يتسامح فى حق ، ولا يتهاون فى نصيبه . وفى هذه الحالة يكون قد جر على نفسه خصومة عنيفة . لأن المرأة ستعمد إلى كل الأساليب التى يستعملها الخصوم ، ولكل مجتهد نصيب !!!

إن المرأة ككل إنسان ، لا يخاصمك إذا لم تخاصمه . ولا يمكر بك إذا لم تمكر به . ولا يلحق بك أى عداء ما دمت تسالمه . وهى دائماً المدافعة ، ولن تكون البادئة . فإذا كان ما تدفع به يفوق ما وقع عليها ، فلا عليها ، لأن البادىء أظلم .

وإذن . فالأوصاف التى تنعت بها المرأة المعلومة على ما ظهر بها من عذر ، لا يصح مطلقاً أن تكون نعوتاً للمرأة عموما . لأن المرأة المعلومة مهما ملأت الأسواق والشوارع ، فان تزيد نسبة عددها إلى الشريفة المجهولة على ٣٪ من مجموع المجهولات الشريفات .

بقى علينا أن نعرف مصدر هذه النعوت والطعون ، وهل ملك أصحابها نتائج التجربة ، وأدلة الجناية أم لا . حتى يكون لقولهم قيمة ، ولحكمهم كرامة .

ويؤسفنا أن نقرر أننا بعد تحريات دقيقة ، واستقصاءات واسعة ، وجدنا أن كل الذين عادوا المرأة لم يعرفوا المرأة ولم يعاشروها معاشرة الأزواج ، ولم يتشرفوا بعد بالروابط الزوجية ، وأنهم من أولئك الذين أدبروا للزواج تهيباً من مسئوليات مزعومة ، ولم يجرؤوا على التجربة . واختاروا لأنفسهم البضائع الرخيصة التى تعرض فى الأسواق . ولذلك كانت مطاعنهم خاطئة وأقوالهم مصدرها الخيال والوهم .

وإنى أؤكد لهم أنهم لو تشرفوا بالروابط الزوجية فى الحدود الشريفة الواجبة ، لتغيرت آراؤهم ، وناقضوا أنفسهم ، وجردوا أقلامهم مرة أخرى ليصفوا المرأة بما تستحق من تقدير وتبجيل وإكرام .

تنبيـــه

أيها القارئ العزيز

إذا كان لك من نزاع غير وارد فى أبواب هذا البحث ، فنحن على استعداد لإرشادك إلى سببه ومعالجته . ويسرنا الوقوف على شىء جديد فى هذا الموضوع .

المؤلف

كيف وممن تتزوج ؟

عرفنا من البحوث السابقة أن الرجل الذى إذا رغب لنفسه سعادة العيش ، وراحة الضمير ، وإرضاء دينه ، والقيام بواجبه الوطنى والاجتماعى ، فعليه بالزواج . وقد تبين لنا من المفاضلة بين الوحدة والزواج ، وموازنة آثارهما ؛ أن الوحدة عذاب ونقمة وشقاء ، وأن الزواج رحمة ونعمة وهناء .

ولأجل أن يتوافر للراغب فى هذه السعادة الوصول إليها ، والتمتع بها ، والعيش فيها . يتعين علينا أن نبسط بين يديه الوسيلة التى توصله ، ونرشده إلى الطريق الطبيعى الذى يعبره إلى ذلك الهناء . مبينا فيما يأتى :

١ — عندما تريد الاقدام على الزواج ، يجب أن تملأ نفسك بالرغبة فيه ، وتهدف إلى ما ترجوه من آثاره الحسنة . فإن ذلك يبشر بدوامه ، ويخلق فى نفسك المقدرة على المحافظة عليه .

٢ — يجب عليك أن تقدر نفسك أولا ، قبل أن تبحث فى قدر من تريد مشاركتها لحياتك . وتقدم إلى من تكون من وسطك ولا تنظر إلى عل فتقع فى حفرة . ولا إلى أسفل فتصطدم . لأن خير الأمور الوسط وهو ما تعيش فيه .

٣ — لا تتخذ الواسطات (الخاطبات) وابحث بنفسك فى وسطك ، أو بواسطة من تثق فيهم من الأقارب فإذا عرفت مكان من تريدها ، تحر ، واستقص ، ولا تركن إلى قول الغير .

٤ — لا تجعل هدفك ذات المال ، أو الجمال ، أو الجاه . واطلب زوجة تعرف البيت ، وتعصم النفس ، وتحفظ الشرف ، وتشاركك السراء والضراء . فإن ذات المال تفقرك إليها ، وذات الجمال تهملك ، وذات الجاه تحقرك .

٥ — اتخذ الصدق والاخلاص رائدك فى شرح حالك ، كى لا تقع فى مأزق الكذب عند ما يكشف أمرك .

٦ — لا تتزوج الأجنبية الكتابية . لأنها فضلا عن عدم ملاءمتها دينيا واجتماعيا فإنها لا أمان لها ولا دوام للارتباط بها

٧ — لا تتزوج من بنات الشارع لأنهن قد خلعن رداء الشرف ، وهجرن البيت ، ولا ثقة فيهن .

٨ — لا تتزوج عن طريق مايسمى الحب . وأنت إذا حللت حب هذا الزمن ، لوصلت فى تحليلك إلى أنه فورة نفسية ، وهزة جسمية ، خالية من الروح والسمو .

٩ — لا تتزوج من تطلبك نتيجة نظرة عابرة . فقد تكون لك وسامة هى التى دفعتها إلى التمتع بك . وقد ثبت أن مثل هذا الزواج لا يدوم ، لأنه مبنى على الاستمتاع الجسمى فقط .

١٠ — لاتسمح لنفسك بالتنازل عن حق العصمة من يدك ، فذلك حقك أعطاكه الله .

١١ — لاتستعمل طريقة التجربة الغربية قبل العقد . فذلك يحيد بك عن قدسية الزواج ويوقعك فى ما لا تحب . واكتف فى الخطوبة بالنظر والمصافحة والمحادثة فى وجود ذويها .

١٢ — لاتقدم على الزواج إلا وأنت مستعد للقيام بتبعاتك لأن ذلك يوجب لك الاحترام ويضمن لك عدم مؤاخذتك .

١٣ — لا تتزوج بمن يزيد سنها على سنك لأن عدم التجانس يفقدك الرغبة فى التآلف والوداد .

١٤ — إذا تساوت لديك اثنتان . إحداهما قريبة والأخرى غريبة ، فالقريبة أولى بك وأحفظ لك .

١٥ — لاتتزوج فى الخفاء . لأن ذلك يحمل معنى الاغتصاب وعدم الملاءمة ويكون مدعاة لتفريق الأسر أو بناء الشقاق .

فإذا أنت اتخذت هذه الشروط وسيلتك وطريقك ، فأبشر بزواج معمر سعيد ، لا شقاق فيه ولا شقاء . وإنما راحة وسعادة وهناء .

هذه طريقكم أيها المتزوجون
لكى تكونوا سعداء !!

لكى ينال المتزوجون أمنياتهم الحلوة من الزواج ، وتتحقق لهم السعادة النفسية المنشودة فى الارتباط ، ويحيون حياة مستديمة تكتنفها الألفة والمحبة ، ويرفرف فى جوها الوداد ، يجب على كل من الزوجين أن يقوم بالتزاماته ويؤدى واجباته المبينة بعد : —

الى الزوج :

إليك أيها الزوج أولا نتوجه بالحديث . لأنك الرجل الذى نصبك الله على رعاية البيت ومن فيه ، وجعل لك عليه القوامة ، وملكك الزمام والسلطان . فأنت صاحب الكلمة ، وأنت المسئول الأول ، وعليك وحدك تقع تبعة الإهمال .

إنك أسوة بيتك وقائد من فيه . فإذا أنت سرت إلى هاوية ، فقد جررت وراءك من معك . وإن أنت صعدت إلى مراتب الكمال ، كانوا حولك لأنهم يترسمون خطاك . وإن ائتمارهم بأمرك ، وسيرهم تبعاً لسيرك ، أمر غريزى . ولذلك كنت أنت الوجه ، وهم الجسد ، وكنت أنت الملوم ، إذا وجد ما يستحق الملام .

يقول الله تعالى (الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم) .

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم (الرجل فى بيته راع وهو مسئول عن رعيته . . .) .

ويقول شاعر حكيم

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

ولذلك كانت مأمورية الرجل ، وموقفه وتبعاته ، مما يبعث على تقديمه فى النصح ، وأولويته فى التحذير .

١ - إنك أيها الرجل بذلت فى سبيل الزواج مادة عزيزة عليك ، ورتبت ما رتبت على الزواج ، فيجب عليك أن تملأ نفسك بالرغبة فيه ، والاعتقاد بقدسيته . لأن ذلك يغرس فيك المحافظة عليه ، والعمل على استدامته .

٢ — يجب عليك أن تتخذ الصدق والصراحة سلاحك فى معاملة زوجتك . لأن ذلك يجعلها تجاريك فيهما وهما سبب لبناء الثقة فى النفوس .

٣ — لا تتطوع بإهداء ثمتلك . بل اجعلها حقا مكتسبا للزوجة ، بعد ترويك وتحريك وبحثك الشخصى . لأن تطوعك ربما يجر عليك ما لا تحمده أو ترضاه . أما الاستحقاق الذى يأتى بعد تجربة ، فإنه يريح النفس ، ويرضى الضمير ، ويحقق الوفاق .

٤ — يجب عليك أن تقوم بواجبات بيتك ، وواجبات زوجتك ، فى حدود إيرادك . وألا تصرف على نفسك ما يحتاج إليه البيت ، لأنه أولى منك به . ولا تضطر زوجتك ، إلى أن تطالبك بالقيام بواجبك نحو البيت أو نحوها .

٥ — يجب عليك ألا تكون مقترا ، ولا مبذرا . لأنك فى الأولى تكون غير مستعد للقيام بواجباتك ، وتأتى من الأفعال ما يضيق به صدر معاشريك ، وفى الثانية تكون معرضا للدين ، والوقوع فى مآزق الحرمان ، واضطراب الحياة .

٦ — لا تكن أنانيا تحب نفسك أو تفضلها على من حولك . فتصرف فى أكلك ولبسك ومظهرك ، فى حين تحقق حاجة من حولك ، إلى بعض ما تختص نفسك به .

٧ — إذا أردت الاستجمام أو الترفيه ، فى الخلاء أو الأماكن الشريفة فأشرك زوجتك معك . فأنها تعمل فى البيت ، كما تعمل أنت خارجه .

٨ — اترك لزوجتك إدارة البيت ، فهى سيدته ، وهى راعيته . ولا تقحم نفسك فى تنظيف أو طهى ، أو تفصيلات لا شأن للرجل فيها . واجعل الفصل فى أمر الخدم موكولا إلى زوجتك ، لأنها هى التى تعيش معهم ، وتعرفهم أكثر منك .

٩ — لا تتطلع إلى زائرات زوجتك ، أو مجالستهن . فذلك أحفظ لكرامتك كرجل ، كما هو مطالبة للتعامل بالمثل مع زوجتك ، عند زيارتها لصديقاتها .

١٠ — لا تدفع زوجتك إلى مجالسة أصدقائك ، أو مشاركتها فى أحاديثك معهم . وحل بين رؤية أصدقائك فى الطريق وبين زوجك ، حتى لا تعرف بينهم ، وإذا صادفوك معها ، فكن كأنك لم ترهم ، وسر بعيداً عنهم .

١١ — لاتدخل امرأتك المراقص والملاهى الموبوءة ، ولا محال المشروبات . فذلك أحفظ لسمعها وبصرها وقلبها .

١٢ — إذا اختلفت وجهة نظرك مع وجهة نظر زوجك فى شىء ، فناقشها بروية ، واجعل رائدك الوقوف على الحق ، والرجوع إليه . واقناعها بخطئها فى هدوء فإن عقلك أرجح وتفكيرك أقدر وأوسع وأفصح . ولا تجعل لانتصارك سببا فى تأنيبها أو إذلالها فقد يكون هذا الخطأ أو الاختلاف مصدره حسن النية .

١٣ — إذا غضبت من شيء وقام بينكما سوء تفاهم ، فلابد من وجود صاحب حق بينكما . وهو لا يُعرَف للثانى إلا من المناقشة الشخصية فى هدوء ، فيجب أن تعطى نفسك فرصة لتذهب الحدة . ويوجد الوقت الملائم للنقاش والعتاب . واحذر من عرض ما يجد بينكما على صديق أو جار أو أحد من أهلك أو أهلها . فإنك لا تضمن ما يضمره الناس لك ، ولا تعرف ما فى قلوبهم نحوكما . كما يجب أن تحذر كشف هذا الغضب أمام أطفالكما أو أمام الخدم .

١٤ — إذا أنّبت على خطأ ، أو آلمت على واقعة ، فلا يصح أن يكون ذلك أمام أحد . كما لا يصح تكرار هذا التأنيب أو الايلام على نفس الخطأ . لأن ذلك يعذب النفس ويهين الشعور ويضيق به الصدر . واجعل النصح رائدك . وحسن التوجيه هدفك ، وخذ بالحسنى فهى خير دواء .

١٥ — حافظ على شعور زوجتك . فلا تسب أحداً من ذويها ، أو تتحدث عنه بما يؤلمها . ولا تذكرها بنقص طبيعى فيها ، ولا تصف جمال امرأة فى حضرتها ، ولا تستعرض أمامها مغامراتك السابقة ولا توجه لها إهانة فى وجود زائرات ، ولا تحتقرها أمام أهلك ، ولا تجر عليها تحقير جاراتها بما يبدو منك من أفعال ناقصة ، ولا تجعل دائينك يجرحون عزتها .

١٦ — لا تخلط بين منشأ الغضب ، ومكان التشفى . فإذا غضبت من أحد فى عملك أو طريقك خارج البيت ، فلا تشف نفسك بالقسوة على زوجك . وإذا نالك بعض الأذى من أحد أقاربها ، فلا تنتقمن منها : فهى لا ذنب لها فيما تجره أفعالك على نفسك .

١٧ — اجتهد فى أن تذكر لزوجتك ملخصاً عن الجهات التى تخرج إليها ، والزمن الذى ستمضيه خارج البيت على وجه التقريب . لتعتاد هى أن تخبرك عن وجهتها كلما خرجت ، وتتخذ ذلك عادتها .

١٨ — لا تكن جافا فى المعاملة ، ولا قاسيا فى الألفاظ ولا عابسا متجهما ، ولا تكن مهرجا ولا مهذارا . فإنك فى الأولى تكون منفراً منك ، وفى الثانية تجر على نفسك التحقير وعدم الاحترام .

١٩ — إذا وعدت فأنجز . وإذا تحدثت فاصدق . فإن ذلك من وسائل الاحترام لك والثقة فيك .

٢٠ — لا تفضل فى المعاملة أهلك على أهلها عند ما يجتمعون فى منزلك . فإنها تحبهم وتعتز بهم كما تحب أنت أهلك وتعتز بهم . واجعل نفسك حكيما فى ذلك .

٢١ — لا تشتغل بما تراه من جمال فى غير امرأتك ، ولا يستلفت نظرك غنى أو إرث

لزوجة صديقك . فإن ذلك يزهدك فى زوجتك ، ويقلق راحتك ، ويحرمك من الرضى بما أعطاكه الله . واحذر من الخيانة فإنها أساس الفقر ، ودين لازم الأداء .

٢٢ — إذا كانت والدتك تعيش مع زوجتك ، فاجتهد فى مراعاة الحق ، ولا تكن متحيزاً لوالدتك . واعلم أن زوجتك تضاعف خدمتها الطبيعية ، وتستحق من أجل ذلك التشجيع الأدبى .

٢٣ — لا تكثر من الأوامر ، ولا تكن متردداً . فإن ما يتطلبه التنفيذ ، أشق منه على النفس وأتعب للجسم .

٢٤ — إذا كانت زوجتك ذات مال فلا تفتقر إليها ، وعش أنت وبيتك على إيرادك . فذلك أدعى إلى استيلائك على أزمة السلطان ، ونفاذ الكلمة . ولا تلجأ إليها إلا فى حالة الضرورة المفاجئة ، التى تتقدم هى فيها من نفسها وتشارك فى المساعدة .

٢٥ — لا تكتم عن زوجتك إيرادك ومصرفك ولا مسئولياتك . وأظهرها على كل شىء . لتتكاتف معك فى تحمل المسئولية . وتساعدك على تدبير أمر الحياة .

٢٦ — لا تمنع زوجتك من صلة أهلها ، فهى منهم وهم منها . بل ساعدها على ذلك ، ولا بأس من مرافقتها ولو فى المناسبات .

٢٧ — إذا حصل نزاع بين زوجتك وأهلها ، فلا تكن متحيزاً . ولا تلق النار على الهشيم ، فربما كان الحق ضدها . وإذا أمكنك حل المشاكل بالمعروف واللين ، فذلك أحمد لسيرتك ، وأبقى على احترامك فى نظر الجميع .

٢٨ — إذا اغتنيت بعد فقر ، أو اعتليت بعد هبوط ، فلا تكبر على زوجتك ، ولا تحرمها من الاستمتاع بهذا الترقى ، ولا تبطر عليها فتتزوج بغيرها ، فربما كان هذا الرقى رزقها آتاكه الله .

٢٩ — لا تنس شكران زوجتك ولو باللفظ الحلو أو المداعبات اللطيفة ، كلما قدمت لك أو قامت بما يسرك تشجيعاً لها وتحريكا لبواعث السرور فى نفسها .

٣٠ — لا تنس أن تقتطع ولو ثمن علبتين من السجاير ، أو جلستين على المقاهى ، كل شهر ، واشتر بهما شيئا خاصا بزوجتك ، وفاجئها به ، فإن ذلك فيتامين للحب ، وسماد لشجرة الوداد ، وغذاء للارتباط النفسى ، وري لعطش الزوجة المستمر ، على ما يطمئنها على حب زوجها .

٣١ — لاتسمح لأحد بالاعتداء على زوجتك . وأحمها وغر عليها . فإن المرأة تفنى فيمن يحميها ، وتهب قلبها لمن يغار عليها .

٣٢ — وأخيراً . إذا منيت بمن لا تطيعك ، أو تكثر مما يخالف رأيك ، فلا تعيك الحيلة ولا تيأس . فربما كانت هوجاء أو مغرورة ، أو غير مجربة . فداو هذه بالأدب الربانى ، الذى فصله الله فى القرآن الكريم . وهو خير الأدب وأعظم التوجيه .

هو النصح أولا ، ثم هجرها فى الفراش ثانيا ، ثم ضربها ثالثا . قال تعالى : (واللاتى تخافون نشوزهن ، فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) صدق الله العظيم .

بهذا أيها الزوج تكون قدقمت بواجب رجولتك ، وأديت رسالتك ، وتملكت بين يديك أزمة سلطانك وقوامتك ، واستحققت عن جدارة قلب زوجتك ، وسعادة حياتك الزوجية .

أما أنت أيتها السيدة ، يا من تمنيت على الله بينك وبين نفسك أن تكونى زوجة وطالما حننت إلى الأمومة ، وسيادة بيت وكنف رجل . ها أنت قد وصلت إلى طلبتك ، ونلت أمنيتك ، وصرت زوجة لمن فضلك على غيرك من النساء ، وبذل فى سبيل الارتباط بك ما ادخره من جهود ، وما حصل عليه من إيراد .

إليك أيتها السيدة أبثك النصح ، وأعبد لك طريق الهناء . وعليك إذا كنت تريدين تحقيق سعادة نفسك ، وهناء من أرادك ، وتحيين حياة لا شماتة فيها لصويحباتك ، أن تجعليها ، دستورك ، فتربحين وتفوزين .

١ — أول ما يجب عليك عمله هو أن تجعلى اعتقادك راسخا فى استدامة هذه الرابطة ، وأن تطمئنى نفسك على أن هذا البيت الجديد هو بيتك الدائم . لأن ذلك يزرع فى نفسك الهدوء ، والمحافظة على بقاء الرابطة .

٢ — يجب أن تكونى صريحة صادقة فى جميع ما يتصل بمعاملتك مع زوجك ، ليضع فيك ثقته ، ويكل اليك تصريف الأمور دون محاسبة ولا تدقيق ، ولا تحريات عن أقوال أو أفعال تصدر عنك .

٣ — يجب أن تمثلى الشريك الحق . فتقومين بمسئوليتك عن اختيار ، وتشتركين فى السراء والضراء .

٤ — تعرفى ما يسر زوجك وافعليه ، وتبينى ما يضره أو يؤذيه واجتنبيه .

٥ — أنت ربة البيت ، فتصرفى فيه بما يعود بالخير على من فيه ، ولا تقلقى زوجك بحوادثه أو بما قمت به . لأن ذلك واجبك اليومى ، ومفروض فيك القيام به . ويكفى للرجل احتمال عمله فى خارج البيت ، وهو شاق وكثير .

٦ — لا تكونى مبذرة فى شئون البيت ومصرفه . فما يحتاج إلى قرش واحد لا تشتريه بثلاثة ، وما يكون خاصا بالبيت لا تهبيه لجارتك ، لأنه سيضطرك إلى الاستعاضة بغيره . وهو ما يكلف زوجك بمضاعفة الصرف . والقليل المطلوب ، يعجز الرجل الشريف عند عدم وجوده .

٧ — لا تصرفى ماخصص للطعام أو اللباس أو السكن أو أجر الخدم فى غير ماخصص له .

٨ — لا تكافى زوجك بتسديد أبواب لم يدخلها فى حسابه ، نتيجة لسوء تصرفك ، أو تقديرك . وسيرى فى حدود المتفق عليه ما دمت تعرفين الوارد والمنصرف من زوجك .

٩ — لا تنظرى إلى ما تتحلى به جارتك من حلى أو لباس ، أو تتمتع به من كثرة الخدم أو المظاهر . فإن ذلك يزهدك فى حياتك ، ويقلق نفسك ويجعلك مضطربة .

١٠ — أدخلى على زوجك السرور بك حين عودته من عمله ، وحين جلوسه معك . واجتهدى فى الفراغ من عمل البيت قبل حضوره ، ليجدك فى وجهه خالصة خالية ، لابسة زاهية . واحذري مقابلته بلباس الخدمة أو المطبخ ، فإن ذلك لا يرفع عنه تعب العمل ، ولا يفرد أساريره من الجهود اليومية . واجعلى زينتك للبيت ولزوجك ، لا للخروج والشارع .

١١ — لا تتجسسى على عيوب زوجك ، ولا عن تصرفاته التى يريد كتمانها . لأن الكتمان يحمل معنى المحافظة عليك وعلى شعورك . ولأن كل إنسان له عيوب ، ولو كان عابداً فى صومعة .

١٢ — لا تجلبى على زوجك المتاعب ، ولا توقفيه موقفاً فيه تحقير أو خصومة ، بما يصدر عنك من أفعال ضد الخدم أو الجيران .

١٣ — إذا ذهب بك زوجك إلى حديقة أو سينما أو زيارة ، فلا تملأي عينك بفتوة شاب ، ولا مظهر رجل . ولا تلفتى نظره إلى جمال وأناقة غيره . ولا تتحدثى عن ذلك . ففيه ما يجرح العزة ، وما يريبه فيك .

١٤ — كونى هاشة باشة عند استقبال أهله . ولا تكونى عابسة أو بخيلة . فإن ذلك يؤلمه ويرشحه لمقابلتك بالمثل ، وهو أقدر فى هذه الناحية على ما يشفيه .

١٥ — لا تذيعى سر زوجك ، ولا معاملته الخاصة ، لأحد من أقاربك أو أصحابك . لأنه سرك أنت ، وهو لا يهم الآخرين إلا بقدر مايسخرون أو يتضاحكون أو يزدرون .

١٦ — احترمى زوجك فى غيابه . فلا تسمحى لأحد بتناوله بما يكره . لأن كرامتك من كرامته ، ومكانتك من مكانته .

١٧ — لا تقلق من حالة العسر . فالله سبحانه وتعالى بيده كل شيء . وكونى صبورة مع الراحة النفسية ، لتقوى فى زوجك روح الكفاح وروحه المعنوية ، وهو لن ينسى ذلك لك .

١٨ — احذرى من صديقات السوء . فربما جررنك إلى ما يحيد بك عن الشرف . ويكون سبباً فى هدم حياتك الزوجية .

١٩ — حافظى على شعور زوجك فى مرضه ، وصحته . واجعلى مشاركتك له فى ضرائه مشاركة الزوجة والأخت والأم يحفظ لك ودك ، ويجازيك حين سرائه ، ويقابلك بالمثل فى ضرائك . وإياك وزيارة أهلك أو صديقاتك ، أو التريض ، حين مرضه وملازمته البيت .

٢٠ — لا تكونى شاكية ، ولا تدخلى أحداً من أهلك أو أصدقائك فيما يقوم بينكما من سوء تفاهم ، فذلك أدعى إلى حفظ أمركما وعدم تمكن الغير من إشعال فتيل كان ينتهز له فرصة . واعلمى أن زوجك أقوى على التفكير والفهم منك ، فلا تكثرى من الجدل ، ولا تكونى عنيدة . وانظرى إلى ما يقوم بينكما نظرة الراغب فى الوصول إلى الحق . ومتى عرفت أن الحق فى جانب زوجك فاعتذرى . ولا تتكبرى ولا تأنفى ، فليس بين الزوجين أكبر من اطلاع كل منهما على عورة أخيه .

٢١ — لا تدعى معرفة شيء أنت تجهلينه ، فتقعين فى المحظور . وقولة لا . الصريحة ، تريح التفس ولا ذيل لها .

٢٢ — إذا كان لزوجك ولد فكونى له أما . لأن زوجك يجعل من نفسه أبا ، إذا كان لك من غيره ابن .

٢٣ — لا تقترحى على زوجك الجلوس مع صديقاتك عند زيارتهن لك . مناعة له ممن قد تكون غريرة ، وحفظاً لرابطتكما من الريب ، ولا تجلسى مع أزواج صديقاتك إذا زرتهن فى منازلهن ، فذلك أحفظ لكرامتك وكرامة زوجك .

٢٤ — لا تتخيلى ولا تستنتجى التهم لزوجك ، وكونى واقعية . وإذا فرض وقام لديك دليل ثابت على انحياز زوجك عن الطريق القويم ، فتجاهلى ذلك ولا تشعريه به . واعلمى أن كتمانه عنك وتحفظه ، فيه معنى الإبقاء عليك . كما أنه سيرجع إليك معفراً وجهه بالندم . ولا تصطنعى الغيرة الجامحة ، فذلك مما يدفع الرجل إلى العناد ، ثم السقوط وهدم الزوجية .

٢٥ — إذا لم يقترح عليك زوجك نوعا معينا من الطعام ، فاجتهدى فى تعرف ما يرضيه ويستحسنه ، ونوعى له الطعام والمائدة فى حدود المقدرة ، فذلك أدعى إلى السرور والشهية وشكرك .

٢٦ — اشرفى بنفسك على الطهى فإن الخدم لا يؤتمنون . وقدمى بنفسك أمام زوجك ، فذلك يقربك من نفسه ويشرفك ويرفع من قدرك كربة بيت . وإذا لم يكن لك خدم فاجتهدى فى تنظيم أمور بيتك ، والقيام بواجباتك . ونظمى أوقاتك تكثر لديك الراحة .

٢٧ — إذا كانت لك ثروة أو مال أو إيراد ، فلا تكونى بخيلة به على نفسك ، فيما تطلبينه شخصيا من مظاهر قد لا يتسع لها مورد زوجك . وإذا رأيت حاجة ملحة ، أو عذراً مفاجئا فكونى سباقة لتسديد الطارئ ولا تضطريه للاستدانة من الخارج ، فسيحفظ جميلك ويكافئك عند الميسرة .

٢٨ — لا تعيرى زوجك بفقر أو دمامة أو علة ، فالفقر والعلة عارضان فى الحياة . والدمامة لا تحد من الرجولة ، ولا تنقص من قوة الرجل وشهامته وقيامه بواجباته فى الحياة

٢٩ — اجتهدى فى أن تكونى مستيقظة من النوم قبله فى الصباح ، أو بعد القيلولة . وقومى بطالباته التى اعتادها . فرؤيتك وأنت متيقظة مزينة حين يفتح عينيه ، مما يسر النفس ، ويشرح الصدر ، ويدفعه إلى الاغتباط . واحذرى من التكاسل والتناوم إلى أن يقوم ويلبس ويخرج ، فإن ذلك يحد من راحته أولا ، ويدفعه إلى الأكل خارج البيت ، وزيادة الصرف .

٣٠ — لا تفجئى زوجك فى نومه إذا أردت إيقاظه ، أو أردت قضاء أمر فى حجرة نومه . فشدة الصوت وجلجلة الحركة يثير أعصابه ويتعب حواسه .

٣١ — شرفك يا سيدتى وكرامتك ، هما أثمن ما يعتز به رجلك . فاحرصى عليهما أكثر من حرص البخيل على درهمه . ولا تضعى نفسك موضع الشكوك والريب ، فذلك يعذب زوجك ويقض مضجعه ويزهده فى الحياة . وهما تاج عزتك ، وضوء حياتك ، ودونهما كل شىء .

بهذا يا سيدتى تكونين قد أديت واجبك ، وقمت بالتزامات الشريك الحق ، واستحققت عن جدارة لقب سيدة البيت ، ذات الخدر والشرف ، ورضى الله عنك ورزقك العون فى الدنيا والآخرة .

واعلمى يا سيدتى أن المرأة إذا اشتهرت بعدم التعمير فى الزواج ، تسوء سمعتها ، ويكون ذلك حجرا فى طريقها . وإن المرأة التى يذاع عنها سوء المعاملة أو سوء السيرة ، تحقر بين الناس ، وينفر منها الراغبون فيها . وليس يوجد رجل ولو من الغريرين البلهاء ، يجد عند نفسه استعدادا للارتباط بواحدة من هؤلاء ، إلا إذا كان من الخئالة الأدنياء . وتعسا لمن يكون هذا زوجها ، وتلك مكانتها بين السيدات .

هذه هى الواجبات التى ننادى الأزواج باتباعها ، والسير عليها والعمل بها ، واتخاذها

دستوراً للتعامل فى الحياة الزوجية . وهى سبيل معبد إلى مايستهدفونه من حياة هنيئة، ويأملونه من تآلف ومودة ، وامتزاج ومحبة ، ما شاء الله لهما من حياة .

* * *

وبعد . فهذه هى الأبواب الثلاثة وما تحتويها من فروع المشكلة الزوجية ، قد دونتها سردا وإثباتا متجنبا التعقيد والتعمق اللفظى ، ليسهل على الجميع الإحاطة بمدلول اللفظ ، ومعنى القصد .

فإذا كنت قد وفقت فى الإحاطة بهذه المشكلة ، ورأى الناس فيها ما يسترشدون به فى حياتهم ، ويهتدون به إلى سعادتهم الزوجية ، فذاك أملى وغاية ما أرجو . وإذا كنت قد عجزت ، فقد قصدت الخير واجتهدت ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله . ؟

تنبيه

أيها القارئ العزيز

إذا كان لك من نزاع غير وارد فى أبواب هذا البحث ، فنحن على استعداد لإرشادك إلى سببه ومعالجته . ويسرنا الوقوف على شىء جديد فى هذا الموضوع .

المؤلف

فهـــرس

الموضـــوع	رقم الصفحة
الإهداء	جـ
المقدمة	د
القسم الأول	
الاتجاه الخاطئ إلى الزواج وأنواعه ...	١
التغرير والإغراء	٥
الزواج العرفى	١٢
التجربة على الطريقة الغربية	٢٢
الوساطة إلى الزواج	٣١
التزوج بالأجنبيات	٣٦
عدم التجانس بين الأزواج	٤٢
زواج المبادلة	٥٣
الزواج الجبرى	٥٨
الزواج المؤقت	٦٦
زواج الغرض أو الزواج التجارى	٧٢
ترك العصمة فى يد الزوجة	٨٥
الزواج بالمقاصة	٩٤
تفاوت الأعمار	٩٨
زواج الشوارع	١٠٤
القسم الثانى	
منشأ الخصومات بين المتزوجين	١١٢
بين العقد والدخول	١١٤
الاستهانة بمستقبل الزوجية	١١٩

الموضـــوع	رقم الصفحة
انعدام الثقة بين الأزواج	١٢٣
عدم الرضا بالواقع	١٢٨
سوء التفاهم وتراكمه	١٣١
طفرة التمدين	١٣٥
الكذب والتمويه	١٤١
الليونة والصلابة	١٤٦
التبذير والتقتير	١٥١
الغيرة الجامحة	١٦٠
تعدد الزوجات	١٧٠
موجة كراهية الحماة وأثرها بين الأزواج ...	١٧٨
تقلبات الزمن وطوارئه	١٩١
جرائم الأقارب والأصدقاء	١٩٦
أطفال الزواج السابق	٢٠٣
القسم الثالث	
الذين أدبروا للزواج	٢١٠
الذين أدبروا ، وشرط وجود المال ...	٢١٨
المال لا يوفر السعادة الزوجية	٢٢١
الوحدة عذاب والزواج سعادة	٢٢٦
ليست المرأة لغزا ولا سما ، ولكنها ...	
باقة نضرة من الأزاهير	٢٣٠
كيف وممن تتزوج	٢٣٧
هذه طريقكم أيها المتزوجون	
لكى تكونوا سعداء	٢٣٩

ذلك حـ

الناس

نفسه

يكون هـ ... كانتها بين السيدا

هذه هـ ... الأزواج باتباعـ ... ها

B12706954
I13193326

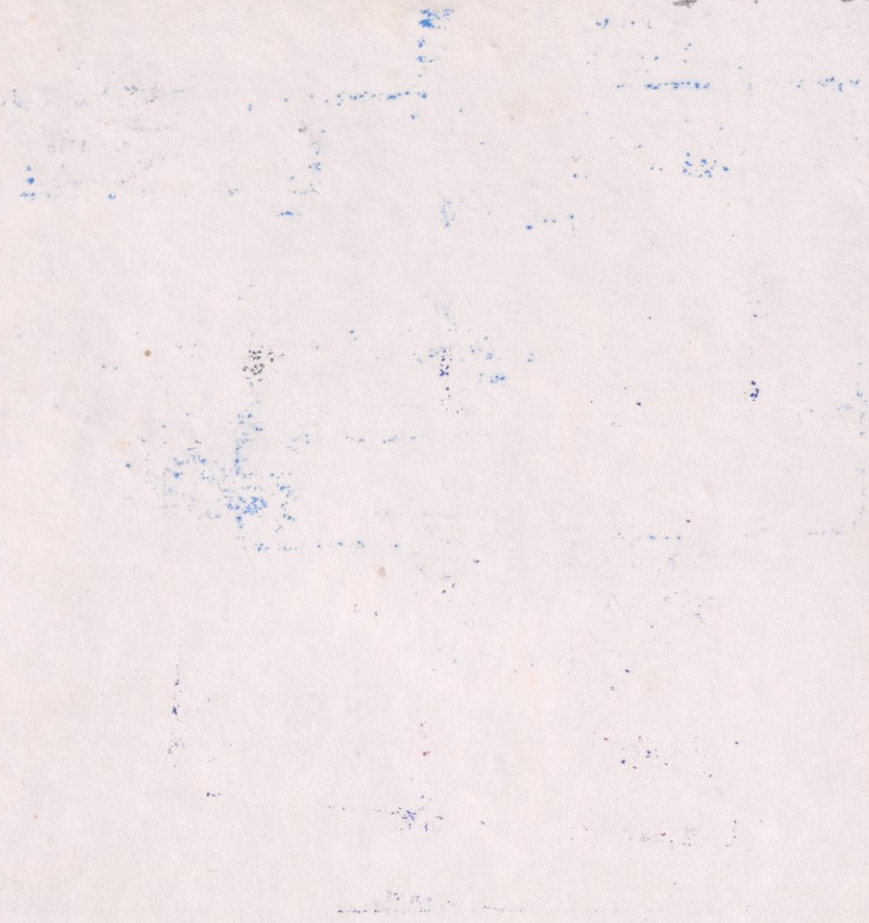

main
0 0 0 0 0 0 0 4 8 2 9 3
HQ 503 K45x 1948

26 JAN 1989